دكتورة نعمات أحمد فؤاد

كتبت يومًا

في

- الأدب
- النقد
- الفكر
- الفن

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

مقدمــة

كتبت هذا الكتاب من منطلق أومن به :

أن يكون الأديب مبدعا وناقدا ومفكرا وفنانا ....

أديب يسوى الكلمة ، كاتبا

وينفذ الى أعماقها البعيدة ، ناقدا

أديب يعيش قضايا قومه .. يطرحها ويذود عنها ، مفكرا ...

أديب ينتمى الى أسرة الفنون جميعا .. متذوقا لها ، بارا ، بها .

حياة ثرية بالمعنى عشتها وعاشتنى

سافرت فيها ، وسافرت في

حياة لا يعدلها عندى ما فى دنيا الناس من مناصب وثروات وعروض زائلة .

ويظل الكاتب بعد الله ، هو الباقى

أدب ــ نقد ــ فكر ــ فن :

ليس الكاتب عندى ، سطورا ولو كانت بحورا من نور . ما أجمل السـطور حين تصدق السـطور ... حين تعمق السـطور ، حين تقول السـطور .

ومع هذا يسعد الكاتب أن يكون لأدبه أعماق أى يتصل بالجذور تاريخا وأسلافا .

... أن يكون لأدبه ، آفاق : رؤى وأعلاقا .

الأدب الحق ، كلمة يانعة ، ورؤية رائعة ، وموقف ، وضمير .

والأديب الحق انسان بستان ...

خلقه الله فى أحسن تقويم .

موهبته ، نيل

وعطاؤه ، فيضـان

كلمة يعليها ... ورؤية يجلوها ... وموقف يعتنقه ، وحضور لا يغيبه .

خـــلود ..

روية الاحساس بهذه المعانى حين كتبت كل حرف فى هذا الكتاب ... وفى كتبى الأخرى التى تنتظم معا ، أيامى ...

أيامى نسيجها الحروف .. لحمتها وسداها .. هويتها وهواها ..

بعض الموضوعات فى هذا الكتاب نشرتها ، والبعض الآخر لم ينشر من قبل .

موضوعات شتى وهى جميع

لقد عشنا طويلا نفصل بين الفنون .. لكل ، عالمه وأصحابه .

وجديد هذا الكتاب ، الجمع بينها من خلال الكاتب .

والفنون أسرة مؤتلقة ومؤتلفة .

تختلف وسائل وتلتقى غايات

وقد نطق شوقى بهذا المعنى حين قال :

(الخالدون أربعة : شاعر سار بيته ، ورسام ضحك زيته ، وموسيقى بكى وتره ، ومثال نطق حجره) .

مشاعر كلها تتجسد فى أجمل صورة ...

وشاعر ، الكاتب والرسام والموسيقى والمثال .

قيمة ، القلم وكنز مكنون .. زاده رفعة ومكانا أن أقسم به الله (ن والقلم وما يسطرون) .

وحسبى أن أنتمى الى الذين يسطرون

ويرسمون

ويشكلون

وينشدون

أنتمى الى الأدب والفكر والفن ..

د. نعمات أحمد فؤاد

القاهرة ١٤٠٩
١٩٨٨

باب الأدب

فن الريادة

طلب الى الأستاذ أحمد حسن الزيات أستاذنا أن أكتب مقدمة لكتابه (دفاع عن البلاغة) وكان هذا حدثا أدبيا .

ومقدمتى لكتاب أستاذنا أحمد حسن الزيات لها دلالة رفيعة عندى وعند الأدباء .

هذه المقدمة التى أشرف بها ، كتبتها لكتابه (دفاع عن البلاغة) وهذا الكتاب القيم نفد منذ بضع سنوات .. ولهذا أثبتها هنا احتفاء بها .. واحتفالا دراسة للأدب .. ووفاء للأديب

أديب علامة على طريقنا .. صاحب مدرسة

وصاحب أسلوب .. وصاحب « الرسالة » ..

كتـــاب
دفاع عن البلاغة

لعل أنسب الأوقات لصدور كتاب (دفاع عن البلاغة) هو وقتنا الحاضر الذى تتآمر فيه على البلاغة ظاهرات ثلاث : السرعة والصـحافة والتطفل ، فاختلت المقاييس وتضاربت القيم وتسابق الكم وغمط الكيف . وهـذه الآفات علتها القراءة الخفيفة والحاجة الملحة ونقص القـدرة وعجز الوسيلة ، فلم يعد للكثرة طاقة أو صبر على التعمق أو التجويد أو التذوق المميز أو التقييم الصحيح .

ولشد ما يكابد الأدب من الدعاوى والأدعياء ! أن الأدب دون سائر الفنون يستطيع أن يدعيه من يشاء فى أى وقت يشـاء حين يعجز غير متخصص عن الاقتراب من حرم الطب أو الهندسة أو حتى الفنون الأخرى كالرسم والموسيقى .

وتأتى الدعوى فى الأدب من الخطأ فى فهم ماهيته ورسالته ، فالأدب ليس معرفة الكتابة أو الاملاء ولكنه موهبة ودراسة ، موهبة تكشف وتلهم وتسدد وتعين . ودراسة تمد الكاتب بحصيلة كبيرة من الثقافة الأدبية والثقافة الانسانية تقوى وسيلته وتشحن أسلوبه وتشكل اتجاهه وتكون موضوعاته ، حتى الذوق موهبة طبيعية تختلف فى الناس وفى الأجناس وتحتاج الى المران بالدرس والعادة .

وقد فصل كتاب (دفاع عن البلاغة) القول عن الفروق الدقيقة والواضحة بين الموهبة والاكتساب والأصالة والهواية وبين القريحة والفن . وأخيرا بين علم البيان والبلاغة فهـو يقعد الفواعد وهى تخدمهـا وهو (يعين الوسائل وهى نملكها ، وهو يرشد الى الينبوع وهى تغترف منه) .

وليست البلاغة التى قام الكتاب للدفاع عنها وتصدى صاحبها لحديثها بلاغة شكل أو مظهر أسلوب ولكنها بلاغة شخصية أو بلاغة فن،فهى (لا تفصل بين العقل والذوق ولا بين الفكرة والكلمة ولا بين الموضوع والشكل) ٠

* * *

والكتاب مدرسة لطالب البلاغة وشادى الأدب ٠ فهو يعالج فن الكتابة من جميع وجوهه وزواياه بالتفصيل والتحليل والتدليل من واقع التاريخ الأدبى والواقع القولى والعلمى ٠ والكتاب ينهج الطرق للمتأدب ويبصره بمراحل الرحلة الطويلة فى الطريق الشاق ليقبل ان آنس فى طبعه استعدادا وفى نفسه ميلا أو ينتهج لنفسه سبيلا أخرى تكون أقرب اليه وأجدى عليه ٠

ناقش الكتاب رسالة البلاغة ووسائطها ٠

ناقش الامتاع والاقناع ٠٠٠ وتحدث عن آلة البلاغة وهى (الذهن الثاقب ، والخيال الخصيب ، والعاطفة القوية ، والأذن الموسيقية) وعلى ضوئها أجرى استفتاء لراغبى البلاغة ٠

ثم تحدث عن ثلاث :

اللغة : ومهمة طالب البلاغة درسها لتقويم السليقة واكتساب الذوق ٠

والطبيعة : لاستمداد الموضوع واستقاء المادة واثراء الخيال وتنويع الصور ٠

والنفس : ليشكل شخوص القصة ويرسم شخصيات المسرحية ويحلل أخلاق المجتمع ونزعات الناس وخلجات الشعور ٠

تحدث عن الذوق الذى يصدر فى حكمه عن العقل والعاطفة معا ٠

تحدث عن جناية الدعاية على سلامة التقدير فرسالة المعلمين ودور أسلوب تعليم اللغة فى تكوين الذوق الطبيعى السليم الذى يدخل فى عداد عناصر الشخصية لا الذوق الملفق الذى يستحدثه صاحبه لنفسه بالسماع والمسايرة ٠

* * *

و الى هنا فرغ أستاذنا الزيات من الحديث العام عن البلاغة ليخلص الى الحديث عن **الأسلوب** ٠ والأسلوب من حيث هو **فكرة وصورة أجل بكثير** من الجمل البيانية أو المحسنات البديعية ٠

وهنا عرض لتاريخ الأسلوب العربى والصفات القومية أو العامة التى تشكل أسلوب أدب بعينه فى جملته وتميزه عن أدب آخر حتى لا يخفى الفرق أو الفروق العامة بين اللغات الشرقية واللغات الغربية .

(وكما تؤثر صفات الأمة فى طبيعة اللغة . تؤثر طبيعة اللغة فى أسلوب الكاتب ، فاللغات التى اكتسبت من مدنية أهلها رقة اللفظ وأناقة العبارة ، ومن شاعريتهم جمال الصور . وروعة الأخيلة تغنى الكاتب بموسيقاها وحلاها عن كد القريحة فى ابتكار المعانى واستنباط الفكر) ص ٥٨ ، وسلك فى هذا النوع اللغة العربية . وهى فى رأيى ميزة وآفة معا ، فالأدب العربى فى جزء كبير منه حافل بالأصوات والأجراس ولكن المحصول الذهنى منه قليل . لقد تتالت عصور وقرون لا هم لها الا تنضيد اللفظ وترصيع العبارة بل اتخامها بضروب من المقابلات والتوريات والبديعيات المختلفة حتى غدا الأدب صناعة ، ثم نردى أكثر فانقلب شعوذة حتى قر فى النفوس — كما يقول الأستاذ الزيات — أن الأسلوب انما يطلق على الجانب اللفظى من الكلام وما دروا أن الأسلوب جهد موصل لاساعة الحياة فى اللفظ ببث المعنى وتجسيمه . انه عبارة عن (النظام والحركة المودعين فى الأفكار) .

وعند هذا الوجه من وجوه البحث أطال الوقوف عند الأسلوب من حيث اللفظ والمعنى ووجهات النظر المختلفة فى هذا الشأن فى شرق وغرب . ووقفته هنا مادة للتأمل والدراسة والمقارنة والتفكير ، وهى فى الوقت نفسه للدفاع عن البلاغة دفاعا علميا أولا ثم عاطفيا بما فى طبعه من أناقة . وفى ذوقه من ترف ، وفى حسه من موسيقية ... وهذا الدفاع بالطبع ضد أولئك الذين يحاصرون (معبد الذوق) .

وقد خلص من بحثه ودفاعه معا الى صفات ثلاث جامعة لا بد من توافرها لتحقيق البلاغة : الأصالة . والوجازة ، والتلاؤم .

فالأصالة هى الشخصية الخاصة للكاتب فى الفكرة والصورة والروح ، هى الطبيعة حتى ليغدو الأثر الفنى بضعة من نفس صاحبه ينبض نبضه ويتحرك حركته بما بث فيه من حياة ونفث من صدق . وفى هذا يتمثل الخلق الفنى (وعلى قدر ما يتضح الخلق فى الكتابة تتضح العظمة فى الكاتب) ص ٨٥ .

هذه الأصالة من سماتها بل من خصائصها الدقة والقصد والتجديد والمباشرة فى بساطة طبيعية لا تنافى العمق ولكنها تجافى الاغراب والجمجمة والغموض الذى يسميه البعض رمزا . ان البساطة المقصودة هى الوضوح الفنى الذى يتراءى خلال النقاب الشفاف والظلام المضىء والعمق الصافى .

أما الوجازة فهى طبيعية فى اللغة العربية بكونها لغة سامية · على أن الايجاز تحراه أيضا أهل اللغات الأخرى وتشــدد بعضهم فيه مثل (شاتوبريان وفلوبير) ·

وفضل الايجاز يكمن فى احترامه وقت القارىء والســامع وتجنبه الملال والاستثقال ، ولهذا يتوفر على الكتابة فينقيها من الحشو ، ويصفيها من الفضول ، ويخلصها من الترادف والتقريب ، ويبرئها من الاعتساف والتكثر ، ويجعلها أقدر على الايحاء بما يترك على أطراف المعانى من ظلال خفيفة يشتغل بها الذهن ويعمل فيها الخيال · وقد يضيف القارىء فى هذه الأثناء الى الأثر الفنى بالتفسير والتأويل والتقصى معانى ويخلع عليه الوانا فوق ما أراده له صاحبه ، وهذه الاضافات تشعر القارىء فى الوقت نفسه بشدة الطرب التى ينشئها فيه ، اعتقاده بأنه يخلق ·

ومن هنا تاتى جناية الصحافة على الأدب أو النثر الفنى فان طبيعة العمل فيها لا تعين على مقتضيات البــلاغة بل لعل العكس هو المطلوب لعامل السرعة والوقت المحدد والقراءة الجماهيرية التى تحتاج الى التبسيط والتخفيف فى الموضوع والأسلوب ·

بقيت الصفة الثالثة وهى التلاؤم وهى العنصر الجمالى فى الأسلوب · واذا كان الانسان ولوعا بالجمال يتملاه فى الوجه ، ويســكن اليه فى البيت ، ويتوخاه فى الطعام ، ويخلعه على الأثاث ، ويهيم به فى الطبيعة ، ويعبر عنه فى البناء الضخم والتمثال الشامخ واللوحة الرائعة والصورة البارعة والمدينة الجميلة والشارع الظليل والحديقة الموشاة ·· فلماذا كما يقول الأستاذ الزيات (يكره أن يسمع الكلمات العذبة والفقر المنسقة والجمل الموزونة والأصوات المؤتلفة) ص ١٠٣ ·

على ألا يشوب ذلك بالطبع تكلف أو صناعة مكشوفة فان من الفن أن يخفى الفن ·

وهناك عامل معنوى وراء البلاغة ، فان قوة الأسلوب تعنى قوة الشخصية حتى بين العامة (١) وبلاغته تعنى قوة الأداة ، وموسيقيته تنبع من دفق العاطفة أو ارتفاع الحدث أو جلال المناسبة ، وهذا هو الأصل فى سجع الكهان فى الجاهلية وتميز لغة التقاضى فى البادية ، فالموسقة طبع وفطرة ، فاذا صقلت صاحبها النشأة وواتته الدراسة وأمده العلم

---

(١) يقرن الأستاذ الزيات بطولات التاريخ بمساحة أصحابها فى التعبير عن أنفسهم كما يقرن عصور قوة الأمم بقوة آدابها فى ذلك الحين · والقوة هنا تعنى الازدهار والحلق أى قوة الروح لا جلجلة الموضوع ·

تأنقت ألفاظه وسما أسلوبه وتميز . وما عدا هذا فتغطية للعجز وتبرير لنقص الكفاية وقصور الوسيلة .

التلاؤم اذن فن الصياغة وهنا يتفاوت الناس ويقع تفاوتهم كما قال ابن الأثير (فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها لأن التركيب أعسر وأشق) .

وصعوبة فن الصياغة تأتى من ضرورة مطابقة الأسلوب لحركات النفس وصور الذهن وسير العاطفة ودرجتها فيه من الابطاء أو الاسراع وهذه الحالات التى تصاحب الخلق الفنى تحدد طريق الكاتب فيخرج الأسلوب موجزا أو مرسلا أو مستديرا (laperiode) يمهد أوله لآخره ، وبين هذا وذاك يأخذ المعنى دورته .

* * *

والكتاب يفرق فى البلاغة بين الجمال المطبوع وقوامه التجانس فى الأصوات والكلمات والفواصل ، وبين الجمال المصنوع الذى يتكلفه أصحابه بما يحملون على المعنى من أثقال البديع والبهرج .

وفى غير مواربة أعلن تأييده للازدواج والسجع باعتبارهما طبيعة فى الأسلوب العربى وطابعا له ، على أن يجريا على القلم مجرى الطبع . وأرى الطبيعة هنا أمرا يكاد يكون عزيزا كالموهبة . ولعل هذا السر فى نزوع الناس الى الأسلوب الجارى ايثارا للسلامة وتحرزا من التقيد وشبه التكلف .

لا مراء فى أن الكاتب يجب أن يرتفع أسلوبه عن أسلوب الكلام الشائع على ألا يلتمس الجمال فى اللفظ وحده ، بل لعل الأسمى والأحق بتقدير جمال النفس الذى ينعكس على الأسلوب من صدق صاحبه مع نفسه وولائه لمعتقده ، وهذا المستوى من مستويات الكتابة يكسب الأسلوب مناعة يعز معها على التقليد لأن النفوس لا تتكرر والاحساس الذى يولد الكتابة ويعطيها شخصية معينة مرام عصى ان لم يكن محالا حين يسهل اقتناص الألفاظ ومحاكاة التراكيب .

* * *

وفى القسم الأخير من الكتاب وقف الكاتب بالتحليل عند مذاهب الكتابة فى تاريخ العربية حتى العصر الحديث ، كما تحدث عن نشأة المذاهب الأدبية فى أوربا من اتباعية Ecole Classique وابتداعية

Ecole Romantique وواقعية Ecole Realiste وما نبع منها كالطريقة البرناسية Parnassienne التى كان من رد فعلها الطريقة الرمزية Ecole Sympôliste

وانتقل الأستاذ الزيات من المذاهب الأدبية الأوربيــة الى المذاهب الأدبية العربية وميز منها دعوتين :

الأولى : الدعوة الى العامية ٠

الثانية : الدعوة الى الرمزية ٠

وعزا الأولى الى الجهل بالفصحى ، وعلى ضوء هذا التحليل أحسب أن مفهوم العامية المقصودة محصور فى ركاكة الأسلوب (١) ولكن اللغة العامية بمعنى اللغة المصرية العربية لها اعتبار آخر بما لها من جذور ضاربة فى أعماق تاريخنا الحضارى واللغوى معا ، وهى لغة ذات تراث عزيز يتمثل فى الأدب الشعبى بقصصه وملاحمه ومواويله وأغانيه وأزجاله ولياليه وحكمه وأمثاله وصوره ورؤاه ، وهى فى هذا الميدان بقدرتها على التصوير والتسجيل والتأثير ند للفصحى حتى لقد كان شوقى يخشى على شعر العربية من زجل بيرم ، بل لعلها تفوقها فى نواح وتغلب عليها فى نواح أخرى ٠ وحسبى أن أشير هنا الى مجالين : الأغنية والمسرح ٠

واللغة العامية كأداة تعبير لغة حساسية شاعرة متطورة لماحة متغلغلة بما فيها من قدرة التجاوب والانفعال بالحياة الجارية المتجددة أبدا ٠ ومن الخير أن تتعايش اللغتان لا أن تصطرعا ٠ الفصحى همزة الوصل بيننا وبين المنطقة العربية التى تربطها بمصر وشائج شتى ، والعامية أى العربية المصرية بما هى مظهر من مظاهر الشخصية المصرية وقدرتها على التكيف والتفرد والتميز ٠

ومن المحال أن نوقف عملية الخلق الشعبى فى الأغنية والموال وسواهما حتى يعم التعليم ويصب الشعب مشاعره فى محيط الفصحى ٠ ولو حدث أن عم التعليم فلن يكون غير العامية لغة للحياة اليومية فى شتى المرافق وفى البيت ٠٠ ان المتعلمين اليوم بل والمثقفين لا يطيقون الحوار المسرحى بالفصحى أو الاغانى قصائد خالصة ٠٠

لقد كان بيرم من أعلم الناس بالفصحى وشواردها ولكنه آثر العامية لغة لتعبيره ومستودعا لمعطيات نفسه الخالقة ٠ ومالى أذهب بعيدا ؟ ان

---

(١) أريد بالعامية ترك الاعراب واستعمال الدخيل من الألفاظ والتراكيب ٠٠ (الزيات)

أستاذنا الزيات نفسه من أوائل من عزفوا بأدبنا الشعبى وكان بحثه القيم فى (ألف ليلة وليلة) فى حينه بداءة فى باب الدراسات الشعبية ونقطة انطلاق • كما أنه فتح صدر مجلته (الرسالة) لبحوث فى الأدب الشعبى شتى •

بعد هذا نصل فى نهاية المطاف الى حديث الأستاذ الزيات عن الرمزية التى يرى أكثر أتباعها من كتاب لبنان وشعرائه بما فيهم من أجنبية الاتجاه العقلى الروحى الدائم الى الغرب • وعلل الولوع بالرمزية عند أصحابه باحدى اثنتين : نزعة صوفية حاولوا معها لونا من الاستعلاء (فتصوروا في الفراغ شيئا ، ونوهموا فى الظلام نورا ، ثم عبروا عن أشياء لا تدرك ، بكلمات لا تفهم) ص ١٥٩ •

وهو تعليل طريف قد يكون حقا •

والثانية نوع من اللذة الآثمة تجعل أصحابها يمعنون فى الاغراب على الناس ليتفكهوا بحيرتهم وتخبطهم ، ولعله شعور بالنقص يلتمس الاثارة والاحساس بالأهمية ••

ان الرمزية بقدر ، لون من الفن القولى معترف به على ألا يبالغ فيه بالاغراق والشطح • على أن الأستاذ الزيات أبدى مخاوفه من المذهب الأول وحده الذى سماه (الشيوعية الأدبية) التى منشؤها العجز والرغبة الحاقدة فى الغاء الفروق حتى فيما لا حيلة فيه ولا قدرة عليه وأعنى المواهب والملكات • فهناك فئة تحارب الامتياز فى كل شىء حتى فى الذكاء لتدخل فى عداد الكاتبين والنابغين وهو ما لا يكون • وغير هذا العبث بالطبع جد القادرين من فنانى العامية أصحاب الآثار الباقية •

* * *

وبعد فهذه ليست مقدمة بالمعنى التقليدى للمقدمات . ان هى الا مفتاح يفضى الى كتاب (دفاع عن البلاغة) ، ومسوغها صدورها من تلميذة لأستاذها الجليل فى هذا الموضوع بالذات • انها تعبر عن تحية الجيل الجديد له وموقفه منه فى وقت رفع فيه الصراع التعبيرى عقيرته من جديد •

القاهرة فى يوليو سنة ١٩٦٧

الله والشعب

تاريخ النهب الاستعماري لمصر

وهو تاريخ حدده مؤلفه جون مارلو . بالفترة ما بين ١٧٩٨ — ١٨٨٢ ولكن نهب مصر وقع قبل هذا التاريخ ، وامتد بعد هذا التاريخ · انى لا أحب المتنبى ولكنى أراه صادقا فى بيته :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها   فقد بشمن وما تفنى العناقيد

والذى يتطرق الى الذهن للوهلة الأولى ، أن الذى انتهب **المال** ولكن المنهوب والمسلوب ، أشياء كثيرة عزيزة أغلى كثيرا من المال ··· فقوم نهبوا آثارها ، وآخرون نهبوا وامتهنوا حريتها ··· كل من ولى أمرها اعتبرها ، ضيعة خاصة له ، فاقترن الحكم فيها بالهبات ليصب عرق الشعب فى خزائن المتسلقين والمغامرين حتى اذا اعتصروها اعتصارا واعتسارا ، لجأ صاحب الهبات الى الديون ، يبدد هو ، لتدفع هى ، وأصحابها ينظرون !!

ما الذى دهانا ؟ انه ليحزن القلب الانسانى ما سجله جون مارلو ، وتيودور روتشتين فى كتابه (خراب مصر) ·

حين توارى الديمقراطية التراب ، ويسود القمع ، والوصولية · تعشعش البوم ، وتفترس البلاد بالقوة ·

كنت قبل هذا الكتاب . قرأت كتاب (الأرض والفلاح) الذى تناول فيه مؤلفوه الأرض والفلاح على مسار التاريخ المصرى فاذا بالنهب واحد وان تعددت أسماؤه ·· حتى حين تلوح عناية بالأرض ، يختفى وراءها ، رغبة محمومة فى نهب المحصول ، وعن آخره ·

لم يكن للشعب الحقيقى دور فى كل ما حدث فلم يكن يتذكره أحد الا فى تحصيل الضرائب . وجمع الخراج . والصرف على جهاز قطر الندى ، وأفراح الأنجال ··· الخ ·

تقول « لوسى دف جوردون » التى استشفت فى مصر وأحبتها (قد بلغ السلب والنهب بالجملة مدى يصعب تجاوزه ·· " اننى لفعمة بالحزن) ·

ماذا أقول أنا التى أدين لها بكل شىء ؟ عاجزة الكلمات ، كلها عن تصوير حزنى من أجلك يا حبيبة ·· عاجزة الكلمات ·

ولكن عزائى أنك استوعبت الازدهـــار والانحلال ، والصـــلابة والتسيب ، والعزة والقهر ، والنصر والهزيمة ···· عـرفت مصر هذا كله ، واستقطبت مصر هذا كله ، وتخطت مصر هذا كله ولم تكف عن البناء والتشييد والعمل · يكفيها انها حاولت اعادة بناء ذاتها ، من الرماد ، مرات ·

ومن هنا يقدر المنصف ، السفر الذى قام به القلب المصرى فى عملية الاحتفاظ بجوهره سليما على المحن ·· بل وخلق الحضارة فى الوقت نفسه بما يتطلبه هذا من حس نبيل ، ورغبة حميمة فى الانتصـار ، وحنين موصول ، الى النمو والارتقاء واقتحام العقبة ·

ان السمو الذى سكن فى زهرة اللوتس ، سكن فى كيان الانسان المصرى الحقيقى ·

ان الانســان المصرى يذكر المتأمل ، بالفيلسوف الرواقى **باحتماله وتجلده** ·

ومع هذا فان السكينة المصرية أى بالمفهوم المصرى لها ، شىء غير الجلد الرواقى ·· انها شىء أكبر ··· **بفضل الدين** ··· الساكن فى قلب مصر المؤمنة ··· بفضل مدد علوى هو اطمئنان وتواصل ونقبل لفيض هناءات تهون أمامها الخطوب ، وتتجدد الرؤى ، وتشرق النفس من عليا عزها الجديد على معترك الحوادث واحتدام الأمور ·

انه ميلاد للنفس المصرية نخرج به من عذابها أو تعلو عليه ·· ولعل هذا يفسر الآية الكريمة (يا نار كونى بردا وسلاما) ·

ان الآية الكريمة دعاء لابراهيم بالسكينة تسير معها النار نفحة نور لا لفحة سعير ·

وهنا تكون السكينة غير السكون ·

السكون جمود ولكن السكينة طرح القلب الانسانى عندما يصل فى نضجه الى قمة الشرف والترف ·

انه شرف وترف لا يعرفه الجناة ولو جمعوا أموال الدنيا ·

وكم بين خطايا الأرض ، وعطايا السماء ·

وبمناسبة الحديث عن النهب الاستعمارى ، هناك لون آخر من النهب أو الاهـدار ، نمارســه نحن ، هـذه المرة · أليس الاسراف فى المـدح والقدح ، والاسراف فى الكلام ، وفى « الأوصاف » حتى نفتن أنفسنـا

بأنفسنا أليس هذا كله ، نهبا ، لكرامتنا وطاقتنا ؟ انه تبديد الذات ٠٠ لشخصية الانسان المصرى لاأحسب له نظيرا فى غيرنا من البلاد حتى حولنا فى المنطقة ٠

قال « امرسون » فى كتابه عن الرجال الأعلام أو الذين يمثلون البشرية ، وهو يقابل كتاب (الأبطال) لكارليل ، قال امرسون عن نابليون بكل شخصيته التاريخية ، وفتوحاته العسكرية ، انه يمثل الرجل العادى !! ٠ فما وصل اليه نابليون ، فى نظر « امرسون » ليس ثمار عبقرية فذة أو ذكاء خارق ٠ ولكن صنعته اعتبارات شتى من صنع البيئة والعصر واللحظة المناسبة ٠٠٠ الخ ٠ ما علينا ٠ الذى أريد أن أقوله لو كان « نابليون » هذا منا ، يسمعنا ٠٠ ترى كم من الصفحات والمانشتات والتسبيحات والأغانى والتهليلات ونوابغ الصفاب نتغنى فيها ؟

ليتنا نعرف قدسية الكلمة ٠٠٠

ليتنا نعرف قيمة أنفسنا ٠

ليتنا ، مثل غيرنا ، نعرف الحجم الطبيعى للأشياء ٠٠

ليتنا نعرف الاقتصاد النفسى واللفظى فهذا أهم حتى من الاقتصاد المالى ٠ فالذى يتكلم قليلا يعمق كثيرا ٠

ان قتل الطفل ولو كان جنينا حرام ، ولكن قتل انسان بسحقه أو تصغيره أو احباطه ، عمل غدا مألوفا ، وكثيرون يفعلون بأنفسهم هذا حين يبالغون فى تكبير شخص رهبة أو رغبة وأثناء هذا يتقامئون اتضاعا ٠

لماذا قال القرآن الكريم (والشعراء يتبعهم الغاوون ٠ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون) ٠

لقد انتفى الصدق ٠ مثل هذا الشعر صناعة ٠ ان الذى أزرى به القرآن الكريم ليس الشعر الرفيع المترفع الذى ينبع من مشاعر صاحبه ٠ فالقرآن أعلى كتاب من الناحية الأدبية الفنية الجمالية ٠

انه فقط يزرى بكل ما ينزل بالنفس ولو كان شعرا ٠

كنوز لغة الشعب

فى اللغة الفصحى روائع من لفتات الذهن وموسيقى التعبير ٠٠ ولكن فى لغة الشعب كنوز لا تقل قيمة ٠

فحين تعرف البلاغة العربية ، **الصدق** بأنه مطابقة الكلام لمقتضى الحال على طريقة المخبرين لو صدقوا ، يعرف الشعب المصرى ، البلاغة

تعريفا آخر ، مستمدا من شخصيته ·· مستمدا من الزراعة بمعطياتها ·· ومن باكورة عطائها « **الاناء** » · وهو مستودع الصمت ·· ولهذا يعرف الأدب الشعبى ، **الايجاز** مع وفاء المعنى بقوله : (كلمة ورد غطاهـا) مستوحيا الاناء وغطاءه المحكم الذى يرد على القاعدة فى تمام أنيق ·

ـ اللقمة الهنية تكفى ميه

ـ لاقينى ولا تغدينى ·

عائلة متحابة ·· لا يقول شعب غير زارع مثل هذين المثلين ، ولا يتولهما شعب الا اذا كان يستشعر جو الأسرة ·· يستنشقه هواء يعيش عليه ·

هذا هو الشعب المصرى ·· أو هذه هى طبيعة البلد ··· اناء واسع للماء الكل يشرب منه يسقى ويستقى : **النيل** ·· وخوان واحد الكل يطعم منه : **الوادى** ···

ـ يا نعيش سوا يا نموت سوا

من تعلقنا بالمركب تعلقا شديدا ، قلنا هذا المثل ، فالمركب لا تتحرك براكب واحد ·· ان ركابها جمع يلتقون فى الرحلة والمصير ·· يصلون سالمين الى الشاطىء أو يغرقون ·

وانتقل المثل من المركب الى الحياة ·· ففهموا معنى الوحدة وروح الفريق · وتواصوا وتواصلوا فاستمرت الحضارة المصرية بغير انقطاع لأن العمل كان أمانة تربط جيلا بجيل ·

شعب أسرى شعبنا ·· وشعوره بالأسرية تنبع منه أخلاقياته وتصرفاته ونظراته فى الحياة والناس · وينعكس هذا على آدابه وفنونه · اذا صنع سمى أستاذ الصنعة « معلما » · والصبى يناديه (يا عمى) · فالعمل قرابة ونسب ·

كل شىء فى مصر أسرة ·

وفى مصر القديمة كان الأب يقول لابنه الذى يحمل الكتاب : (حافظ عليه ·· كأنه أمك) فى ادراك عال نبيل للأم والكتابة فى آن ·

وهذا الاحساس بالأسرية بعيد بعيد موغل فى القدم · ففى الصعيد المصرى يشترك (حورس) مع (ست) قاتل أبيه فى رفع رمز الوحدة · اشارة الى أن مصر فى عين المصريين ترتفع على العداوات والصداقات والأشخاص ·

بمصر وحدها هى الأم والأب ٠

والأسرة بمفهومها المصرى العريق بؤرة حضارية يتشرب المرء فيها شعورا قويما ومقوما ٠٠ رحيما ومنعما ٠

يستشعر الطمأنينة والسكينة والوفاق اذ يشهد تجربة متمرة ٠٠٠ أبوين متفاهمين ٠

« الأسرية » فى مصر وعى ووعاء لقيمها كلها ٠٠٠٠

هذه مجرد أمثلة لعمل الشخصية المصرية فى اللغات التى تتكلمها من منطلق قيمها هى ، ووراثاتها هى ٠٠

واحساسنا بالأسرية والوحدة يبدو فى قولنا عند المجاملة (**مافيش فرق**) ٠ وعند الذم نقول (بوشين) فذو الوجهين زائف لا وحدة فى سلوكه ٠

مفيش فرق ٠٠٠ هذه المقولة الشعبية أدركت وحدة الوجود لا بالذهن ولكن بالروح ٠

الوحدة ، أكبر من المحبة لأن المحبة فى قمتها ، أن تتوحد بمن تحب ٠

ومن توفيقات اللغة الشعبية (**خذ بيدى**) ٠ هذه العبارة تعبير سيكلوجى دقيق ٠٠٠ انه عناق بين الانسان والمقدس ٠٠ (يحبهم ويحبونه) فى عملية رفع وارتفاع ٠٠٠

كم فى لغة ابن البلد من توفيقات ٠٠٠ فلفظة **تشعلق** فيها من التعلق والشعلة ٠ أى أحب فى توهج ٠

ولما كان ابن البلد فنانا بطبعه ٠٠ والفنان كاهن الحياة أى عالم أسرارها ٠ والكهانة ادراك السر ٠ والسر تجلوه الصنعة ٠ والعمل الفنى صحة معنوية ٠ لهذا كله يسمى ابن البلد ، المرض ، **عيا** أى عجز ٠

فابن البلد من حبه فى العمل الجميل . يعبر عن رضاه عنه بقوله (الله يفتح عليك) ٠٠ (الله ينور عليك) فالعمل الفنى نور وفتوح وفيوض وولادة نفس ، وطرح قلب ٠ انه فى هذا المستوى يكسب التقى ٠ ان صاحبه يؤديه كأنه متدين ويتقرب به الى الله الذى يحب اذا عمل أحدنا عملا أن يتقنه ٠٠ هنا يكون العمل قربانا بطريقة عصرية ٠٠

هل نعلم أطفالنا الأدب الشعبى ؟

ان الشاطر حسن هو الطموح البعيد وقدرة الاحتمال والاصرار ، والأميرة رمز الأمنية · لقد جعلته الاسطورة الشعبية يعدى البحور ويركب الأهوال ويتخطى عقبات وعقبات بنتها فى طريقه لأن الألم يجوهر الانسان· حتى الطين عندما تصهره النار ، يصير فخارا جميلا ·

وانسان بلا طموح ، بيت بلا نافذة وكأنه بيت الطاعة ·

ان الثقافة ليست التخصص لأنه اذا اقتسر أو اقتصر ، انغلاق أو جمود عند نقطة واحدة ضيقة ، ولكن الثقافة هى **كيف الحياة فى مجموعها**·· هى **انسانيتها** ·· ومن هذا المنطلق فان الاحياء الشعبية بكيف الحياة فيها هى أكثر ثقافة ·· ان الفلاحة المصرية عندها **ثقافة الحركة** ·· مشيتها فن ، ووقفتها فن ·· وهذا هو الفرق بين فلاحة القرية وفلاحة المدينة أى العصرية المتزيية بزى فلاحة للاطراف ·

فى القرب من التراث الشعبى ، حنين الى المنبع · وفى البعد عنه ، بعد عن بواطن ومواطن الجمال والحكمة ··

الله والانسان

حين يصنع الشعب النصر :

احتفالنا بنصر أكتوبر حق . بل ان القلب المصرى يحتفل به بدون مراسم أو مهرجانات مع اطلالة كل فجر .. مع اشراقة كل صبح جديد لأنه حياة وكرامة . وكانت الأيام قبله ضياعا ممرورا وهوانا . ولكننا ننسى فى ظروفنا الصعبة أن نحتفل بعيد النصر بأعمال جديدة تخدم هذا الشعب الذى صنع النصر بدم أبنائه ، وقوت عياله ، وراحة باله ، وصبر أيامه ، ونور لياليه .

ليت كل محافظة تحتفل بنصر اكتوبر بمستشفى جديد أو مدرسة جديدة ، أو رفع عدة قرى فى زمامها الى قرى نموذجية . وهنا نكون أصلحنا فى وقت واحد الريف والقاهرة معا لأنى أومن ان أى اصلاح فى القاهرة لن يجدى ما دام الريف يغص بالتعاسة ، وكلما شقى صبره ، نزح الى القاهرة . ولو وفرنا الحياة الكريمة لأهله ، لآثروه على سواه كما يفعل أهل المناطق المتحضرة كالاسكندرية والمنصورة والمنيا .

ليتنا نحتفل بنصر أكتوبر باعـادة النظـافة والجمال والهـدوء الى القاهرة ، ان أصحاب الفرح فى العادة ، يأخذون فى الاعتبار اعداد بيتهم حتى أن جلوة العروس تبدأ بجلوة البيت .

ان انتصارات السلم لا تقل شأنا عن انتصارات الحرب .

نريد ان نجعل من أكتوبر ، كل عام ، خطوة حقيقية حية الى الأمام .

اذا رأبنا الصدوع الكثيرة ، وجبرنا القلوب الكسيرة ، وبرئنا من الأدواء الكبيرة كالجهل والفقر والمرض الثالوث الأسود ، ساعتئذ نحتفل بأكتوبر احتفالا شامخا باذخا شأن الموفور السعيد .

وبمناسبة أكتوبر تذكرت الشاعر المصرى الذى لا يذكره أحد ، مصطفى السبيلى الذى تبرع باحدى عينيه لتنقل الى جريح فقد عينيه الاثنتين • لم نستطع دموع أمه وتوسلاتها أن تثنيه عن عزمه •

لم يستطع الأصدقاء صرفه عن الفكرة •

لم يستطع الأطباء رحمة به •

كانت مصر وحبها أكبر منهم جميعا •

لا يسمع الا صوتها هى •

لم ير الا صورتها هى •

وهذا الشاب فقير عليل لم يكن نصيبه من مصر ضيعة أو عمارة أو منصبا أو أى شىء ولكنه يحبهـا لذاتها •• يحبهـا لأنهـا الغنى الحقيقى ، والاسم ، والانتماء ••• يحبها هى لأنها هى مصر •

ألوف أعطوها العين والروح • وأعلامها فوق سيناء مضرجة بدماء عشاقها وقتلى هواها • دفنوا أنفسهم فى التراب ورفعوا علمها هى فوق السارية • ولو استطاعوا لرفعوه فوق السحاب •

تحسبها العين البسيطة النهر والوادى ولكنها كل يوم تزرع معانى جديدة تنضج على نار الألم الى جوار النبات على حرارة الشمس •

كل يوم تلد البطولة والقيمة ، بلدى •

قل من أجلك يا حياة الحياة ، مهما عظم ، الفداء •

يارب الحمد والنعمة لك •• لبيك :

جاءتنى من قريتنا فتاة للعمل فى منزلى • الفتاة صغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها • ساذجة قليلة الخبرة وأكاد أقول الذكاء ولكنها شكور قانعة • شدنى اليها أنها تكثر من الصلاة •

يا رب هل هى تحتمى فيك من ضعفها ويتمها وهوانها على الحياة والناس ؟

لقد تعودت المسكينة الوقوف على الأبواب فهل هدتها فطرتها السليمة أن تقف بالباب العظيم بالباب الأكبر والأكرم والأرحم •

هل هى تأتنس فى غربتها بقربك يارب . يارب هل هى تشكرك . ان كانت نفعل يا خجلتى منك . لقد أعطيتنى فأرضيت وحين أقف بين يديك ، أصلى لك لا أطيل الصلاة مثلها !!

أعطيتنى البيت . وأعطيتنى القلم وأعطيتنى نجابة الأبناء . أعطيتنى نعمة تذوق الجمال فى الكلمة وفى الطبيعة . أعطيتنى الحنان فى قلبى ودنياى فأنا أناله وأعطيه حتى للأشياء . أعطيتنى من المال ما يصون وأعطيتنى معه نعمة التمتع به فأنا أملكه ولا يملكنى ... أعطيتنى الكثير ومع هذا أصلى لك الفرض وتصلى لك الفتاة الصغيرة المحرومة المسحوقة تطيل الصلاة والركوع والسجود . يا خجلتى منك وأهرب من خجلى بقولى واحساسى ان ما بينى وبينك أكبر من الطقوس .. أكبر من الكلمات حقا هذا . حقا ان بينى وبينك عمارا كبيرا وأملا كبيرا وعشما كبيرا ولكن فتاة صغيرة كسيرة تصلى لك وتطيل . أرأيت أنى أخجل مرة أخرى أن أقول تصلى لك أكثر منى .

رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على .

لوحة العاصفة

أتعلم كثيرا من السفر فى البحر .

ولأمر ما ذكر الله البحر فى نيف وثلاثين موضعا فى القرآن الكريم . ان البحر عالم آخر للتأمل والتعلم والتدين أيضا ، ومع هذا لم يحتفل الأدب العربى بالبحر . لأسباب كثيرة ذكر بعضها الدكتور فخرى أبو السعود ، وذكر البعض الآخر الدكتور محمد عوض محمد .. حتى الرحالة العرب الذين واجهوا العواصف فى البحر .. ومتى ؟ فى العصر الوسيط حيث النجاة لم تيسر وسائلها ، تركوا لنا أوصافا مسجوعة مثل قولهم : ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر ... الخ .

لقد هبت على ابن جبير ريح بالقرب من صقلية خلال رجوعه الى غرناطة كادت تطيح بمركبه ولكن يبدو أنها لم تثر خياله أو حتى انفعاله فجاء وصفه له مسجوعا أيضا واستمر فى السجع حتى المساء عندما (فترت الريح ولأن متن البحر وأسفر وجه الجو) . ولو أطلق نفسه على سجيتها فى موقف تمتلىء فيه النفس بمعانى الخوف والرجاء واليأس والأمل والحياة ... موقف تتطهر فيه النفس وتشرئب الى السماء بقلب ضارع .. حتى الجاحد يفيق ويعود الى الله . لو تحرر ابن جبير من السجع لخرج بلوحة نابضة ... ولكن أين الشعر والنثر من (لوحة العاصفة) التى أبدعها الفنان الأعظم فى كتابه الكريم اذ الموقف (كظلمات

في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها) .

انظر (لجي) وانفرادها في مكانها وترفعها على فضول السجع أو التكثر بالمترادفات انفراد الشموخ التعبيري هذا يعطيها طاقة خارقة على تصوير الزخر والجيشان . ثم «يغشاه» هذه بما تتضمنه من معاني الغمر وحركة التغطية الواسعة التي تلف كل شيء في طياتها .. في طيات الموج .. موج من فوق موج .. حركة سريعة متدافعة في تتابع وغلبة .. في تلاحق وجلبة .. موج عال بلغ السحاب أو هكذا يشبه لرائيه ... موج فوقه موج من فوقه سحاب ... لم يعد هناك فاصل ... هنا التحام فقد عدت السماء والأرض كلا واحدا في جملة واحدة . في نصف سطر .. وهذه (الفوقية) وحدها « موج من فوقه موج من فوقه سحاب » تصور حالة الغيم النفسي .. تصور اللهث .. الكرب .. زهق البصر والأنفاس حتى اذا كرب المرء الضيق ، وآده الظلام ، تحسس من القلق .. والوهم يستبد به مع الظلمات ، يده ليراه فلا يرى .. شيئا .. انطمست الرؤية وغامت المرئيات .

أنا لا أفسر هنا الآية ، فأي تفسير لها مهما تسامى اليها .. مهما حاول الارتفاع الى مستواها ، يفسد جوها الفني الغني بالحركة المشحون بالانفعال ، المنور بالظلال .. القادر بالشمول .

أتعلم كثيرا من السفر في البحر . عندما يسافر الانسان في الفضاء في طائرة من علمه ، أو يمخر عباب الماء في باخرة من صنعه ، يتيه ولو بينه وبين نفسه ويكاد يقول هاؤم اقرأوا (ابداعيه) . ولكنه اذا خرج في الليل أحس لليل رهبة لا تبددها أضواء المدينة ... هنا الانسان وحده والليل .. فاذا اجتمع عليه الليل والبحر .. أفاق من غروره وشعر أنه ضعيف أمام الطبيعة وأنه صغير صغير .. وان الله كبير كبير .. وأن باخرته أو طائرته لا تحفظها الا عناية الله ، وان آلاته وموتوراته لا تغني عنه شيئا اذا احترقت الطائرة أو ارتطمت الباخرة .

في الجو والبحر يغدو علم الانسان مجرد اجتهاد، واختراعه وابداعه مجرد محاولة . ويبقى الله وحده « العليم » ، « العزيز » ، « الجبار » .

هذا الانسان ما أضعفه في قوته .

ما أصغره في كبرته .

ما أهونه اذا ملكه الغرور .

يا رافع السماء وباسط الأرض ٠
يا زارع المرج وفنان الروض ٠
يا مجرى السحاب وبواخر العباب ٠
يا نور الفجر يا روح البحر ٠
يا عطر الورد يا عبير الزهر ٠
أنت أنت القوى ٠
أنت أنت الله ٠

ابن البلد .. « الذوق »

نـداء القـاهرة :

للقاهرة نداءات لا يملك القلب الا تلبيتها . ولشد ما يأسر القلب النداء ، حين ينبعث من ميدان الفلعة أو شارع المعز .. فى ميدان القلعة تطل عليك خمسة قرون . لم ير القاهرة من لم يرها من سقارة أو من القلعة حيث يتربع جامع السلطان حسن أروع ما وصل اليه الفن المصرى الاسلامى ... وعلى امتداده الروائع الاسلامية الأخرى .

موقف للتجريد ترتفع به ، وفيه النفس ..

وتطوف .

وتبصر بعد أن كانت ترى .

أما شارع المعز فان مصر فيه تلعب بالحجر والذهب والنور ... تشكل من الحجر روائع العمارة .. وتصوغ الذهب موشى ومرصعا ... أما النور فينهل من سمائها الصافية الدافئة كحدقة ملؤها الحنان ... ينهل النور من السماء أشعة ، ومن المآذن كلمات هادية تنهدى .

ان مآذن القاهرة صحبة من المشاعر الاسلامية الرائعة ... صحبة من البر والعطاء ...

ويترسل صوت المقرىء نديا فمصر ترتل القرآن ترتيلا وتجوده تجويدا .. فروحها مطبوعة على النغم منذ العدم فهى التى وضعت القراءات وهى التى جمعت الحديث ، وهى صاحبة الصحيفة التى نقل منها البخارى فى تفسيره كمـا نقل عنهـا ابن جرير ونقل الطبرى الشطر الأكبر من تفسيره ونقل عنها معاوية بن صالح قاضى قرطبة وشاد بها جميع العلماء حتى ليقول أحمد بن حنبل فى مسنده (بمصر صحيفة فى التفسير لو رحل المرء فيها الى مصر قاصدا ، ما كان كثيرا) .

ومصر هى التى أرسلت الأذان بنغمة الرصد والبياتى والحجاز .. انها تعرف بالحس الحضارى أثر الموسيقى فى النفوس ... وفى يقينى أن ترتيل القرآن يسهم فى محو الأمية بتركيب الموسيقى القرآنية فى شعور الانسان السامع . وهنا ألمح سر جمال أسلوب مكرم عبيد ... لقد كان يحفظه عن ظهر قلب (وهو قبطى) ..

يوم الاثنين :

يوم الاثنين من كل أسبوع يوم مكتبتى الخاصة أخلو اليها فى قراءات متنوعة متحررة من (التخصص) أو القراءة ذات الموضوع الواحد كما تقول وزارة التربية والتعليم ٠ ومما تناولته يدى : مجموعة خطابات وأوامر خاصة بعباس باشا الأول جمعها الأمير محمد على ٠ ومنها خطاب فى ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢٤٧ هـ الى خورشيد أغا (يبعث له كشفا بأشياء يأمر بشرائها وارسالها من كتب علمية وفنية عسكرية ولوازم الخيم وشمع وقبقاب حمام) ٠

ترى هل يقرن الكتاب بالقبقاب ؟

لقد وقع القلم من ابنى الصغير على الأرض فقلت له : ارفعه وقبله انه نعمة ٠٠٠ وحفظها الصغير وأصبح ينظر حتى الى القلم الرصاص نظرة كبيرة ٠

لسنا أمراء ولكننا أبناء ذلك الحكيم المصرى الذى كان يوصى ابنه وهو خارج الى المدرسة (امسك كتابك وحافظ عليه كأمك) فى اجلال عميق للكتاب والأمومة معا ، واحساس كريم بما بينهما ٠

اننا أبناء البلد الذى جعل وحده ، للكتابة الهه « سيشات » وزوجها من اله الحكمة فى وعى حضارى بالعلاقة بين الكتابة والحكمة ٠

ويفخر الأمير محمد على بأنه فى أيام عباس باشا لم يكن أحد يسير فى الشوارع اذا ما أذن المؤذن للصلاة فى الجامع ٠٠ وكان الناس يلزمون بيوتهم ٠٠ وكانت الطريق هادئة ساكنة طول وقت الصلاة وكان الشاويشية الأتراك الفرسان الذين كانوا وقتئذ يحافظون على الأمن يضربون (بسياطهم كل شخص يرونه سائرا فى الشوارع) ٠

لشد ما يذكرنى هذا بقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين فى قاموسه « قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية » (اشتهر التركى بتدينه ولكن تدينا شكليا تنقصه روح الاسلام فهو يعنى بالأدب أمام تلاوة القرآن، وباقامته الصلاة أكثر مما يعنى بتحرى العدل ورفع المظالم وعدم الرشوة ٠ ويعتقد انه اذا ارتكب هذه الجرائم كلها ، يرفعها عنه بناء مسجد أو سبيل أو مدرسة ٠ ومع الأسف لقى منهم المصريون الأمرين ٠

ومن أمثالهم المشهورة (آخر خدمة الغز علقه) ٠٠ والغز طائفة من الأتراك) ٠

هذا حين يرسم الدكتور أحمد أمين في الكتاب نفسه صورة شيقة لابن البلد .. سماته وشاراته وعباراته وملابسه ...

وصفه اذا مشى واذا تحدث أو ضحك ... وابن البلد فى العادة ، كما يقول الدكتور أحمد أمين وكما يقول الواقع ، يكثر من التنكيت ويستعمل فى حديثه الكناية والتورية ، وعلماء البلاغة يعرفون أن التورية فن مصرى ابتدعته مصر فيما ابتدعت من الوان البديع والبيان .

وابن البلد يعرف مواضع الكلام ، ومواقع الرضا من نفس محدثه فلا يجرح بل يلمح لمحا حتى ليطرح مجلسه وردا .

وقد يسمى ابن البلد « الذوق » وأحيانا يسمونه « ابن الذوق » .

وقد عرف المرحوم قاسم أمين الذوق السليم بأنه الشعاع اللطيف الذى يهدى صاحبه الى ان يقول ويفعل ما يناسب المقام ، ويجتنب ما لا يناسبه . والمصريون يعتقدون أن مصر أم الدنيا وأم الذوق أيضا ولهذا يقولون :

دا اللى عمل مصر كان فى الأصل حلوانى .

ويقولون : الذوق ما فاتش باب النصر ـ وهو أحد أبواب القاهرة .

ويروون فى هذا قصة طريفة يرويها بدوره الدكتور أحمد أمين . تقول القصة أن رجلا كان اسمه « حسن الذوق » كان فى منتهى الظرف والكياسة واللباقة .. كريما رقيق الحس والشعور .. غاضبه يوما بعض الناس فعزم على الرحلة من مصر . فلما وصل الى « باب الفتوح » مات هناك وما يزال قبره فى هذا المكان الى الآن .. ويعرف ضريحه « بسيدى الذوق » .

ومن أجل هذا قالوا : الذوق لم يخرج من مصر .
كان يموت فيها حيا
وقدر له ان يموت بها راحلا ...
غلاب هواك يا حبيبه .
يأسر القلب والروح معا .
غـــلاب .

سنقر :

فى الأحياء الشعبية يتردد كثيرا اسم (سنقر) . وفى متحف برلين صندوق مصحف عليه اسم صانعه ، « محمد بن سنقر » . ويبدو

انه كان صانعا مشهورا ومعتدا بنفسه وبفنه ٠٠ وهنا أدركت سر تعلق الأحياء الشعبية به حتى لتطلقه الى اليوم على مواليدها ٠

وصندوق المصحف أحد الآثار الفنية التى طرحها اهتمام المسلمين بالمصحف بما اجتمع لهذا الصندوق من فنون الحفر والتكفيت والترصيع والتصوير ، وحامل لقراءته يشكل أحد الروائع الاسلامية ٠ كما كان الاهتمام بالمصحف وراء فن الخط العربى والاهتمام بكتابته وتطوير هذه الكتابة ٠

حظــوظ

حتى النبات يعرف عالمه ، الحظ ٠

أدركت هذا عندما رأيت زهرة الكلا فى البستان ورأيت الصبار ملقى على الأرض فى الصحراء ٠٠ زهرة الكلا ٠٠ عمود زمرد صاعد وطموح ٠٠ به شوق وتتوجه زهرة (ملفوفة لف) ٠٠ وفى وسطها شمعة ذهبية لا تبكى لأنها لم يمسسها نار ٠٠٠

وعلى مقربة منها صبار ملقى على الأرض ٠٠ أحس أنه نفد صبره ، بعد ان أضناه العطش ٠

بدون مسرح أشهد دراما الصبار ٠

الأرض الطيبة :

فى رواية بيرل باك (الأرض الطيبة) وصف للنحافة استوقفنى ٠ تقول الكاتبة الأمريكية تصف فلاحة رقيقة فى الصين : (لقد رقدت على السرير ٠٠ جسمها يكاد لا يغير شكل الغطاء) ٠٠

استوقفنى التعبير لذاته ٠٠ وذكرنى ببيت المتنبى الذى بلغ فيه من النحول حدا لو وضع معه فى سن القلم ما غير من خط الكاتب كما يقول ٠

وفى رواية (دكتور ابراهيم) لمؤلفها السويسرى جون نيتل يصف فلاحة رقيقة فى الصعيد بأنها كانت نحيلة الى درجة انها تستطيع ان تنام فى ظل عمود البرق ٠

هل يؤيد هذا توارد الخواطر فى الأدب ؟ فلا أحسب بيرل باك أو جون نيتل قرأ أحدهما المتنبى وتأثر به ولو أنه هو قرأ شعراء الغـرب ونقل عنهم حتى ألفت فى سرقاته الكتب ولم تجـده شيئا (وساطة) الجرجانى (١) ٠

---

(١) للجرجانى كتاب اسمه (الوساطة بين المتنبى وخصومه) ٠

حكمة الصين :

يحكي الأستاذ فؤاد محمد شبل فى كتابه (حكمة الصين) أنه بعد وفاة كونفوشيوس ، انتشرت حبات عقد مدرسته فأخذ مريدوه السبعون يجوبون أنحاء الصين ، ينشرون آراءه ٠٠ وتهافت عليهم الملوك والأثرياء يجتذبونهم ويغدقون عليهم ، ويجزلون لهم العطاء حتى ان بلاط الملك « هتسوان » ملك دولة « تشى » كان يضم أكثر من ألف عالم يقيمون بقصور توافرت فيها جميع أسباب الرفاهية لينصرف العلماء للبحث من جهة ٠٠ وليفاخر الملك جميع ملوك العالم بهذا القدر الضخم من العلماء الذين تضمهم عاصمته من جهة أخرى ٠

وهنا نقول ان أصحاب السلطان والصولجان عرفوا ان الفخر الحقيقى ، العلم والعلماء ٠

ونقول شيئا آخر وهو حرص الأمم على (العلماء) واعفاؤهم من الحاجة ليتوفروا على البحث فى عملية «خلوص» يعطون فيها عطاءهم كله غير مرهق بكد العيش،أو مشوب بهموم الصراع اليومى الذى يستنفد الطاقة ويمزق الأعصاب ٠

ترى كم من علماء الرجال ونابغى الشباب افتقدوا الراحة والتقدير والهدوء ، فالتمسوا هذا كله فى عواصم أخرى ؟ ٠

ليتنا نعمل بحكمة الصين مع أننا ننتمى الى البلد الذى سطر أقدم ما عرف الناس من ألوان الحكمة ٠

الرجل والحلى :

فى سورة الكهف الآية الكريمة (**يحلون** فيها من أساور من ذهب ٠ **ويلبسون** ثيابا خضرا من سندس واستبرق) ٠

وهنا نتذكر ان الذى أقبل على التزين فى بادىء الأمر ، الرجل لا المرأة ٠٠٠ وقد لجأ الرجل الى التزين ليروق المرأة ويجتذبها ٠٠٠ وفى المجتمعات البدائية الى اليوم نجد الرجل هو الذى يصبغ بشرته ، وينشر الريش حول رأسه ٠ فلما تقدمت المجتمعات الانسانية التمس الرجل أسبابا أخرى لنيل الرضا ٠ فالعباس بن الأحنف ٠

يود لو يمسى سقيما لعلها اذا سمعت منه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف فى طلب العلا لتحمد يوما عند سلمى شمائله

هنا ارتفع «الرجل» فى الشاعر ، ليفوز ب (فوز) ــ وكانت حبيبة العباس بن الأحنف اسمها فوز ٠

ماذا كان موقف المرأة من التزين ؟ وهى التى تحب الجمال ؟ كانت تعرف أن الأنوثة بما فيها خير سبيل وأقوى سلاح ٠٠ فالعيون التى فى طرفها حور . والدلال ، والقوام ، والكلام ، والابتسام ٠٠٠ وأهم من هذا كله الحنان والذكاء والوفاء ٠٠ بهذا كله مجتمعا ومتفرقا ، طالما هزت المرأة العروش وأصحابها ٠

ولكن الأنثى فى المرأة ما لبثت أن عشقت الزينة وتفننت فيها حتى تلك التى :

٠٠٠٠٠٠٠٠٠ يغنيها تودد وجهها   الى كل من لاقت وان لم تردد

وهنا ٠٠ عندما أصبحت المرأة طرفا فى الموضوع ، هنا فقط تطورت صناعة الحلى وصارت لها قصة طويلة ٠٠ فى التاريخ ٠٠ والفن ٠

وقد رأيت فى المتحف فى حجرة (حتب حرس) والدة خوفو ، نماذج رفيعة من تشكيل الذهب فى الحلى والآنية ٠٠ أى أن مصر منذ عصر بناة الأهرام صاغت الذهب وشكلته تشكيلا ٠

يقول الدكتور عبد الرحمن زكى أن العلامة برثلوت قام ١٨٩٤ بتحليل عينة من عقد الأميرة الفرعونية (نوب ــ حتب) من أميرات الأسرة الثانية عشرة ، فوجد تركيبها كما يلى ٨٢٫٩٤٪ من الذهب ، ١٦٫٥٦ من الفضة ، و ٥٪ من النحاس ٠

أما الأميرة خنو مويت فكم أبدعت لها الأنامل المصرية من الحلى الأخاذة ولعل أروعها تاج من زهور زرقاء ورصعه الصانع الفنان بالعقيق الأحمر المركب على مخرمة ذهبية ٠

انه الفن المصرى فن النمنمة وترصيع الذهب وتحبيب الحجارة الكريمة ٠

وليس الذهب وحده ٠

لقد شكل الفن المصرى المرمر والاردواز والرخام الزاوى والقرنفلى والديوريت ٠

الفن المصرى القادر من يومه على صنع التحف من الرقائق المتموجة معلنة انتصاره على الصوان وسيطرته على المادة ٠

لقد كنت فى السطور السابقة أتكلم عن الصين فاذا بمصر تشدنى اليها ثانية ٠٠ لأتكلم عن فنها فى الحلى ٠٠ وفى التشكيل ٠

صحف الدنيا لا تكفينى للحديث عنك يا أمى ٠

الكتابة وأصحابها :

يقول ديورانت فى (قصة الحضارة) : كان المصريون (يصرون على ألا ينقشــوا على آثارهم الا الرموز الهيروغليفية الفاخرة الجميلة • ولعلها أجمل نمط من الكتابة عرف حتى الآن) •

ويتبين صدق هذا القول من المقارنة بين الكتابة المسمارية والكتابة الهيروغليفية فالكتابة المسمارية لا يبدو عليها انشراح الصدر بينمـــا الكتابة الهيروغليفية عليها سمة الانشراح •• حروفها كائنات : أناس وحيوان ونبات •

وانشراح الصدر سر **الوسامة النفسية** فى الكتابة المصرية ، وفى التمثال المصرى ، وفى الروح المصرية التى تسميها خفة دم •

وانشراح الصدر سمة من سمات القلب المصرى الذى خلق الفن مبكرا دليل طمأنينة وسكينة بعد أن زرع وعرف الرعاية والشمس والماء والحيوان •• اصطلح مع المكان وتحاب حتى عدت مصر فى عينيه جنة خالدة •

وحين اصطلحوا مع الحياة ، أكسبهم « التلافى » انشراح الصدر ، وانفتاح القلب وقراره وقرته فأعطوا بسخاء من معين فياض •

ويسلمنا حديث الكتابات الى اللغـــات فالعربية التى تملك فى الكتـــابة عشرات الأنمـــاط تملك غير فن الخط ، فن النغم فهى من موسيقيتها وألفاظها وما بينها من فروق فى وفرة وافوة تعينهـــا على الوزن •• ان اللغة اليابانية مثلا ألفاظها كلها تقريبا تنتهى بحرف مد مما يصعب مهمة الشاعر فلا يعرف كيف يختار ولهذا لم يعرف شعرهم التفعيلة •

واللغة اللاتينية لا تجيد تكوين الكلمات المركبة •• وكم ضـــاق كاريشـــيوس وشيشرون بفقــرها اللفظى حتى لبعجــزها بيــان الفروق الدقيقة فى المعنى الواحد •

وأراد « هين » الاستعلاء على هذا فقال (لو اضطر الرومان الى تعلم اللغة اللاتينية لما وجدوا لديهم من الوقت ما يسمح لهم بفتح العالم) •

وهو تعليل يكشف أكثر مما يدارى • ويبدو أن الرومان لا يهمهم الا القوة والنفوذ أما الفنون فلا يغبطون عليها أهلها • ان شـــاعرهم فرجيل فى الانياده يقول (فلتحول الشعوب الأخرى الرخام والبرونز الى شخوص حية ولترسم مسارات النجوم •

أما أنت يا ابن روما ، وواجبك أن تحكم العالم) ·

لقد هجرت « فرجيل » فى هذه المقولة عرائس الشعر ·

ان تشكيل الرخام أو البرونز أو أى عمل فنى رائع انما هو رؤية لأجيال مجتمعة فى رائعة فنية ·

ان العمل الفنى الرائع كلمه خضراء تستــوعب رؤى عصر من العصور للكون بصورة مصفاة ممماة ·

الأثر الفنى عمل نحس أن صاحبه توضأ قبل أن يزاوله ·

عمل كأنه الاستجابة لدعوة امرأة فرعون ·
حقا انه قصر من الجنة ··

فن الكتابة فى الأدب العربى

حين يدور الحديث عن الاسلام تقول كتب الدين والتاريخ معا ان الهجرة من مكة الى المدينة هى نقطة التحول فى المرحلة الأولى ولكنى أقول ان نقطـة التحول بادىء ذى بدء هى القراءة أى العلم فالآية الكريمـة (اقرأ باسم ربك الذى خلق) هى الخط المميز بين محمد الانسان ومحمد الرسول وهى مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة الاســلامية وتأتى الآية الكريمة (ن ٠ والقلم وما يسطرون) فتعززها ٠

غالية السطور قد تفوق الجواهر حين تصاغ منها الكتب المنزلة ، والوصايا المرسلة ، والحكم الخالدة ٠

غالية الكتابه حل وعقد فحين تعتلج فى صـدر الانســان مشكلة ، ينفضها على السطر ، واذ يكتبها تتحدد هى ، ويتخفف هو ٠

وينتشر الاسلام فى الأرض وتصبر له دولة وصولة وحضارة وفن فاذا بالخط العربى جدول من نهر الفن الاســلامى يموج مثله ويسيل حلاوة ٠ ان من يتأمل الحروف الهجائية العربية يجدها عبارة عن ألف متحركة تميل وتنقوس وتستقيم ٠

فى الكتابة العربية تسمع موسيقى الشكل ٠ حقـا تأثر الخط العربى الكوفى بالصين دون أن يقلد وبهذا تحولت العطايا الصينية الى هدايا اسلامية ٠

وعظم الاسلام العلم والتسطير ونزل كتابه بيانا رائعا وفائقا ٠٠ باهـرا وفاخـرا ، فانبثق الخط العربى من هذا النبع الروحانى فجوده أصحابه ، وقدموه اضافة حضارية الى تراث الانسان ٠

ولم يقتصر الخط العربى على حروف مرسومة عاطلة ٠ أو منقوطة ، بل غدا غاية ووسيلة حتى ليقول الامام على (الخط الحسن يزيد الحق وضوحا) وقد فصل القلقشندى الحديث عن هندســة الحروف العربية فى الجزء الثانى من صبح الأعشى ٠

وصارت له أصـول وقواعد وهيئـة تتغير وتتطور ما بين تحرير وتحوير ٠٠ ينبلج على الصـفحة كالنيـة الحسـنة ، أو يغمض كالرمز ، ويستخفى كالسر ٠٠ وهو فى الحالين يغترف من نبع صاف وراء المسلم

كاتبا وراسما ومصورا ، آيات قرآنه الهامات واشراقات تضيء جوانب نفسه وتنعم احساسه فيجود بالفن ويجيد ٠

ودخل الخط العربي في الفن الاسلامي حتى صار أحد معالمه وبلغ من أمره ان قال النقاد الفنيون في مؤتمر الفن الاسلامي الذي عقد بلندن سنة ١٩٧٦ في شبه اجماع ، ان الفن الاســـلامي على اختلاف أوطانه متشابه . وعزوا هذا التشابه الى الخط العربي ٠

الفن الاسلامي يشد بعضـــه الى بعض رباط بلا شك ٠ فما الذي يربطــه ؟

ان العنصر الرائع الذي يربط عطاءات الفن الاســـلامي في أوطان عدة ، انما هو الفكر الاسلامي ثم تجيء الكتابة العربية فتستوعبه ٠

وهنا أنتقل بالحديث من الشكل الى الموضوع ٠٠

ان فن الكتابة هو فن الفكر وفن الذوق معا ٠٠

فن الفكر بما ضمنها الكاتب من معان ، وفن الذوق بما يخلع عليها الكاتب من حلاه ورؤاه ٠ والتقاء المعنى بالأسلوب في الكتابة لون من (العلاقات الفاضلة) ٠

وهنا تصبح الكتابه عطاء نفس ، وحكمة روح من يؤتها فقد أوتي خيرا كثيرا ٠ ولعل القلقشندي كان يعني هذا حين قال : (ان الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها) ٠

ان كتاب صبح الأعشى ، جمع أطرافا من المعـــارف على طريقتهم في التصنيف والتأليف في عصره ولكنه قام أصلا من أجل التعريف بالكتابة والكتاب حتى استمد اسمه منها فهو (صبح الأعشى في صناعة الانشا) -

واعتزاز قومنا بالكتابة ، عز حضاري يجب أن تلتفت التربية اليه في عصر يفاضـــل في اصرار بين (العلمي) و (الأدبي) كأن المعرفة الانسانية تتفاضل أو كأن علوم الوسائل الثقافية تتعارض مع علوم الفن والتصوير والتعبير ٠

لقد كان من قومنا من يقول : (الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة ، اليها ينتهي الفضل ، وعندها تقف الرغبة) ٠

على أن الكتابة في رأيي بل رأيهم أيضا خير وأبقى من الخلافة حتى قالوا (كفى بالكتابة شرفا أن صاحب السيف يزاحـم الكاتب في قلمه

ولا يزاحمه الكاتب فى سيفه · ومن ثم صار السلطان الذى هو رئيس الناس ومستخدم أرباب كل صناعة ومصرفهم على أغراضه ، يفتخر بأن نكون فضيلتها حاصلة له مع ترفعه عن التلبس بصناعة من الصنائع الحسنة ، وأنفه أن يقع اسم من أسمائها عليه · وأن كل ملك وسلطان يؤثر أن يكون له حظ من بلاغة العبارة وجودة الخط ، وفى ذلك ما يدل على أنها أشرف الصنائع رتبة وأعلاها درجة ·

العتبى وحده هو الذى رأى ، وشايعه المأمون ، (الأمية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضيلة ، وفى غيره نقيصة لأن الله تعالى لم يعلمه الكتابة لتمكن الانسان بها من الحيلة فى تأليف الكلام ، واستنباط المعانى فيتوسل الكفار الى أن يقولوا اقتدر بها على ما جاء به)·

يا أيها الأمى حسبك رتبة

فى العلم أن دانت بك العلماء

والمتأمل فى التاريخ الاسلامى يجد أن خلفاءه الراشدين كانوا كتابا للرسول وأن مؤسس الدولة الأمويه وغير واحد من خلفائه كانوا كتابا ·

ووجوه الدولة العباسية وفى مقدمتهم جعفر بن يحيى بن خالد ·

والأدب العربى المولع بالجدل والمفاضلات والترجيحات ، فيه صفحات فى ترجيح النثر على الشعر ، وبالطبع فى تفضيل الشعر على النثر · ومن طرائفه أوصاف للكاتب تجعل منه (جنتلمانا) فالمهذب بن مماتى فى كتابه (قوانين الدواوين) يرى أن (يكون الكاتب أديبا ، حاد الذهن ، قوى النفس حاضر الحس ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، له جراءة يثبت بها الأمور على حكم البديهة ، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الرؤية ، شريف الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق ، مأمون الغائلة ، مؤدب الخدام) ·

ويضيف محمد ابراهيم الشيبانى الى هذه الصفات ، ملاحة الزى ، وعطر الرائحة ، ورفاهة المركب ، والوسامة والرشاقة ، ففى رأيه أن الكاتب (لا يكون فضفاض الجبة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية ، عظيم الهامة فانهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة) !! وهى رقة حس نحسب لهم ·

ولكن أعذب وصف عندى للشاعر قول شاعرهم :

وشمول كأنما أعتصروها

من معانى شمائل الكتاب

كان (كاتب الرسائل) أخص الخاصة عند الملوك فهو موضع المشورة وهو مستودع السر وأهم من هذا أنه (يؤامره فى مشكل رأيه حتى يتنقح ، ويراجعه فى مهم تعبيره حتى ينضج) ٠

وهذه الصفة الأخيرة حلم الصحافة فى الحرية ، وحلم الشعوب فى الديمقراطية ٠

وفى الدوله الفاطمية كان الكاتب (أول أرباب القطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطفات ولا سبيل أن يدخل الى ديوانه أحد ، ولا يجتمع بأحد من كتابه الا الخواص ، وله حاجب من الامراء الشيوخ ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمسند والدواة العظيمة الشأن ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره الى مجلس الخلافة) ٠

وحين أخذ حكام المسلمين ، بعد الخلفاء الراشدين ، سمت الملوك ومظاهر الممالك والدول ، خلعوا على الكاتب ألقابا فهو عند الأمويين (الكاتب) كما يقول القضاعى ، وهو بدرجة وزير عند العباسيين — كم من ادباء العصر الحديث يتصورون الآن — وهو فى الدولة الفاطمية (كاتب الدست) كما يقول ابن الطوير ، وهو عند المماليك كاتب السر فاذا شاء العامة أن يستبدلوا الميم بالباء ، فهو كاتم السر ٠

وهو بين هذا وذاك صاحب الديوان بل صاحب القلم ٠

وهذا الوصف الكريم بالطبع لمن له الخلق والكتابة ٠

أما ماعدا هذا فدونه بكثير ٠

والكاتب المبتدع فى رأيى أكبر أيضا من الصورة التى رسمها ابن قتيبة وأبو هلال العسكرى فى «الصناعتين» ٠ وقد يكون ابن الأثير اقرب الى وصفه منهما ٠

ولكن أن يكون الكاتب موسوعيا فى رأيهم خير من أن يكون الكاتب دعيا كما حدث بعد تقدم الطباعة وتعدد الصحف ٠

وربما اشترطوا علم الكاتب به ، (ما نطقت به العجم على وفق لغة العرب لعدم وجوده فى لغتهم) صبح الأعشى ج ١ ص ١٥٨ ٠ وهو اعتراف من الأسلاف بالتعريب وبما فى طبيعه اللغات الحية من الأخذ والعطاء ٠

بل اشترطوا علم الكاتب بما تلحن فيه العامة وتغيره عن موضعه ٠

وقد تكفل ابن قتيبة بلحن أهل المشرق فى (أدب الكاتب) كما تكفل ابن مكي التونسى بلحن أهل المغرب فى كتابه (تثقيف اللسان) ٠

ومن فطنتهم أن استحبوا للكاتب معرفة اللغات الأجنبية ٠

وقد أوجبوا ضرورة المعرفة بعلوم المعانى والبيان والبديع ووجه احتياج الكاتب الى ذلك من سلوك سبل الفصاحة ، واقتناء سنن البلاغة وطول ترديد النظر في المنظوم والمنثور ، ورياضة القلم على الانشاء للانطباع والصقل الخ ما ذكره أبو هلال العسكرى ٠٠٠

ومن الطريف ان الشيخ بهاء الدين السبكى رأى فى (شرح تلخيص المفتاح) ان أهل مصر لا يحتاجون الى هذه العلوم وأنهم يدرونها بالطبع . « بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم ، والفهم المستقيم ، والأذهان التى هى أرق من النسيم ، وألطف من ماء الحياة فى المحيا الوسيم ٠ أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشار اليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة ، فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء ، فضلا على الأعمار . ويرون فى مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار » ٠

والسيف مالم يلف فيه صيقل
من طبعه لم ينتفع بصقال

أقول ومصر بالحس الحضارى لها فى الفنون أسلوب يمت الى أصالتها فى الذوق ، ومنهج يمت الى عراقتها فى المعرفة ، وقد غلب أسلوبها كشخصيتها حتى ان الفارابى عندما دخل مصر ٠ ومعه كتابه (المدينة الفاضلة) سأله المصريون أن يجعل له فصولا ويعمل على قسمة معانيه فعمل هذه الفصول بمصر ٠ سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ٠

وبمناسبة الحديث عن علوم المعانى والبيان والبديع ، يحق لنا القول أن مصر كانت لها مدرسة بلاغية أدبية تقابل مدرسة المشرق البلاغية الكلاميه ، ولمدرسة مصر ، فضلا على المسامتة آثار فى المدرسة الفلسفية بالمشاركة القوية والتوجيه الخاص فقد نقدت مصر ، نقدا عليه مسحة من التهكم ، مدرسة البلاغة الكلامية ورجالها وعلى رأسهم الرازى والتفتازانى ٠

كانت مصر فى تصنيفها فى البلاغة تستبعد بروحها الفنية . الفلسفة الكلامية ، استبعادا فيه بغض لها حتى ليسمى رجالنا السبكى ، هذا الاستبعاد . « تطهيرا » ٠

وعمل مصر في البلاغة من خلال صاحب كتاب (عروس الأفراح في شرح وتلخيص المفتاح) يتميز بنفورها من جمود الفلسفة وجفافها والاتجاه بها اتجاها عمليا ٠

كما تتميز بالموضوعية فى البحث ، والتعمق والمقارنة ، والربط ، والتحقيق والتصحيح ، والاستنتاج ، واللمح ، والأناقة الحضـــارية ، واللباقة ، والرهافة ، والذوق الشاعرى وما يملك من رقيف وتفويف ٠٠ والدقة وسعة الأفق ، والبسطة والرحابة وطول النفس بلا عصر ولا تزمت مما يغلب على كتب البلاغة الشرقية فى ذلك العصر ٠

هذه مصر فى البـلاغة وهى فى (علم البديع) أبدع فقد وصـل المشارقة وعلى رأسهم السكاكى الى تسعة وعشرين نوعا من البديع ووصلت مصر على يد ابن أبى الأصبع الى بضع وعشرين فوق المائة منها عشرون من ابتكاراتها بشهادة النقاد فى ذلك العصر مع ما فى هذه الشهادة من غبن المنافسة الطبيعيـة بين النظراء والا فلماذا لم يلتفت غيرها الى عشرات الأنواع التى لمحتها مصر بالذكاء والتوقد والبراعة ولطف الحس ؟

وبعض ما ابتكرت مصر أو نفذت اليه مصر بالذوق الحضارى :

النزاهة : نزاهة الهجاء عن الفحش ٠

والتدبيج : وهو فن التعبير عن المعانى بالألوان ٠

والتصرف : وهو اللعب بالكلام فى براعة وغضارة وعندرة ٠

والتهكم والتندر : ومصر بخفة الظل لا تجارى فيه ٠

وطبيعى ان تهتدى مصر الى هذه الألوان بوحى من طبيعتها ، وبمدد من ماضيها ٠ ومثل هذا الصنيع فعلته مصر حين أذاعت فى الأدب العربى شعره ونثره فن التورية ٠ ولا أحسب غير مصر قادرا على التورية بكل هذا الظرف والرقة اللذين أشاعهما ابن نباته فى بيتيه وقد أهدى اليه صديق تمرا رديئا :

أرسلت تمـرا بل نـوى فقبلتـه بيـد الوداد فما عليك عتـــاب

واذا تبـاعدت الجســـوم فودنا باق ونحن على (النوى) أحباب

لا أريـد أن أسترســـل فى الحديث عن دور مصر فى البـــلاغة حتى لا يسرقنا من الموضوع الأصلى ٠

وفن الكتابة لمن وهبها تعين عليه العربية فهى كما قلت مرة ، غنية بشـاعريتها وبألفاظها وموسيقيتها وحساسيتها المفـرطة فى التفريق بين

الحروف حين تعبر ، ومدها الصـوت بالألف والواو والبـاء حين تلين ، وتوظيفها الهاء والسين حين تهمس ٠٠ العربية القادرة على اللعب بحروف قليلة تقدم فيها وتؤخر فيختلف المعنى اختلافا واسعا وبارعا فمن الفاء والياء ومعهما الحاء مرة والواو مرة والزاى مرة والشين مرة تستطيع اللغة العربية أن تعطى هذه الأصوات والمعانى :

حفيف الشجر

وزفيف الريح

ورفيف الورد

وشفيف النفس

ورهيف المشاعر فى كل صورة من هؤلاء ٠

ولكن هل الكتابة بالعربية تعد لها المدرسة أو تعين عليها الكتب ٠ أو يستقبلها القراء أو تحتفى بها الحياة ؟

هل العربية تتغلغل فى شعور أهلها وتعيش معهم أفراحهم ومسراتهم تعبر عنهم وتغـدو جزءا لا ينفصل من أيامهم ٠٠ يحبونها حبهم لأنفسهم لأنها بضعة من النفس ؟

محرومة اللغة العربية من هذا الحنان والولاء ٠

وفى هذا الجو لا يجيدها متعلم ولا هو يرغب فى اجادتها ٠٠ ويجد المنتصر لها عزوفا وعنتا يملؤه حسرة وحرجا فيغدو بتمسكه بها كالقابض على الجمر ، ثم لايطول احتماله للتضحية فيخفف من وعده الشخصى لها غير المكتوب وغير المطلوب اذ بذله من تلقاء نفسـه حسبة واحتسابا ٠٠ والحب لا يعيش على الاحسان أو الامتنان بل ينمو على الحنان الواصل ، والشوق المتجدد ، والاقتناع الواثق والوثيق ٠

نتحدث عن فن الكتابة فى الأدب العربى ، واللغة العربية اليـوم تعيش فى مجتمعها فى غربة نفسية ، تلقى الزهد من القريب ، والاعراض من الحبيب ، والمنافسة من الغريب ، والمضارة من الدخيـل ، والمحاربة من العدو ٠٠ كان لها الله ٠

لقد قلت وكتبت أكثر من مرة أن العربية الفصحى لكى تصير لغة كتابة لا بد أن تعمل لهذا ، بمواجهة مشكلتها مواجهة أمينة وشجاعة فان العلاج ان لم يكن جذريا ، ، قفل الجرح على نغل ، ولم على فساد ، ونم على تفريط وتوريط الطبيب ٠

لابد من علاج جذرى يسهل اللغـة العربية ، ويبسط ، ويحبب ، ويؤلف القلوب قبل الكتب لنجد اللغة العربية من يقبل عليها • ويقرؤها، ويتحدثها ، ويتذوقها ، ويفخر بها •

لن يجدى شيئا على العربيه ، الخطب المنبرية والصاقهـا بالدين للتخويف والارهاب فاذا بالبعد يزيد بعدا وابعادا واستبعادا لأن الحب لا يصدر به أمر من السلطان وحاشا أن يصدر به أمر ، من القرآن •

ما الحل لكى تصبح اللغة العربية لغة كتابة ؟

للعربية الفصحى ثلاث أزمات :

★ أزمتها الذاتية من جراء نحوها وصرفها فى المقدمة •

★ آزمتها الداخلية مع العامية (العايشة) المتجددة المتبغددة التى تسيل عذوبة من طول ما أترعها النيل ودللها أهلها • ومن التدليل الذكر المتصل ، والتحدث الدائم ، والتنعيم والتنغيم •

★ آزمتها الخارجية مع اللغات الأخرى وأصحابها ••

أصحابها من أهلها وأهلنا •

آزمتها الذاتية يكفى فيها على سبيل المثال (الفعل فى النحو العربى)•

الفعل فى اللغة العربية أفعال عادية وأفعال القلوب وهذه تنقسـم الى أفعال اليقين ، وأفعال الرجحان •

وهناك أفعال التصيير والتحويل •

وهناك أفعال مستثناة من كل هذا أى جامدة لا تتصرف فالفعل تعلم من أفعال اليقين (ملازم لصيغة الأمر) •

والفعل هب من أفعال الرجحان (ملازم لصيغة الأمر) أيضا •

والفعل وهب من أفعال التصيير (ملازم لصيغة الماضى) •

وفى اللغة العربية الأفعال النواسخ وهى ثلاثة عشر فعلا : كان واخواتها مثل : أمسى ــ أصبح ــ صار •• الخ •

وفى (صار) هذا وردت أفعال أخرى بمعناه عددها عشرة أفعال : (آمن ، رجـع ، عاد ، استحال ، قعـد ، حـار ؛ ارتد ؛ تحول ؛ غدا ؛ راح •••) •

هذه الأفعال تصير ناسخة اذا ورد استعمالها بمعنى الفعل ـ (صار) وهناك حالة استثنائية لأخت من اخوات كان أو أخ وهو الفعل (عسى) فهذا الفعل لديه القدرة على الحركة أو تزييف نسبه بالدخول فى أسرة أخرى أى أنه يمكنه أن يكون من أخوات (ان) بدلا من أخوات كان !!

كيف كان ذلك ؟

بسيطة ٠٠ اذا اتصلت به ياء المتكلم أو كاف الخطاب ، أو هاء الغائب ، فى هذه الساعة ، ينصب الفعل (عسى) الاسم الأول ويرفع الثانى !!

أى نصب ؟!

وهناك أفعال ناسخة ناقصة تماثل كان وأخوانها ٠ وناقصه يقصد بها النحويون انها لا تكتفى بالاسم المرفوع بعدها ٠ ويختص خبرها بطريقة متفردة يأتى عليها وهى ان يكون جملة فعلية ، فعلها مضارع ، رافعا لضمير الاسم السابق ، مقترنا بأن أو مجردا منها ٠

وهناك طبعا أفعال المقاربة ، وأفعال الرجاء ، وأفعال الشروع وأسماء الأفعال والأفعال الماضيه التى تجىء على صورة الأمر فى أسلوب (التعجب) ٠ والفعل فى النحو العربى له تقسيمات أو متاهات أخرى :

فهو أولا صحيح ومعتل ٠

والصحيح ينقسم بدوره الى ٠

سالم ـ مهموز ـ مضعف

والمعتل شرحه

مثال ـ أجوف ـ ناقص

والفعل المثال حين يسند ، يعمل ، فالنحويون يحتمون أن تحذف واوه من الأمر والمضارع المكسور العين وان تبقى واوه مع الأمر والمضارع المفتوح العين والمضموم العين ٠

أما الأجوف منه فيحذف حرف العلة مع ضمائر الرفع المتحركة ويبقى حرف العلة مع ضمائر الرفع الساكنة !

نأتى للناقص : يحذف حرف العلة مع واو الجماعة وياء المخاطبة ويبقى حرف العلة مع ألف الأثنين ونون النسوة ٠

وليست الأفعال وحدها التى تتمتع فى اللغة العربية بهذه المتاهات ، ان الميم والألف أى (ما) لا يخطر فى بال جن أن (ما) فى اللغة العربية لها هذه التخريجات والتفنينات ·

فهى : اسم موصول واسم استفهام واسم شرط ونكرة موصوفة و (ما) للتعجب ، و (ما) للنفى ·

و (ما) هذه تكون : كافة ، وتكون زائدة ، وتكون مصدرية ظرفية وتكون مصدرية غير ظرفية ، وتكون مهيئة أى تدخل على كلمة غير شرطية فتجعلها شرطية !!

و (ما) تكون مغيرة أى العكس فتدخل على أداة شرطية فتجعلها غير سرطية !!

و (ما) تقع صفة للتحقير أو التفخيم أو النوعية !!

أما حين نصطحب الميم ، الكاف فتلك فزورة أخرى · ففى اللغة العربية (كم) تكون مرة عددية ومرة استفهامية ومرة خبرية ونعرب مرة مبتدأ مبنية على السكون فى محل رفع ؛ ومرة خبرا ان كانت استفهامية ··

وتمييزها مرة ظرف زمان منصـــوب ومرة (فى الخبرية) مفـــرد أو جمع مجرور ·

حتى الحرف المفرد لديه القدرة على اللعب بنا ! فالنون مرة تكون نون النسوة ومرة تكون نون التوكيد · ونون التوكيد بدورها مرة تكون ثقيلة ·· ومرة تكون خفيفة ·· ربما بعد ان خفت عقول كثيرين بسببها ·· والله أعلم ··

وهذا جزء بسيط من مادة (الفعل) فى النحو العربى ··

أما أزمة اللغة العربية الداخلية مع العاميـــة التى استأثرت دونها بالبيت والحديقة والمصنع والمتجر والسوق والمسرح والســـينما فظلت ىرى بالمفردات الجديدة والعبارات الطبيعية والاصطلاحات الطريفـــة واللمحات الذكية والابتسامات والضحكات ·· فهى شباب على طول ·

حتى حين تتكلم العامية بالعربيـــة فهى تفعل هذا باختيـــار حين تختار من ألفاظها ما يعجبها فيكون الاعجاب علامة فى الوقت نفسه على الاعراض عن المتروك والمهمل · بل تفصح العامية عن الرأى حين تمسخ الفصيح بـ (الحلمنتيشى) وتقحم القافات فى خبث والظاءات فى نهرها الجارى فى كاريكاتيرية ، مداعبة أو ملاعبة ·

وكأن مصر حين عـرب الخليفـــة عبد الملك بن مروان الدواوين سنة ٨٧ هـ تبتسم وتفول بناقص الدواوين :

واصطنعت لنفسها لغة تمنحها مع القلب ، المنزل والمجلس ، والسوق والنهار والليل ، ومضى الشعب يســـجل عواطفه وتجاربه وأيامه بلغته العامية ٠٠ بلغته الشعبيه تجمعت له في الأربعة عشر قرنا ثروة تنضم الى ثرواته السابقة في فن القول ٠٠ والفصحى تنظر وتتململ في قيودها التى أثقلوها بها وهم يحسبونها حلى لها يحسبونها عليها ميزة وامتيازا فاذا بها أغلال تعوقها عن مسايرة الزمن فلا تروق ولا تشوق في العصر التركى ، ولا تسعف ولا تطرف في عصر التكنولوجيا ٠ فلم يك بد من نفض ما علبها وما علاها لتنطلق في التعبير وتستوعب الجديد وتجد في الترجمه ، وتنقل بادىء الأمر ثم نبتكر وتسهم في حضارة العصر بالتعبير والتسجيل والتحصيل أيضا فبعض الكليات العلمية تتخذها وســـيلة للتعليم الى جانب لغات العلم والحضارة ٠

وحين حصرت العـــامة ، الفصـــحى في الرســـمية وحاصرتها فلم تتغلغل في حياة كل يوم ، حرمتها النماء والتفتح والازدهار والطواعيـــة والتفاعل والتجاوب ، حرمتها أن تكون سجلا ورباطا ومستودعا للحيـــاة المصرية خلال بضعة عشر قرنا ٠٠ وكأنها أيام ضائعة منها وضائعة عليها ٠

تعيش العامية على سجيتها في الأخذ والعطاء ٠ من اللغات الأخرى وتعيز الناس على الحياة بما تسعفهم به من مسمياتها وعلى وجه السرعه (عايشة) ٠٠

ان اللغة كائن حى ، يموت اذا توقف عن النمو والحركة وتنفس الهواء الخارجى وتمثل الغذاء الخارجى فان لم يفعل ، عاش سقيما وهزيلا لا يقوى على منازلة الخصوم ، أو رد الهجوم أو تسديد موقف ٠

وشبيه بهذه الحال ، العربية حين ترهق بالقيود وتصاب بالجمود ، وتتوقف عن النماء بعزلتها عن لغات الحياة ناسين أن كتابها الأكبر وذخرها الأكبر استعمل كلمات مثل (استبرق) وهى لفظة فارسية !!

وبعد فأين الحل :

نراجع العربية في عملية تنقية ـ وتحليـــة ـ في محـــاولة تجديد شبابها باستبعاد البالى من صيغها وجلاميد الصخر اياها ٠٠ ثم اصطفاء الرائق الجميل من صورها وعباراتها وما أكثره ٠

ونحاول التقريب بينها وبين العامية فليست العاميــة لغة أخــرى أو أجنبية ٠٠ انها العربية المصرية ٠

فما خف وشف ، مع الصحة اللغوية ، فى اللغتين نأخذ به ونشيعه فى الكتابة والحديث حتى تسهل مهمة المدرسة ومهمة الفصحى فلا ينظر اليها النشء على انها علم مدرسى للامتحان ولكن على أنها لغة حياتهم فى البيت والمدرسة على السواء ٠

تسهيل اللغة بقصر النحو على ما يصــــح به التعبير دون الدخول بالطلاب فى متاهات القواعد واستثناءاتها وتسهيل اللغة بقصر المتن على السائغ الشائع ٠٠ وتخفيفها من المترادفات ٠ وتعدد الأسماء للسيف والأسد وغيرها ٠ فهذا البحر من الكلام لا يخدم غير أصــــحاب البحور وحروف الروى ٠

عدم فصل النحو بل تعليمه مع النص الجميــل كجزء منه يضبط ايقاعه فى محاولة اساغة الاعراب ٠ فاذا أخطأ الطالب بعد هذا فلا نكبر من خطئه الاعرابى أو نعلن صعوبة النحو بل نحاول الاتيــان بشبيه من اللغات الأخرى التى تدرس فى محاولة اقناع بأن اللغات كلها لها نحوها الذى يضبط الكتابة والنطق ٠٠ نضيف الى هذا فى عملية تحبيب ان كل جهد مبذول طبيعة تعلم الجديد وثمن الوصول الى مرتبة الخاصــة الذين يعرفون الصواب اذا تكلموا أو كتبوا ٠

الترفق فى تعليم الاعــراب والاقتصــار بادىء الأمــر على الحركات الأساسية والأصلية مع التبسيط وتنحية التفريعــات والتخريجــات والاستثناءات حتى لا نشوش الطلاب ولا نثقلهم ونثقل عليهم ٠

تعميم الضبط حتى يتعود القارىء القراءة الصحيحة بطول المران وطول المدة ٠

غربلة التراث مع احاطة مبسرة بالظروف الاجتماعية والســـياسية والعلمية التى أحاطت بأصحابه وأثرت فيهم وبالتالى شكلت من خلالهــم هذا التراث ٠

غربلة التراث مع تقدير واع لفروق الذوق النفسى والاجتماعى بين الأمس واليوم ٠٠ فروق العادة والخلقيات والخلفيات المؤثرة ٠ فليس بلازم أو لازب ان نؤمن على كل رأى ٠ وليس بلازم أو لازب أيضا أن نعارض لافتعال المعاصرة أو ادعاء التجديد ٠ فهناك أشــياء كثيرة يلتقى عندها

الانسان في كل زمان ومكان .. وأشياء كثيرة تتأثر باختلاف الأوضاع والملابسات . لكي تنطلق الفصحى أو ينطلق محبوها والصادقون في إصلاحها . يجب أن نفصل بين أن القرآن الكريم نزل بها فهي في قدسه مقدسة لا تمس وبين أن الذين يتكلمون بها بعد القرآن من بلاد مختلفة ومشارب مختلفة ومستويات حضارية مختلفة واللغة على ألسنتهم تتبع هذا كله فهي هنا بعيدا عن القرآن وسيلة حياة كسائر الوسائل لا أكثر تخضع للتحوير والتغيير والتطوير ويخضع هذا بدوره للصواب والخطأ .. وهذا طبيعي فلا داعي لأن يتصايح قوم ويثور آخرون حفاظا على القرآن .. ان الله نزل الذكر وانه له لحافظ . فليهدأ الأصدقاء والأعداء على السواء .

القرآن بعيد بعيد .. عال عال .. رفيع رفيع .. ولكن اللغة لغة الناس ، يجب أن تطوع نفسها للناس أو يطوعها الناس لمقتضيات حياتهم في غير حرج أو خوف .. اذا أريد لها الاصلاح والتطوير ثم النمو والازدهار .

في كل عصر يحس القائمون على اللغة والقائمون بتعليمها ، حاجة أبناء جيلهم الى بعث جديد في اللغة ، أحس هذه الحاجة المرصفي بل أحسها الشيخ حمزة فتح الله وهو الذي يتحدث الفصحى مع رجل الشارع .. أحس هذه الحاجة حفني ناصف وأحسها لطفي السيد كما أحسها في الأربعينات الخولي ثم أحسها محمود تيمور ويحيى حقي .. كل من زاوية وكل من منطلق خاص ولكنهم على اختلاف (وسائلهم) ومصادرهم يلتقون في القلق واحساس الصعوبة المعوقة .

وقد أضاف الأستاذ أحمد حسن الزيات الى أسباب التنكر للبلاغة العربية . السرعة ، والصحافة ، والتطفل ، وأنا أشير هنا الى كتابه القيم (دفاع عن البلاغة) الذي عالج فن الكتابة من جميع وجوهه وزواياه بالتفصيل والتحليل والتدليل من واقع التاريخ الأدبي والواقع القولي والعلمي .

تحدث بعامة عن الامتاع والاقناع واللغة والطبيعة والنفس والذوق ، وتحدث بخاصة عن الأسلوب من حيث هو فكرة وصورة أجل بكثير من الجمل البيانية أو المحسنات البديعية .

وهنا عرض لتاريخ الأسلوب العربي والصفات القومية أو العامة التي تشكل أسلوب أدب بعينه في جملته وتميزه عن أدب آخر حتى لا يخفى الفرق أو الفروق العامة بين اللغات الشرقية واللغات الغربية .

ومن رأى الأستاذ الزيات أن صـــفات الأمة كمـا تؤثر فى طبيعة اللغة ، تؤثر طبيعة اللغة فى أسلوب الكاتب (فاللغات التى اكتسبت من مدنية أهلها رقة اللفظ ، وأناقة العباره ، ومن شاعريتهم جمال الصور وروعة الأخيلة تغنى الكاتب بموسيقاها وحلاها عن كد القريحة فى ابتكار المعانى واستنباط الفكر) ص ٥٨ . وسلك فى هذا النوع اللغة العربية . وهى فى رأيى ، كما قلت فى مقدمتى لهذا الكتـاب الجليل الذى أشرف بكتابتها له ، ميزة وآفة معا ، فالأدب العربى فى جزء كبير منـه حـافل بالأصوات والأجراس ولكن المحصل الذهنى منه قليل . لقد تتالت عصور وقرون لاهم لها الا تنضيد اللفظ ، وترصيع العبارة ، بل اتخامها بضروب من المقابلات والتوريات والبديعيات المختلفة حتى غدا الأدب صناعة ، ثم تردى أكثر فانقلب شعوذة حتى قر فى النفوس كما يقول الأستاذ الزيات أن الأسلوب انمـــا يطلق على الجانب اللفظى من الكلام ، وما دروا أن الأسلوب جهد موصول لاشاعة الحياة فى اللفظ ببث المعنى وتجسيمه ، انه عبارة عن (النظام والحركة المودعين فى الأفكار) .

وفن الكتابة فى عصرنا أو فن البلاغة لا يتحقق فى رأيه الا من خلال صفات ثلاث جامعة هى :

الأصالة والوجازة والتلاؤم .

. الأصالة سمة الشخصية

والايجاز طبع وطبيعة الشخصية العربية

والتلاؤم فن الصياغة

وصعوبة فن الصـــياغة تأتى من ضرورة مطابقة الأسلوب لحركات النفس وصور الذهن وسير العاطفة ودرجتها فيه من الابطاء أو الاسراع وهذه الحالات التى تصاحب الخلق الفنى تحدد طريق الكاتب فيخـرج الأسلوب موجزا أو مرسلا أو مستديرا يمهد أوله لآخره ، وبين هذا وذاك يأخذ المعنى دورته .

هذه لمحة من دور فن الكتابة فى الأدب العربى من القديم الى الحديث هى على تشعب الآراء ، طواف وليست نهاية مطاف حتى يأتى اليوم الذى تصبح فيه العربية ، لجيلنا ، لغة كتابة أو للأجيال القادمة ، ألوانا من فنون العرض والأداء ، والتشويق والنفاذ ، فتصبح كتابتها فنا ، ويغدو فنها علما له أصول جديدة وقواعد يثرى بها حديث الكاتبين .

رأيت الله

رأيته فى عيادة الطبيب حيث يتحمل الناس الألم والقلق والانتظار ·· ساعين فى لهفة وراء صحة الجسم أو النفس ·· باذلين الوقت وما ملكوا لعلاج جزء فحسب من كيان كامل خلقته فى أحسن تقويم ·

هنا رأيت الله ·· رأيت أفضاله وآلاءه ·· بلا مقابل ، تهب يا وهاب البصر والسمع والشم ، والذوق ، واللمس ·

بلا مقابل تهب يا وهاب : العقل والنفس والقلب والروح ومواهب العقل والنفس والقلب والروح فيخترق ذكاء الانسان غوامض الأشياء فتنكشف ، وتلمس نفسه المعانى والمشاعر فترق وتدق وتسمو ··· وينبض قلبه فيثرى الحياة والأحياء ·· وتتوهج روحه فتضىء دنياه ودنيا الآخرين ·

من نعمتك الضياء ·· ضياء البصيرة والبصر

ومن نعمتك الخلود والصفاء ·· صفاء النفس وبقاء الأثر

ومن نعمتك الخصب : فى الانسان ، ذكاء فى الشعور والعقل ·· وفى الطبيعة ، ايناعا فى الزرع والنمو ·· حتى حب الناس ، نعمة منك يحظى بها السعيد الذى برأت نفسه من شرورها ، وقويتها على ضعفها ، وطهرتها من صغارها فغدت سوية نقية رضية يرضى عنها الناس لأنك عنها راض ·

كل ما يحسبه الساذج ، من الناس ، انما هو منك أنت ·

كل علوم الانسان منك يا واهب العقل المفكر والبصيرة النافذة ·

كل فنون الانسان منك يا واهب الاحساس المرهف ، والذوق المترف ، والخيال المجنح والقلب الشفاف ، والروح العاشق الرفاف •

كل فنون الانسان منك يا بديع الحياة والحي •• فمن بدائعك في السماء والسحاب والنجوم يستوحي الشاعر القصيد •

ومن روائعك في الأرض والبحر والطبيعة يستلهم الفنان : رساما ومثالا ومصورا وموسيقيا اللون والحركة والصورة والنشيد •

كل فنون الانسان منك يا مانح الموهبة كلمة معبرة أو ريشة مصورة ، أو أزميلا مشكلا — فلسفات الانسان كلها منك يا داعيا الى تدبر خلقك في السموات والأرض •

ليس كفاء لقدرتك سوى رحمتك
رحيم تسع رحمتك كل شيء •• كل شيء
حليم يسع عفوك المذنب والمسيء والعاصي
•• حين تشاء
كريم كرما لا يحد •

قد يعطي الانسان للزهو أو الفخر أو اصطناعا للغير ، أو اجتلابا أو اجتذابا للمدح والأضواء ولكنك تعطي للعطاء لا تريد جزاء ولا شكورا • على أن الشكر لك ، انما هو استزادة لعطائك •

قد يعطي الانسان ، فائقا ، حين يلمحك فيقلد الطبيب صنعتك فيشكل ضرسا من الأضراس ولكن بلا عصب وقد يرتق فتقا أو يرأب صدعا في الجسم الضعيف ، ولو تشدق ، في الصحة ، الانسان •••
وقصارى الطبيب في احكام صنعته وأداء رسالته ، تحية لقدرتك تنطق بها اجادته وعجزه على السواء •

ومن غرائب طبع الانسان أنه قد يفي للطبيب أو لصاحب معروف ثم يغفل عن ذكرك أنت الذي أعطيت بلا حدود •• بلا ثمن •• وأحيانا بلا مجهود منه بلا سعي •

أنا لا أريد أن أهون من عمل الطبيب ولكنني أصلي للحكيم الأكبر الذي وهبتني الحياة بنفائسها كلها ثم عدت فضاعفت عطاياك حين وهبتني البنات والبنين فأنا أراك بقوة لأني أنظر اليك بعيون كثيرة •• وأحسك بعمق لأنك تحل مني في نفوس عديدة •• وأحبك في صدق أستمده من سلاح الروح وطمأنينة النفس وايمان القلب •• وأستمده من نقاء الطفولة حولي •• أحبائي ، أحباء الله •

أنت أنت الله

كل يوم تتأكد نعمتك على ولست بغافلة ٠٠ وأجل عطاياك بعـد الدين والعقل ، نجابة الأبناء ٠

وقد وهبتنى البنات ووهبتنى البنين ٠

حبيبتان حياتهما نهر حنان وظل فينان ٠ زهرتان شبابهما ، بستان ـ وشقيق ٠٠ شقيق وصديق لأخته ٠٠ لأبيه ٠٠ لى ٠٠ واحد يفوق العدد الكثير بمواهب العقل فيه ، ومواهب القلب معا ٠

جمع فى فرد حبيبى الصغير الكبير ٠

فيوض منك يا ربى تفوق كنوز الأرض من المال ٠٠ وقد أغنيتنى ٠

دافق من سخائك لا أستطيع شكره حتى صلاتى ونسكى لا يؤديان بعض حقك عندى ٠٠ فالصلاة أنت غنى عنها وثوابها لى رضا وهـدى واعزازى بفضلك عمن سواك ، واستشعارى قربك الدائم فى علاك ٠

وتطلعت اليك أقول بغير حروف : هذا كله لى ؟ كيف السـبيل الى شكرك ؟ دليلى احتار ٠ لعل حيرتى هذه ، اقرار ٠

صالحت الأيام وسامحت أولئك الذين نالتنى جراحاتهم وعذاباتهم وسهامهم وخرجت من هذه المحن كلها أعمق ايمانا ، وأقوى ثقة ، وأصلب عودا ٠

وهنا أقول : أعطتنى الايمـان وهو أقوى سلاح ، وأنجع ضمادة للجراح ٠ وعيت الآن قول عالمنـــا الجليل ابن تيمية : (ماذا يستطيع أعدائى أن يفعلوا بى ؟ ان سجنونى فسجنى خلوة ٠ وان نفونى فنفيى سياحة ٠ وان قتلونى فقتلى شهادة ٠ ماذا يسـتطيع أعدائى أن يفعلوا بى ٠٠٠) ٠

ماذا أخذ أعدائى منى الى جانب نعمك يا وهاب ؟

كل يوم لك عطاء جديد . أعطيتني القلم فرأيت الحرف وهو ينبت والمعنى يولد في أعطاف النفس ، فيختلج الكيان .

واتسعت أمومتي حين عرفت روعة الميـــلاد مرات : أبنائي من دمي .. وأبنائي من عقلي .. كتبي والسطور .

حيوات كثيرة يحفل بهـا عالمي الخـــاص فأعيش عمري بالطول والعرض . ويطرح الأبناء كما يزهر الروض .. وتضرب جـذوري في أعماق الأرض التي أنتمي اليها فيغدو حبها ، وجدا وتصوفا من وثاقة الرباط .

أعطيتني العش أمينا وآمنا .. رضيا حفيا مؤمنا .

أعطيتني البصر والبصيرة فملكت النظر والرؤية .. وليس بالقليل هذا .. سئلت « هيلين كيلر » عن أقصى وأقسى شيء في الوجود وتوقعوا منها في مثل ظروفها أن تقول : كف البصر أو البكم أو الصمم ولكنهـا قالت : أن يكون الانسان له عينان **ولا يرى** .

بسلامة الفطرة وعمق التجربة نفذت الى الحقيقـــة .. والقرآن الكريم يقول :

(لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها) (١٧٦ لـ الأعراف) .

(وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) (١٩٨ لـ الأعراف ٧) .

اذن الابصار غير البصر . والنظر غير البصيرة .. انها مرتبـــة عليا وعطاء .. انها فقه المشاهدة ونفاذها .

كيف السبيل الى شكرك يا وهاب .

أعطيتني ما هو أعلى من البصر والبصـــيرة معا .. أعطيتني مصر والنيل . لبس «مرنبتاح» الملك وحده ، الذى يزدهيه وجودهما .. كلنا . جيلا بعد جيل نقول معه . (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون) .

وبعـد هـــذا يسلكنا المحـدثون في عنجهية لا تخجل ، من ترقيم الشعوب حتى العريقة منهـــا . يسلكنا رومان العصر الحديث في (العـــالم الثالث) !! ولو بادلوني كل ما عندهم ، بلمحة من وجه مصر ، لأبيت .

انها بمعاناتها .. بظروفها .. بآلامها .. بأوصـــابها .. حتى بسلبياتها التي هي ذنبنا وحدنا ، فمصر في ذاتها كالجمات بلا عيوب .

انها بهذا كله الذى أكابده ، الأروع والأجل والأكرم ٠

فما بال المفارنة اذا أخذت فى ميرانها أمجاد التاريخ ومراقى الخلود ؟

أدعوها الجنة وما أسديت ٠٠ وأعطيها العمر وما أضفيت ، فهو منها ميلادا وانتسابا واكتسابا ٠ لقد وصفها الله بالجنات لا واحدة : (كم تركوا من جناب وهيان * وزروع ومفام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين) ٠

والنيل فى القرآن الكريم « أنهار » لا نهر واحد ٠

ولم يذكر في القرآن الكريم من أنهار الدنيا ، غيره ٠٠ ولم يذكر بلد هذا العدد من الذكر الجميل النبيل كما ذكرت مصر والنيل ٠

ماذا أقول ؟ بأى لسان أسبح لك ٠٠ وبأى وجدان أصلى لك ٠٠ بأية دموع أبتهل لك ٠٠ يا واهب البلد والولد والسند يا الهى ٠

من احساسى بأن لا يبهرنى غيرك وأنت فوق الرؤى والنهى ولكنى أراك فى كونك الرحب الذى أبدعت ٠٠ أراك فى فنون الخلق الذى أترعت ٠٠ أراك فى كل ورقة شجر ٠٠ أراك فى دقة النملة المتواضعة وعظمة البحر الجبار ٠٠ أراك فى شمم الجبال ورحابة السهول ٠٠٠ أراك فى رقرقة النبع وفيضان النهر ٠٠ أراك فى الشمس وضحاها والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ٠

أراك فى متوع الضحى ٠٠ وأراك فى ربوع القارات التى تنقلت بينها فى السماء وعلى الأرض ٠

أراك فى سطوع الموهبة وأراك فى خضوع الانسان حين يرده الغرور اليك عاجزا يتوسل ٠ أراك فى « الخلية » التى عجز الانسان حتى اليوم ، على زهوه بصعود القمر وارتياد الكواكب أن يخلقها ٠ جسمى كغيرى به ملايين الخلايا لم يستطع غيرك الى يومنا هذا أن يخلق خلية واحدة ٠٠ ما أقدرك ٠٠ وما أروعك ٠

يغتر الانسان بعرض زائل من منصب أو مال ٠٠ ويدرك المؤمن بك ٠ أن الكل ، ضعيف والقوة لك ــ عاجز والقدرة لك ــ فقير والملك لك ٠٠ ملك الدارين فأنت رب العالمين وأنت مالك يوم الدين وهو جلال تنفرد به وحدك يا واحد ياذا الجلال والاكرام تقدست أسماؤك وتنزهت صفاتك ٠ ليس كمثلك شىء وليس لك كفوا أحد ٠

مسلمة أقول هذا اليوم ٠

ومصرية قلت هذا بالأمس من خلال رجلين من رجال العمـارة فى عهد امنحتب الثالث مما هو مسجل مشهود فى متحف لندن ورأيتـه رأى العين فى زيارتى للمدينة الكبيرة • يقولان :

انك موجـد دون أن توجد
مصـور دون أن تصـور
هادى الملايين الى السبيل
سـبحانك رب البشـرية
سـبحانك •• سـبحانك

ومتى كان هذا ؟
قبل ميلاد المسيح بأربعة عشر قرنا
هكذا آمنا بك قدامى ومحدثين •

أنت أنت الله

أنت أنت الله .. يحسبها الانسان المغرور اذا عاد الى صدر الطبيعة الأم فرآك فى بحرك وأرضك وسمائك وصحراواتك ومخلوقاتك حينئذ تملؤه الرهبة ، ويتملكه الجلال فيبتسم من اختراعاته التى غرته بوجهك الكريم .

كم هى صغيرة مخترعاته على ضخامتها .. انها فى صميمها وجوهرها تقليد لك .

الطائرة مقتبسة من طيورك

الباخرة مثلها على هيئة ذات القوادم والجناحين .

اذا أحسنا فصنيعنا لمحة منك ، وصوابنا نفحة من هداك .. وجودنا نفسه من وجودك ، وخيرنا من جودك .. فاذا وقعنا فى الشر فقد ظلمنا أنفسنا لا محالة لأنك هديتنا النجدين .. ولأنك ربنا أردت بنا رشدا .

تخلق الملايين فى كل جيل لا يعجزك التعدد والاختلاف وفى كل منهم ملايين الخلايا ثم يجوب الانسان الفضاء ويصعد الى القمر ولكنه يعجز عن خلق خلية واحدة ويدارى عجزه أو يعلنه بحكاية طفل الأنابيب .. حكاية لم يأت فيها بشيء من عنده .. النطفة من صنعتك ، ومحيطها الحيوى عطيتك ليس له فى الموضوع الا الأنبوبة ...

أنا لا أنكر محاولته وتفكيره فأنت دعوته الى التفكير والاجتهاد وأثبته عليه . وقد حثنا رسولك الكريم على الخطأ الذى هو محاولة التجريب حين قال : من عمل فأخطأ فله أجر ، ومن أصاب فله أجران .

أنا لا أنكر علم العالم فالعلماء أحب عبادك اليك بل ان العالم أفضل عندك من المجاهد .. وكم بين من يحيى الميت ومن يميت الحى .

أنا لا أنكر علمه ولكنى أنكر غروره وصلفه •

أنكر طمعه وجشعه •

يستكثر من المال والأعوان •• وينثر باليمين وبالشمال ويبنى القصور أبراجا مشيدة ناسيا قولك الكريم : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » • ومناسيا حكمك ياأعدل الحاكمين على الترف والتلف والسرف : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » •

أنت وحدك الحق •

ليس كمثلك شئ •• سبحانك سبحانك •

وهذا الانسان المتجبر يصبح فى المحيط أو الصحراء ،

قطرة من بحرك •

ذرة من رملك •

بسيط والعظمة لك •

ضعيف والقدرة لك •

عاجز والحول والطول لك •

تخلق العين باعجازها ويقدم المنظار •••

ترسم ريشتك الفريدة ، الصورة الباذخة الغنى ، الغنية التفاصيل ، ويصنع هو ، الاطار •• شعرا وموسيقى •• أنه اطار مرصع ولكنه اطار فحسب •

والكون كله منك ولك •

تبدع اللون ويأخذ الانسان الصبغة من ألوانك •

تنبت الورق والزهر والتمر •• العطر والنكهة والطعم فيوضا من احسانك •

ويبهر الانسان روعتك •••

ويشتد به البهر فيحاكى صنعتك •

مادته الشمع واللدائن والقماش •

فلا يضارعك لأنك أعظم ٠

ويتضاءل ما صنع وقلد ، الى جانب روائعك ٠

لأنك وحدك المتفرد على غير مثال ٠

لأنك وحدك الأجل المتعال ٠

انت انت الله ٠٠٠

اهتدينا اليك قبل التاريخ وقبل الأديان لأننا رأينا آيتك في جنتك قبل أن يلحقها جور أو شرور ٠

كانت بحق جنتك وليس هذا الوصف لأنها وطنى ٠٠

أنت قلت فيها أكثر

شرفتها بالذكر ٠٠ ذكر ما فيهـا من « جنات وعيـون * وزروع ومقام كريم » ٠

ووصفتها بأنها « ربوة ذات قرار ومعين » آويت اليهـا ، وأعليت فيها وبها الدعوات والرسالات ٠

فحين أتغنى بها فباسمك ناديت

ولك وحدك سبحت وصليت ٠

بما دلت هى عليك ٠

ووجهت اليك ٠

أنا فى كل حين أقول لها بعدك ٠

يا كثيرة الأسماء ٠٠ يا كثيرة الآلاء

حين أبتعد عن دنيا الناس باهتماماتها الصغيرة حجما ونوعا وغاية ، لأحج اليك وأطوف ٠٠ بقلب مشوف ٠٠ بشوق ملهوف ٠٠ أحس نفسى أنقى لأن نقاءك يمتد منك الى يا ذات المحاريب ٠٠ وكل محراب به يطاف ٠٠ بخطو ، الحب فيه يداف ٠٠

حين أبتعد عن دنيا الناس لألقاك وحدك ٠٠ لأرى وجهك فى السهل والجبل ٠٠ فى النهر والبحر ٠٠ فى الصحراء والوادى ٠٠ وفى كل منها لك جمال خاص ٠٠ لك عطر خاص ٠٠ لك مذاق خاص ٠

جميلة أنت

وعظيمة كنت

وكريمة مازلت

اليوم أطالع وجهك من على ربوة تطل على البحر والأزرق فيه ألوان تشغل العين والهوى والفؤاد .. على القرب حيث يصير اللون والرمال البيضاء حوله فى صفاء الزمرد .

وعلى البعد حيث تلتقى السماء بالبحر فى غلالة فضية .. ويعمق الأزرق ويصير مكثفا يسمونه الغريق وأسميه العميق الزاخر بالأسرار .

محيط لا نهاية له

السـماء فوقـى

البحـر أمامـى

الرمـل حـولى

محيط لا نهاية له

طبيعتـك كطبعك

صـبرك كصدرك

خـيرك كفيضـك

ياهب الوصف وراك وتظلين أكبر من الكلمات .

ولكنى . أهديهـا

كما يهدى السحاب ، العباب

قطرات لا فضل له فيها

لأنها من مائه .

أمى يا خالدة

من شاطىء رأس الحكمة أرفع اليك هذه السبحات فاليك وحدك ، يرقرق قلمى ذوب القلب فى كلمات لتظلى أنت فوق الكلمات .. كل الكلمات يا أم النيل والهرم . يا أمى . يا مصر ..

١ ـ رسائل مصرية

١ ــ عزيزتى مصر

أكثر من عزيزة أنت ٠

أنت حبيبة وقدس ٠٠ أنت الروح والنفس

أنت العرض والأرض ٠٠٠

أنت السماء والانتماء

أنت البيت والأهل والنعمة والرزق

أنت العمر كله ٠٠٠ أنت الماضى والحاضر والمستقبل

أنت أبى وولدى

أنت السلف والخلف

أنت المجد والشرف

أنت أغلى القيم وأعلى القمم ٠

ياكل الأحباب

قالوا : اكتبى اليها رسائل تحت عنوان (عزيزتى مصر) ٠ والرسائل بينى وبينك متصلة قبل هذا العنوان وبعده ٠

رسائل بالكلمات ، ورسائل بالخفقات ، ورسائل سكبت فيهـــا روحى عليك سكبا ٠

كم من رســـائل بينى وبينك بدون حروف لأنك أكبر كثيرا من الكلمات ٠٠ كل الكلمات ٠ ان القلب الانسانى أكبر من اللغة وأنت القلب والعقل والنفس جميعا ٠

أرأيت أنك عندى بلا حدود ، لأنك فوق النهى ، لأنك أغلى ما فى الوجود ٠

حين تخرجت من الجامعة وتطلعت الى الدراسات العليـــا وجدت الرسائل حولى تدور على الجاهليين والأمويين والعباسيين ٠٠ الخ ، ولا عجب

فى هذا ٠٠ ولكنى اخترتك أنت ، وكتبت رسائلى عنك لأن حبك فى دمى ، واليك وحدك أنتمى ٠٠ وما عداك لقناه تلقينا يتغير مفهومه على النضج والتمحيص ٠

وعد الناس بحثى الطويل عن (النيل فى الأدب المصرى) رسالتى فى الدكتوراه ، عمرا مبذولا ، ولكنها عندى ، رسالتى اليك يا أم النيل يا صاحبة الجميل يا أمى يا مصر ٠

حين تسحيفك المظالم ، يزلزل الظلم الواقع عليك ، كيانى فأرفضه وتكون كلمة (لا) ، رسالة اليك ٠

وحين يبيع تجار الولاء ، الحب الرخيص ، اصون حبى لك وحدك ٠

لك وحدك الولاء ٠٠ ولك وحدك الوفاء ٠٠ ولك وحدك الفداء ، ولك وحدك الحب الغالى العالى المنزه على الغرض والمرض والهوى ٠

انها رسالة ٠٠ أليس كذلك يا حبيبة ؟

وحين يزورك الغرباء ، أشعر بالمسئولية وآخذ سمت المضيف ٠٠ وأرحب بزوارك ، وتصبح دارى ، دارك ، ويمتلىء كيانى بوجودك ٠٠ واقدم ما عندى من جودك ٠٠ لأن ضيوفك ضيوفى يا حبيبة ٠

هذا لون من رسائلى اليك ٠

وحين تمس آثارك بالاستباحة أو الهدر أو الاهداء وهو اعتداء فالذين يهدون لا يملكون كنوزك ٠ الآثار ملكك وحدك بكل أجيالك ٠

حين تهدى منك قطعة فكأنما اقتطع من جسمى بضعة ٠ ويشتعل تلمى غيرة عليك ، وذيادا عنك ٠٠٠ وأخوض من أجلك المعارك ، وأحتمل من أجلك المكاره ، لأنك نفسى وعرضى ٠٠ لأنك تراب أبى ٠٠ وميراث ولدى ٠٠ لأنك أعز الدنيا عندى ٠

ومن أجل هذا أحس الله الى جانبى حين أقف الى جانبك ٠٠ وهو مع الصادقين المخلصين ٠ واذ ينصرنى الله ، أشرب دموعى وأسعد بك ولك ٠

انها رسالة مبللة بالدموع ولكنها كعطرك تضوع ٠

انها باسمك كتبت ، ومنك نبعت ، واليك تداف مع الشغاف يا رسالة الخير ٠٠ ياملاذ الرسالات ٠٠ يا حمى الأديان ، يا حضارة الانسان ٠٠ يا أمى يا مصر ٠

أغلى الأسماء

٢ ـ عزيزتي يا مصر

كانت رسالتي الأولى قبلة على جبينك الذى لا يروى حبى له غمر من القبل ·

وبعد السلام أخلو اليك ·· أتحدث معك وأتحدث عنك ويدور حوار ويطول السرار ·· ويسعد القلب وهو يشرب النغم ·

أتحدث اليوم عن اسمك يا أحلى الأسماء يا أغلى الأسماء لا يستثنى آباء ··· أو أبناء ·

حين فتن أوائلنا بك سموك (كيمه) أى السمراء و (تاكيما) أى الخمريه و (ناوى) أى الأرضـــى و (ايدبوى) أى الضفتين · ولم يكتفوا بهذا كله بل أضفوا عليك ، من ولعهم بك ، صفات شاعرية كما يدلل المرموق المعشوق فقالوا (ايره رع) أى عين الشمس أو عين رب الشمس · وقالوا (وجاة نترو) اى عين رب الأرباب · و (انرتى) أى ذات المحرابين و (بافه) أى الزيتونة فأنت خضراء دائما ·

أما جيرانك من كنعانيين وأشـــوريين وفينيقيين وبابليين فكانوا يسمونك مصرى ومسرى ومصرم ومصرين وأنت فى التـوراة مصرايم · وختم القرآن الكريم هذا بلفظة مصر التى ترددت فى القرآن كما لم يتردد اسم بلد آخر ·

يا كثيرة الأسماء ·· يا صاحبة الآلاء ·· يا كيمه يا ســمراء ·· يا مصـــر يا ذات المحرابين يا ذات الضــفتين · وأكثر من هـذا اسمك ومعناك يا مصر ·

ورأى يقول ان اسمك مركب من كلمات ثلاث بمعنى (بلد أبنـــاء الشمس) · والكلمات الثلاث هى (ما) بمعنى موضع ، و (سى) بمعنى ابن ، و (رى) أو (را) بمعنى الشمس · ومنها « راع » الذى ينسب اليه بعض الفراعنة · ويستند الى هذا محققون يطلقون اسم (مسرى) على شهر الفيضان أو شهر النيل · ويربطون كما فعل العلامة « ماسبرو » بين اسم النهر واسم البلاد ·

شغل الناس الشاغل أنت فى القديم والحديث ·

لقد ازدهى ملكك الفخر بك كما جاء فى القرآن الكريم (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) ؟

وفى قوله « يا قوم » دهشة لاتخفى ٠

أنت فى القرآن الكريم أمنية المتمنى وجواب السائلين

(اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم) ٠

أنت الوادى المقدس طوى

وأنت فى القرآن الكريم الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والنعمة حتى ليقول الكندى عنك (ووصفها بما لم يصف به مشرقا ولا مغربا ولا سهلا ولا جبلا ولا برا ولا بحرا) ٠

يا قبلة الأنبيـــاء

يا منار العلماء

يا حلم المتصوفة يا ملاذ الحيارى والمجهودين ومن أدمى أقدامهـــم وعثاء الطريق ٠

حتى آدم (ص) الذى فتح عينه على الجنـــة بهر بك والعهدة على السيوطى ٠ فقد عقد فصلا فى كتابه الكبير (حسن المحاضرة) يروى فيه أن آدم عليه السلام عندما رأى مصر وقع من ســـحرها فى بحران من الدهشة السكرى يتمتم :

(لا خلتك يا مصر بركة ٠ وما زال بك حفظ ٠٠ وما زال منك ملك وعز ٠٠ يا أرض فيك الخباء والكنوز ٠٠ ولك البر والثروة ٠ ســـال نهرك عسلا ٠ كثر الله زرعك ، ودر ضرعك ، وزكى نباتك وعظمت بركتك) ٠

وكان كعب الأخبار يقول ان الرسول عليه السلام كان يدعو لك ويقول عنك (مصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء أكبه الله على وجهه) ٠ باركبها يا سماء وتقبلى الدعاء ٠ فانها وطن الخير ووطنى ٠٠

غالية الكلمات حين ترتفع الكلمات

كان المصريون أول من كتب الأدب لذاته . لقد رفعوا « امحتب » الى مصاف الآلهة لا بوصفه مهندسا طبيبا ولكن بوصفه أديبا . وكان على الكاتب المصرى القديم .. كل كاتب عندما يشرع فى الكتابة أن ينزل من دامه نقطتين من المداد قربانا لأمنحوتب .

ومن الطريف أننا الى اليوم ، نفعل هذا لاشعوريا . انها تحية القلب المصرى ووفاؤه الذى لا يغبض لسدنة الحكمــة وفرسان البيان . تحية للخلق والابداع .. للفنون .. لامحتب .

كان المصريون يعبرون « الكتاب » أخلد للذكرى من البنين ، ومن المعابد والاهرامات والمال . تقول احدى برديات الأسرة التاسعة عشرة عن أصحاب القلم (انهم خلقوا لأنفسهم القبور والأهرامات فى قلوب من يذكر أسماءهم . وان اسما تتداوله أفواه الناس لنافع فى الآخرة . ان الانسان فان وجاهه هباء ، وجميع معاصريه يغدون ترابا ، ولكن الكتاب هو ذكراه الذى يبقى من فم الى فم . انه لأنفع من بيت مشيد ، ومن قبر فى الغرب ، ومن قصر مدعم ، ومن نصب فى معبد) .

لقد كان لقب الكاتب أعظم الألقاب بلا استثناء عند المصريين من عمق اجلالهم للكتابة . لقد كان الواحد منهم يحرص على تلقيب نفســه به ، ويسجل هذا لنفسه فى مقبرته . قد يكون أميرا أو شريفــا أو وزيرا أو قائدا للجيش .. ولكنه حريص الحرص كله على أن يلقب نفسه بالكاتب .. وكأن ألقاب التشريف الأخرى لا تغنى عنه شيئا .

لقد كان حور محب قائدا لجيش مصر وملكا لمصر ولكنه فى تمثاله اتخذ هيئة الكاتب المصرى وجلسته .

هذا هو الشرف الحقيقى والباقى فى عين مصر المتحضرة .

ان اللقب عندهم (الكاتب) .. ثم يأتى بعد هذا سائر الألقاب . ولو كانت الامارة والوزارة . والملك نفسه .

انه وعى مصر بالجوهر .

انه نفاذ مصر الى النفيس والكريم من القيم والمعانى .

وسبق مصر فى الكتاب يؤيد اقتباس أمثال سليمان من حكمتها ، كما يؤيد نهل مزامير داود من سبحات اخناتون وتراتيمه .

وتأثر الزبور بقصة الحكيم والشاعر المصرى أبوور وموقفه من مليكه الشيخ .. ذلك الموقف الذى ترسمته قصة ناتان مع داود .

وقد قام بالمقارنة والمقابلة علماء الآثار الغربيون ممن لا يحمل قولهم على عاطفة وطنية أو زهو قومى .

وقصة (الأخوين) تقف وراء قصة يوسف .

كما تأثرت بقصة (الأخوين) آداب الهند والحبشة وآسيا الصغرى، وروسيا والمجر وايطاليا وألمانيا وفرنسا وغيرها .

ومن الأدب المصرى استمد الأدب الاغريقى والرومانى بل استمد أدب العالم كله من حكمة بتاح حتب .

يقول ألن جاردنر :

(ان الأدب اليونانى لم يقفز الى الوجود مكتملا كما خرجت فينوس من الأمواج ولا كذلك الفن اليونانى .. اننا لن نعرفهما الا اذا عرفنا الطريق الذى سلكه النفوذ المصرى على التوراة وعلى الأدب اليونانى فمما لا شك فيه أن هذا أو ذاك لم يكن ليوجد بالصورة التى كان عليها لولا أثر مصر فيه) .

و الى مصر يعزو أساتذة المصريات ما جاء فى أدب « شارلس مورجان » و « فرجيل » و « سبنسر » من أعلام الغرب .

لقد بلغت مصر أعلى مراحل التعبير حين عرفت التجريد فى اللغة وأطلقت الاسم (معات) على معانى الحق والعدل والخير .

و (معات) أقدم اسم معنوى ذو معان متعددة فى تاريخ بنى الانسان .

ووضعت مصر أسلوب الحوار ومساره قبل محاورات أفلاطون ..

حين يصدق الأدب

ويمتاز أدب مصر بالدقة والوضوح والصدق والبساطة والعذوبة ، وحبه للتوقيع والترجيع فى تماثل يحكى الطبيعة المصرية ٠

النيل له ضفتان ٠

ومن يمين وشمال ، سهلان ٠

يكتنفهما من شرق وغرب ، صحراوان ٠

والنيل نفسه فى تصور المصرى ، نيلان :

نيل فى السماء (المطر) للأجانب والصحراء ، والنيـــل الحقيقى لمصر ٠

والوادى وجهان الوجه القبلى والوجه البحرى ٠

وتاج مصر يجمع الرمزين معا ٠

طبيعة مقطرة معطرة ٠

طبيعة منظومة من بحر النيل ٠

قصيدة كلماتها خضراء ٠

وحروفها مذهبـــة ٠

وأمرى هذا التلاقى على مصر ، أسلوب التماثل فى البنـــاء والفن ، والتناغم والترجيع والتوقيع فى الأدب ٠

المعبد المصرى فيه المقاصير صفان مقاصير الشمال ومقاصير الجنوب ٠ والآلهة نوعان أرباب وربات ٠٠ أزواج وزوجات ٠

حتى الروح لها قرينة .

وعند المصرى ، العالم عالمان : مصر : عالمه ودنياه ، والعالم الآخر أى السماوى .

والمصريون فى التسمية عندهم :

الاسم اسمان فلكل شخص اسم حقيقى والاسم الجميل أى اسم التدليل .

ولكل شخص حياتان : حياة فى الدنيا والحياه الأخرى فى ايمان البعث والنشور .

والكتابة الهيروغليفية صفوف صفوف . وأنهر متوازيه .

فلا غرو أن يجيء الأدب المصرى بعد هذا عبارات متشابهات فى تقسيم يبلغ بالجمال حد « التقاسيم » .

ان الطباق فى الأدب العربى ، لفظ وضده .. ولكن المقابلة فى الأدب المصرى نظير ونظير يتناغيان .

وهناك رأى يقول (ان الانسجام فى الطبيعة المصرية قد طبع الفنان المصرى على التقسيم والتوزيع المنسجم) .

ولعل هذا هو السر فى أن المصريين عندما تشربوا حب اللغة العربية ، طربوا للقرآن الكريم .

وأخذت مصر دورا كبيرا فى علم القراءات ونغمت مصر الأذان كما رأينا .

بل انى لاحظت ان اللغة ترق وتترقرق كلما قربت من النيل ، وتجف ألفاظها وينضب ماؤها كلما بعدت عن النيل ، والدليل لهجة القاهرة الجميلة ، ولهجة الصحراء . عند أطراف البحيرة .

وبدخول اليونان ثم الرومان كانت الديموطيقية وهى اللغة الشعبية من الهيروغليفية هى السائدة .

وبظهور المسيحية ومحاربة الرومان لها ، دافعت مصر عنها ، لونا ، من المغايرة واتبات الوجود حتى غدت المسيحية فيها دون سائر البلاد « قبطية » .

لهذه الاعتبارات ، وبها ، صارت الديموطيقية بدورها ، قبطية ، بعد أن خلصت الحياة المصرية من اللغة اليونانية التى كانت لغة الحكام

بل ان المصريين ألفوا بها · ولهم كتب كثيرة في العلم والأدب يحسبها بعض الناس يونانية بل يحسب مؤلفيها يونانيين لا مصريين بما في أسمائهم من مقاطع يونانية أشهرها الواو والسين في نهايات الأسماء ·

· على أن العالم في ذلك الوقت كان موجات وموجات ، تبعا للمد السياسي والحربي ·

فعندما غلب اليونان عسكريا ، سادت معهم اللغة اليونانية وأصبحت لغة عالمية في ذلك العصر ·

وكذلك الرومان ·

وكذلك العرب · اذ انتشرت اللغة العربية في العراق والشام ومصر والمغرب بل عبرت البحر الى الأندلس مع طارق بن زياد ·

ولم يكن الانتشار بالطبع دفعة واحدة أو طفرة بل كان يتفاوت سرعة وبطؤا حسب شخصية كل بلد وظروفه ·

ولم يكن عند مصر المسيحية في غمرة موقعة الشهداء وقت للأدب أو الفن كما كان أدب مصر وفنها في عصور الفراعين بشموخها ، فاقتصر الأدب القبطي على أقوال الآباء وسير القديسين والاصلاح الاجتماعي والآداب الكنسية وشيء من قصص ·

وأوضح عمل أدبي لمصر في ذلك العهد ترجمة الكتاب المقدس ·

بل تجاوز دور مصر ، الترجمة ، الى الكتابة نفسها فقد جاء المسيح مصر ومن مصر دعي (من مصر قد ناديت ابني) هوشع ١١ : ١ متى ٢ :١٥ ·

وجاء مصر الحواري مرقص وكتب فيها انجيله · وهو أصح الأناجيل وأوفرها حكمة ·

وأشهر كاتب وفيلسوف في ذلك الوقت كان أوريجانوس الذي لم تعرف المسيحية في مصر وفي العالم المسيحي كله فيلسوفا مثله · وكم تخرج على يده من أساقفة وبطاركة · ويقال أن كتبه بلغ عددها ستة آلاف واقل تقدير وقف بها عند الألف ·

وحتى هذا لا يجوز في منطق العقل وان كان يدخل في باب الأساطير التي تستعذبها الشعوب في عملية تأكيد الذات وخاصة حين تنوش هذه الذات . الآلام والأحداث والمحن ·

انهــا مصر

انها بلد التاريخ قبل التاريخ • قد يكون المصرى فقيرا معدما فى رأى العين الظاهرة لكنه يملك سفارة وهضبة الأهرام ومساجد القــاهرة ومتاحفها و (الباقى) من نفائسها •• يملك اســمها •• يملك الانتماء الى مصر •

وقد لعبت الهضـــبة دورا كبيرا فى الفن المصرى الذى يبدو للعين الظاهرة ، فنا بســيطا وهو أبعد ما يكون عن البســاطة المتعارف عليها • بساطته « تماسك » و « وحدة الكتلة » و « قرار النغم » •

وأحب المصرى الطبيعة المصرية حوله فتعلم من الحجــر الصـــلابة والصمود ، ومن النور البهجة ، ومن السماء الرحمة والسعة ، ومن النبات العطاء والدعة ، ونعلم من النيل الوفاء والعذوبة •

ان الشمس المصرية لها فضل فى حسم الأسطح فى الفن • ان الفنان المصرى الذى شكل تمثال (أبو الهول) كان يدرك جيدا أن تمثاله سيرتفع فى نور جهير فعمل على أن يكون كل شيء قويا حاسما ينبت أمام المواجهة فى طلعة شامخة وصحوة فائقة • ثبات يعرفه المصرى فى الشدائد فتزول ويظل هو الباقى •

ويمتد عطاء مصر لا يختلف ولكن يتجدد ، لا يتناقض ولكن يتعدد فتبنى مصر المساجد على طريقتها فى بنــــاء المعابد فالصحن فى المسجد يقابل بهو الأعمدة فى المعبد ، والميضة فى المســجد تقابل البحيرة فى المعبد •

اغتسال وتطهر •

وضوء ووضاءة •

ان جامع السلطان حسن هرم اسلامى •

ومسجد الصالح طلائع ، فيه من مسجد ابن طولون الصحن والأعمدة المحيطة •

ومسجد قايتباى فيه من السلطان حسن الصحن والايوانات •

انه قلب مصر بأسراره وعطاياه وهداياه •

شخصية مصر فيها من خصب أرضها ، ولوع بالولادة والتوليد ٠
ونزوع الى الرائع والجميل ٠

قصــــة :

دار حوار بين فيلسوفي أمريكا «ماكدونالد» صاحب نظرية الفلسفة الاستبطانية ، و « واطسون » صاحب الفلسفة السلوكية الذى كان يقول أعطني طفلا ، أعطه لك كما تشاء : نابليون أو ٠٠ أو ٠٠ حسب السلوك ٠

قال واطسون لزميله :

ــ ان فلسفتك فلسفة ال Easychair الكرسى المريح ٠

فرد عليه على الفور :

ــ ان فلسفتك ينقصها « الكرسى المريح » ٠

وأراه على حق ٠ فان الاسترخاء وقتا ، رخاء للأعصاب ٠٠ رحمة ٠

يقول سنيكا (sinika) عندما نستلقى على ظهرك فى غابة ، وترى السماء والأشجار ، يتسلل الى كيانك ، الاحساس بوجود الله ٠

الحال نفسها لو تأملت كهفا وسط جبـل مملوء بالتجاعيد مجوف بفعل عوامل الطبيعة ، سرى الى عقلك الاحساس بالدين ٠

لو أصغيت الى حديث عذب من منابع النيل أزهر فى نفسك ايمان عميق بالخالق ٠

كم يوحى التأمل ٠٠ ان التأمل هنا عمل لا كرسى مريح ٠

ودعنا من الكراسي وأصحابها ٠٠ وقل لى أليس غريبا أن سنيكا كان معلم نيرون ؟

هل فشل نيرون فى التلقى :

أم فشل الأستاذ فى التوصيل ؟

العبقرية والزعامة السياسية :

هذا الكتاب يهز قارئه هزا عنيفا لأنه يفيق من صفحاته على حقائق بعيدة الأعماق عن الشعوب والحكومات والثورات والاستعمار وبواطن التاريخ ٠

فمن طبيعة الشعوب أنها سريعة التأثر من ناحية ، ومن ناحيــة أخرى دقيقة الحساب ٠

وانها اذا صدمت استشعرت الخيبة واليأس

وانها حريصة على تقصى سلوك حكامها ٠ وهنا يقول المؤلف الدكتور محمد على الغتيت : ان الشعب المصرى أشد حرصا بصفة خاصة على ذلك لما أصابه فى تاريخه من عسف الحاكمين واهدارهم للقيم الكريمة ٠

ومن طبيعة الثورات القضاء على فساد الآخرين للافســاد من جديد بطريقتها الخاصة : لقد حرصت الثورة الفرنسية على معالجة الفســاد بالتشريعات المتتالية فظهر التشريع الخاص بالاعلان عن الثروات (من أين لك هذا ؟) لأول مرة فى التاريخ ٠ وفى هذا قال الثائر couthon (نعم فلنعلن للشعب ماذا كنا قبل الثورة وحالنا الآن ، وبأى الوسائل زادت هذه الثروة ، ليعرف الشعب من الذى زادت أمواله ، ومن الذى زادت فضائله) ٠

ولكن تلك التشريعات مع كثرتهـا لم يكن لهـا كما يقول المؤلف ، أى أثر ولم توضع موضع التنفيذ ٠ وأصبح الشعب الفرنسى أمام صورة من الاستهتار والفوضى والفساد لم تخطر ببال أولئك الذين مهدوا للثورة ووضعوا لها المبادىء والمثل ، ويعجب المرء اذا عرف أن تلك الأسماء التى تذكرها الدعاية الفرنسية كأعلام من أعلام الثورة الفرنسية ، أمثــال : دانتون ــ ميرابو ــ Barres ــ باريس ــ وغيرهم ، لم يكونوا ســوى أقبح الأمثلة للرشوة واستغلال النفوذ ٠

وشــاهد الشعب الفرنسى التجمعات (الشلل) التى تحولت الى عصابات تتنازع النفوذ والسلطان ، ولم تجرؤ واحدة منهـا على مساءلة الأخــرى ٠

ويرى الرأى العام ويعرف فينفر ثم يستسلم ولكنه يعوض استسلامه بالتشهير ثم بعدم الاكتراث وهى سلبية لا تدوم طويلا فينقض الشعب من الداخل أو ينقض عدوه عليه من الخارج ٠ ويعزو المؤلف هزيمة ألمانيا الى تفتيت هتلر شخصية الشعب الألمانى وتجاهله أن الأمة هى دائمـا مصدر السلطات وأنها صاحبة الكلمة العليا فى كل قرار حاســم فى تاريخها ٠ تجاهل هتلر هذه الحقوق فتحول من رمز للأمة ، وتعبير حى لأمانيها الى طاغية مستبد ٠

يقول المؤلف (لقد نجح هتلر بلا شـــك فى صنع شعبية له بين طبقات الشعب الألمانى • وفى أول أيامه في « فينا » كان ينتهد قائلا « آه » لو استطعت أن أرتدى القمصان الحريرية والأحذية ذات الشهرة) •

ولكنه كان يحرص على اصطناع البساطة والتشدق بالماضى المتواضع• والحقيقة ان الشعب الألمانى صدم صـــــدمة كبيرة عندما عرف أن هتلر (لم يكن زاهدا أو متقشفا بل عاش فى أعلى مستوى من البذخ والفخامة وكانت السيارات والطائرات تحت تصرفه فى كل وقت) •

يقــول الكتاب ص ٣٨٤ (لقــد توفرت له الجرأة على أن يعــلن للجماهير بأنه فقير ليس له حسابات فى البنوك ، ولكنه كان كاذبا لأن « مؤسسة ايهر » للنشر وحدها دفعت له عشرات من الملايين ثمنا لحقوق نشر مؤلفه) •

لقد بلغ « هتلر » كما يقول الدكتور على الغتيت القمة فى اجادة فن التمثيل • كانت سيطرته التامة على أعصابه واتقانه الكامل لتمثيل دوره مدعاة لفشـــــل أكبر علمـــاء النفس خبرة فى التعرف على حقيقة شخصيته ونفسيته •

فى هذا الكتاب الصورة الحقيقية لأوروبا وللسياسة الأوروبية بعامة والاستعمارية بخاصة • صورة فيها المحركات والدوافع ســــافرة • وفيه أيضا أمراض السياسة الشرقية ذات الطابع الفردى •

ان علاقة الغرب بالشرق تجرى وفق مخططات مدروسة منذ لويس التاسع سجين المنصورة • فقد وضع لويس فى بيت ابن لقمان الخطوط الرئيســـية لسياسة أوربا ازاء الشرق ومنها اســتبدال الحملات العسكرية بحملات أخرى تستعمل سلاح الدس والخديعة وبث الخلافات واستغلال هذه الخلافات والعمل على بقاء نارها متأججة حتى يتم تفتيت الكتلة العربية وكذلك العمل على الوقيعة بين الأقليـــات والأغلبيـــة فى الشرق العربى واســـــتغلال هذه الخلافات لخدمة أغراض الاســـتعمار • وأخيرا أوصى لويس التاسع بالعمل على انشـــاء قاعدة للغرب فى قلب الشرق العربى يتخذها الغرب نقطة ارتكاز ومركزا لقواته الحربيـــة ولدعوته العنصرية والسياسية ومنها يمكن حصار العرب والوثوب على بلادهم كلما اتيحت الفرصة لمهاجمتها • وقد حدد لويس التاسع لانشاء هذه القاعدة الأراضى الممتدة على ساحل البحر الأبيض من غزة جنوبا حتى الاسكندرونة شمالا وتشمل فلسطين والاردن ولبنان وقبرص •

الكتاب دراسة يجب أن نتدبر ولا أقول نقرأ لأن القراءة سهلة ولكن تدبر المضمون وتعمقه هو الصعب والنادر ·

حتى تأميم البترول الايرانى على يد « مصدق » ليس موضوعا اقتصاديا سياسيا بل مادة للاتهام بالتعصب الاسلامى فى نظر الاستعمار !

وعندما احتلت انجلترا مصر عام ١٨٨٢ عمدت كما يقول المؤلف فى كتابه (الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس) الى تعبئة صحافتها فى حملة تلويح بخطر التعصب الاسلامى وبعث القومية العربيه وما يترتب عليها من يقظة تهدد مصالح الغرب فى محاولة تبرير لاعتدائها · وان كان هذا لم يمنع الشرفاء بين الانجليز أنفسهم من الاحتجاج على حكومتهم بسبب هذا العدوان ·

ولكنها مصر ·

لقد امتصت المحنة ومضت الى غايتها ·· وكأنها تصغى الى صوت قادم من بعيد يقول لها هبى انك مصر ·· لقد كتب نابليون فى مذكراته بمنفاه يقول :

استيقظى يا مصر من سباتك · قاومى زحف الرمال عليك · فالبحر الابيض فى حاجة اليك · والعالم فى حاجة الى الاسلام ورسالته لرفع شأن الشعوب وتحقيق الألفة بينها ·

ما أجمل مصر · لو أتيح لها حكم صالح يحقق لها الاستقرار والرخاء ، فان الخيال ليسبح معى فى مشهد ساحر اذ أرى أمة عظيمة كأمة سيزوستريس والبطالسة فتنتشر على هذه الأرض وبكفها الأيمن تستند الى أوربا · ولو كان مصر الشعوب يتحدد بالوضع الجغرافى فالقاهرة والاسكندرية أفضل من روما وباريس ولندن وامستردام والقسطنطينية وتصبح على رأس العالم بأسره ·

انها مصر ··

تقاليد جامعية

(ليس بهرا بأمريكا فلم أنس لحظة واحدة أنى أنتمى الى أغنى بلاد الدنيا حضاريا وأعزها على الانسان والأديان)

الجمعة ١٣ يونيه ١٩٨٦ :

حصاد العمر ..

يوم واحد أنتظره العمر كله .. ليلته نمتها ساهرة ، وفجره كان فجر الفجر ، كل شيء فيه كان جديدا حتى صلاتى كانت أعمق تبتلا وأشد خشوعا .

طفلى بالأمس صار رجلا اليوم .. صار مهندسا صنعته مصر على عينها فى هندسة القاهرة ثم أوفدته الى الغرب ليحصل علوم الآخرين . وهذا اليوم موعد حصوله على الماجستير فى ادارة الأعمال .

منذ الصباح الباكر ، كنت مع والده على الطريق الى الجامعة ، جامعة ولاية أوهايو .. عن يمينى ويسارى رءوس جللها المشيب من أجناس شتى ... انهم الآباء والأمهات جاءوا مثلنا يشهدون حفل التخرج .

الجميع الى ساحة الاحتفال يوفدون .. سرنا نحمل السنين والصبر والخوف والأمل والعرق وكل ما حفلت به الأيام فى مسيرة السنين .. لم نعد نذكر الا اليوم بنوره وشبابه .

استاد الجامعة حيث أقيم الحفل .. فيه جنود وبنود وحشود ووزع علينا كتاب الحفل مطبوعا أنيقا مصورا .. فيه أسماء الخريجين وفيه خريطة الحفل .. كل شيء مرسوم بحساب دقيق .. مكان مخصص للصحافة لا تتجاوزه .. مكان للمصورين .. مكان للتليفزيون .. مكان لكل كلية .. وبدأ الحفل ..

وقف عميد الطلبة Dean of Student Like على المنصة يفتتح الاحتفال . وعزفت الموسيقى وهل موكب الخريجين من بابين متقابلين : الدكتوراه أقصى اليسار ... الماجستير فى الوسط ... البكالوريوس فى اليمين .

غدت جوارحي احداقا ·· وتجمع كياني كله في عيني ··· صارت عيني مشوقة ملهوفة ··· وصرت أحدق في الصفوف حتى مر أحمد في روبه الجامعي وغطاء الرأس التقليدى وانهلت دموعي ·

الساعة في الاستاد تطابق المواعيد المكتوبة في كتاب التخرج · قرأنا في الكتاب أن موكب الطلبة يبلغ نهايته في العاشرة ، ليبدأ الأساتذة · ونظرت الى الساعة تشير : ٩٫٥٩ دقيقة ثم تشير الى العاشرة · وعندما يلتقى عقربا الساعة يبدأ موكب الأساتذة · وردد الخريجون : « أوهايو » اسم جامعتهم في هتاف يهز القلوب ·

كانوا يرددون في مجموعتين ·

دخل موكب الأساتذة من الباب الآخر في صفوف أيضا ·· يتقدم كف صف ، ضابط برتبة كبيرة · ويبدأ الموكب يتقدمه رئيس الجامعة ·

ومن تقاليد رئيس الجامعة أنه كل أسبوع يتناول غداءه مع واحد من قسم من الأقسام يتعرف منه الى مشاكل القسم بحيث لا ينقضى العام حتى يكون قد تقابل مع سائر الأقسام ·

هذا الواحد قد يكون « مدرسا » وقد يكون « أستاذا » وقد يكون موظفا اداريا ·

وتقدم رئيس الجامعة الى المنصة فحياه طلابه · ثم قدم رئيس الجامعة ، رجل الدين ليقرأ صلاة يبارك ، الخريجين ·

ثم عزف السلام الجمهورى الأمريكى بعد نهاية الصلاة ·

ومن جديد تقدم رئيس الجامعة الى المنصة يقول كلمته متحدثا عن ممثلي الأقسام ثم الأساتذة فيقفون في أماكنهم لحظة التحدث عنهم ·

أثناء حديث رئيس الجامعة ، لفت نظرى ، سيدة تترجم حديثه بالاشارة لمن حرموا نعمة السمع ·

وانقطع التيار أثناء القاء رئيس الجامعة كلمته فلم يحدث هرج ومرج ··· في هدوء شديد استدار الى فرقة الموسيقى وأعطاها اشارة خفيفة فأخذت تعزف حتى عاد النور فتقدم الى المنصة واستأنف حديثه ·

وقدم رئيس الجامعة في كلمته ، ضيف الشرف الذى قررت الجامعة أن تمنحه الدكتوراه الفخرية · وهو خريج الجامعة سنة ١٩٥٩ وأصبح الآن صاحب ورئيس مجلس ادارة أكبر شركة أمريكية لبيع ملابس السيدات

لها ما يربو على ٢٤٠٠ فرع ومبيعاتها بلغت ٤ر٢ بليونا (بالباء) سنة ١٩٨٥ ٠

وقص الرجل قصة حياته كيف التحق بكلية الحقوق بعد أن تخرج في كلية التجارة وكيف فشل في كلية الحقوق وتركها رغما عنه ، بعد عامين ٠٠٠ وزج في كلمته بالطبع اشادة بالموسوية واليهودية ثم انتقل الى رحلته في الحياة بعد التخرج ٠

وقد تبرع لجامعته في الخريف الماضي بعشرة ملايين وهو أكبر عرض أهدى الى الجامعة لاقامة مركز للفنون يحمل اسم والده الراحل تخليدا له ٠٠٠ فاستحق عن جدارة ، من الجامعة ، الدكتوراه الفخرية في العلوم الانسانية ٠

وتذكرت أصحاب الملايين عندنا الذين لم يبذلوا يوما لجامعة أو مستشفى شكرا على الثروة الواسعة بعد البداية المتواضعة ٠٠ ان مصر التي اعتصروها عصرا ، وكلفوها من أمرها عسرا ، بعيدة عن وجدانهم بقدر بعدهم عن وجدانها٠٠وعندما يمضون ويمضي المال ، سوف لايذكرهم تاريخ أو يحفل بهم ذكر ٠

وزعت الدكتوراه الفخرية على مستحقيها ممن تشرف بهم لأعمال جليلة أدوها ثم ميداليات لمن تفانوا في خدمة الجامعة ٠ ووقف أربعة من الأساتذة لتقليد وشاح الدكتوراه للحاصلين عليها الذين يتقدمون الى رئيس الجامعة ليقدم اليهم شهادة حقيقية مع تهنئة بالاسم ٠

وأول اسم نودى عليه ، كان صاحبه معوقا ٠٠

رؤيتي ، للظاهرة ، أنه خليق أن يتصدر التكريم لدلالة الاصرار والاستعلاء على المحنة ٠٠٠ ولكن الرؤية الأمريكية ، وقد عرفت هذا فيما بعد : ألا يخل بايقاع الحركة المنتظمة لأصحاب الشهادات !! هذا هو الغرض المقصود لا أكثر !

وبعده نودى على الجميع بالترتيب الأبجدى ٠

ومن النماذج الكبيرة التي رأيتها ، صيني يكاد لا يرى فيركب عدسة كبيرة على نظارته ، حصل على الدكتوراه الى جانب تمثيله لولاية [illegible] ولشركة صينية في أمريكا ٠

كان الذى يقرأ الأسماء ، عميد الدراسات العليا ، أما الذين [illegible] الطلاب أوشحتهم فكانوا رؤساء الأقسام ٠

ونودى على الكليات فاذا بكل كلية تطلق البالونات الى عنان السماء ٠

رئيس الجامعة يقول فى كلمته ان المتفوقين فى البكالوريوس أخذوها مع مرتبة الشرف ولكن الحاصلين على الماجستير ، لا تقرن شهاداتهم برتبة لأنها وحدها ، شرف ٠

أن تواصل الدراسة بعد البكالوريوس ، شرف وحده ٠٠

طلب رئيس الجامعة أن يقف الآباء والأمهات ليصفق لهم الطلاب ، الأبنـــاء ٠

وفسرت هذا مرة أخرى بأنه امتنان ٠٠ غرس للجميل ٠٠ للوفاء ٠٠ اكبار للعطاء ٠٠ تقليد جميل ٠٠ وتربية ٠٠ ثم عرفت فيما بعد أن **المقصود الأمريكى** أن التحية باعتبار أنهم دفعوا المصاريف للجامعه أى **عنصر دخل !! وحمدت الله أنى مصرية ورائى ألوف السنين الحضارية بتقاليدها وقيمها وشمائلها** تعانى مصر من المحن ، ما تعانى ونعتصر اقتصاديا **ولكنى مع المحنة والعذاب أشرف بها وأشمخ بالانتماء اليها ٠**

وكم بين الانتماء اليها ، والانتماء الآخر الى **الدولار** محور التفكير والتصرف فى أمريكا ٠

ومن البارقات فى هذا اليوم ، لفتة الخريجين . فقد جمع خريجو سنة ١٩٨٦ نقودا وقدموها الى رئيس الجامعة ليترجمها **منحا لمن يأتى بعدهم من الطلاب عام ١٩٨٧ ٠**

أتراه تأثير الشرفيين من الطلاب وهم (كثر) كما تقول صاحبة شاعرنا العربى « أبى فراس الحمدانى » ؟

طلب رئيس الجامعة أن يقف الجميع ليغنوا نشيد الولاية ٠ ان الأناشيد لا ترتفع الا لمعنى كبير ترتفع به ٠

بعد تقديم شهادات الدكتوراه ، أخذ كل عميد ووكيل كليته يذهب الى الصندوق الخاص بشهادات كليته فى الماجستير ليستقبل طلابه مهنئا مسلما الشهادات العالية لأصحابها ٠

أحد العمداء سلم ابنته ، شهادتها ، فى دورها ، فما أن استلمتها حتى احتضنها وبكى ٠٠ ان الأب فيه ، أكبر من المنصب الجليل ٠

انه **الانســان** فى كل مكان ٠

جراج الجامعة رسمه دولاران ونصف ولكنه فى يوم التخرج ، ألغى الرسم تحية للخريجين .. لفتة .. أخشى أن يزيد رسمه بعدها على سبيل التعويض التجارى ، بالمقاييس الأمريكية .

ليس سوء ظن ولكنه الانطباع الذى خرجت به .

أعود الى أحمـد ..

حين كنت فى عمر ولدى أخذت الماجستير وفرحت يومها فرحا عظيما ثم نلت شهادة الدكتوراه وفرحت فرحا عظيما ولكنى اليوم ، وجامعته تحتفل به معنا وتسلمه M.B.A. كان فرحى مضاعفا . **كان أروع وأغنى تجربة وأحلى مذاقا .. كان أهنأ وأغلى ... انه هديتى الى مصر .**

وما أغلى الهدية والمهدى اليها .

حدقتان فى وجهى .

نوران على طريقى .

ويصلى قلبى فى استغراق مبتهلا أن يبارك لأحمد فى مصر وأن يبارك لمصر فى أحمد وفى جيله كله .. فالشباب أمل واعد .. وامتداد مأمول .

لقد ردد شباب أربعين دولة فى احتفال جامعة ولاية أوهايو ، نشيد الولاية الذى يقول :

بينما قلوبنا نحيط بك
ببهجة لا يمحوها الموت
حر الصيف وبرد الشتاء
الفصول تمر والأعوام تكر
الزمن والتغيير يكشفان بلا شك
مدى تعلقنا بك ، يا أوهايو .

فلنردد نحن نشيد الجامعة .. جامعتنا :

يا شـــباب النيــــل يا عمـــاد الجيــــل
هذه مصر تناديكم فلبـــوا دعوة الداعى الى القصد النبيل
شـــيدوا المجد على العلم وهبوا ثم ســيروا كل جمع فى سبيل

سيروا يباركم الله ويحدوكم النيل ..

حين تكون القراءة واحة .. وراحة

قد يستقى المرء الثقافة من قراءة الكتب أو من قراءة الأحداث أو من أسلوب التفكير على مستوى الأمم والأفراد . في دوامة الأحداث .. ما يجرى حولنا .. ما نقرؤه .. ما نسمعه .. ما نشاهده .. هذا اللامعقول الذى نعيشه ابتلاء .. ونشكوه داء ، ونتجرعه غصة .. ومع هذا نسمع أصواتا لها فحيح تكذب على نفسها وعلينا .. نسمى الأشياء بغير أسمائها ، وتنتظم في حلقات ذكر غير أنه لا يذكر فيها اسم الله .. وتطلع الأعمدة الكاذبة والمجـــلات الببغاوية تتكثر ولا تقول ، فترخص الكلمـــات ويسقط مدلولهـــا .

في مثـــل هذه الزيوف التى تثقـل على نفس الحر ، يلوذ بالقراءة لعله يجد فيها روحا واسترواحا . وغالبا ما يبحث عن المثاليات من شدة افتقاده لها في واقع زمانه .. وهكذا وجدتنى أقرأ عن عمر بن الخطاب .. قرأت بالطبع عبقرية عمر للأستاذ العقاد وقرأت « الشيخان » للدكتور طه حسين . ووقفت عند حديث الدكتور طه حسين عن لقب « أمير المؤمنين » . يقول الدكتور طه :

(كان عمر أول من دعى أمير المؤمنين وما أكثر الذين دعـوا بهـذا الاسم ، فاستحقه أقلهم ، وحمله سائرهم غصـــبا له ، واستبدادا به ، دون أن يكون له أهلا ، فامرة المسلمين ليست شيئا هينا يستطيع كل من قام بأمر المسلمين أن يتلقب بها ، وانما هى تصور الأعباء الثقال ، والعناء المتصل ، والجهد الذى ليس فوقه جهد في اقرار العدل ، ورفع الظلم ، وانصاف الضعفاء من الأقوياء ، وتحقيق المساواة بين الناس ، والعناية بأمر القريب والبعيد ، والرفق بالمسلمين ، وأهل الذمة في أوقات اليسر والعسر ، والقيام فيهم بالحزم كل الحزم ، حتى لا يطمع منهم طامع فيما ليس له حق ، ولا يطمح منهم طامح الى ما لا ينبغى له أن يبلغه ، وانصاف

الناس بعد هذا كله ، وقبل هذا كله ، وفوق هذا كله من نفسه كانصافه بعضهم على بعض ·

وقد كان عمر ، رحمه الله ، جديرا بامرة المؤمنين ، حق جدير ، وما أقل الذين شاركوه فى الجدارة بامرة المؤمنين من الخلفاء وأشباه الخلفاء) ص ١٥٦ ·

كان عمر خيرا ويمنا على الاسلام · أسلم ففرق الله به بين الحق والباطل · وأعلن اسلامه فجاهر المسلمون بدينهم وكانوا يكتمونه ، وولى أمر المسلمين ففتح الله عليهم البلاد وأفاض عليهم الرزق والغنى · ولكن أنهار المال المتدفقة من البلاد المفتوحة ، لم تغير عمر العظيم نفسه ، فلم تمتد يده الى مال بل زادت به مسئوليته حتى كان فى عام الرمادة يحمل الطعام على ظهره ويسعى به الى الأعراب المخيمين حول المدينة ·

ورآه الناس يكف فكفوا ·· وستظل كلمة جنوده له يوم فتح فارس كبيرة الدلالة والجلالة ·· وأنا هنا أشير الى ما حدث غداة الفتح العظيم الشامل ، وقد جاءه المسلمون الفاتحون ببساط كسرى المرصع بالجواهر فنظر اليه ثم قال : (والله ان قوما يؤدون مثل هذا لذوو أمانة) ·· وهنا ردوا عليه صادقين :

ــ عففت يا أمير المؤمنين فعفت الرعية ولو رتعت رتعوا ·

أخلاق وآفاق :

ومن الثقافة **السياسية** أن تعرف البلاد المتحضرة قدوة العلماء وتستهدى بهم ·

فى الحرب العالمية الثانية واجهت انجلترا صعابا فى كل ناحية من نواحى الحياة · وضرب عليها حصار مطبق ، وانقطع عنها ما كان يتدفق عليها من المستعمرات وخاصة فى مجال الغذاء · فالتمست انجلترا الحل فى انشاء وزارة الطعام ، أسندتها الى وزير من ألمع وزرائها ·

وكان أول تصرف للوزير أن سأل :

أين مستشارى العلمى ؟

كان هذا السؤال مؤشرا الى معان كثيرة ·

فالطعام وهو مسئولية من مسئوليات الحكومة ، يعتمد فى البلاد المتحضرة على **العلم** وعلى خبراء الزراعة والتغذية ·· حتى الطعام ··

المعنى الثاني ان الحكم في البلاد المتحضرة يرجع الى العلماء وأهل الاختصاص ·· لابد من استشارة أهل الرأي ·

ولو كان في بلاط حكام الشرق هيئة علمية واخرى قانونيـة ، كوزير الطعام في انجلترا ، يرجعون اليهما ، ويصدرون عنهما ، لتجنبت شعوبنا كثيرا من الكوارث التي تحيق بالأمم التي يسود فيها الجهل ، ويتسلط البغي ، وتتوارى القيم الحقيقية ، يأسا أو تقية ·

ومن الثقـافة **العلمية** أن يعـرف العلماء قدر الريادات الأولى في ميادين أبحاثهم ·

فالعالم اسحق نيوتن الذي يقترن اسمه بالقانون العـام للجاذبية وصاحب كتاب (المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية) الذي يعتبرونه كشفا في تاريخ العلم ·

اسحق نيوتن العالم العظيم ، صاحب الفتوحات الباقية ، كان أعظم في قوله : (لو اني استطعت أن أمضي قدما ، فذلك بفضل اعتمادي على أعمال العمالقة) ·

يستطيع المرء أن يكون عالما عظيما أو فنانا عظيما ولكن أكبر من هذا أن يكون انسانا عظيما ·

ونيوتن الذي يعرف فضل العمالقة ، عملاق وانسان عظيم ·

ومن الثقافة الانسانية ، الدين والفن ·

لقد كان أفلاطون يقول ان الموسيقى منطق الخلق حين يتسق مع الخالق · وهذا هو معنى الفن ·

ويقول « يونج » (ان النفس كل متكامل · وان من الواجب العناية بنواحيها كلها والا قتل الجزء الخشن ، الأجزاء المصقولة) · ومن هنا نفهم أزمة الانسـان المعاصر ، فهذا الانسـان عنيت التربية بذهنه دون وجدانه فعجز عن ايجاد المعادل المعنوي للتقدم العلمي ·· وعصرنا امتـاز في (الوسـائل) ومنها الأسـلحة ولكنه يفتقد « **القيمة** » التي تتركز في الدين والفن والفضيلة · ومن هنا اشتعلت الحروب واندلعت الفتن ·

جاء في كتاب (مع الانسان في الحرب والسلام) للأستاذ فتحي رضوان ·· يقول المفكر « برتراند رسـل » في كتـابه (هل يستطيع الانسان أن يحيا) :

(ان العالم الذى نعيش فيـه قد انتهى الى ما انتهى اليـه الآن ، بسبب ستة آلاف من الحروب النظامية) .

وفى موضع آخـر ، فى معرض الحديثعن تطور أسلحة الدمار : (ان العـالم ينفق على خلق هذه الحـالة من الخطر المصحوبة بالتوجس والترقب والخوف ٦٦٦ ألف جنيه كل دقيقة لو أنفقت على انتـاج الغذاء منـلا لسدت حاجة الملايين الذين يعيشون دون الحـد الأدنى للتغـذية الصحية) !!

(كل هذا لأن أصحاب الحكم فى العالم ليسوا هم أصحاب القيم .. ليسوا أهل العلم أو الفن أو الدين . ان قنبلتى هيروشيما ونجازاكى فجرهما رغبة محمومة فى الانتقام ، لأن ترومان وأمثاله ، كانوا أصغر من أن يقاوموا هذه الرغبة البدائية الجافية) .

ولكن يظل الانسان بعد هذا هو الأقوى والأبقى . فكل ما يفرض عليه بالقوة دون أن يكون نابعا من نفسه هو مآله الزوال والعدم .

لا يبقى الا ما ينبع من الايمان .. الايمان بعقيدة أو فكرة أو مبدأ .. أما شطحات القوة ونزوات التحكم فهى تصرفات عارضـة كالمرض أو الوباء فى حياة الانسانية .

وتبقى القيم الحقيقية ومنها الثقافة مختلفة ألوانها : ثقافة العقل وثقافة القلب وثقافة الروح لترهف المشاعر ويشف الاحساس . لقد بكت نابولى حزنا على موت شجرة صنوبر عجوز .

والشجرة التى تبكيها ايطاليا ميتة ، كانت ترمز بها حية الى مدينة نابولى فكانت تصدر على جميع الصور الزيتية والفوتوغرافية لمدينة نابولى.

وهذا البكاء مظهر من مظاهر الثقافة .

بكاء فى نابولى على شجرة واحدة .

وصمت مطبق فى القاهرة أمام (٨٠٠) ثمانمائة شجرة نادرة كانت تضمها حديقة الأزبكية التى خربت ليقام عليها بناء من الطوب لبوليس النجدة ومنشآت أخرى .

وصمت مطبق فى القاهرة أمام قصور تاريخية لن يجود بمثلهـا الزمان سويت بالأرض بما فيها من انجازات الفن وروائعه حتى تلك التى وقفها أصحابها على الشعب ، امتدت اليها يد الاثم والجهل والهمجية .

صمت مطبق فى القاهرة أمام الجواهر النادرة ، والتحف التمينة التى نهبت •

صمت مطبق فى القاهرة أمام آثار لا تقدر بثمن ، وهبت •

هل هو الصمت ؟ لعله الذهول ••

لقد طحن الانسان المصرى فهل يبكى على طحن الأشجار ؟

تعودنا أن نلومه وننسى أن المحن المتوالية التى يعيشها أكبر من طاقته لأنها أكبر من طاقة البشر •

ولو بكينا على ما يستحق البكاء مما ضاع ، لأغرق الأرض سيل من الدموع •• طوفان ••

ولكن غدا تشرق الشمس •

وفى مثل نصوعها وسطوعها سيشرق وجه مصر التى تشقى ولكن تشفى •

تمرض ولكن لا تموت •

حين تتوارى الفروق ويتوهج الشوق

خرجنا صبيحة الجمعة الماضية الى الصحراء ‧‧ فى زيارة جماعية لوادى النطرون ‧ وعند الظهيرة دخلنا مسجده لنؤدى صـلاة الجمعة ‧ ولشد ما راعنى ان أرى الفتيان والفتيات يؤمون المسجد الصبية مع الرجال والفتيات الصغيرات فى القاعة الخاصـــة بالسيدات ‧ وهلل قلبى من الغبطة ، ان الدين فى مصر نيل آخر يروى وجدانها والروح ‧‧

انها وادى النيل ووادى الدين ‧‧

وأحسست بالمسجد يترفق بكيان المصـلى ويلملم شتاته ويشعره السلام النفسى ‧‧ وتوارت الفروق حين انتظمت الصفوف حسب الوصول فجلس فى الصفوف الأولى البسطاء الطيبون من أهل الصحراء وجلس خلفهم كبراء وعلماء من القادمين لزيارتهـــم ‧‧ وتدبرت الآيات كما لم أتدبرها من قبل فى المدينة ‧‧

(والضحى والليل اذا سجى) الكون فى القرآن الكريم صور رائعة ‧ الضحى صورة والليل صورة حتى الكلمة الطيبة صـــورة فهى كشجرة طيبــة ‧

صور أقسم بها القرآن الكريم اشارة اليها واشادة بها واعلاء لها ، ودعوة الى اجتلائها فى سجدة قلبية هى هدف الاسلام من السجود ‧

السجود الحقيقى فى الاسلام ايمان القلب بالقدرة وشهادة للخالق بالتفرد حين ينبهر الانســان المحدود بالكون الشـــامل فيقول بالحركة (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) ‧

(ان الله يأمر بالعدل والاحسان) ‧

والاحساس فى الاسلام هو التجويد لا الشحاذة ‧

النجويد فى القرآن •

والتجويد فى الكتابة الذى ولد فن الخط العربى •

والتجويد فى العمل (ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) ••

والتفتت الى بعد الصلاة طفلة لا تعرفنى تقول : حرما •• وكدت أقول لها : أنت بالفعل فى الحرم يا صغيرتى ان وطنك حرم آخر للدين وحرم لكل معنى جليل • فلم يعط بلد الأديان جميعا ما أعطاه وطنك الذى ولد المعانى والبطولات حتى صحراء وطنك التى تعيشين فيها ، لم تكن عبثا فما أكثر ما علمت الصحراء المصرية روح الانسان المصرى من معانى التجرد والتأمل والصمت •• هذه الصحراء يا صغيرتى ابتدعت الرهبانية فى المسيحية ، ووضعت أسس التصوف فى الاسلام •• ففى الصحراء تعبد ذو النون فى بربا اخميم •• أما صحراء سينا فقد أمر الأنبياء بأن يخلعوا نعالهم قبل ان تسير عليها خطاهم وتسرى فيها دعواهم •• انه الوادى المقدس طوى •

فى صحراء أخرى انبثق الاســـلام كالنبع يحيى الموات ويجمع الشتات ويصنع من القبائل أمة ودولة وحضارة •• و •

فى صحراء أخرى أعاد الاسلام بناء الانسان يتمثل فى النقلة التى حدثت لأبى ذر الغفارى الذى تحول من الجور والعـــدوان الى العـــدل والاحسان •

ومن الطريف ان الذى قال خطبة الجمعة شــيخ صغير •• وأشهد أنه طوف بمعان جميلة فى أسلوب جميل ولكنى كنت أتمنى أن يكون خفيض الصوت هادىء النبرات ليكون تأثيره كاملا وعميقا •

ان الكلمة الطيبة الخضراء نسمة تنعش الروح أو حمائم بيض تشيع معانى السلام • فلماذا يصر بعض الخطباء ولعل الشيخ الصغير فى وادى النطرون يترسم بحسن نية ، خطاهم ، لماذا يصر بعض الخطباء على أن يؤدوا الخطبة بصوت عاصف • لماذا يصر بعض الخطباء على تهديد تارك الصلاة والذين يسمعونهم انما جاءوا ليصلوا ؟

وكان فى برنامج الرحلة زيــارة أحــد الأديرة وان لم نتمكن من زيارته • و الى مصر ينسب نظام الحياة الديرية فى الرهبنة المسيحية كما ينسب اليها نظام التوحــد فبهــا وهما من عمل باخوميوس وانطونيوس مما أعانت عليه صحراء مصر من تهيئة الخلوة للتأمل والخلود الى القوة الكبرى التى أبدعت السماء والضياء والصفاء •

ويقول (هرناك) المؤرخ الألمانى فيما رواه عنه الدكتور مراد كامل : (ان النساك المصريين كانوا يعتبرون فى جميع العصور ـ حتى فى نظر الغرب ـ آباء ونماذج الحياة المسيحية الحقيقية) •

وعن الآباء المصريين صنفت البحوث والمؤلفــات التى ترجمت الى اللغات الأوروبية الحديثة مع تراجم حياتهم وتسجيل أقوالهم ومن كتاب هذا الميدان : بلاديوس وكاسيان وجيروم وغيرهم •

وان كتاب (حياة انطونيوس) وحده الذى وضعه الانبا اثناسيوس استجابة لطلب روما المتوالى قد أشــعل روح الرهبنـــة والنسك فى بلاد الغرب •

واننــا لنعجب لمصر كيف كانت فى القرون الأولى للمسيحية تابعة للرومان ثم تستطيع أن تتبع الآخرين لها ومن بينهم روما • فمصر لا روما ولا أثينا هى التى كانت مصدر التشريع الكنسى للعالم المسيحى •

وفى طريق العودة رأيت معزة فى الصحراء تلتهــم صحيفة بفمها لا يعنيها بالطبع •• وسرحت : هل هذا خط الكتاب وكتاباتهم ؟ أراقوا أيامهم على الورق وسكبوا أعمارهم مع المعانى ليصلوا الى الانسان ولكن الذى حــدث فى الصحراء امامى هو بعينــه ما حــدث فى درب المهابيل مما رواه أديبنا نجيب محفوظ فالناس فى الدرب تشابكوا طويلا واحتدمت بينهم المعركة حول النقود فى الوقت الذى كانت معزة أخرى تلتهم أوراق البنكنوت كما تلتهم هذه المعزة ثروة الفكر •• ما أشقى الانسان •

لامر ما كان يتمثل أديبنا المازنى بحكمة التوراة « باطل الأباطيل الكل باطل » ويقول (استنفد العناء مجهودى كما تنفد السحابة أراقت ماءها على الأرض • وكل بما عنده يجود •• زرعت حصى فى أرض صفوان وهذا حصــادى ، وتبسبس الريح من كل تعبى تحت الشمس وهانذا أؤديها الى القارىء وأطلقها عليه كما تلقيتها لو كان يقنع الطالب المدل •• وقد خرجت كما سيخرج القارىء وكما سنخرج جميعا من هذه الدنيا وليس فى يدى شىء) •• ولكن أديبنا المازنى فى يديه أو فى أيدينا منه أشياء غالية تجعله فى نظر الملايين من رواد الأدب العربى الحديث •

عندما مات الاسكندر بعد أن فتح بلاد العالم القديم أخرجوا ذراعيه من التابوت ليرى الناس أنه بعد هذه الفتوحات كلها خرج من الدنيا صفر اليدين كأى مغمور فقير سواء بسواء ••

ولكنهم لم يفعلوا هذا مع سقراط أو أرسطو •

معرض الفنان بيكار

فى معرض الفنان بيكار لمعت العيون عيون المشاهدين من البهر ، وعيون الصور من بدع الفن واقتدار الفنان • كان لكل صـــورة قصة ترويها الألوان والأضواء والظلال والخطوط الناعمـة السهلة من براعة وضلاعة واحساس •

ان فن البورتريه عنده الكثير ليقوله فهو صاحب رأى فى السياسة حين يقول باحترام الانســـان ويعتز بالفرد ويحتفل بالوجوه وينفذ من خلالها الى أغوار الشخصية •

ان فن البورتريه يرد بغير حروف على العقلية الحشدية التى تحشر الفرد فى جماعات ومذاهب وتسوسه سياسة القطيع تحت مختلف الأسماء•

ان فن البورتريه يمسح شقاء الانســان المعاصر المطحون بالدعوات والادعاءات والماديات • انه وقفـة طويلة أمام المعـانى والقيم والخلجات والنبضات يلتقط فيها الانسان أنفاسه ، ويتلمس احساسه ، ويتعرف الى ذاته التى فقدها فى الزحام وفى الرغام •

ان فن البورتريه انتصـار للأصالة وسط فنون الاعلان والتسلية والضجيج •

الانسان المصرى

يتردد الكلام كثيرا فى تحـديد النسل : وسائله وأسبابه ولم يقل القائلون برفع مادية الانسان المصرى لترتفع معنوياته فينعطف الى التربية والتعليم والاهتمامات الغالية فلا يصبح الانجاب ملهاة أو مسلاة •• و • حين تصبح للانســـان المصرى اهتمامات معنوية ورفيعة يتنفس طموحه فلا يرضى فى قنـــاعة قاصرة وقاسرة باللقمة حتى ليقول المثل الشعبى المنبثق من واقع متواضع (من عنده العيش وبله ، عنده الهنا كله) ! لا •• أبدا ليس بالخبز وحده يحيا الانسان •

عندما يعرف الانسان المصرى ألوانا متعددة من العطـاء •• عندما يعطيه وطنه العلم ، وفرصة تحقيق الذات بالعمل المحبب اليه ، والحرية ، وارادة الاختيار فى كل شىء ، سوف لا يتكثر بالانجـاب ولا يستعرض بعدد الأولاد •• وهذا يفسر المقولة (الانسان كلما ترهف قل نسله) •

ان المرأة••(مرآة القاعدة العريضة لا القلة المثقفة••المرأة محرومة من الاحترام الكامل •• محرومة من المشاركة الفعلية الحقيقية •• شىء

واحد تملكه : **الأمومة** .. تحقيقا للذات واثباتا وتثبيتا للوجود انها فى نظرها رزق .. عطية الله .. فحين أعطى الله الآخرين الجاه والمال والتعليم والمراكز فانه يعطيها هى الأطفال .. أما تحديد النسل (أهو كلام) فى نظرها و الا فماذا يبقى لها ؟

سر المشكلة اليهودية

قرأت (قصة الحضارة) فاذا ب «ول ديورانت» فى الجزء الثانى من كتابه يقول (**لما كانت الجنة لا وجود لها فى الديانة اليهودية القديمة** ، فقد كان من الواجب المحتم أن ننال الفضيلة ثوابها فى هذا العالم ، و الا لم يكن لها ثواب على الاطلاق) .

وهنا أدركت سر ما اتسم به اليهود من حب للمادة ومن حزن على فواتها .. ليس فى نفوسهم (مينا) ترسو عليها آمالهم وآلامهم .. ليس لهم غير دنيا واحدة .

كل مشكلة عند اليهود **سببها وحلها : الفلوس** . حتى أيوب حين تفلسف وتساءل عن الخير والشر والحكمة والعدل والظلم جاءه الجواب ، هبة من الرب مقدارها (أربعة عشر ألفا من الغنم ، وستة آلاف من الابل ، وألف من الثيران وألف أتان ، وسبعة بنين وثلاث بنات) .

وهى كما يقول ول ديورانت ، خاتمة سعيدة ولكنها عرجاء لأن أيوب تحصل على كل شىء الا جواب أسئلته .. وتظل المشكلة قائمة عند اليهود .. حتى سفر الجامعة لم يحلها بل كانت رؤيته لها متشائمة حين قال : (ان الهناءة والشقاء فى هذا العالم لا شأن لهما بالفضيلة والرذيلة) .

على أن هذه الظاهرة تهدأ عند طائفة (الآسين) وهى من أقوى الطوائف اليهودية أو هى تزيد عليها فى القوة والأثر و ان كانت أقل عددا . ويرجع الأستاذ العقاد انها نشأت بالاسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد واقتبست من مدارس الاسكندرية كثيرا من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثاغورس الذى يحرم ذبح الحيوان ويدعو الى التقشف والقناعة بالقليل فكانت لا تقدم القرابين من غير النبات .

الأم ..

كان الشاعر الفارسى الكبير العطار يقول عن أمه التى عمرت طويلا

حتى وهن العظم منها (ان هذه السيدة التى كانت فى ضعف العنكبوت كانت لى **حصنا**) •

وكان تولســـتوى يقول (عند تكرارى الصلوات التى تعلمت فى طفولتى ترديدها متلعثما وراء أمى المحبوبة ، كان حبى لهـــا وحبى لله يتحدان معا فى شعور واحد وبصورة عجيبة) •

أما الأم فى الاسلام وفى كتابه الأكبر فلها من الرعاية والتقديس ما تقف عنده الدراسات الموسعة ولا يكتفى فيها بقول مأثور أو اقتباس مجزوء •

ان عيد الأم هو عيد الوفـاء لمن قرن الله طاعتها بطاعته ، وجعـل الحديث عند قدميها جنته ••

كان يونج عندما يصف عبقرية عقل يقول (عقل أنثوى) أى قادر على الاستقبال والعطاء والتوليد •

وعطـاء الأمومة ليس اللبن ولكنه تجســيد الرحمــة وامتزاج الكيان بالكيـان •

لقد سمى الرحم من الرحمة • واللغة الشعبية تسميه (بيت الولد) فى احساس موروث براحة البيت ودفئه وحنانه •

ان الأمومة قمة القيمة لأنها نبع القيم وريها الصافى الضافى الرءوم•

من النبع يحلو الرشيف

الشعوب الغرقى ، أمنيتها الكبرى ، فى محنتها ، مرفأ ترسو عليه آلامها ومخاوفها ٠٠ وهنا تتجه الى الله ، الى الدين ٠٠ الى المنبع ، واذا كان الشعب دينيا بطبعه كشعبنا منذ فجر الانسانية ٠٠ حضارنه دينية نفذت بالحس الحضارى الى فكرة التوحيـــد حتى قبل مبعث الرســل ومهبط الرسالات ٠

اذا كان الشعب دينيــا بتاريخه وطبيعته ، كان انجاهه الى الله ، أقوى وأعمق ٠٠ ولا أقصد بهذا الاتجاه السلوك الروحانى فحسب بل أقصد به الكيان الشامل أى العقــل والقلب معا ٠ فمن مناحى العقــل ، اتجاه القانون وهو معيار السلوك ، والاقتصــاد وهو عصب المجتمع ، الى الدين فى هــذه المرحلة من حياتنا ٠ أمامى كتابان مختلفــان أحدهما يسمى (منهج الصحوة الاســلامية) يثير فيــه مؤلفه الدكتور أحمد النجــار قضيتين :

- الاقتصـــاد الاسلامى
- قضية بنوك الادخار المحلية ٠

أى قانون فى الدنيا يستمد قونه من الرقابة التى تضمن له التنفيذ ٠ وهنا يتفوق الدين ، لأن الانسان قد يفلت من رقابة الفانون الوضعى ، وكثيرا ما يستطيع ، فينجو من العقاب ٠ ولكنه مع الدين يخضع لسلطان الضمير القابع فى داخله فلا مفر ٠ وهو اعتبار كبير وأساسى ٠

أما الاعتبار الآخر فهو أن أى بعد فى الحياة عن الدين ، هو فى واقع الأمر ، بعد عن مهوى النفس الشعبية ٠ والنتيجة سوف تكون كما يقول المؤلف ، وهو من رجــال الاقتصـــاد المتخصصين (احجام شــعورى أو لا شعورى بدرجات متفاوتة عن التفاعل وعن العطــاء وعن الاندماج فى

ذلك الاطار المفروض) • وهو أمر يجب أن يكون مطروحا أمام واضعي الحلول الاقتصادية بحيث لا تتناقض فى الشكل أو فى المحتوى ، صراحة ، أو ضمنا ، مع أكبر القيم قداسة وهو الدين •

أما الكتاب الآخر فهو (نظام التجريم والعقاب فى الاسلام) الذى يقارن فيه الأستاذ على منصور بين النظام الاسلامى وبين القوانين الوضعية •

قد أكون بحكم دراستى الأدبية ، بعيدة عن الكتابين •• ولكن حين يكون المضمون موضوعا شاغلا لبلدى فأنا جزء منه أو هو جزء منى • والرأى العام عندنا يؤرقه الاقتصاد فى ناحية ، ويطرح عليه تطبيق الشريعة الاسلامية فى ناحية أخرى •• انهما موضوعا الساعة •

والذى يلتقى فيه الكتابان أو الاتجاهان أن الاستعمار الغربى وراء ابعادنا عن قيمنا الروحية لزلزلتنا معنويا •• وهو مطلب يستهدفه جنبا الى جنب فى وجود الاستعمار العسكرى أو بعد انحساره •

وحين نجنح الى القوانين الوضعية فى محاولة تبويب وتنظيم ، تيسيرا للقضاء أو (تشبها بأوربا) كما يقول محمد على ، فلا يعنى هذا ، العزوف عن الشريعة الاسلامية بما فيها من كمال وتمام التشريع يوم نظم الاسلام العلاقة بين الفرد والفرد ، وبين الدولة والدولة ، وبين الحاكم والمحكوم ، وبين الدنيا والآخرة • فالخلافة بيعة أى انتخاب حر ، والأمر شورى أى دستورى ديمقراطى ، والناس سواسية أى متعادلون فى الحقوق والواجبات ، بل ان الدكتور سليمان مرقص ، وهو من أساتذة القانون المدنى ، يقول : (فى الكتاب والسنة وهما أهم مصادر الشريعة الاسلامية ، الكثير من القواعد القانونية المتعلقة بالزواج والطلاق والنسب والميراث والوقف والوصية والتجارة ، والبيع ، ومختلف العقود ، والحدود الجنائية ، وغيرها من القواعد الجنائية • ولقد تناول فقهاء الاسلام هذه الأحكام بالشرح والتفصيل ، وفرعوا عليها الكثير من الحلول ، حتى غدت الشريعة الاسلامية نظاما قانونيا كاملا يعدل أرقى الشرائع ، بل ان بعض نظمها يفضل ما يقابله من نظم فى أحدث الشرائع العصرية) •

على انه لم ينص فى أى قانون أو لائحة صدرت فى مصر فى عهد أسرة محمد على و الى الآن على عدم العمل بأحكام الشريعة الاسلامية ، فلا نجد لهذا النص كما يقول الأستاذ على منصور ، أثرا فى (مجموعة قوانين المحاكم المختلطة ولا فى مجموعة قوانين المحاكم الأهلية ولا فى

لائحة كل منهما ، ولا فى تشريعات النظام النيابى الذى أنشىء بمصر فى سنة ١٨٨٢ ، ولا فى قوانين الجمعية التشريعية •

ان اتجاه الانسان الى الله يشــد الانســان الى سلطة أخــرى غير سلطان الدنيا • وبدون مسئولية الفرد أمام الله ، تصبح الأخلاق أمورا تواضعية •• قوانين تقبل التحايل •

والآن أترك التفاصيل الدقيقة للكتابين الاقتصادى ، والقانونى •• وأنفذ الى الدلالة •

والدلالة عنــدى أننا نتجه اتجاها صحيحا الى مواجهة المشكلة • وهى اعادة بناء الانسان المصرى الذى تمزق مرات • وطحن طحنــا •• الانسان الذى خلقه الله فسواه فعدله ••

والانسان السوى المعدل (يعدل المايل) كلمــا اســـتطاع وأنى استطاع • أما الانسان المكسور فى داخله ، المحطم أو المطحون ، يجنح ولو لا اراديا الى التحطيم أو التخريب لأن نفسه غير عامرة وغير معمورة بالرضا والأمان الذى يضفيه النجاح والطمأنينة ، وهذا يفسر اللامبالاة وشهوة التخريب والتشويه التى تنتاب الناس فى عصور اليأس والظلام •

ان أوربا تمر بأزمة غياب الحل أى انسانية الرؤية • أوربا حياتها وسائل برافة ولكن بريقها لا يستهوى وجدان الانسان الغربى نفسه لأنه اعتــدى عليه يوم أسقطه من حســابه ، واستعز بالآلة دونه • لسنا ضد العمل الصناعى الآلى ولكننا ضــد النمطية التى تجافى رغبة الخلق فى داخل الانسان ، والتى تميزه عن غيره فيحقق ذاته • ان الاسلوب سمة انسانية ، ورؤية شخصية وقيمة • عملية الخلق فى العمل وحرية التعبير والاختيــار تنرفق بكيان الانســان وتلملم شتاته فاذا بدوافعــه ونوازعه المختلفة ، تهدأ بممارسه « الخلق » فيما يعمله ، وكأنها آضت الى قرار • هنا يستشعر السلام النفسى وغبطة الرضا •

لقد استمد الغرب فكره من الفلسفة الاغريقيــة •• ثم جاء الرومان فافلس الفكر الأوربى فلم ينقــذه الا المسيحية الى أن دخــل فى عصر الآلة وتقديس الذهن وحده فشقى مرة أخرى بدليل تقاتل أوربا فى حربين على مدى ربع قرن • وان رد الفعـــل الذى ظهر فى أوروبا ضد العقل ، وانجاها مع الوجدان ، انما هو تمرد على الحدود التى وضعها الذهن الجبار الطاغية •

يقول يونج : (ان الذهن يمتهن الروح حين يحاول أن يتملك ميراثها وهو غير مؤهل لذلك بأيه حال لأن الروح شيء أغلى من العقل) ٠

انها تتضمنه فهو جزء منها ٠

بل هي تتضمن الوجدان كذلك ٠٠

وأحست الريادات والقيادات الفكريه فى العالم الغربى ، بشقائه ودقوا ناقوس الخطر ٠ ومن هؤلاء برناردشـــو فى كتابه (دليل المرأة الذكية) و « ديوى » فى كتابه عن الفردية القديمة والحديثة الذى أشار فيه الى التشفق فى النفس الأمريكية ، و « أليكس كاريل » الفرنسى فى كتابه (الانسان ذلك المجهول) ٠

لا توجد حضارة بلا ديانة ٠ وعندما يوجد الشك ، والتشكيك فهو دليل الانحلال ٠ وفى الانحلال تشتد من جديد الحاجة الى الدين ٠ وليس مصادفة أن يتنبأ أندريه مالرو Malraux وزير الثقافة الفرنسى السابق ، أن موضوع القرن الحادى والعشرين سيكون : الدين ٠

وهنا أقول ان العودة الى الدين لن تكون شـــكلية فليس القرآن الكريم للتبرك ولكنه روح الثقافة الاسلامية وروح الحضارة الاسلامية وروح المجتمع الاسلامى ٠

لقد صنع القرآن ١٤ قرنا بما فيها من اجتماعيات وسياسات ٠

أعاد بناء الانسان على أرض الجزيرة وما حولها أيضا ٠

كتاب فجر كتبا بل مكتبات ٠

وينجدد القلب فتتجدد فيه المعانى ٠

وتتمزق الأمة الاســـلامية من الفرقة والتشتت والهوى والخطـــأ والخطايا أحيانا ثم لا تموت لأن هناك شيئا خفيا وقويا يربطها فلا تضيع ٠ ويمسكها فلا تتهـــاوى ٠٠ هذا الربـــاط الخفى القوى هو القرآن ٠٠ وقد لا يعرف الناس هذا ولكنه واقعهم وحظهم الكبير فى الوقت نفسه ٠

وهذا الرباط لا يستثنى منه غير المسلمين ممن يعيشون معهم ويلتقون بهم فى جنسية الوطن وعلى أرضه ٠

ومن النبع هذه الرشفة

زرت المتحف الاسلامى ٠ يخيل الى أنه مســـجد او محراب ٠٠ والوقوف به صلاة ، ومشاهدة آثاره وصل ووصال ٠٠ وصل بالتراث

وهو خبرات مقطرة ·· ووصال لقلوب أصحابه وهى رؤى معطرة · فليس الماضى (للتشوين) كما يحدث عندنا ، أو حتى التفاخر ولكنه للدرس له ، والوعى به ، والاستمداد منه فى محاولة ربط الماضى بالحاضر تحضيرا للمستقبل ، ومنطلقا اليه ·

فى المتحف الاسلامى وقفت طويلا أمام مشكاوات جامع السلطان حسن التى نقلت اليه ·

كانت مصر الاسلامية تسمى القناديل (قرايات) فى وصل بين النور والعلم ·

القناديل عيون أو قلوب · فالقناديل حمى للمصباح من عبث الهواء ، والقلب حمى للمعانى من عبث الأهواء ·

والأساطير الشعبية حين ترمز الى الظلام والشر ، تجعل العفريت يطفىء اللمبة ، فالشر دائما يرتع فى الظلام ·

وكنا فى القرون الأولى من الفتح نتبادل (قناديل) الكنائس وجامع عمرو عند الاحتفالات الدينية ·

كم احتفلت مصر بالقناديل وشكلتها تشكيلا ، وجملتها تجميلا · فلما جاء العصر التركى جمع سليم الأول الصناع والفنانين ورحلهم الى القسطنطينية عاصمة ملكه ·

ولما أفاق سليم من بهره بفن مصر ، وهو الغازى المنتصر ، نقل ما راعه من عمل مصر فى التكفيت والترصيع ، الى السيف ، لعبتهم المفضلة ، فعرفت السيوف التركية ، كما يقول الفنان عبد الرءوف فى كتابه ، القاهرة ، هذه الفنون الجميلة حين عطلت منها المشكاوات فى العصر التركى ·· مع ان المقريزى يحكى لنا عن ازدهار التكفيت فى أيامه – أى قبل دخول سليم – حتى انه لم يخل منه جهاز عروس فقد كان تقليدا ، ان يضم طقما من النحاس المكفت ·

لقد كان شاعرنا شوقى يفخر بانتصارات العثمانيين ولكنه ما لبث أن أحس ما فى المدح الحربى من خواء معنوى وقيمى ، فهتف بهم : (يادولة السيف كونى دولة القلم) ·

فالسيف يهدم فجرا ما بنى سحرا   وكل بنيان علم غير منهدم

لقد بقى الفنان صانع المشكاة ، ببقائها لا يلبغا حامل السيف ·

ومن الطريف أن (يل) فى التركية معناها = أصفر، و (بغا) معناها = ثور . وهما معا (يلبغا) الثور الأصفر .

هذه لمحة واحدة فحسب . فكم فى متاحفنا التى لا نذكرها ، من عطر السنين وعطاء الموهوبين .

ان ما رأيته فى المتحف القبطى وفى المتحف المصرى يملأ أسفارا . فالزخرفة المصرية كما تقول Pavla Fortovà Sàmalova فى كتابها Egyptian Ornament (لم تكن تنبع فقط من رغبة بسيطة فى التزين ولكن من فزع المصرى بحيويته الدافقة من « الفراغ » .. تنبع من رغبة حميمة فى التعبير عن الايقاعات العميقة للحياة فى أسلوب منظور) وأقول كما تعكس هذه الآثار احساس مصر باللون ، واحساسها بالكون ، وقدرتها على الخلق والتشكيل والتنويع .

رسائل من مصر

رسائل كتبتها ليدى دف جوردون ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٦٩ وترجمها الى العربية الدكتور على الراعى .

وفى هذه الأيام أصدر الدكتور الأستاذ أحمد خاكى كتابا عن حياة المؤلفة تخلله بالطبع بعض هذه الرسائل . وقيمة هذه الرسائل أنها كتبت بحب وفن .. ومن الحب والفن ، الانصاف . فالحب برقته الرقيقة ، والفن بدقته الدقيقة عدل وتقنين ينعكس على النفس . الحب بلطافته والفن برهافته ، انصاف واحساس يصعب معه الظلم . انه « فوقية » تعلو على الاسفاف .

كلمة مفتاح لفهم الكاتبة ليدى دف جوردون التى أحبت مصر حبا جما أملى عليها رسائلها .

ولشد ما تذكرنى هذه الرسائل بمن كتبوا عن مصر قبل ليدى دف جوردون وبعدها . فمصر منذ كانت وأفئدة من الناس تهوى اليها . بعض هؤلاء فى كتابه « مصر » الذى يقول فيه «ان زائر مصر يكتشفها لنفسه ويكتنز معرفته بها ذخرا ، وكتاب بانوراما مصر والنوبة Panorama d'Egypte et de Nubie الذى ألفه Hector Horeau فى منتصف القرن التاسع عشر (١٨٤١) وهو كتاب يواكب كتاب « وصف مصر » فى مادته العلمية والفنية وكتب أخرى كثيرة يطول عرضها ، غير انى عنيت بالاشارة الى الكتب التى تناولت الانسان المصرى والمجتمع المصرى بعيدا عن السياسة والحكام .

لقد سمعت ليدى دف جوردون نداء هذا المكان نداء يرد على رجاء الزمان ليشفيه من داء العصر وهو جدب الروح •

لم تر السيدة ، الانسان المصرى البسيط متخلفا بل أدركت أنه ابن وراثة عريضة وانه معطاء لو وجد مناخا صحيا وهو درس لنا لعلنا نعيه فبدلا من التفكير فى **التهجير** الى البلاد الأجنبية أو **التصدير** الى البلاد العربية ، نرفع كفاءته ونرفع قبل هذا معنويته وانسانيته فيصير العدد عدة لا شدة واثمارا واستثمارا لا انفجارا كما يسمونه •

لقد استشفت السيدة من سلوك البسطاء حولها أن النفس المصرية قادرة على الاستعلاء على الألم مهما جثم وجسم • كالشمعة تقلبها فتسقط منها دمعة ولكن الشعلة تتجه الى أعلى •• فى تماسك وتمسك بالوهج ••

انها روح مصر فى المحنة •

لقد لمست السيدة دف جوردون فى رسائلها عذوبة الروح المصرية ••• وكثيرون يعجبون بفكاهة مصر ويعجبون لها وما دروا أن همس النبات فى نشأته الأولى وما يبثه حوله من أمان كان له أثره على الانسان المصرى فالحنو والتراحم فى النفس المصرية يتبدى فى الحديث رقة ، ويتهدى فى الشعر المصرى القديم ، دماثة وسلاسة ، وفى النمنمة الاسلامية ، دقة حين بنت مصر المساجد ورفعت المآذن وتفشت القباب •• والمحاريب •

عاشت ليدى دف جوردون فى الأقصر •• فى طيبة الطيبة الأصيلة •••• وهناك فى مدينة التاريخ أقامت فى بيت يطلق عليه اسم « بيت فرنسا » • **لقد غير هذا البيت الجغرافيا** ففيه عاش الذين نقلوا المسلة الى ميدان الكونكورد ، والذين نقلوا قاعدتى تمثالى ممنون الى المتحف البريطانى ولكن بيت فرنسا هذا **لم يستطع أن يغير التاريخ** لأن المسلة فى باريس تقول بسمتها وصمتها وشموخها وأسلوب بنائها : **أنا مصرية** وكأنها ترد على نفرتيتى فى برلين •

عاشت السيدة بيننا فى الصعيد سبعة أعوام فاستطاعت مع الأيام ان تنفذ بالروح البيضاء لا الجلد الأبيض **الى حقيقة الدين فى مصر** ومن أقوالها ذات القيمة (لا يختلف المسلمون والأقباط فى معتقداتهم الا فى تليل من المذاهب ولكن الخلاف الحقيقى هو بين أهل الشرق وأهل الغرب) •

وفى الحقيقة أن **التماثل بين المسلمين والأقباط** لم يستطع أن ينكره حتى كتاب الاستعمار أمثال جون بورنج فى القرن الناسع عشر وادوارد واكين فى الستينات من القرن العشرين فى كتابه (أقلية متوحدة) حتى كرومر لم يستطع انكار التمـاثل بيننا فى كتابه (مصر الحـديثة) "Modern Egypt" الذى جاء فى الفصل السادس والثلاثين منه ، وأنا هنا أترجم حرفيا ، (القبطى من قمة رأسه الى أخمص قدميه فى السلوك واللغة والروح ، مسلم وان لم يدر كيف ... الخ) ولولا التعصب لدرى بسهولة أن القبطى والمسلم انسان واحد هو فى النهاية ، الانسان المصرى ، قبل الأديان · ثم اعتنق بعضنا المسيحية ، واعتنق آخرون الاسلام حين اشتكى والى مصر الى عمر بن عبد العزيز تناقص الجزية المستمر · فقال : (ان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا) ولخير لى أن يدخل المصريون فى دين الله أفواجا من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة · انه عمر بن عبد العزيز الذى نربى فى مدينتنا (حلوان) · فمسته من مصر حضارتها وسماحتها وعـذوبتها · ان اخاءنا على هـذه الأرض عمره من عمرها ·· فرق بين الدين والجنسية ·

ليس الاقبـاط بالمسـيحية فلسـطينيين بل مصريون اعتنقـوا المسيحية ·

وليس المسلمون بالاسلام من الجزيرة العربية بل مصريون اعتنقوا الاسلام ·

ان (رسائل من مصر) نهر من الاشواق عرف نارها المقدسـة قلب غريب لم ينقطع له ما عاش وجب حتى لتقول صاحبته فى احدى رسائلها نصف سماء أسوان (كانت **النجوم** تشع من الضـوء بمقدار ما يشعه القمر فى أوربا) ·

ليست نجوم مصر وحدها المضيئة يا سيدتى ، أشد توهجا منهـا روح مصر ··

منه ٠٠ تعلمت بعد الجامعة

انه انسان مصرى بسيط

يعمل عملا متواضعا

خصائصه كلها متواضعة ٠٠ الا نفسه المترفعة ذات الكبرياء ٠
رأيته فى قبرص التركية ٠

استقبلنى مصرية من مصر ٠٠ وكأنى أخته أو أمه أو ابنته ٠ لعلى فى نظره ، كنتهن جميعا ٠ فمد حدثنى طويلا ٠٠ نفض نفسه عندى ٠٠ كان يقول وأسمع بل أعطيته كامل صغوى ٠

جاء مع النيل من الجنوب الذى اعتبرناه ، منذ عرفناه واهب المــاء والتمرات ، قبلة ومرقى صلاة ٠

كان يحمل لون الصعيد وطيبته وأصالته ٠

كان يتردد على سمعه ، مثلنا ، أن مصر أم الدنيا ٠

وحين وجد نفسه مثخنا بالجراح ومن أسرته ٠٠ لأنه اتخذ لنفسه وجهة وقبلة هو موليها ٠٠

تاق الى مصر واشتاق الى حنانها هى ٠

كان يحسب مصر امرأة على غير مثال ولدت المصريين جميعا ٠٠٠ أليست أم الدنيا ؟

وضع نفسه فى القطار ليطرح عليها قضيته ويبثها شــــكواه ، لتنصفه من ظالميه ٠٠ انها أم الدنيا ٠

فلما نزل من القطار ، وجد مصر مدينة عظيمة جليلة اســـــمها القاهرة ٠ أم المدائن نعم ولكنها ليست ســـيدة من النساء ٠٠ لم تلد الولادة التى ألفناها ولكنها أم الوالدات وأم البنين ٠

وسار فى الزحام ٠

وصار نقطة فى محيط ٠

وكابد كثيرا وصهرته التجربة وراء التجربة ٠٠ غدا فيلسوفا فعاد من جديد يقول : مصر أم الدنيا ٠٠ سالم بطبعه ، وحارب بذراعه ٠ فقد

انتظم فى سلك الجنود الذين ذهبوا الى اليمن ٠٠ ثم حارب فى سـنة ١٩٦٧ وعبر فى سنة ١٩٧٣ ٠

واهتز وجدانه كما اهتزت الأرض تحته حين دوى صوته ورفاقه فى هتفة واحدة : « الله أكبر » ٠

قالها المسلمون والمسيحيون أيضا ٠

قالوها معا ٠ انها مصر التى تتوحد كلمتها كقلبها عند الشدائد ٠ صنع النهار مع أبنائنا الأبطال ٠

ورأى الحياة والموت ٠٠ وعرف الرجال وسواهم ٠

رأى العدو والتحم معه فما ارتاع ، بل راع العدو ، انسانا مصريا أقوى من الصبر ، وأمضى من السلاح ٠

بطولات كثيرة رواها عن رفاقه وعن كفاحه ٠

بطولات ، تاريخنا ، على مداره ، حافل بها ٠٠٠ على مسـاره ، يرويها ٠

كنت أسمع أنغاما لا كلاما ٠٠ حتى ما كنت أعرفه من كثرة القصص كنت لا أقاطعه بل أدعه يرويها وأسمع كأنها جديدة على وأنا نسيج عمرى من تاريخنا بأفراحه وأتراحه ٠٠ ولكنى لم أشعره أنى أعرف ٠

سمعت جديده والقديم فلم يفتر شوقى من الاعادة والترديد ٠

انها سيناء ٠

وانها أيامنا

ليس حفنة من تراب

ولكنها دم الشباب الذى رواها وأقدار الرجال البواسل ، وصبر أمة وراءهم احتملت فوق طاقة البشر ٠

سأله سائل وهو يحكى موقفا من مواقف شجاعة الذهن :

ـ ألا تخاف ؟

قال : مادام الماء والهواء والشمس هبة من عند الله بلا ثمن لا يملكها أحد غيره ففيم الخوف ؟

وصلى قلبى لله ايمانا ، على ايمانه ٠

جاءه صديق يجأر بالشكوى من أن الطبيب تقاضى منه سبعة عشر جنيها مقابل خمس دقائق اكسجين عندما احتاج تنفسا صناعيا ٠ فابتسم الفيلسوف وسأله بدوره :

ـ كم مليون (خمس دقائق) فى عمرك ؟ لم يتقاض عنها شيئا ، الله واهب الحياة والصحة فاشكره كثيرا وسبحه بكرة وأصيلا ٠

عاش عمره يشتهى بيتا صغيرا يزيد على حجرته الضيقة التى يعيش فيها مع زوجته وأطفاله يتداخل بعضهم فى بعض ٠٠ وكان قد تزوج فى صمت ٠ قال كأنه يزف الى خبرا كبيرا : ان المحافظة ستسلمه شقة فى ديسمبر سنة ١٩٨٣ بعد انتظار طويل ٠٠ ثم قال : انى لا أنسى وقفة زوجتى معى فى الأيام العصيبة ٠٠ لا أنسى فى بداية حياتنا حين اعتذرت لها عن عدم اقامة احتفال بالزواج وكيف هونت على الأمر ٠٠ لهذا أعتزم بمشيئة الله عندما أنتقل الى الشقة الموعودة ، أن احتفل بها عروسا تزف الى بيتها الجديد ٠

وفرحت الأنثى فى داخلى بوفاء نقى تغالى به المرأة ٠

قلت له : عروسا وأطفالكم الأربعة ؟

قال فى فكاهة مصرية :

ـ يحملون لها الطرحة ٠

ان المحارب الشجاع ، شاعر أيضا ٠

أذكركم أنه انسان مصرى بسيط ٠٠٠ بسيط جدا ولكن المصرى وراءه آلاف السنين ٠

وكم لمصر من قصص مع السنين ٠

كم أبدعت وأمرعت

كم أترعت وأمتعت ٠

ما أحفل السنين ٠٠ أبدا لن تضيع آلاف السنين والا لما قال هذا الانسان البسيط ما رويته عنه ٠

ان الثقافة ليست الشهادات أو المكتبات وحدها

الثقافة موقف ٠

والثقافة ارتفاع سلوك ، وامتناع نفس ، وذكاء احساس ٠

الثقافة بطولة قلب أو عقل أو ضمير ٠

ظاهرات فى حياتنا تحيرني

من عز الحضارة المصرية أن مصر هى البلد الوحيد فى العالم القديم الذى جعل للكتابة الهة « سشات » وزوجها من اله الحكمة فى احساس حضارى بما بينهما ٠

كان المعبد المصرى يقصر دخول قدس الاقداس على الملك بعد ان يتطهر ويتعطر ٠٠٠٠ والكتابة فى نظرى قدس الأقداس والكاتب الحقيقى ملك ٠٠ فان القلقشندى يحكى فى (صبح الأعشى) أنه كان من قومنا من يقول (الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة ، اليها ينتهى الفضل ، وعندها تقف الرغبة) ٠

على أن الكتابة فى رأيى بل ورأيهم أيضا أبقى من الخلافة ومن الملك حتى قالوا : (كفى بالكتابة شرفا أن صاحب السيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمه الكاتب فى سيفه ٠ ومن ثم صار السلطان الذى هو رئيس الناس ومستخدم أرباب كل صناعة ومصرفهم على أغراضه ، يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلة مع ترفعه عن التلبس بصناعة من الصنائع الحسنة ، وأنفته أن يقع اسم من اسمائها عليه ٠ وأن كل ملك وسلطان يؤثر أن يكون له حظ من بلاغة العبارة وجودة الخط ، وفى ذلك ما يدل على أنها أشرف الصنائع رتبة وأعلاها درجة) ٠

فاعتزاز قومنا بالكتابة **عز حضارى** يجب أن تلتفت التربية اليه ٠

ان فن الكتابة هو فن الفكر وفن الذوق معا ٠ فن الفكر بما يضمنها الكاتب من معان ، وفن الذوق بما يخلع عليها الكاتب من حلاه ورؤاه ٠

والتقاء المعنى بالأسلوب فى الكتابة لون من (العلاقات الفاضلة) ٠

أقول هذا بمناسبة كثرة (الكاتبين) الذين نقرأ لهم ممن يتزاحمون على قدس الأقداس دون أن يتطهروا أو يتعطروا وقبل هذا كله دون أن تسعدهم الموهبة أو تسعفهم الوسيلة ٠٠٠٠ حتى غدت كل معزة فى (ماهوش) تقول شعرا كما يقول الأستاذ فريد أبو حديد ٠

فريد أبو حديد الذى جعل (جحا) الحكيم – فى كتابه « آلام جحا » – يثور عندما تبين رغبة ولده فى أن يكون أديبا وحاول جحا صرفه الى حرفة محدودة معروفة لها قيود وفيها أسرار تمنعها عن الدخيل وتحميها

من الدعى (ولكن لا يبلغن به السفه أن يدخل برجليه الى تلك الرملة الخوانة التى يسمونها صناعة الأدب) •

سنة ١٩٧١ ترجمت من الانجليزية كتاب (رسائل الى ولدى) فى هذا الكتاب حديث عن الكاتب الشبح أو الذى يسمونه فى الانجليزية Ghost Writer يقول فيه مؤلفه ان هناك كتبا يؤلفها عظماء ولكن مؤلفها الحقيقى (شبح) مختف من الاشباح وان حملت اسم رجل هو بدوره شبح من الاشباح ، لانه لا ناقة له فى تأليفها ولا جمل ، ويحدث أحيانا أن اشباه الكتاب ، كما يقول داجربرت روبونز (يبرزون بفضل اساليب الدعاية ليس الا ، وكل ما يعوزهم لكى يضعوا أنفسهم على القمة ، هو قليل من الاساليب الذكية ، وان خلت من كل معنى ••• ومع أنهم لا يخلفون شيئا للمستقبل ، ولا يجزلون للحاضر شيئا ، فانهم يغتصبون الانتباه والتصفيق والجزاء المادى الذى يستحقه المبدعون الأصلاء الصادقون) •

لا ضير ••• فمع الزمن يفنى التزيين والتصفيق وتبقى الكتابة الحقيقية التى هى عطاء نفس وحكمة روح •• كتابة الموهبة ومن يؤتها فقد أوتى خيرا كثيرا •••

القريحة القاهرية

وبمناسبة الحديث عن الأدب أذكر أن عطاء مصر فى الأدب الفصيح هو الذى سجل وضمنه أصحابه بطون الكتب • ولكن القريحة القاهرية خلقت وأبدعت ، وعلى الفور ، نيلا من الأدب القاهرى الشعبى •

الرجل العادى فى الحرفة البسيطة فيه لماحية وخفة روح تجعل الحلاق ، يكتب على (دكانه) « نحن نقص » والساعاتى يشير الى بضاعته بالآية (ان الساعة آتية لا ريب فيها) ••• ووكيل المحطة الذى علق على مكتبه لافتة بالآية (هو الحق الوكيل) •

وليس هذا بالسهل فى باب لطف المشاعر أو ظرف الروح • فقد روى الشيخ على الليبى عن الخديو اسماعيل أنه رأى يوما لافتة وكيل المحطة (هو الحق الوكيل) فزر ما بين حاجبيه ثم صاح : هو الحق (بكسر الألف) الوكيل •• ثم استدرك فقال هوا (بفتح الهاء والواو) •• لحق الوكيل ولم ينفذ الى الآية العربية أو اللمحة المصرية •

ان الدعابة المصرية فيها رقة وصفاء من أثر التاريخ الطويل فى الحضارة •

الحمامة

حين أتناول طعامي قطعة من اللحم أنسى مصدرها ولا أذكر الا أنها بروتين • ولكن الحمامة حين تكون فى طبقى يدوى فى داخلى صراع صامت ••• انها هى •• رقبتها ••• رأسها الصغير •• جناحاها اللذان طالما رفرفا ودفدفا ••• كيانها الصغير الرقيق •• كيف ينشب انسان أسنانه فى •• الحمامة ! ياللقسوة •

هذه الحمامة الوديعة الطروب ••• يا للانسان يتخذها رمزا للسلام ثم يذبحها بالسكين !

هذه الحمامة اتخذتها المسيحية رمزا ، وظلت مصر تضعها شعارا على أوراق الدواوين بعد الفتح العربى حتى العصر الفاطمى أى حتى بعد تعريب الدواوين •

هذه الحمامة ألهمت الشعراء واستوقفت شاعر المعرة خاصة فتساءل ساخرا في مرارة :

أبكت تلكمو الحمامة أم غنت   على فرع غصنها المياد

لعله أحس الخوف الفار فى داخلها من الصياد ومن الصقر ••• كلاهما يجرحها ويسيل الدم •

وجاء شوقى واستشعر احساس رهين المحبين بها وجزم بأن هديلها حنين ، وشجوها أنين ، وترنيمها بكاء •••

يا حماما ترنمت مسعدات   وبها حاجة الى اسعاد

ضاق عن ثكلها البكا فغنت   رب شجو سمعته من شاد

نحن والنبات :

ان النبات أستاذ النفس المصرية فمنه تعلمت صفات **العطاء والصبر وتجديد الذات والاستعلاء على المحنة والتسامح** فان النبات اذا قطعت منه جزءا لم يتوقف ولم ينتقم بل ينمو من جديد •• الشيء الذى لانعيه كما يجب من النبات ، هو **الهدوء** •

أقول هذا بمناسبة الصخب السائد فى حبيبتنا « القاهرة »

مصر والمــرأة ..

أراد ألدز هكسلى أن يصف العصر الفيكتورى بسيادة الرجل فقال ان البيت الانجليزى كان يضم دائما كرسيا واحدا ذا مسندين .. وهذا الكرسى طبعا للأب .

نظرة واحدة الى حجرة (حتب حرس) أم خوفو نجد سريرا فخما ضخما به مكان لاراحــة وراحــة قدميها . وفى الحجرة كرسى ضخم ذو مسندين لها اذا جلست ، ومحفة تضاهيه وتزيد عليه فى طول المقعــد لتجلس وتسترخى اذا أرادت الانتقال من مكان الى مكان ...

ان حتب حرس كانت تتمتع بما لم يحلم به رجل العصر الفيكتورى، الذى يحسده بدوره ، رجال العصر الحاضر .

حتب حرس هى المرأة المصرية التى ينتقل من خلالها العرش .

وليست لأنهــا الملكة . فان المتحف المصرى يضم عائلة القــزم المتواضع (سنب) حيث نرى زوجته عليه كحنــان الملكة على زوجها (من كاو رع) لا منقرع كما نقول .

حنان المرأة فى الحالين ليس سنادة بل **سندا** . انها فكرة المرأة فى نظر مصر .. انها رؤية مصر للمرأة كشعاع من الرحمة وحفظ لتمام معنى الانسان مهما بلغ ولو كان ملكا له ملك مصر والأنهار تجرى من تحته .

انها (تمام) يكتمل به كل من الرجل والمرأة على السواء ، لقد أكرمت حضارة مصر المرأة ولعل هذا سر الحضــارة المصرية وتواصلها من دون الحضارات .

لم تكرم حضارة فى الدنيا المرأة كما كرمتها مصر حين جعلت :

سشات ربة للانشاء الهندسى والقلم والسجلات .

ومعات ربة للعدل وللحق .

وحاتحور ربة للفن والرحمة أى الجمال والحنان .

وايزيس المثل الأعلى للأمومة والوفاء .

وفى المسيحية ركزت مصر على الأم لا الصلب .

وفى الاسلام تعلقت مصر بالسيــدتين الكريمتين زينب ونفيســة وضمت اليهما السيدتين سكينة وفاطمة النبوية .

وهى بعد هذا كله ربة البيت الذى هــو أصل الحضـــارة ثــم هو غايتها بمعناه الواسع ومعناها الرفيع .

فاذا حققت المرأة هذه الصفات النوابغ بذاتهـــا لذاتهـــا ارتباطا بتاريخها وانطلاقا من ماضيها فقد اسنوت غايتها من المساواة المنشودة بل تجاوزتها الى أفق أعلى من الفن والعدل والحـــق والبر والأمـــومة والقداسة .

اذا حققت المرأة هذه الصفات النوابغ ارتفعت على المفهوم الضيق المحصور فى المتعـــة والجنس الى معنى الايناس والمودة والسكن والسند والواحة الخضراء فى القفر .. .. ارتفعت من أسفل الجسم الى أعلاه الآسر بالهدوء الجميل والجليل فى رأس (موت) زوجة أمون ....

اذا بدأت المرأة من هذا المنطلق الذى أثرتها به وشرفتها مصر حليت بالخلق والخلق ، وغنيت عن التقليد و (الظلية) . بما فى التبعية من مسخ ونسخ .

أن يبتكر الانسان ويعطى بلا ضريب ، ارتفاع وندية لأعلى ماهــو ممكن فلا حاجة به الى طلب مساواة التى يحمل طلبها فى طياته وقراراته ريح (الدونية) بل يعترف به .

أن يعطى الانسان من ذاته ، مستوى من الاشعاع يعز بالقدرة ، ويعز على التبعية فلا تعود هناك حاجة الى طلب مساواة لأنها أصلا محققة وموثقة .... ما دام النضج وصل بصاحبه الى قمة .

أى مساواة تطلبها المرأة من الرجل وهى التى تعده منـــذ مولده لرحلة العمر .. هى التى تشكله وتعطيه ما تريد من قيم وأساليب سلوك .. فاذا استطاعت أن تمنحه ذخرا حقيقيا باقيا معه ، فانها تظل فى عينه وقلبه وضميره الأصل والمنبع والمعلم والأم والسند والهادى ومـــا يعنى هذا من اقرار (الفوقية) ولو بغير حروف .

بيتها ظل ، وظلها راحة ، وقلبها واحة ، وحجرها مربى ، وعملها مثل ، وشخصها أمل . وهى لو أدركت وأدرك مجتمعها ، صانعة الفجر الجديد .. فأية مساواة تريد ؟

أقول هذا بمناسبة قضية المرأة .

يجب على المرأة أن تنقل المعركة داخلها بأن تعيد بناء فكرتها عن نفسها . ان فكرة المرأة عن المرأة مؤلمة .. على الأم ألا تطلب من ابنتهــا

ان تخدم أخاها لأنه (راجل) أى افضل ثم تصرخ من (الراجل) وهى التى ركبت ووطنت فيه عقدة العظمة والأفضلية ٠

وكما جاء الاسلام مؤيدا لمعتقدات مصر فى فكرة البعث والحساب والثواب والعقاب ، والميزان ، وضع القرآن الكريم كتاب الاســلام ، الرجل والمرأة فى اطار واحد ٠ فكلاهما انسان بكل ما هو منوط بالانسان من صفات الخير والعقل والمسئولية والثواب والعقاب فحين قال : (فاستجاب لهم ربهم أنى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ٠٠٠٠) ٠ قصد بالخطاب الرجل والمرأة على ســواء يؤيد هذا التفصيل بعد الاجمال فى قوله (منكم من ذكر أو أنثى) ٠

فليس ضمير جمع المذكر فى الآيات دليل تخصيص وانما هو من باب تغليب الخطــاب أى أسلوب تعبير لا تشريع ٠٠ قصد الجزاء لم يفضل الله أو يفاضل ما دام العمل الطيب واحدا ٠٠ وهو **درس لأصحاب الأعمال ورؤساء الوظائف** ٠

(بعضكم من بعض) **هنا مساواة فى الأصالة** ٠

ويقول الله تعالى (ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ٠ هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) ٠

ساوى **فى الجلسة والمكان** ٠٠٠

وحين يفضل القرآن الكريم الآيات فى معانى ومجالى المســئولية والحساب والتبعة والتكليف ، يعبر **(بالنفس)** ٠

(كل نفس بما كسبت رهينة)

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) ٠

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) ٠

(اذا الســماء انفطرت ٠ واذا الكواكب انتثرت ٠ واذا البحـــار فجرت ٠ واذا القبور بعثرت ٠ علمت نفس ما قدمت وأخرت) ٠

والتعبير بالنفس هنا أوســع من التعبير بالرجــل أو المـرأة ، انه يشملهما فكلاهما نفس ٠

كلاهما مكلف مسئول مستقل الارادة والتصرف حتى يكون خليقا بالثواب ، أو حقيقا بالعقاب ٠

وفى مواضع الاصطفاء لم يقصره على الرجـل دون المرأة · فكما (اصطفى آدم ونوحـا وآل ابراهيم وآل **عمران** على العالمين) اصطفى مريم على نساء العالمين ·

وقد تقبل الله المرأة فيما يتصل بشئون العبادة والقيام بخـــدمة أماكنها المقدسة كما يتقبل الرجل ·· فتقبل من امرأة عمران ابنتها مريم (**بقبول** حسن وأنبتها نباتا حسنا) · سورة آل عمران ·

واختص الله المرأة بكلمته حين بشر مريم بعيسى ·

والأمومة امتياز للمرأة لم يمنحه رجل فى الخليقة · أن تحتوى طفلا وتلده وترضعه ويخفق قلباكما معـا ، نعمـة لا توصف ولا تقدر بمال أو جاه أو مناصب مما يحوزه ويحرزه حتى أعظم الرجال ·

أنا لا أنتصر للمرأة ، وهل الرجل الا الأب والأخ والزوج والابن كما أن المرأة هى الأم والأخت والزوجة والبنت والحبيبـة فى جميع هـذه الحالات ؟ ·

انى فقط أتشرف بمكان المرأة فى القرآن الكريم ومكانتها عنده ·· أكرم به من انتماء ·

قصة الحيــاة

صارت ابنتى أما

فطرحت أمومتى وتجددت أشواقها ٠

رأيت آلام المخاض جديدة وأنا أعرفها ٠

أحسستها بعينى هذه المرة ٠

حين يتألم أطفالى ، أتمنى أن أحمل الألم دونهم ٠٠ ليصحوا هم ٠

ولكنى هذه المرة كان احساسى مختلفا ٠٠ انها الآلام المقدسة ٠٠

انه الألم المبارك أو لعبة الصبر كمـا يطلق عليهـــا طبيبهـا الأب الانسان الدكتور صلاح عيسى ٠

عرش الأمومة ينتظر حبيبتى

ليشرف بها وتشرف به ٠

ومر أمامى شريط من سنين ٠

حين كانت هى جنينا يخفق له قلبى ، ويهفو اليه روحى ٠

تذكرت كل نبضة ٠٠ كل خفقة ٠٠ كل حركة ٠٠

عالم حافل من الدبيب والوجيب ٠

ويلون خيالى الأحلام من ذوب القلب ، وورد الروض ٠٠

وأتعاطف مع الطفولة من كل نوع حتى طفولة الأشياء ٠

فكل صغير ، حبيب من أجل جنينى الذى هو طفلى أو طفلتى ٠

وأستعرض ألفاظ العربية بموسيقاها وحلاها لأختار اسما لابنتى ٠٠ لأن كل طفل ، اسمه « أحمد » أما البنات فهنا يحار الاختيار ٠

ويحار أكثر لجمال الأسماء فى العربية ذات الثراء واللألاء ٠

وجاءت ساعة المولد كتلك الساعة التى تمر بها ٠٠ هى ، أمامى ٠

كان ذلك يوم ٢٩ أغسطس من عام مولدها ٠

وفى ذلك العـــام قررت مصر الاحتفال بفيضـــان النيل فى ٢٩ أغسطس ٠٠ كنا نعرف له حق الوفاء الذى نسيناه ٠

وذهبت الى المستشفى فى تمام الثانية بعد الظهر ولكن طبيبى كان يبذل أقصى ما فى علمه لتوفير جهودى أو توفير راحتى للحظة الحاسمة ٠٠ حتى اذا كانت الساعة الثامنة والربع مساء انتقل بى الى حجرة الولادة ٠

وفى الساعة الثامنة والنصف أهلت على الدنيا ، حبيبتى الصغيرة حين كانت طلقات المدافع نهز المكان والكيان ، احتفالا بوفاء النيل ٠

وكنت من سعدى فى فرحتين ٠

وكنت من فرحتى فى حبين

النيل أبى

وفينان ابنتى

ومنذ ذلك اليوم أنعم بالنهرين : النيل ونبعة منه هى بضعة منى ٠

وينابيعه أنهار ٠

ألم يطلق عليه الله لفظة أنهار فى أكرم كتاب !

وقلت من اعتزازى ما قاله مليكنا الذى ازدهاه ، النيل !

(أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟) اعذروه ٠

منذ ذلك اليوم ، الأنهار ، تجرى فى قلبى ٠

شريط من سنين ٠

طفولتها الحافلة بالطرائف وعذب الكلمات والاشارات ٠

دراستها الحافلة بالنبوغ ٠

صباها فى الجامعة وتألقها فى البحث ، وتأنقها فى الاسلوب ٠

ثم رأيتها عروسا فى الثوب الأبيض والطرحة ٠٠ وزغردت عيناى ضحكت لى الدنيا ٠

آراها الآن تخطو فى طريق الأمومة فأدعو الله ٠ وأحتمى من خوفى بالقرآن أتلوه وهو محفوظ بصدرى ٠

وكانت بلسما ، الآيات ، فبذكر الله تطمئن القلوب ٠

وينقلها طبيبها من حجرة الولادة الى حجرة العمليات ٠

ويحس قلبى ويرى ، كعينى ، شبح « القيصرية » ٠

ورفعت وجهى الى الله وقلت : يا رب

بكل ايمانى بك قلت : يارب

بكل عذاب عمرى قلت : يارب
بكل الصلة التى بينى وبينك ناديتك يا رب
ثم انخرطت فى البكاء
وغدت الدقائق ، ساعات ·
واستقطب أيام عمرى ، لحظات مشحونة ، كأنها دهر كامل ·
ورفعت رأسى على هتفة الطبيب : الحمد لله مبروك
وصارت ابنتى أما للمرة الأولى
وصرت أمين ، أو أما ، مرتين

ترى كم مرة صارت مصر العظيمة أما ، على مسار ألوف السنين ·· أم الحضارة ·· وأم البطـــولات ·· وأم النيـــل ·· وأم القيم ·· وأم كل رائع ونبيل وجميل ·

ولدت البشر ·· والفنون ·· والعلوم ·· والأفكار ·· والمواقف · وكان طرحها فى كل ، رائعا وباتعا ·· مبدعا وممتعا ··

ما أكرمك وطنا فى علاك
وما أعزك ، أما ، ما أغلاك
يا أم الأمهات ·
ويتهادى الى سمعى صوت واهن ، ولكنه حبيب أثير :
أمى : بماذا تسمين ابنتى ؟
وسميتها « **نوران** »
ابنتى وحفيدتى

واستوحيت الآية الكريمة : « ·· نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » (٣٥ م النور ٢٤)

كم لك عندى يا رب من آلاء ·
يا رب الخير
منك الخير
وأنت على كل شىء قدير
وبالحمد جدير ·

الأم فى وجدان مصر

سألتنى مذيعة التليفزيون الذكية فى عيد الأم عن مفهوم الأسرة ٠

ولم أدهش فحينما وجدت الأم ، وجدت الأسرة بمحيطها الواسع ومعناها الرفيع ٠

ومن حظى ــ والحظ توفيق من الله ــ أنى أحس نعمة الأسرة احساسا مضاعفا فللناس أسرة ولى أسرتان ٠٠ أسرتى الخاصة وقوامها خمسة أفراد ، وأسرتى العامة وقوامها خمسون مليونا يشربون من اناء واحد هو : النيل ، ويأكلون على مائدة واحدة هى : الوادى ٠

كان البيت فى مصر ، أصل الحضارة ٠

وغاية الحضارة اليوم أن تكون الدنيا بيتا ٠

فى أسرتى الخاصة مودة ورحمة ٠٠ واخة وراحة ٠٠ الألم يتقسم فيخف ٠٠ والفرح يتضاعف فيشف ويرف ٠٠ ولأمر ما وصفوا السعيد بأنه يطير من الفرح ٠

وفى أسرتى العامة يلمس الانسان الوعى الحى الساهر والعزم اليقظان ٠٠ يلمس الوحدة بين نفوس متعددة ٠٠ وحدة أكبر من المحبة ٠٠ لأن المحبة فى قمتها أن تتوحد مع من تحب ٠٠

وقد توارثنا هذه الوحدة حتى ليعد قمة التأدب ، قولنا فى المجاملة : (مفيش فرق) ٠ والذم عندنا ، القول : (أبو وشين) فذو الوجهين زائف لا وحدة فى سلوكه ٠

حتى النحت المصرى لا فاصل ولا فاصم بينه وبين الجدار ٠٠٠ وهكذا النفس المصرية عندما تتوحد وتتماسك ٠

انها الوحدة المصرية عبروا عنها بالحجر متوازيا ومتساويا كالشعر ٠ وانه الوعى الاجتماعى ٠

أسرتى الخاصة أعطتنى المال ٠

وأسرتى العامة أعطتنى ما هو أعز ٠٠٠ أعطتنى الوراثة الحضارية ٠

أسرتى الخاصة أعطتنى اسم النداء : نعمات ء

وأسرتى العامة اعطتنى اسم الشرف : مصرية من مصر .

أسرتى الخاصة أعطتنى العمر المحدود .

وأسرتى العامة أعطتنى زمانا بلا حدود هو عمر مصر . ومصر ولدت قبل الزمان بزمان .. أى قبل أن تضع للدنيا التقويم الشمسى الذى تسير عليه الى اليوم .

أسرتى الخاصة أعطتنى مبادىء الأخلاق : الصواب والخطأ وما يليق وما لا يليق ..

وأسرتى العامة أعطتنى قمة القيمة أى « معات » ومعناها العدل والخير والحق أى « الضمير » .

فى الأسرة يستشعر الانسان الطمأنينة والسكينة والجنة ، اذ يشهد تجربة متمرة : أبوين متفاهمين .. وفى مثل هذه الأسرة يولد الشعور بالالتزام نحو المجتمع الكبير .

ان الأم أول شعور بالانتماء فى حياة الانسان .. وتظل السنوات الأولى من العمر هى الوطن بما تعطيه من حماية ورعاية وأمان ورى وغذاء . ومن هذا الاحساس بالانتماء ينبثق كل احاسيس الانتماء لدرجة أن علماء النفس يسمون الاحساس القوى بشىء عندما يشب الأبناء : (الأم البديلة) كالانتماء الوطنى أو اعتناق مبدأ معين .

الأم مدرسة لتوسيع حدود الذات ، واكتشاف شقى الوجود . يكتشفه كل من الأب والأم فى الجانب الآخر .. ويكتشفه أيضا الأولاد الذين نظنهم أطفالا ..

وأسرتى العامة أعطتنى القيم والمعانى والأشياء الجميلة وعلامات الطريق .. أعطتنى معالى التاريخ ومجالى الأدب ..

كل هذا يصعد من الأعماق الى الشفتين فى عيد الأم لأنها أصل الأسرة .. مدرسة اذا نبهت ، تخرج فيها شعب نابه كريم .

وسألتنى المذيعة : ما أحلى ذكرى عندك لأمك ؟

ولم تدر أنى من الذكريات الحلوة فى فيض دافق كيف أختار ؟ ذكرت واحدة من كثير غامر .. ذكرت كيف كانت أمى كل ليلة تمسح على رأسى وتقرأ لى آية الكرسى قراءة ملحونة ولكنها مقبولة عند الله رب القلوب التى فى الصدور .. استمر هذا حتى بعد أن تخرجت من الجامعة .. بل حتى قبل زواجى بيوم واحد .. اذا سهرت للقراءة تسهر

حتى أنام وتقرأ لى آية الكرسى ٠٠ وانطبع فى وجدانى الآيتان : آيـــة القرآن ، الكريمة ، وآية الأمومة الحانية الرءوم ٠ فلما صرت أما كنت أعلق لطفلى الوليد ، آية الكرسى ٠٠ وأقرأ له كل ليلة آية الكرسى ٠٠٠ أفعل هذا مثلها حتى بعد أن دخل أولادى الجامعة ٠٠ كل ليلة أسرى الى حجرتهم وأجلس على طرف سرير كل منهم وأقرأ له آية الكرسى وكأن كيانى كله ؛ حدقة عين شغوف أو شغاف قلب رءوف ٠٠ فى هذه اللحظة يغدو الجسم ومادته من لحم ودم ، نهرا من حنان ٠٠ أقرأ الآية صحيحة ولكن قراءتها هى بأخطاء الشكل ، أطيب وأعذب ٠

كل سنة وأنت طيبة يا أمى بالميلاد

وكل سنة وأنت طيبة يا أمى يا أم الدنيا يا خير البلاد

يا أم الأم ٠

يا أم ابنتى وولدى بعدى ٠

يا أم أبى وأمى قبلى ٠

يا أم الأبناء والآباء ٠

يا أم المجد والكبرياء

يا أم الخير كله يا أم العطاء ٠

كم أعطيت ٠٠٠ وكم هديت يا مؤمنة ٠

أعرفت لماذا نحبك بلا حدود ؟

لأن حبك فوق النهى فوق الوجود

حبا لا يحيط به وصف

لأنه أكبر من اللغة ٠٠ من الكلمات ٠. أكبر حتى من الأمهات ٠٠
أكبر كثيرا يا أمى ٠

يا مصر ٠

يا كل الأحباب ٠٠٠ يا صفوة الصحاب
يا عز الأسرة
يا دفء الحب ٠٠٠ وحبة القلب
يا فرحة الزرع ٠٠٠ يا زهرة الروض
يا نوار القطن ٠.٠ يا ذهب الحصاد
يا أم النيل والهرم ٠٠٠ يا كنوز الآثار
يا مولد الفجر ٠٠٠ يا معانى الأشعار

يا سحر الليل ... يا ليالى السمار
يا روعة الميلاد يا تراب الأجداد
يا ضحكة الوليد يا هتفة الشهيد
يا موئل الأديان يا انتصارات الانسان
يا مهد الحضارة يا أخت الزمان
يا أم البطولة يا حكمة الكهان
يا بركة السماء يا حلم المتصوفة
يا قبلة الأنبياء يا ملاذ العلماء
يا أمى .. يا مصر

بك نحيا ، وعليك نعيش ، واليك نعود كما بدأنا .. ذرة من ترابك تنضم الى الثرى من جديد فيخصب الثرى وينشق عن نبتة طالعة .. للحياة .. للتجديد . وتنحدر فى النيل قطرة مترعة .. ليفيض بالخير .. ليجود ويجيد ..

ويجرى النيل وتتواكب الأجيال .. جيل يخلفه جيل وتعيشين أنت أبدا .. شبابك أخضر .. وعودك أنضر .. وتخفق قلوبنا بحبك حتى من تحت التراب . فحين صارت اليه .. غدت مرة أخرى .. بصورة أخرى .. جزءا منك يا أمى يا مصر ..

كل سنة وأنت طيبة ؟

صور تركية فى الأدب المصرى

بمناسبة عودة صاحب الرسالة أستاذنا أحمد حسن الزيات من رحلة النور أعكف هذه الأيام على كتابه الكبير الجليل (وحى الرسالة) أدرسه وأتدارسه أفيد منه للمرة ال ٠٠٠ كم ؟ لست أدرى ٠٠ وأستحرج الصور والاتجـاهات والملامح الفنبة وطبقـات المجتمع وقطاعاته المختلفة وضروب النقد الاجتماعى والسياسى والأدبى وكل ما يعنى الدراســـة الأدبية ، لرجل الأدب الكبير تحبة ووفاء ٠

ودراستى عن صاحب الرسالة طويلة ستتصل فصولها ولكنى على هامشها أسوق هذا الحديث الطريف ٠

من الظاهرات التى تلفت العين فى معرض (وحى الرسالة) بلوحاته وصوره ، وفنونه (الركن التركى) فلقد كتب أستاذنا الزيات كثيرا عن الأتراك ــ مستعمرين ــ وعنجهيتهم وغطرستهم الغبية وغبائهم المتغطرس الذى عانى منه قومنا قديما ٠

كلنا نعرف من وحى الرسالة كيف عاش الزيات فى آلام القرية المصرية ومشاكلها ٠٠ كيف شخص واستقصى الأسباب والتمس الطباب وندد بمستغلبها وممتصى دمائها ، ورسم للقرية من الصور الزاهية والكابية ما يملأ معرضا للتصوير فالزيات يملك من وسائل الفن (كاميرا) وريشة وقلما فهو حينا يصور المنظر كما يبدو ، وآنا يلونه كما يحلو ، وتارة يرسله موقعا مرجعا وآونة يسطره مفوفا موشى فيجمع بين المنظر واللون والصوت والحركة ثم تجىء لمسة الفنان فتخلع على هذا كله طابعه وتمهره بامضائه ولو كان غير منظور ٠٠

ولنرجىء حديث القرية المصرية فى أدب الزيات قليلا لنتحدث اليوم

(١) كل مستعمر له وجهان فالانجليز فى بلادهم كما يقول الاستاذ حافظ عفيفى ، لهم مزايا عديدة ولكنهم ، مستعمرين ، مرفوضون ٠٠٠ والأتراك فى بلادهم شـــعب مندين ولوع بالنظافة ولكنهم ، مستعمرين ، صورة مختلفة ٠

عن ظاهرة أخرى عنده ولو أنها تابعة للظاهرة الكبرى فى أدبه (القرية والفلاحين) •

والظاهرة التابعة التى جاءت فى تاريخه للقرية ، حديثه الضاحك الباكى عن « الأتراك » ••• ومن صورهم فى (وحى الرسالة) أو من صوره لهم هذه الصورة لتركيا القديمة وان كنت أنا شخصيا أعتقد أن ما جاء بها من صفات وسمات لم يتغير لأنها (خصائص قومية) يتوارثونها خالفا عن سالف وهى تلازمهم فى كل مكان يذهبون اليه وعلى أية حالة يكونون عليها •• من الغنى أو الفقر •• وكلنا فى مصر نتفكه صادقين بالمثل السائر (حسنة لسيدك محمد أغا) • أو نتذكر ممرورين (آخر خدمة الغز علقة) • وللمنلين فى مروياتنا الشعبية قصص كالأساطير لعل بعضه الذى رواه الأستاذ الجليل الدكتور أحمد أمين فى كتابه (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية) •

والآن نسمع معا الأستاذ الزيات :

(تركيا القديمة ـ غفر الله لها ـ كانت فى دول الأرض معنى من معانى الارهاب **حروف لفظه السم واليم والسجن والسيف والسوط** جمعت فى يدها القوية أطراف الشرق والغرب ، ثم أدارت حول تاجها الرهيب هالة من خلافة الرسول فعنت لها الوجوه وخشعت لسلطانها الأفئدة ، **ولكنها لم تستطع أن تثبت ملكا بقوة الروح وبراعة الذهن وعبقرية البيان كما فعل العرب** فظلت واقفة أمام شعوبها الثائرة **عابسة الوجه معقودة العنق منشورة الشارب مشهورة السيف** • فحرمها ذلك الموقف من نصيبها من **طمأنينة السلم ، ومدنية العلم ونعمة الثقافة** • وكان ولاتها على الأمصار الخاضعة يحكمون النـــاس بهـذه العقلية الجهول ، فيظهرون الأبهـة ، وينشرون الرهبـة ، ويحصـدون الأمـوال والأنفس بالضرائب والرشى والمصادرة والقتل ، فاذا طالت الولاية واكتظ الوالى ورضى (المابين) وأراد الباشا ان يفكر فى الدين أو فى العلم أو فى الاصلاح •• دل على فهم بليد وغفلة عجيبة) (١) •

وهنا ساق الأستاذ الزيات الشاهد من قصة الوالى التركى على العراق فى أيام شاعره الزهاوى فليرجع اليها من أراد • أما أنا فأسوق الشاهد والمثل من عند الزيات أيضا ولكن مما يتصل بمصر التى ما يزال محفورا فى ذاكرتها الأهوال التركية البغيضة التى تاب الله على جيلنا منها اذا استثنينا بقايا بلايا من مخلفاتهم ولكن جيل الزيات عنده الكثير ليرويه • ولنبدأ الآن بقصة « المأمور التركى » •

---

(١) وحي الرسالة جـ ٢ ص ٨١ ••••

(كان لفظ « المأمور » معناه الموت الذى لا عاصم منه ولا مهرب ٠ وذلك أنه كان يخرج كل يوم على جواده الى الحقول ، شاكى السلاح ، كاشر الوجه منفوخ اللغاديد ، مفتول الشارب ، متوقد النظر ، **كأنه تمثال الرعب او صورة الهولة** ، ثم يسير متلفتا ذات اليمين وذات الشمال لا ليتفقد العمال ويتعهد الزروع ، ولكن ليبحث عن انسان يعذبه ، أو حيوان يضربه ٠ والناس قد تعودوا منه ذلك فهم لا ينفكون طول النهار يرقبون ناحيته ويرصدون طريقه ، حتى اذا أبصروه من بعيد غابوا فى مخابىء الأرض كأنهم لم يكونوا فاذا عاد من طوافه **خائب السوط** جلس أمام الدوار وأمر أن ترش الأرض وأن يلقى فى وحلها من جاءه فى طلب حاجة أو رفع مظلمة ، ثم يصيح بالجلاد أن ينهال عليه بالكرباج ، وهو فى خلال ذلك يميد من الغضب **ويبربر من الغيظ** حتى تهدأ ثورته وترضى كبرياؤه بعد لأى ، وكان العمد والمشايخ منوطين به ، فلا يسمعون الأمر والنهى الا منه ، ولا يرفعون مشكلات القرى وقضاياها الا اليه ٠ لذلك ظل أهلوها يجهلون أن لهم خديو غير شريف ، و (نظارا) غير نظار الزراعة و (مأمورا) غير مأمور التفتيش ٠ **وكان هذا (الحاكم) كسائر بنى جنسه مغلق الذهن مطبق الجهالة ، يجهل الزراعة ولكنه يأمر ، ولا يعلم القضية ولكنه يحكم** ، والجانى المحكوم عليه هو الذى يجرؤ على أن يعقب أو يعارض ٠ وكان سادته لا يفوقونه فى الذكاء ولا فى الرحمة ، فكانوا اذا زاروا هذه القرى — وقليلا ما كانوا يزورون — تنكبوا بنادقهم وخرجوا يقتلون الوز فى البرك ، والحمام فى الأجران ، والكلاب على التلول ، والغربان على الشجر ، **ويراهم الناس فيرنون اليهم دهشين من طرابيشهم الحمر على وجوههم البيض ويظنون أن وراء هذا الرواء جمال القلب وكرم النفس** ، فاذا دنوا منهم يسألونهم الاحسان والعدل زموا بأنوفهم ومضوا مستكبرين لا ينظرون ولا يجيبون) (١) ٠

وكم لهذا المأمور بيننا الآن ، من رواسبهم ، أشباه ٠٠ بيض الوجوه سود النفوس ، والكثيرون منا يظنون أو لغفلتهم أن وراء هذا الرواء جمال القلب وكرم النفس فاذا النفس خواء ، واذا العقل « بلاء » واذا القلب منخوب أجوف لم تعمره عاطفة ولم تدخله رحمة ولم تخصبه المزايا الكبيرة التى يختص الله بها شعوب الحضارة ٠٠ المزايا التى تعطى الحياة الانسانية الفن والعلم والأدب والحكمة والفلسفة وروائع الفكر ٠

ويكمل صورة « المأمور » ويعمق (خلفيتها) الصورة البشعة التى رسمها القلم القادر (للأغوات) ولعذاب المصريين منهم :

---

(١) الرسالة جـ ٢ ص ٧٠ — ٧١ ٠

(... وأصبح الصباح فجلس المأمور والمعاونون والنظار ، ورشت الأرض ، وطرح الجانى ، وتعاقبت على جسده المعرى عذبات الكرابيج ، والناس من حوله يضجون بالبكاء ، ويضرعون بالرجاء و (الأغوات) يتلذذون برؤية الدماء المنزوفة ، والدموع المذروفة ، ويطربون لسماع الأنات الضارعة والصرخات المتصلة ، حتى كلت يد الضارب وخفت صوت المضروب فحملوه الى السجن . وشفع العمدة لأهله أن يأخذوه ، فلما دخلوا عليه لم يجدوا وا أسفاه الا حشاشة نفس لفظها على صدر حبيبته أثناء الطريق) (١) .

ولهذا المأمور أبناء عمومة كان لهم مع الفلاح المصرى تاريخ أسود :

(كان الفلاح فى القرن الماضى يكابد صنفا من الخلق صورهم الله على مثال عجيب من خفة الصقور وفتكة النمور وهيئة الناس ليكونوا مذكرين بجبروته ومنذرين بعذابه كانوا من الأرناؤد أو الجركس . وكان عملهم جباية الضرائب على كل شىء ، ومن كل شخص وفى كل وقت ، وبكل صورة ، أو اقتحام الدور للبحث عن المحظور أو المحكور من الملح والصابون اذا اقتناهما أحد من غير طريق الحكومة . وكان سبيلهم الى ذلك سبيل الارهاب والعنف ، فمتى دخل أحدهم قرية من القرى دخلها الفزع والروع فلا يملك السائر ان يتقدم ولا الواقف ان يتكلم ولا الداخل ان يخرج . ثم تخشع فى القرية الحياة فلا تسمع حسا ولا حركة الا هرير الكلاب وقوقأة الدجاج وصراخ الصبية فاذا خرج منها (الجندى) كما كانوا يسمونه انطلقت من ورائه ضجة شديدة فى البلد من بكاء المضروب وصراخ المنهوب ودعاء المضطرب) (٢) .

هذه بعض الصور التى رسمها أستاذنا الزيات لو تأملناها سهل علينا تفسير التاريخ .

لقد امتلأ تاريخ تركيا بالطغاة حين حفل تاريخ مصر بفتوحات الفكر والأمجاد العلمية والفنية والعقائدية والحضارية .. وكم بين تركيا ومصر فى ضمير الانسان وفى حضارة الانسان ..

لقد أعطت مصر ما أعطت للناس حين أفزعهم (هولاكو) وروعهم (سليم) سليم الذى قضى فى مصر وحدها على ٥٠ حرفة (٣) يوم انقض على الصناع والفنانين فحملهم كرها الى استانبول .

---

(١) وحى الرسالة جـ ٢ ص ٧٢ .
(٢) وحى الرسالة جـ ٢ ص ٦٩ .
(٣) اقرأ كتاب (الصناعات الشعبية فى مصر) للأستاذ سعد الخادم ..

لقد اشتهر الأتراك في الحروب وتباهوا بالشجاعة ولكنها شجاعة عامية لا يخلد بها تاريخ ولا يشرف بها (انسان) . ولعل (شوقى) وهو أكثر شعرائنا دفاعا عنهم ، لمح هذا المغزى حين قال (يا دولة السيف كونى دولة القلم) ولكن القلم موهبة ونعمة يحظى بها السعيد من الأمم والأفراد . القلم يوهب ، ولا « يكون » .

ليس فى تاريخ تركيا ، كما فى تاريخ العرب ، نبى كمحمد بن عبد الله ، وليس فى تاريخ تركيا كما فى تاريخ مصر مفكر كاخناتون العظيم .

وان [مجموعة خطابات وأوامر (عباس باشا الأول)] التى جمعها وطبعها (الأمير محمد على) ولى العهد (ليعلم العالم شيئا عن تاريخ هذا البطل العظيم) كما يقول ، لتصور العقلية التركية .

فمن أوامر عباس باشا الى خورشيد أغا أمر بشراء (قبقاب حمام) وأمر بشراء مخالى للتبن (١) ودهن النعام من عند كائن من كان (٢) وحجر البلاط ، و (البطاطة) (٣) وطاحونة وطاسة لأن (البن الذى يصرف فى الدائرة كان يجرى تحميصه **واطحانه** (هكذا) فى الخارج قد ظهر غش فى المطحون) (٤) .

وأمر بتعيين سماسرة أمناء (ليشترون) (هكذا) المقادير المطلوبة. يا له من تركى عبقرى ... فى التفاهة ... لعل التركى من دون سائر خلق الله المقصود بالمثل العربى (تمخض الجبل فولد فأرا) ..

ومفخرة المفاخر عند محمد على – صاحب المجموعة – هذه (الحكاية) التى يصدر بها كتابه فى زهو كأنها مما يزهى به .

(... قال لى الشيخ أحمد أبو السعود الذى كان أستاذى فى تلاوة القرآن الكريم انه فى أيام عباس باشا لم يكن أحد يسير فى الشوارع اذا ما أذن المؤذن للصلاة فى الجامع وكان الناس يلزمون بيوتهم وكانت الطرق هادئة ساكنة طول وقت الصلاة وكان **الشاويشية الأتراك الفرسان الذين كانوا وقتئذ يحافظون على الأمن يضربون ... (بسياطهم) كل شخص يرونه سائرا فى الشوارع) (٥) .**

---

(١) ص ٧ ، ٨ من كتاب (مجموعة خطابات وأوامر « عباس باشا الاول ») .
(٢) ص ٢٦ .
(٣) ص ٣٤ .
(٤) ص ١٠٦ .
(٥) (مجموعة خطابات وأوامر عباس باشا الأول) ص ٦ .

هكذا يفهم الأتراك (التقوى) ! لشد ما يذكرني هذا بقول أستاذنا أحمد أمين في قاموسه (واشتهر التركي بتدينه ، ولكن تدينا شكليا تنقصه روح الاسلام فهو يعنى بالأدب أمام تلاوة القرآن وباقامته الصلاة أكثر مما يعنى بتحرى العدل ورفع المظالم وعدم الرشوة ويعتقد أنه اذا ارتكب هذه الجرائم كلها ، يرفعها عنه بناء مسجد أو سبيل أو مدرسة. ومع الأسف لقي منهم المصريون الأمرين) (١) .

ومن العقوبات العادية التى كانت تصدر بها الأوامر في سهولة وبساطة (قطع اللسان) والاعدام (٢) والطرح في البحر (٣) ، وهذا خاص بالنساء اللائى يتلفن أعين أبنائهن هربا من التجنيد .. (٤) .

ويعلق محمد على (الأمير) على هذه (العبقرية الادارية) بقوله :

(هذا يظهر كيفية الأوامر الجد) (٥) .

وبمناسبة التجنيد نذكر أن هناك أمرا طريفا (بأن يكون فرز المجندين هنا بواسطة شورى الأطباء وسيقبل منهم الشبان الأصحاء البنية ولو يكون بهم قرع أو نقص سنة واحدة أو على عينه الشمال نقطة) .

ومن طرائف الأوامر أو العقوبات لست أدرى هذا الأمر بعد أن اكتشف ولى النعم جهل التلاميذ .

ارادة لمدير المدارس :

(.... يحق لى ان الغى ديوان المدارس الذى اتخذناه أساسا .... للتعليم وأطرد الأساتذة والمهندسين المرمى اليهم والبالغ عددهم .... خمسة عشر شخصا حيث انهم لا يعرفون شيئا خلاف تخريب الأقاليم **وقد طردتهم من الخدمة أبديا** وكتبت لمدير الاقاليم الوسطى أن ينزع نياشينهم ويرسلها الى الديوان ويجب ان يستخدموا بعد ذلك فى الحكومة

---

(١) (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية) للأستاذ الدكتور أحمد أمين ص ٢٣ .

(٢) ص ١٣ ، نفس المرجع السابق .

(٣) ص ٤٥ ، ٦٩ ، نفس المرجع السابق .

(٣) ص ٤٥ ، ٦٩ .

(٤) ص ٣٧ ، نفس المرجع السابق .

(٥) ١٩ ، ٢١ .

(٦) ص ١٩ ، نفس المرجع السابق .

بمعرفة ديوان المدارس واذا **استخدمهم أحد على غير ارادتى فسأنزع نياشينه وأطرده حالا** وحيث انه لا يكفى لكل من مراكز بنى سويف والفشن والفيوم وبنى مزار والمنيا مهندس ماهر مقتدر فيلزم ان تعنوا بانتخاب خمسة مهندسين وافقين على العلوم والأعمال الهندسية والحساب وارسالهم الى المديريات المذكورة واعلموا أنى بعد عودتى من وجه قبلى سأمتحنهم وأجربهم **فاذا تبين انهم مثل المهندسين المطرودين فسأضطر .. لطردهم أيضا والغاء ديوان المدارس كلية وللمعلومية تحرر لكم هذا لاتباعه (١) .**

وارادة أخرى شبيهة لحكمدار السودان :

ففى (غضون هذه السنة (١٢٦٦ هـ) أمر الوالى عباس باشا بامتحان مهندسى الأرياف ومعلمى المدارس لأن الكثير منهم ليسوا على شىء وجعل كلا من اليوزباشية على مبارك أفندى وعلى ابراهيم أفندى وحماد أفندى من أرباب الامتحان وشرط عليهم ألا يتكلموا الا بالصدق ولو على أنفسهم واذا علم أن أحدا منهم كذب فى شىء فجزاؤه **سلب نعمته والباسه لبدة الفلاحين وسلكه فى سلكهم ..) (٢) .**

كأن الفلاحين ليسوا أولياء نعمته .. كأنهم ليسوا سادته الحقيقين فى حساب التاريخ .. ولكنه عباس .

وأمر بسلب حصان فى أدب :

الى مير لواء حسن بك

(وكيلنا حسين أغا قد حضر عندكم ورأى حصانكم جيدا يوافق لطبعنا وحضرتكم ــ ولعله يقصد (وحظرتكم) بالظاء ــ قد رضيت بأن تتكرم علينا اعطاؤه فبناء عليه قد أرسلنا الى طرفكم ناظر اصطبلنا على أغا لاستلام الحصان بعد تجربة سيره وركوبه وأحواله كلها) .. (٣) .

وأمر حيوانى (وكان عباس باشا يرأف بالحيوانات) كما يقول قريبه محمد على : (وقد علم لنا من الجواب الوارد من يوسف بك أن الكلاب المأخوذة من النبراكى .. بواسطة أخينا حليم بك كانوا فى الجنينة وباب المياه كان مفتوحا فوقعوا فى الماء وتيار سيل المياه أخذهم . حتى من

---

(١) ص ٧٧ .

(٢) ص ٧٩ .

(٣) ص ١١٤ .

شدة ضرب أمواج المياه فيهم مزقوا جلود البعض ولأجل هـذه المسألة يوسف بك ضرب الجنايني مانسي سوط حسب افادته في الجواب مع ذلك ان الاهمال كان من يوسف بك لا من الجنايني الذي ضرب ظلما وعدوانا .

فاني آمركم أن تضربوا يوسف بك ـ طريقة بضربوا يوسف بك ـ ثلاثمائة سوط تأديبا له . وتأخـذوا من صدره النشان وعنوه معـاونا للاصطبل تحقيرا له وان لم تنفذوا أمرنا هذا كما هو واجب فاني أحلف لكم بديني سأضربكم أنت سوط ـ هكذا ـ فليكن لكم معلوما فالأمل منكم أن تنفذوا أوامري كلها كما امرتكم وتعالجوا جروح الكلاب كل يوم حتى تطيب جروحهم وتخبروني عن تحسين حالتهم) (١) .

وكم من جراح غائرة أثخن بها الغباء التركي الغاشم والاستبداد التركي المتحجر ، جسم مصر والعرب فبينما يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه (الاستعمار والتحرير في العالم العربي) .. (فبينما لم يترك الأتراك أي أثر حضاري بناء في العالم العربي كانوا عالة على تراث العرب ـ ابتداء من العمال حتى شكل الكتابة ومن الصناعة حتى الثقافة .

وبعامة فقد كانت (الاستعارة) التركية نهبـا حضـاريا وابتزازا مخططا للموارد يقوم على مبدأ (Skim the cream) .. (٢) .

وبعد فليس النثر أو (أدب المقالة) ممثلا في الزيات هو وحده الذي صور الأتراك في واقع التاريخ المصري والمفهوم المصري فان المسرح المصري قد أسهم في هذا التصوير بنصيب كبير . فبديع خيري من وراء مسرح الريحاني في رواية (الا خمسة) وفناننا الكبير توفيق الحكيم في مسرحيته (الأيدي الناعمة) و (باكبير) في مسرحيته (جلفدان هانم) على سبيل المثال ، فتحوا مجالا لنماذج تركية وللسخرية المصرية منهم في وقت واحد. (فجلفدان هانم) بكبريائها الغاشمة وتسلطها الأرعن ، وحبها للسيطرة والتحكم في الآخرين .. التحكم في عقولهم فينلقى طالب العلم ما لا يريده وما لا يغنيه ، والتحكم في عواطفهم فتفصل بين الابنة وزوجها الذي تحبه ، والرغبة الآثمة في اشاعة الرعب منها بالتهديد والوعيد والبطش ... (جلفدان هانم) هذه بصورتها البغيضة وعقليتها المريضة ، رمز لسياسة تركيا اذا تمكنت من الآخرين ولست ببالغة وصفها أو مبالغة فيه ، مصرية خالصة المصرية ، فقد سبقني اليه شاعر مصري يمت اليهم بسبب هو

---

(١) مجموعة الخطابات ، ص ١١٩ .

(٢) ص ١٦ من كتاب (الاستعمار والتحرير في العالم العربي) .

« ولى الدين يكن » ففى قصيدته التى ناقض بها قصيدة شوقى المشهورة التى قالها فى خلع (عبد الحميد) سنة ١٩٠٩ ومطلعها :

سل يلدزا ذات القصـور   هل جاءها نبـأ البـدور

وصف ولى الدين يكن وهو من أرومة تركيـة فى نقيضته الحاكم (التركى) بالبطش ، والجهل والغرور والنهب والفتك والتخريب :

هاجتك خالية القصـور   وشجتك آفلة البـدور
وذكرت سـكان الحمـى   ونسيت **سـكان القبـور**
وبكيـت بالدمع الغزيـ   ـر لباعث الدمع الغزير
ولواهب المـال الكثيـ   ـر وناهب المـال الكثير
يا مسغب الاجناد قـد   **أشبعت ساغبة النسـور**
لله أجسـاد تـوت   بين الجنادل والصخـور
كم خلفهـا من صبيـة   يتمت ومن شيخ كبـير
ان اللائـين الـتى   مرت بنـا مر العصـور
وهبتك تجربة الأمـو   ر فعشت فى **جهل الأمور**
لو أن للأيـام السـ   ـنة لصـاحت بالثبـور
هـى غـارة لكنهـا   دارت عـلى رأس المغـير
من عـاش يستحلى الشرو   ر يموت من تلك الشرور(١)
ان الزمـان يغر ثـم   يذيق عاقبـة **الغـرور**

على أن «شوقى» نفسه لم يستطع مقاومة الوراثة المصرية فيه فسخر السخرية المصرية التقليدية من الأتراك فى مسرحية (الست هدى) أما النديم فقد استخدم (المسامير) فى ايلامهم جزاء وفاقا بما جرعتنا أيديهم من غصص العذاب •

وأحدث الصور التركية فى الأدب المصرى صورة (العروس) التى رسمها أديبنا توفيق الحكيم فى كتابه الجديد (سجن العمر) •• العروس التركية الشمطاء التى كانت فى الخمسين من عمرها وتريد أن تسير الى بيت (العريس) فى زفة تتقدمها الموسيقى الميرى ، ولنترك الحكيم يروى :

---

(١) ديوان ولى الدين يكن ص ٣٠ – ٣٢ ويلاحظ أنى رتبت الأبيات على النسق الذى يجمع المعانى فى غير اطالة أو تكرار أو تشتيت فلم ألتزم ترتيب القصيدة مادام (البيت) هو « الوحدة » عند الشاعر •

(٠٠ وصلنا الى شبين الكوم بالسلامة ٠٠ وهنا قامت القيامة ٠٠ سمعت صياحا وصخبا وزعيقا يملأ الجو فى المحطة ٠٠ انها العروس بسلامتها ما كادت تنظر حولها وهى نازلة من القطار حتى صاحت : أين الموسيقى ٠٠ الميرى ٠٠ ؟ ورفضت رفضا باتا ان تنقل قدما من المحطة الا اذا سارت الموسيقى الميرى أمام عربة العروس « الكوبيل » بخيولها المزوقة بالورد ٠٠ ولم يكن أحد قد فكر فى ذلك ولا عمل له الترتيب ، لأن العروس لم تكن صغيرة السن ولا كان هذا أول عرس لها ، فقد سبق لها الزواج أكثر من مرة ٠٠ **ولكن مخها التركى ابى الا ان تزف فى شوارع المدينة بالموسيقى الميرى** ٠٠٠ لم أفهم الا فيما بعد سبب هذا الضجيج والزعيق ٠٠ وأكب الجميع على يد العروس يلتمونها متوسلين متضرعين أن نغفر لهم هذه الزلة وأن تركب العربة الكوبيل وتمضى فى هدوء الى بيت الفرح ، منعا للفضيحة ٠٠٠ وتجمع المارة وأهل الفضول ٠٠ وأخيرا ركبت وسارت معهم وهى تشتمهم باللغة التركية وهم يشتمونها فى سرهم باللغة العربية ٠٠٠) (١) ٠

وبعد ٠٠٠٠ فهذه (الصور) التى ساقها الينا أو ساقنا اليها كتاب الرسالة) تكفى اليوم لتكون صفحة من الدراسة التى أعدها عن الكتاب الكبير وان كانت لمحة ، فحسب ، من التحية التى أزجيها الى الأستاذ الجليل ٠٠٠ صاحب الرسالة ٠

---

(١) ص ٩٥ ـ ٩٦ من كتاب (سجن العمر) للأستاذ توفيق الحكيم ٠

الاحتفال بوفاء النيل

الزمن : ١٨٠٠ م

الحاكم : مينو

عن جريدة الحملة الفرنسية (كوربيه دى ليجيبت) ٠

(أجرى فتح الخليج هذا العام فى ٢٩ ترميدور ٠٠ وكان ارتفاع النيل فى عمود القياس ١٦ ذراعا وهذا يجاوز ارتفاع الفيضان فى السنة الماضية فى ٢ فاندمير ٠ ويضمن هذا الفيضان الخصب السعيد لأرض مصر ٠

عند غروب الشمس فى الليلة الماضية دوت مدافع القلعة وجميع الحصون فى القاهرة معلنة كسر السد ٠ وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، توجه القائد مينو ومعه أعضاء أركان حربه ورجال الادارات العسكرية والمدنية الى المكان الذى كان قد أقيم عليه « الكشك » الذى هدم فى أثناء حصار القاهرة ٠ وكان جنود الحامية والفرق العسكرية حارج المدينة قد احتلوا أماكنهم حول مكان الاحتفال الذى تجمع فيه حشد كبير من الأهالى وأفراد الشعب بثيابهم المزركشة المختلفة الألوان ٠

وعندما كان القائد العام وكبار ضباطه ينثرون الآلاف من قطع النقود

كان الأغا والى وصحبه يفتحون الحواجز ، فتدفقت المياه كالسيل المنهمر فى مجرى القناة ٠

وقد نشرنا فى عددنا رقم ٥٠ من السنة الماضية الوثيقة العامة والقانونية التى تحرر فى مثل هذه المناسبة) ٠

فعلت هذا الحملة الفرنسية فى القرن الثامن عشر !! كما فعله من جاءوا قبلها من حاكمين ٠ والشعر العربى فى مصر مملوء بقصائد كسر الخليج ٠

وفى النثر العربى « سجلات البشائر » مما لم يحظ به نهر آخر فى الدولة الاسلامية ٠

فعل هذا الدخلاء فى كل عصر وتحت كل اسم بما فيهم الحملة الفرنسية ٠

ومنعت الاحتفال مصر المستقلة فى النصف الثانى من القرن العشرين ! كأن النيل من العهد « البائد » !!

وهو أقرب الاحتفالات الى قلب الشعب وأمسها به ، وأقدمها عنده حتى لفت نظر كل غريب عرف مصر وسجله ٠

سجله ادوار لين فى كتابه (المصريون المحدثون وعاداتهم وتقاليدهم) كما سجله المؤرخون الاسلاميون الذين كانوا يؤرخون للنيل فى نهاية **كل سنة** من حيث الزيادة أو النقصان كحدث جليل من الأحداث الهامة الكبرى **ولم يظفر بهذا فى التاريخ الاسلامى نهر غيره** ٠

ان مظاهر الاحتفاء بالنيل ، والاحتفال بفيضانه ملأت خمسة مجلدات أنفق فيها ، عمره ، أمين سامى باشا ٠

حتى الأديان أقامت من أجل زيادته ، الصلوات ٠ ففى الكنيسة أوشية المياه ، وفى المسجد ابتهالات ، وعلى الضفاف التقينا معا فى صلاة الاستسقاء سنة ٧٧٥ هـ ، ٨٢٣ هـ ، ٨٣٢ هـ ، ٨٥٤ هـ ، ٨٦٦ هـ ، ٨٧١ هـ ، ٩٢٢ هـ ٠

وما المقياس القائم فى الروضة الا صلاة استسقاء معمارية ٠

وعقدت للنيل المؤتمرات مما جمعه المجمع المصرى للثقافة العلمية فى كتاب باسمه سنة ١٩٥٢ ٠٠ بل احتفل بوفاء النيل الأدب الانجليزى فى ثلاث قصائد من طراز المقطعات القصيرة Sonnet نظمها (كيتس) و (شلى) و (لى هنت) بل احتفل بوفاء النيل الشاعر الرومانى (تيبولوس) وشاعر الرومان (فرجيل) ٠

حين كتبت رسالتى عن النيل ، سعيت الى دار الافتاء لأقف على أقدم حجة وفاء للنيل فكان أقصى ما وصلت اليه ، حجة وفاء النيل سنة ١٩١٥ فى دار المحكمة العليا الشرعية ٠ وقد سجلتها ، كما صورت حجة وفاء النيل سنة ١٩٥٦ عن مضبطة الاشهادات ، وآخر حجة وفاء كتبت له سنة ١٩٥٨ وبعد هذا غاب الوفاء وفاؤنا للنيل ووفاء الاحتفال به ٠

واذا كان السد قد امتص اللهفة على الزيادة ، والقلق من النقصان، فالسد صنيعة النيل اذا عالجنا الآثار الجانبية له بما ينجم عنها ٠

بكل المقاييس يحق للنيل الاحتفال بوفائه ٠

وبكل المقاييس يحق للشعب المصرى أن ترد عليه الحكومة حقا له يتعلق بحباته وتاريخه ٠ وليس أعمق فى وجدان الشعب المصرى من اثنين : **الدين ٠٠ والنيل ٠**

وفى العام الماضى خاطبت السيد محافظ القاهرة فى شأن **الاحتفال** بوفاء النيل ٠٠ ودار هذا الحديث فى أغسطس فوعد أن يعد لهذا **الاحتفال اعدادا كبيرا بعد غيبة طويلة لم نحتفل فيها بالنيل ٠ ولهذا** أكتب اليه فى يوليه لأن الحديث قبل هذا قد تطغى عليه الأحداث **والحديث بعدها قد يكون متأخرا حيث أغسطس وسبتمبر** الموعد التقليدى للاحتفال بوفاء النيل وهو الاحتفال الوحيد القومى النابع من **وجداننا وما عداه مرسوم ٠**

فهل تحيى تقليدا جميلا لم يفرط فيه حتى الغزاة ؟!

أنتظر ، مصرية ، مع شعب النيل :

اعلان المحافظة موعد الاحتفال بوفاء النيل

ولكن هذا العيد يوما تلتقى عنده دول حوض النيل التسع بالاتصال بها والتنسيق معها ، ليكتسب الوفاء **صفة افريقية ودولية ٠**

باب النقد

أزمة النقد

ليس هناك أزمة نقد ونقاد فيما أرى . انما المشكلة تنحصر فى الانتاج .... فى « الخلق الفنى » فالفنان أولا يخلق عملا فنيا كبيرا ثم يأتى بعده الناقد الذى يتخذ موضوعه العمل الفنى الذى تم خلقه فيحلله ويدرسه ويستخلص منه ويشير اليه .

الانتاج هو الذى يخلق النقاد فاذا كان الانتاج قويا ، احتشد له النقاد وتوفروا عليه ليصدر رأيهم فى مثل قوته وعمقه . أما اذا كان الانتاج هزيلا فان النقد تبعا له يكون هزيلا مثله .... انه حينئذ لا يكلف نفسه عناء البحث والدرس ...

مرة أخرى اقول : الموهبة أولا . ان نقاد العالم لا يخلقون قصصيا ممتازا أو شاعرا مطبوعا ولو اجتمعوا له .. حتى الجامعة بكل هيلمانها لا تستطيع أن تخلق فنانا ان استطاعت أن تخلق باحثا .

الفنان من روح الله لا من صنع الوسائل والامكانات . وهذا يفسر خروج أدباء كبار من بين المهندسين والأطبـاء كالدكتور كامل حسين والدكتور يوسف ادريس ... وشعراء كالدكتور ابراهيم ناجى والمهندس على محمود طه .

حتى الأدباء الأعلام الذين نشأوا فى رحاب كلية الآداب ، لم تخلقهم من فراغ ، كلية الآداب ، والا فقد تخرج فيها الى جانبهم ، ألوف وان كان دورها كبيرا فى الصقل والانماء .

الفنان يولد فنانا ثم تعمل الدراسة عملها فى صقل الموهبة وجلاء الفطرة ... وبعد هذا يأتى دور النقد تاليا ليحدث بالنعمة أو يلمح نقصا فى سبيل الكمال الممكن .

اننا فى مرحلة بناء تدفع الانتاج ، فى حركة متدافعة ، على اختلاف فى المجال والنوعية والأثر ....

والانتاج الأدبى فى هذا التيار الجارف ، يقدم كل يوم جديدا حتى لكأنه فى سباق .... ومن شأن العجلة ، وخاصة فيما شأنه التأنى ، والاختمار ، والنضوج ، أن تؤدى الى الفجاجة والسطحية ... وتكون النتيجة الحتمية أننا من بين كل مائة كتاب لا نكاد نظفر ببضعة كتب جيدة فهل يلام النقد وحده ؟

وتستطيع أن تقول مثل هذا الكلام عن السينما ٠٠ عن المسرح ٠٠ عن الموسيقى ٠٠ عن سائر الألوان ، الفنيـة فى حياتنا ، التى يعالجها أصحابها اتفاقا أو اجتهادا بلا رصيد من موهبة أو تحصيل ، فتولد مبتوره أو شوهاء أو متخلفة عن نظائرها ٠٠٠ تفتقد عين الفاحص فيها « الأصالة » التى لا يستحق العمل ، بغيرها ، أن يسمى عملا فنيا ٠

النقد الأدبى يحلو للبعض ان يحيطه بجدية صارمة ويجعل منه علما له رهبة العلم وجفاف النظريات والقواعد ٠ والحقيقة أن الأمر أبسط من هذا بكثير ٠ فلو سلمنا بأن النقد الأدبى بعد كل الدراسات التى دارت حوله وكتبت فيه علم ، فهو علم فنى – لو جاز لنا هذا التعبير – أقصد انه علم قائم على الفن ممتزج به ٠ والفن هنا انما هو فن الأدب ٠ فن الكلمة الغنية الموحية ذات الأضواء والظلال ، الأدب فى فن النقد الأدبى من أيضا ٠٠ الأدب ذوق ورهافة شعور ولطافة روح ولمسات تعبير ٠ والنقـد مثله ذوق فى التمييز وذوق فى التعبير وذوق فى التنـاول والمعالجة ٠ فليس من النقد التجريح وليس من النقد غمط الجهد الفنى ٠ وليس من النقد ٠ الكلمة الحادة والعبارة الجافية ٠ ان الدين نقد للحياة العقائدية الضالة ، ولكنه اتخذ وسيلته الكلمة الحانية والدعوة المترفقة ولأمر ما كثر ترديد لفظة (يا قومى) فى القرآن الكريم ليعطف قلوبهم ٠ ووصف الله ، الرسول الداعى بأنه على خلق عظيم (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ٠ فالنقد خلق وخلق وضوء كشاف ٠ واذا كان الأدب تعاطفا مع الطبيعة ٠٠ مع روح الكون فالنقد تعاطف مع الفنان المفتن ٠٠ مع روح الانسان ٠ والنقد الكبير قد يضفى من نفسـه على الأثر الفنى ما ليس منه أو ما لم يقصد اليه صاحبه ٠

والانسان معبر بطبيعته فالأدب لصيق بنفسه ٠٠ والانسان ناقد بطبيعته أيضا فالنقد فطرة فيه والحضارة الانسانية فى مراحلها المختلفة مظاهر نقد الانسـان لواقعه واستعلائه عليه ٠ وكل محاولات التفوق والامتياز يكمن فيها معنى النقد لمستوى أدنى والنزوع الى مستوى أعلى ٠

ولو تأملنا قليلا نجد ان النقد طابع الحياة اليومية كما ان الأدب (رادارها) فنحن ما نكاد نبصر شيئا حتى نقول ولو فى صمت هـذا حسن أو هذا غير جميل أعنى انه تتولد فى نفوسنا عاطفة ما نحو المرئيات ٠ وتقوى هذه العاطفة كلما قوى الاحساس عند صاحبها فتصل الى مصادقة الأشياء والامتزاج بها عند الشعراء والمتصوفة وهو الذى يسمونه « وحدة الكون » تلك الوحدة التى كان يعنيها الحلاج بقوله (ما فى الجبة الا الله) ٠

أى أن الانسان بل الزهرة وكل ما فى الطبيعة من ناطق وصامت انما هو لمحة منه وشعاع من نوره .

وتشتد الرغبة فى النقد فى نواح بعينها كما هى الحال فى مجال الكلام وفى مجال السلوك فهذه كلمة تسر وهذه كلمة تسوء وهذه كلمة قيمة وهذه كلمة نازلة وهذا فعل مهذب وهذا فعل لا يحمد عند الناس . وهذان اللونان من النقد الجارى اذا بلغ بهما صاحبهما مرتبة التعبير ، دخل الأول فى باب النقد الأدبى ودخل الثانى فى باب النقد الاجتماعى .

وأنا أرمى من وراء هذه المقدمة الى ان النقد شىء طبيعى فى حياة الانسان .

والمرأة خاصة ولوع بالنقد فعينها لقاطة قادرة على التفاصيل . ولعل السر فى هذا أنها بطبيعتها مزودة بأدوات الناقد المثالى من رهافة الحس وقوة الملاحظة وحب الجمال وتمييزه . ويتجلى هذا فى اختيارها لألوان ثيابها وزينتها .

وهكذا نرى ان النقد فى الأدب نشأ مبكرا وعاصر الأدب منذ طفولته ولعل أول ناقد وجد عقب أول شاعر سواء أكان سلبيا يتذوق فى صمت أم ايجابيا يفصح عنه انفعاله . ولكن أقدم صورة للنقد تتمثل فى نقد الأديب لما ينتجه ، فلا ينظم شاعر أو ينثر كاتب دون ان يتبع بعض القواعد أو المبادىء ، يعتمد عليها فى بناء قصيدته أو قصته . فهو فى خلقه الأدبى دائب على المراجعة والتهذيب والصقل ، سواء كان من أدباء البديهة أم من رجال الصنعة والأناة . وهو فى عمله هذا يبذل جهد الناقد (١) .

والانسان منذ بدأ يتفنن ، وظاهرة الابداع الفنى تثير انتباهه وتدفعه الى محاولة تمييزها والكشف عن طبيعتها وبواعثها . وقد رفع الانسان البدائى أصحابها الى مقام الأرباب أو المتصلين بالأرباب اتصالا مباشرا وأسبغ عليهم من القدرات ما يتجاوز الجهد الفنى فى ذاته الى التصلت على عناصر الطبيعة أو الاستئثار بالعلم أو الابانة عن الغيب المحجوب .

ومن هنا كان (الابداع الفنى) فى نظر الانسان ، نبعة الخلق الالهى ، وقد ذكرت أساطير اليونان (ربات الشعر) Mures فى مواضع كثيرة وجعلتهن موكلات بالفنون بعامة والنشيد والغناء بخاصة (٢) .

---

(١) كتاب (المدخل الى النقد الأدبى) للدكتور محمد غنيمى هلال .

(٢) من كتاب الأسس الفنية للنقد الأدبى ، د. عبد الحميد يونس .

وذكرت العرب شياطين الشعر وأفاضوا فى ذكر أخبارهم بل زعموا أن بعض شعرائهم مجرد رواة لهؤلاء الشياطين أو الجن الذين أسكنوهم وادى عبقر وأطلقوا نسبة اليه لفظة (العبقرية) على الامتياز والابداع ٠

وتتلاقى اللغات عند هذه التسمية فجن و (جنى) فى العربية وفى اللاتينية وفى الفرنسية وفى الانجليزية كل فى مكانها من لغتها تدل على العبقرية ٠

وقد بدأ النقد العربى بملاحظات فى الجاهلية أخذت تتضح وتتوسع مع ظهور الشعراء الفحول كزهير والنابغة ممن كانت لهم سمات فنية تميزهم ٠

ولما أصبح الاسلام ملكا بعد عصر الخلفاء الراشدين قوى فنا الغزل والهجاء فقد أيقظت السياسة التى جرت عليها الدولة الأموية العصبية بين القبائل فنشأت النقائض ٠٠٠ كما أعانت الدولة على شيوع الترف فى الحجاز بين شباب الهاشميين فأغدقت المال وسكتت عن اللهو فكثر الغزل والغزليون ٠

وفى القرن الثانى ظهرت شخصية الفرس الذين عملوا على اسقاط الدولة الأموية بقيادة أبى مسلم الخراسانى وساعدوا على قيام الدولة العباسية التى حفظت لهم صنيعهم ابان نشأتها فأسندت اليهم الوزارة والحجابة والكتابة وقيادة الجيوش فقوى نفوذهم وأم الشعراء بابهم وافتخر منهم المنتمون الى الفرس بأصلهم الفارسى وظهرت الشعوبية كما صحب الدولة العباسية قيام نهضة علمية أعان عليها استقرار الدولة وغناهـا وطموحهـا ٠

وصحب هذه النهضة العلمية نهضة فنية كان الأدب أبرز معالمها فأخذت علومه تتبلور وتستقل ، كما استلزم ترف الذوق تأصيل النقد الذى يقوم على الفهم والتقدير والموازنة والذوق المهذب المصفى الذى هو مزاج من العقل والعاطفة والخيال وثمرة لمواهب فنية ودراسات قويمة وساهم فى النقد ، سواء فى بلاط الخليفة أو خارجه ، اللغويون كالمبرد ٠٠ والأدباء كابن المعتز ٠٠ والعلماء كابن قتيبة ٠

أما القرن الثالث فقد كان خصبا حقا بالرجال والأفكار كما يقول الأستاذ محمد خلف الله (١) فقد اشتدت حركة الترجمة من اليونانية الى العربية ومن الفارسية الى العربية وأهم الكتب التى ظهرت فى هذه الفترة (الكامل) للمبرد و (رسـالة البديع) لابن المعتز و (الشعر

---

(١) كتاب (من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده) ص ٩٢ ـ للأستاذ محمد خلف الله ٠

والشعراء) لابن قتيبة و (البيان والتبيين) للجاحظ و (نقد الشعر) و (نقد النثر) لقدامة ٠

ونشطت حركة النقد فى القرن الرابع الهجرى وألفت الكتب فى نقد الشعراء أو المقارنة بينهم فظهرت عدة مؤلفات أهمها (الموازنة بين الطائيين للآمدى) و (أخبار أبى تمام) للصولى و (الوساطة بين المتنبى وخصومه) للجرجانى ، وفى التراجم الأدبية (الأغانى) للأصفهانى ورسالة الصاحب بن عباد فى الكشف عن مساوىء المتنبى ورسالة الحاتمى فيما توارد من المعانى عند المتنبى وأرسطو والبحوث القائمة على الذوق الأدبى فى كتاب (الصناعتين) لأبى هلال العسكرى الذى ألف أيضا (ديوان المعانى فى دراسة الشعر ونقده) « ت ٤٠٣ هـ » كما يمثل دراسة خصائص الأسلوب القرآنى (اعجاز القرآن) للباقلانى ٠

واستمر النقد على ضوء ما رسمه هؤلاء قرونا حتى اذا تدهور الأدب والنقد معا ، قامت النهضة الحديثة وصاحبها النقد ولكنه هنا تأثر بالثقافتين العربية والغربية ٠

ونحن اذا تأملنا النقد العربى وجدناه يتمثل فى خطين متلاقيين ، هما الموازنة والسرقات ونفاذهم الى المصدر الأول للمعنى وتنويههم به يدل على حرمة الابداع الفنى عندهم وحرصهم عليه من التخطف والادعاء ٠ وفى هذه القدسية التى للأثر الفنى تستوى الأمم جميعا فاننا نلاحظ أن الأوربيين قد اتفقوا على اصطلاح مشابه هو (Plagiarism) وهو مأخوذ من الأصل اللاتينى (Plagiarius) ومعناهـا السارق أو الناهب أو المغتصب ٠ ولكن السرقات فى الأدب العربى كما يقول الدكتور عبد الحميد يونس كانت أظهر وأخطر للاعتماد على الذاكرة فى حفظ النصوص وروايتها ٠ وكثيرا ما يكون الرواة من الشعراء أنفسهم وهذا يستتبع بطبيعة الحال ، دخول الصور والمعانى والألفاظ بفعل التداعى فى الانشاء ٠ فاذا أضفنا الى ذلك ظهور طائفة من الناس تخصصت فى الرواية أو احترفتها ، ادركنا مدى الخطر الذى يحدق بالابداع الفنى ٠٠٠ وهنا ظهر الانتماء تبعا لأهواء الرواة وتزييفهم للنصوص حسب اشتداد الطلب عليها ٠

وحركة النقد الأدبى التى اشتدت فى الدولة العباسية من العوامل التى أوجدت علما آخر هو البلاغة ، فان ملاحظات النقاد وآراءهم استحالت فيما بعد الى قوانين علمية ترشد الكتاب والشعراء الى ما يجب اتباعه اذا أنشأوا أو نظموا ٠٠٠ هذه الأسس والقواعد هى قوانين البلاغة وأبواب المعانى والبيان والبديع فى علوم اللغة العربية ٠

وقد عاش النقد والبلاغة متداخلين طويلا كما يتضح هذا من (الصناعتين) للعسكرى و (البيان والتبيين) للجاحظ فلم ينفصلا الا بمشقة وفى نحو القرن الهجرى الخامس حين أقام الأستاذ عبد القاهر الجرجانى أسس البلاغة واضحة ثابتة الدعائم متميزة الصفات فى كتابيه الخطيرين دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ٠

وهذان الكتابان من أمهات الكتب العربية التى قامت النهضة المصرية الحاضرة على احيائها ودراستها ٠

أما دلائل الاعجاز فهو بحث فى أسلوب الكلام وطريقة صياغته وفن هذه الصياغة من تقديم وتأخير وذكر وحذف وفصل ووصل وقصر واختصاص مفضلا فى هذا كله المعنى على اللفظ ٠ و (أسرار البلاغة) يبحث فى صياغة المعانى وما تحدثه من أثر عند السامع والقارىء ولهذا اعتبر تأثير النص الأدبى فى نفس متذوقه من أهم مقاييس الجودة الأدبية (١) ٠

النقد بين العلم والفن :

هل يمكن للنقد أن يكون علما يقنن أى له قوانينه وقواعده جريا على سنة العلم من تبويب وتنظيم ؟ الجواب لا ٠٠٠ فهناك فروق بين طبيعة العلم وبين ما يشاهد فى النقد الأدبى ٠ ان النقد الأدبى يعتمد على الذوق والذوق كما يقولون شىء ليس فى الكتب وهو يختلف بين النقاد حتى النابهين منهم كما يختلف من عصر الى عصر ومن شعب الى شعب ٠٠٠ ومقاييسه قليلة عامة مرنة فيها من كل شىء وهى تدور حول ما يحقق الجمال ، والقوة ، والوضوح حتى يكون الأدب مثالا لأكمل الفنون وأبعدها أثرا فى الحياة ٠

فاذا نظرنا بعين الاعتبار الى الأدب وجدنا ميدانه عريضا وفنونه كثيرة وخواصه البيانية والأسلوبية تتعدد بتعدد كاتبيه مما يتعذر معه الاحصاء والتقييم ووضع القواعد الثابتة ٠ والأدب ينبع من نفس صاحبه فهو يعبر عن شخصيته مما يجعل مهمة النقد عسيرة حين يدون ذلك بطريقة علمية ٠ يقول سينتسبرى Saintsbury ان للأدب والفن ذاتية تقوم على الفطرة

(١) راجع كتاب (من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده) للأستاذ محمد خلف الله ص ٧٢ ـ ١١٥ ٠

والمزاج الخاص وهى بذلك تنافى طبيعة العلم . ولعل الدليل على هذا ان قدامة حين حاول اخضاع النقد العربى لأصول علمية ، فشل .

ولكن النقد الأدبى على الرغم من هذا له أصول عامة ثابته يمكن ادخالها تحت مقاييس عامة أيضا . انه فى حقيقته يقف موقفا وسطا بين العلم والفن بمعناهما الدقيق ، أو هو فن منظم ودراسته وسط بين جمال الفن ودقة العلم ...

وظيفة النقد الأدبى :

يبادل بعض الأدباء ، النقد ، هجوما بهجوم فوليام وردزورث يرى المقدرة على النقد أقل من المقدرة على الانشاء .. ولكن النقد مهما قيل فيه ظاهرة اجتماعية لا غنى عنها مطلقا فلولاه لتفشت الأخطاء بلا ضابط انه النقد الذى يشحذ الأفكار والآراء ويثير المنافسة الشريفة بين الأدباء ويعرف الأديب مكانه الصحيح ويرسم للناس طرق القراءة ويساعدهم على الاختيار ويعرفهم بمواطن الجمال والنقص . وهو حين يكون بناء خالقا مخلصا مبرءا من الهوى ينهض بالأدب ويكثر من أنصاره . وانا لنتساءل : أليس من حق القراء أن يعبروا عن آرائهم ؟ أليس الأدب نفسه نقدا للحياة ؟ ان النقد الأصيل فن من فنون الأدب ... انه منه ، وفصول النقد الفنى لا تقل أحيانا عن الأدب الخالص .

الذاتية والموضوعية فى تذوق الفن والأدب (١) :

الذاتية والموضوعية اصطلاحان عربيان وهما ترجمة للفظى : subjective و objective شاعا فى الدراسات الأوروبية وصار لهما شبه وجود عالمى بين رجال العلم فى أوروبا وأمريكا ثم سلكا طريقهما الينا .

ومن معانى كلمة الذاتية : subjective الذات أو الشخص أو العقل باعتباره قوة مفكرة .

ومن معانى الموضوعية : ob jective الشىء أو الموضوع الذى يقع عليه ادراك العقل وتفكيره .

ومن الاسمين اشتقت النسبتان objective و subjective ونسبة الى المعنيين .

وقد انتهت الدراسات النفسية والجمالية الى أن الناس ازاء الشىء الجميل ينقسمون فيه طوائف أربعا على الأقل :

---

(١) راجع : من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده للاستاذ محمد خلف الله ص ٣٥ ــ ٤٥ .

(★) الأستاذ احمد الشايب فى كتابه (أصول النقد الأدبى) .

١ ـ فقوم يحبون ـ أو يكرهون لونا أو صـورة ما ، أو قطعـة موسيقية ، لا على أساس خصائص موضوعية فى هذه الأشياء . ولكن على أساس ما تثيره فى عقولهم من طريق تداعى المعانى من ذكريات وأشجان فواحد يفضل مثلا اللون الأخضر فى صغره لأنه يذكره بأوراق الشجر فى الخريف وآخر يكره اللون الأحمر لأنه يذكره لون الدم وهكذا .

فاذا انتقلنا الى الفن الصناعى أو الصناعات الفنية وجدناها تثير عند هذا الفريق أفكارا تدور حول فائدة الشيء والغرض منه . ويظهر ان هذا النوع الربطى (assciative type) أغلب بين النساء والأطفال وان كان لا يندر بين الرجال ولهذا ذهب بعض العلماء الى القول بأن حاسة الجمال فينا لا تنبعث الا من مثل هذه الروابط والملابسات . ناسين جوانب أخرى مهمة من الابداع الفنى ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن كثيرا من النجاح الذى يحرزه الفنان فى اثارته ذكريات قرائه .. سره فى اللفظ الموحى المشبع ذى الظلال والألوان .

٢ ـ وغير بعيد من هؤلاء الربطيين فريق يبنون نفضياهم للأشياء على أساس تأثير نفسـانى خاص تحـدثه عنـدهم ، فالأشياء تثـير فيهم انفعالات ورغبات وجدانية .. وفن الاعلان التجارى يستغل هذه الخاصة فيخدم الألوان والرسوم والمرئيات للحصول على الأثر المطلوب .

وقد بنى بعض الباحثين على أساس هذا التنبيه النفسانى نظرية أخرى حديثة ، تقول ان الفن ليس مرتبطا بالجمال ، وانما هو مرتبط بالتعبير عن الانفعالات . ويمثل هذا فى الأدب القصص والمسرحيات ، فالرواية تشدنا اليها بقدر ما يثير فينا أبطالها من أحاسيس انسانيـة وانفعالات .

٣ ـ وهناك فئة تعطى كل شىء شخصية حتى ليحس ويتحرك فى نظرها فاون دافىء وابتسامة ودود وعيون ضاحكة وهؤلاء قلة تنطبق عليهم نظرية (الاتحاد الفنى Empathy) ومعناها ان المرء يحس نفسه والشىء الذى يراه ويتعاطف معه شيئا واحدا .

٤ ـ فريق يتخذ نحو الأعمال الفنية موقفا ذهنيا نقديا ، أكثر منه نفسيا انفعاليا . فهم يقفون أمام الشيء الجميل صامتين من اعجاب فاذا حكموا عليه فذلك على أساس خاصته المعلومة ولا شأن لهم بما يبعثه من روابط أو يثيره من انفعالات أو يخلفه من آثار . فهم اذا نقدوا الأدب فنقدهم يتعلق بنظام العمل وتأليفه ومدى الانسجام فيه ومن هذا الطراز (عبد القاهر الجرجانى) فى (دلائل الاعجاز) .

ووجوه الخلاف هذه فى جملتها وتفصيلها تؤيد ما ذهبنا اليه من

أن أحكام النقد يغلب عليهـا العنصر الذاتى وهى تتأثر بذواتنا تأثيرا لا شعوريا مما جعل كثيرين من أهل الأدب وعلماء النفس يرون أن الجمال ذاتى محض وان النقد فى جوهره ذوق يختلف باختلاف الأفراد والأجناس والعصور والبيئات والحالات النفسية والتربية • كل شيء فى الفن نسبى •

والاتفاق على وجود ذاتية الناقد لا ينال من قيمة نقده فليس الناقد فى هذا بدعا وحده •• ان الفيلسوف تتدخل ذاتيته فى فلسفته (وهل فلسفته سوى تفسير للحقيقة كما يراها مدعمة بالحجج والأسانيد التى نفذ اليها بفكره ؟) (١) •

حسب النقد ضمانا لصحة أحكامه هذا المبدأ وهو : (ان كل أديب يضيف شيئا الى تراث أمته ، وان أدب كل أمة جزء من الأدب العالمى) • فالآثار الأدبية العالمية تؤلف وحدة عامة يجب ان يقاس الانتاج الأدبى الحديث بنسبته لها • وتاريخ الآداب العالمية يثبت ان عصور الانحطاط فيها هى العصور التى انطوت فيها الآداب القومية على نفسها ، فلاكت معانيها واجترتها حتى بليت وسمجت فملها قراؤها وكتابها معا (٢) •

وهذا يفضى الى النقد عند اليونان الذى أدى الى حديث أرسطو عن الشعر أى عن (الأدب شعره ونثره) وهو عمدة الدارسين الى اليوم •

والنهضة الأدبية الحديثة نسيج ريادات متعددة فى مجالات عدة • ومن العجيب اننا نفتقد اليوم الريادة والرواد على الرغم من تعدد الوسائل وتقدم الأجهزة وطبيعة العصر الحافل بالتغيرات والمشـاكل والتيارات المختلفة • كان أديبنا الكبير المازنى يقول : (قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد ، وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق ، وبتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم • ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ؟ ومن الذى يعنى بالبحث عن أسماء المجاهيد الذين أدموا أيديهم فى هذه الجلاميد ؟) •

ومع هذا نبغوا وأعطوا عطاءهم كاملا وكانوا علامات طريق • يقف وراء هـذا ، الموهبة الكبيرة ، والثقـافة الواسعة الغنية المتفتحة المتجددة المحددة ، واتقان لغتين لغتهم ولغة أخرى ، اتقانا ينفذ الى اللباب ولا يتكثر بالقشور أى ألفاظ معدودة يلوكها صاحبها للتعالم أو التعالى • يرفد هذا ويمد له مواهب الطبع من جدية وصبر وعمل دءوب وموصول •

---

(١) المدخل الى النقد الأدبى ، للدكتور غنيمى هلال •
(٢) المدخل الى النقد الأدبى ، للدكتور غنيمى هلال •

ولكننا مع هذا كله ، يغيب عنا عنصر هام أملى لهم وهو **الصحافة** ٠ الصحافة الأدبية والصحافة السياسية على السواء ٠ لقد عرف القارىء العربى لطفى السيد من (الجريدة) وعرف الدكتور هيكل والدكتور طه حسين من (السياسة الاسبوعية) و (الوادى) وعرف الأستاذ العقاد والمازنى من (الدستور) و (البيان) و (عكاظ) وعرف الأستاذ الزيات من (الرسالة) التى كانت مربى ومرقى أدبيا للكثيرين من الأعلام ٠ هذا غير مجلات الهلال والمقتطف والكتاب والثقافة وغيرها ٠

وكانت دور هذه الصحف والمجلات منتدى للكتاب ومريديهم فكان يلتقى فى البيان الأساتذة د٠ هيكل ومحمد السباعى والصادق حسين وعباس حافظ وطه وعبد الرحمن شكرى والعقاد والمازنى ٠ فى الأمسيات٠

وكانت الصحف الكبيرة كالأهرام تفرد كل يوم للأدب صفحة ٠ وكانت الملاحق الأدبية والمدارس الأدبية كمدرسة الديوان وأبولو والمهجر ٠ وكانت المدارس الثقافية كالمدرسة الانجليزية والمدرسة الفرنسية ٠ وكانت التيارات الأدبية والمناظرات والمحاولات مما أذكى الحياة الأدبية وزكاها ٠ فتبارت الأقلام عن علم ، وتنافست الآراء عن ضلاعة وبراعة واقتدار ٠

ولو أن الصحافة كما أعطت الأدب الانتشار والذيوع والشهرة فى ناحية ، جنت عليه فى ناحية أخرى حين أغرت بعض الأدباء بالسهولة والسرعة مرضاة للقارىء ومجاراة للطابع الصحفى ، وتلبية لحاجة الجريدة التى تجرى فى سباق يومى لاهث ٠

ولعل من حظ الأدب فى مطلع النهضة أن الصحافة لم يكن لها اغراؤها اليوم ٠ فلم تشغل الرواد عن انتاج الأعمال الأدبية الجدية ٠

ثم تقدم العصر وتخلف الأدب على كثرة الصحف ٠ عندنا صحف ومجلات ولكن ليس عندنا صفحة أدبية يومية وحتى الاسبوعية تزحم الأدب فيها الاعلانات أو المواد الأخرى ٠ وغدونا نتطلع الى المدارس الرائدة او الأقلام الناقدة أو الاعلام القمم الذين يستنار الناشىء بسيرتهم أو يشتار الشباب جناهم ٠

من أجل أن يكون لنا أدب ونقد لا بد أن تكون هناك قضية يثيرها الأديب ويناقشها الناقد ٠ فمثلا حين أثار س ٠ اليوت سنة ١٩٤٩ قضية حرية الكاتب فيما يقول ولو كان غامضا اذ العبقرية فى رأيه ليس من شأنها البساطة والوضوح ، فجر ردودا شتى حول الوضوح والغموض ، وماهية الأدب ٠

قد يتخذ الكاتب من فكرة عظيمة كالحرية أو الحق موضوعا له كما يقول الن برايس جونز ، ولكن هذا أيضا لا يضاهى تيار الحياة المتدفقة وتفاعل الكاتب معه تفاعلا يجعل له تجربة خاصة مميزة ذات مذاق ٠

ولعل هذا سر استهواء كاتبة مثل جين أوستن لعصرها وفيه من فيه من فحول الكتاب ٠

ويعزو النقاد الغربيون حال القصة المعاصرة الى انتفاء استقرار القيم ٠ وهو تعليل ينسحب على الأدب بعامة ٠ والى أن تستقر وتؤصل عندنا القيم ومن أعزها قداسة الكلمة واحترام الانسان سنظل مفتوحى العين نتطلع ولا نجد ٠ ونستشرف ولا ننال ٠٠٠

النقد والابداع الفنى

حسنا تخيرت أكاديميـة الفنـون موضـوع النقد والابداع الفنى فى سلسلة موضوعات يوبيلها الفضى ٠٠ وذلك لاعتبارين :

الأول : أن النقد متصل بدراسة الأدب والفن ٠

الثانى : أن النقد منطلق اشعاع فكرى هو رسالة الجامعة ودورها فى الحياة الأدبية والفنية وخاصة فى هذه الأيام أى فى محنة الأدب ومحنة النقد الأدبى ٠

دور الجامعة خلق صلح بين الانسـان والطبيعة والبيئة والمجتمع والعصر وسيلتاها العلم والفن ٠٠٠

الفن يتعامل مع القيم

حين يتعامل العلم مع الأسباب

هذا هو دور الجامعة المحتم وخاصة فى المحنة التى يعيشها الأدب والنقد الأدبى ٠

ولا يتعاظم أحد أن أقول ان الأدب وبالتالى النقد فى محنة ٠ لقد كانت الحياة الأدبية فى النصف الأول من القرن العشرين يكملها ويغذيها الريادات الأدبيـة والندوات الأدبيـة والمجالات ذات القيمـة والمساجلات والتيارات والصفحات الكاملة فى الصحف ٠ كانت الحياة الفنية تنبض بالرأى والفكر والمعارضة ٠ وتجول الأقلام الكبيرة ، ويتبارى الأعـلام الرؤوس ، وتصعد القيم الشوامخ فى الارتفاع ، وتمد فى الاقناع ٠٠٠ وقد تصول المعـارك وتحتدم المناقشـات ولكن الشباب يتعلم والأجيال تتربى ، والصف يواكب الصف ٠٠٠

كل هذا مع ضعف الوسائل وسيادة المستعمر وضـغط الأحداث وتفشى الأمية حتى ليقول المازنى كما أسلفت (قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد ، وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق ، وبتسوية الأرض لمن يأتون بعدهم ٠ ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ؟ ومن الذى يعنى بالبحث عن أسماء المجاهيد الذين أدموا أيديهم فى هذه الجلاميد ؟) ٠

ويقول المازنى (وبعد أن تمهد الأرض وينتظم الطريق يأتى نفر من بعدنا ويسيرون الى آخره ويقيمون على جانبيه القصـور شاهقة باذخة

ويذكرون بقصورهم — كان متفائلا — وننسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها سامقة رائعة والذين شغلوا بالتمهيد عن التشييد ؟) .

اننا اليوم وغدا سنذكر المازنى والرواد من جيله ليس وفاء فحسب بل من باب الافتقاد والاحساس بالفراغ ولم نشيد بعدهم (قصورا شاهقة باذخة) ولا أكواخا — اذا استثنينا أدب الرواية ولكننا نجتر ماكتبوه .. هذا فى أحسن الأحوال لأن بيننا من يحملون أقلاما ولم يكلفوا أنفسهم قبل الكتابة أن يدرسوا ما كتبه المازنى والعقاد والرعيل الأول من الأفذاذ الموهوبين والقادرين والجادين والأحرار .

فلا يمشى الأدب فى الزفة فأنا أكبر الأدب على التبعية بديلا عن الفوقية .. أنى أتمنى للأدب الارتفاع على الشعارات والامتناع على المواكب .

أتمنى للأدب حرية التعبير فان الحرية نضج وكرامة وثقة .

والحرية ارتفاع وابداع ومسئولية .

والحرية خلاقة ألاقة معطاء .

والحرية فى الأدب خصب وعطاء ونماء وعزة .

والحرية فى الأدب رأى سديد ، وأسلوب جديد ، وحركة دائبة ، وحيوية مجددة ، وفكرة رائدة وآفاق .

نريد أدب الرأى وأدب الفكرة وأدب العصر .

وهذا يسلمنا الى ظاهرة أخرى هى محنة النقد الأدبى .

واضح انه لم يعد عندنا نقد أدبى .

فهل عندنا ، قبلا ، انتاج أدبى ؟ واضح أيضا أن الجواب (لا) .

الشرارات التى تبرق من بين الرماد كتاب قصة ومسرح لا نقاد .
الأساتذة هاجروا الى البلاد العربية أو هجروا وهم فى مصر .

والنقد لا يدور فى فراغ .. لكى يمارس النقد رسالته لا بد أن يكون هناك أدب وأدباء ومدارس وتيارات ومذاهب وآراء .

لا بد أن تكون الجامعة مركز اشعاع كما كانت لا مجمع موظفين كسائر المرافق .

فى النصف الأول من القرن العشرين كانت عندنا من الأسماء الرائدة العقاد وطه حسين وأحمد أمين والمازنى وزكى مبارك والزيات

وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور ومحمد حسين هيكل والخولى وعزام ومندور وزكى نجيب محمود ٠

كانوا كتابا وكانوا نقادا معا وكانوا حركة أدبية وفكرية ٠٠٠ والى جانبهم كانت مجلات الرسالة والثقافة والهلال والكتاب والكاتب المصرى ٠ وكانت الصحف تفرد للأدب صفحة يوميا ، وملحقا أسبوعيا ٠

وصال النقد وجال وانبثقت عنه المدارس الأدبية كمدرسة الديوان التى تزعمها عبد الرحمن شكرى والعقاد والمازنى وهم يمثلون المدرسة الانجليزية فى الثقافة حين كان طه وهيكل يمثلون المدرسة الفرنسية ٠

كانت هناك مدرسة أبولو والمهجر ٠

حتى الأساليب كانت مدارس ، الجريدة وعلى رأسها لطفى السيد وتمثل السهولة والبساطة والفكرة ، ومدرسة الرسالة وعلى رأسها الزيات وتمثل الجزالة والدسامة ٠

وظهرت التراجم والعبقريات الاسلامية للعقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل ٠

وظهرت الدراسات الموسوعية لأحمد أمين فجر الاسلام وضحاه والظهر ٠ ويوم الاسلام ٠

بل ترجمت أمهات الكتب العالمية كقصة الأدب وتاريخ الحضارة ٠

وتستطيع مطمئنا أن تحسب هؤلاء لثورة ١٩ التى قيل فيها أنها أخفقت سياسيا اذ لم تحقق الاستقلال التام ولكنها بما أعقبها من قيام البرلمان والأحزاب والمعارضة البرلمانية والصحفية وحرية الرأى ، مكنت الفكر من الانطلاق ، وأمنت الكلمة فى التعبير ٠ وهنا حفلت الكتب والصحف بالدعوات الجريئة والمصاولات الأدبية والفكرية ٠ وكتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) للدكتور طه حسين ، وكتاب فى أصول الحكم للأستاذ على عبد الرازق شاهدان من أمثلة كثيرة ٠

حتى خطباء البرلمان تحتفظ مضابط الجلسات لهم بقطع يعتز بها الأدب المصرى والضمير الوطنى ٠

وجاءت ثورة ١٩٥٢ ٠ وغيرت كثيرا من الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى وهذا يستلزم فى منطق الثورات ، الحسم ، فأصيب الفكر بالذهول والصمت وهو المطلوب ٠٠ وتبعه الأدب الذى يعيش على الحرية ويزدهر فى وجودها ٠

وحين انطفأ الأدب الحقيقى ، طفا على السطح أدب الزفة ٠ والطبل دائما أجهر الأشياء صوتا وأعظمها جثة وأفرغها من المضمون والقيمة حتى

مناهج التعليم جرفها النيار فحشرت الكتب الدراسية بالخطب السياسية كنماذج رفيعة للتعبير والتفكير !!

ومع هذا يوجد بيننا من يتحسر على مستوى الفكر والأدب والنقد مع أن هذه النتيجة طبيعية ·

لا فكر الا بالحرية ·

ولا حرية الا بالديموقراطية الحقيقية ·

وهنا تكمن أزمة النقد وافلاسه ·

أراد الملك فؤاد أن يعدل الدستور فهدده العقاد في مجلس الشيوخ بسحق الرأس ·

وهزمت مصر سنة ١٩٦٧ · فاستقبلت الهزيمه في مجلس ذلك الوقت بالرقص ·

وهنا يكمن الفرق بين النقد في النصف الأول من القرن العشرين وبين النصف الثاني ·

النقد رأى ورؤية ·

وقد عرضت لجانب الرأى في رسالة النقد · أما جانب الرؤية فيفرد له الحديث ·

فن الرؤية

ان النقد تبصير وبصيرة • رأى ورؤية • تعودنا حين نعدد الفنون أن نقول أنها فن الأدب والرسم ، والنحت ، والتصوير ، والموسيقى ••

وننسى **فن الرؤية** •• فن التلقى ••• فن البصيرة •

أسهل شيء النظر •

وأصعب شيء ، الرؤية •

الرؤية اخلاص وخلوص •• انفتاح وفتوح •• كشف ونفاذ • تجميع النفس ولملمة شتاتها •

الرؤية نافذة على جديد رائع حتى فى القديم اذا كان أصيلا •

وأهلنا فى الريف يقولون فى الدعاء : الله يفتح عليك • ويقولون عند الانبهار : فتوح من الله • لأن البصر نظر ولكن الرؤية فتح •• ثراء لا حد له •

ومن فن الرؤية : النقد وخاصه حين يترفق بكيان الانسان الكاتب ويزكيه ••• ففى ساحة الفن بكل ألوانه ليس الهدف التذوق أو حتى التقدير ، ولكن المنشود هو استمتاع قلبى صاف هو أبلغ من الكلمات • هنا يكون النقد تزكية نفس صاحب العمل الفنى ورائيه معا • وقد أفلح من زكاها • وحين يتم اللقاء بين المتلقى والعمل الفنى ••• هنا تسقط الحواجز وتنسكب سيالات النفس فى كأس الرائى الفنان فتشرق الصورة ويستعلن المضمر •

التذوق بهذا المعنى ذوق وشوق وتوق لا يكفى فيه التقدير الخارجى بل لا بد أن يزكى النفس ، يضيف اليها ويرتفع بها • هل يكفى فى الطعام تذوقه ؟ تمثيله هو الذى يبنى الجسم وكذلك الفن : التلقى •

التلقى الذى يستنبط ويستنبت القراءة وهنا يكون النقد نبتا جديدا • ويكون التذوق حوارا خلاقا ألاقا بين الكاتب والقارىء •

والمتذوق الحبقى يعطى نفسه للأثر النفسى • ان فهم الأثر استماع طروب للفنان • فالعمل الفنى الرائع كلمة خضراء تستوعب رؤى عصر من العصور للكون بصورة مصفاة مضيئة •

الفن الحقيقى عمل تحس أن صاحبه توضأ قبل أن يزاوله • والمتلقى الحقيقى فنان حين يقبل على العمل الفنى بنفس مغسولة نقية وكأنه توضأ

قبل أن يقترب من الرائعة الفنية شعرا أو موسيقى أو رسما أو سائر الفنون الأخرى فى ساحة الخلود •

وأنا هنا ألمح قول شاعرنا شوقى :

الخالدون أربعة :

شاعر سار بيته أو مصور أضاء زيته أو موسيقى بكى وتره أو مثال ضحك حجره •

وارتباطنا بالأعمال الفنية كسب لقلوب أصحابها • والانسان كالآلة الموسيقية يبعث منها ، حتى الهواء العابر ، الأنغام •

ان المتلقى الصادق للعمل الفنى يقول مع ابن الفارض (زدنى بفرط الحب فيك تحيرا) •

ان الكاتب أخطأ أم أصاب جزء من كل • والانسان الرحب يحس الغبطة أمام العمل الصادق • يفرح بأنه انسان ويأسف للعمل السيء لأن الذى عمله أيضا انسان •

ومن هنا يعتز الناقد ، كما رأيتم ، بالكاتب لأنه ، هو •

الناقد الفنـان رؤية جديدة للعمل الفنى •• كشف للحقيقة فى الداخل والخارج •• الناقد الفنان عنده القدرة على الحب أو التعـاطف •• المشاركة الوجدانية •• السكن فى وجود الآخرين •• الخروج من الجلد ، والامتزاج بجوهر الناس والأشياء هو الحب •

واجب النقد ورسالته أن يكون ترشيدا وتبصيرا ولكن فى تعاطف مع العمل الفنى • وألدزهكسلى فى روايته دنيا جديدة Brave new world . ينعى اختفاء الحس الانسانى فى الفن المعاصر فيخرج مشوها كأطفال أنابيب الاختبار الذين يحلم بهم العلم الحديث حيث يرى الأمومة التى هى قمة الحب وكماله ، من أعظم الحقائق التى تمس القلب البشرى • والنقد الأدبى المثالى أمومة للعمل الفنى •

ما هى الأحجار الكريمة ؟

ان الذى يكرم الأحجار ، معالجتها • فالأحجار الكريمة فى خاماتها الأولى لا تجذب ولكنه الصقل والتهذيب ، وقبل هذا ، العين الخبيرة التى تعرف « القيمة » فالجواهر هى القيمة النفيسة المسكنة فى الأحجار ، وفى البحار • والصياغة هى التى تجلوها •

والنقد هو جلوة المعانى المستكنة فى ثنايا وطوايا العمل الفنى وفى ضمائر الأشياء ·

فاذا نفذت الرؤية البصيرة الى أعماق الأعماق وطالعت معانيها ، انفتح الطريق الى النور والجلوة ·

يقول أمرسون (ليس فى الوجود مادة خسيسة اذا وقع عليها الضوء) ·

وتذوق الفن بهذا المعنى ليس تفسيره ·

ان الفن كالمعجزة ، التفسير ينهيها ·

ولا يسعد الانسان كالانطباعة بنشوتها وبكارتها · انها حينئذ رافعة وجدانية ترفع متلقى الفن الى أعلى وهنا يكون عمل الفن ، تحقيق حياة المشاهد وترشيدها ، واضاءة ضميره واكتشاف حكمة لا توجد فى الكتب ·

ان البصيرة فقه ونفاذ · حين يكون البصر ابصارا فحسب ومن هنا نفهم (والله ولى التوفيق) أى يعطى الاستفادة والنماء مما تحصله الحواس فتسمع العين وترى الأذن ·

وبهذا يبنى النقد ، الذوق ··· حين يأخذ ويستخلص القيمة المودعة فى العمل الفنى ·

والأخذ الرشيد عطاء كامل ·

كالنحل يأخذ رحيقا ويعطى شهدا ·

محنة الأدب

الأدب مدلول واسع يدخل فيه عطاء الأديب ، وعطاء المتذوق الذى يخلص الاستماع الى الأثر الفنى ، وعطاء الناقد الذى يجلو الجمال ويهدى العيوب فى أمانة المنصف وموضوعية العالم •

منذ عرف الانسان الكلمة المرنمة التى انتظمت مع الزمن قصائد سماها شعرا ، والكلمة البليغة التى تساوقت مع حياته فمضت تصورها تصويرا سماه نثرا فنيا ، والأدب مستودع سره ، ومجلى روحه ، يبثه مكنون نفسه وخفقات قلبه وومضات حبه ، واشراقات الهامه • والأدب للانسان بمثابة مرآة صافية يرى فى صقالها نفسه الظاهرة والباطنة لا يضخم المحاسن رياء ، ولا يحجب العيوب زيوف • بل هو الحقيقة فى واقعها سافرة سفور الشمس ، واضحة وضوح الحق ، ثابتة ثبات اليقين •

فالأدب كمعرض الرسام يرى فيه المشاهد لوحات ناطقة للانسان •• الانسان عندما يحنو ويقسو ، ويرق ويجفو ، ويحن ويهفو ، الانسان حين يتأسى ، وحين يصادق وحين يصانع وحين يجارى وحين يدارى ، الانسان فى زهو النصر ، والانسان فى كمد الهزيمة ، والانسان فى اشراق الأمل ، والانسان فى قتام اليأس ، والانسان فى لذة العمل ، والانسان حين البأس ، والانسان فى محراب الصلاة ، والانسان فى نشوة الكأس ، والانسان حين يطمع ، والانسان حين يفزع ، والانسان حين يتعفف لأنه لا يجد ، وحين يعف وهو ينال • الانسان فى شموخ الطغيان والانسان فى تواضع العظمة• والانسان فى قوة الصحة والانسان فى ضعف المرض ، والانسان فى هزة الشوق ، والانسان فى أريحية الكرم ، الانسان فى كل مجال وفى كل آن •

والأدب الخالد هو الذى يدور فى فلك هذه المشاعر الانسانية فيستمد خلوده من خلودها اذ هى باقية على الزمن وكل جدوى الحضارات والثقافات أن تصقلها أو تعدل مدلولها فيتسع أو يضيق ولكن الحب والألم واليأس والأمل وسائر عواطف القلب وخوالج النفس هى هى فى كل جيل وكل قبيل ••• ولهذا ترانا نقرأ ونتأثر بادباء بيننا وبينهم الحقب الطوال ، وبين حياتنا وحياتهم ومدنيتنا ومدنياتهم الفروق الواسعة التى تفصل بيننا وبينهم فى كل شىء الا الأدب ، لأنه ظل نفوسهم التى صبغت نفوسنا على شاكلتها فى كل شىء ومن ثم نقبل على آثارهم فيه لأننا نرى فيها وجوه أعمالنا وهوى قلوبنا ومنازع نفوسنا

... والخالدون وصلوا من هذا الطريق .. فعمر الخيام خلد لأنه سجل الحيرة الانسانية فى كنه القضاء وجدوى الحياة والموت ، والمعرى خلد لأنه استبطن نفسه وسجل ذبذباتها بين الشك واليقين ، وشكسبير وروسو وهوجو ، وفى العصر الحديث الشاعر أحمد شوقى فى مصر ، وبشير التيجانى والطيب المجذوب فى السودان والزهاوى والرصافى فى العراق ، ورفيق المهدوى والشارف فى ليبيا ، على سبيل المثال لا الحصر .. كل هؤلاء تقروا منازع النفس الانسانية وصاغوها آيات فن كل على طريقته وفى أسلوبه .

وحين يثبت أدب النفس ، أدب الشخصية ، حين يثبت مثل هذا الأدب الخافق للزمن ، يتخلف أدب القوالب والألفاظ لأن الصناعة والتعمل اذا شابت الفن أفن وبطل سحره .

ولا ننكر أن الأدب اللفظى كان ملحوظا فى وقت ما حين اقتضت حركة البعث فى طلائع النهضة الحديثة أن يشيع روادها الالفاظ الفصيحة لينتعش أسلوب التعبير الذى كان قد ركد ووهن فى العصر التركى ككل شىء ... فكان طبيعيا أن يضع المرحوم الأستاذ فارس الشدياق كتابه (الساق على الساق) الذى جمع فيه وفيرا من الألفاظ الدارسة بقصد احيائها ، وأن يضع المرحوم اليازجى كتابه (نجعة الرائد) فى نفس الاتجاه .. وأن يشيع السجع فى الكتابة بالوانها ، بل تجاوز موضوعات الكتابة الى اسماء الكتب والمقالات حتى الصحفية منها ... فاما تخطى أدبنا هذا الطور عول على الروح يقبس منها شعلة حياته ، ويستمد منها دواعى البقاء .

لم يعد أدب الخليين بل أدب شعوب أرقها هدف كبير هو الاستقلال بنوازعه ومطامحه ووسائله وغاياته ... شعوب نزعت الى الحرية والديمقراطية وانفسحت أمامها سبل التعبير وتعددت وجوهه ... واستشرفت الطلائع من أبنائها الى الغرب ونقلت عنه فى البداية فاشتدت حركة الترجمة كما اشتدت حركة الصحافة مع الرغبة الحميمة والمحمومة الى الاستقلال . واشتدت حركة الكتابة مع قيام البرلمانات والمجالس الشعبية وتمثيل المعارضة .. وكل هذا من طبعه وطبيعته ، السرعة فى التعبير لأن المطبعة لا تنتظر والمصاولة تتوقف على مقارعة الحجة بالحجة فى سرعة ونفاذ يتنافى مع السجع الا اذا جاء طبيعيا عفو البديهة وفى حياتنا الأدبية طرائف كثيرة فى هذا الباب .

وواكب هذا اهتمامنا بالأدب المسرحي والقصصى والترجمة الذاتية

... كما أملى له الدعوة الى الديمقرطية فلم يعد الأدب من تحف القصور ولم يعد الأديب ظل حاكم أو نديم شراب أو سمير مجلس • ونزل الأدب الى الحياة اليومية واحتفل باهتمامات البسطاء وسجل أيامهم فعثر على معين لا ينضب ومدد لا يغيض •

ولكن الآن •

ماذا عندنا من هذه الهبات جميعا ؟

أين الريادات الأدبية ؟

أين الجامعة والمفروض أنها مركز اشعاع ؟

أين الأستاذ ؟

أين النقد ؟

أين المدارس والتيارات الأدبية ؟

أين أدب الشباب ؟

أين الجديد ؟

ضاع البريق •

واذا كنا نفتقد هذا كله جملة وتفصيلا فالافتقاد ظاهرة بل محنة لها أسباب ككل علة ، وعلاج ككل داء •

كتب الأستاذ الزيات سنة ١٩٤٧ يسمى أدب الأربعينات ، أدب السندوتش » ويصفه بأنه نتفات من الكتب ، وخطفات من الأحاديث ، ومطالعات من القهوة أو الترام أو فى السرير يلقط الكلم فيها المنظر الخاطف كما يلقط الحب الطائر الفزع !

فماذا عساه يسمى ما يسمى أدب اليوم ؟

كان الأدب فى مطلع القرن العشرين موهبة وهواية وحرفة ، فأصبح الأدب اليوم ، ان وجد ، وظيفة فى الجامعة أو فى الصحافة •

الأدب فى رأيى اما كتاب رأى له هزة أو كتاب دراسة وتقييم له أبعاد وأعماق • فمن كتب الرأى التى أحدثت دويا فى وقتها ، كتاب (فى أصول الحكم) للأستاذ على عبد الرازق أو كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) للدكتور طه حسين أو (الديوان) للعقاد والمازنى • ومن كتب الدراسة العميقة الواسعة الغنية كتب الدكتور أحمد أمين (فجر الاسلام) ، (ضحى الاسلام) ، (ظهر الاسلام) • فهل أعطت السبعينيات هذه الآفاق ... هذه المستويات ؟

هناك سبب بلا شك .

الأدب موهبة ودراسة . ندع المواهب الآن وطريقة اكتشافها ثم رعاينها فهذا معنى لم تدرك بعده الحقيقى بعد . بل لعلنا نميت الموهبة الأدبية حين نفاضل ولو بغير حروف ونحن نقـــول (بالعلمى والأدبى) وأبناؤنا على أبواب التخصص فى الثانوية العامة مع أن العلم والأدب والفن مهمتهما جميعا واحدة .. خلق .. صلح بين الانسان والطبيعة والبيئة والمجتمع والعصر .. غير أن الفن يتعامل مع القيم حين يتعامل العلم مع الأسباب ..

العلم والأدب والفن كلها تعمل معا لترقية الحياة ووحدتهـــا هى الحكمة .. واحكام الجمع بينها هو فن السلام .

نتحدث الآن فى الشق الثانى من الموضوع :

ان أسلوب التعليم عندنا هو أس الداء . وأرانى بحاجة الى وقفـة أخرى عند صاحب مجلة الرسالة . فرأيه (أن المدارس العربية تعـــلم اللغة على منهاج غير واضح ، وأن الجامعات العربيـــة تبنى الأدب عـلى أساس غير صالح ، وأن الجامعة الأزهرية لا تزال تنفض التراب عن كتب ملتاثة التعبير من مخلفات العجمة ، وان صلحت لشىء فلن تصلح لتعليم البلاغة) .

وقد فصلت الكتابة عن مناهج التعليم فى كتاب آخر (١) .

---

(١) كتاب (أزمة الشباب وهموم مصرية) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد .

١ ـ الاخراج والأدب

ان العمل السينمائى على اختلاف فنونه اساسه القصة وهى لون من ألوان الأدب • وبقدر النفاذ الى جوهر الاشياء المطروحة فى القصة، يكون الاخراج كبيرا وراقيا وباقيا •• ومن هنا تأتى ضرورة الأدب للمشتغل بفن الاخراج ضرورة حجر الاساس فى البناء العالى المتعدد الطوابق والحجرات •

ان فن الاخراج يجمع فنونا كثيرة اذ لابد للمخرج أن يتعامل مع فن التصوير وفن الديكور وفن الموسيقى وبالطبع مع فن الأدب أساسا •

كما يتعامل فن الاخراج مع فن آخر غير مرئى ولكنه المنبع ذلك هو فن الحياة •• فالمخرج هنا يشبه الكاتب اذ يتحتم عليه ان يقبس منها •• من الحياة ويلون بها صوره وأحداثه • قد يتخذ المخرج كالكاتب من فكرة عظيمة كالحق أو الحرية موضوعا له كما يقول الن برايس جونز ولكن حتى هذا الشيء (يختلف كل الاختلاف عن تسلم الحياة التى تحيط بنا ، لنصنع منها شيئا خالدا ، لأن اتخاذ فكرة ذات أهمية عظيمة لا تؤدى الا الى الوعظ بها والتسبيح بحمدها • وقد تتغاير العصور ، ويتبدل الحكام وربما كان هذا مما لا مفر منه • ولكن الوقت الذى ينعدم فيه موضوع الكتابة ، يكون صالحا لتناول الحقائق الخالدة بدلا من انتاج شيء جديد لا لشيء الا لأنه جديد) •

وحين يتحدث (جويس كارى) عن وظيفة القاص وهى تنطبق تماما على وظيفة المخرج لأنه يتبنى القصة أى يعيد كتابتها بالصورة والحركة واللون والصوت • حين يتحدث جويس كارى عن وظيفة القاص يطلب منه أن يضم فى عمله شتات الحياة أو مملكة العالم الانسانى ويقربها الى الذهن والشعور كما يفعل تولستوى فى (الحرب والسلام) التى تعد من أعظم الانجازات الفنية بهذه الخاصية ، فالناس على اختلاف مشاربهم يعيشون على الفن سواء أرادوه للمتعة أو التمسوا فيه المهرب من شقاء دنياهم أو استعلوا به على الهبوط والاحباط أو استعزوا به لذاته ••

وهنا نستطيع أن نعلل نجاح كاتبة مثل جين أوستن حتى ان كتبها كانت تقرأ أكثر من أى كاتب فى عصرها • وكان نفوذها الأدبى هائلا

ويعزو جويس كارى هذا الى أنه (لم ينبع من الجدة بل من فكرتها المتزنة عن الحياة وقوتها التكنيكية التى بواسطتها تمكنت من غرضها أن عالمها كان محدودا فى شطحه ، عميقا فى محتواه ، وقد امتــازت بانسجامها الفكرى بحيث تعدت ـ فى هذا الصدد كلا من تولستوى وروسو ، فأذابت جليد التصور ليس بهجـــوم عاصــــف ، بل بسلسلة من الهجمــــات الحقيقة) ٠

التحليـــــل :

ان اسلوبها وفكاهتها هما اللذان تغلغلا فى النفوس ٠ ثم فهمها لعملها وادراكها لطبيعة الفن ومجال الفنان ٠٠ وليس مجالا أكبر مــن النفس الانسانية بنوازعها المختلفة واعتبار حسناتها وأخطائها على السواء تجارب ذات قيمة ٠

فى قلب كل قصة انسان كما يقول روبرت جورهام دافيز وفى قلب كل قصة من القيــم أو هكذا يجب أن يكون ٠٠ وخاصة حين يفتقــد المجتمع القيم ٠

والملاحظة الدقيقة مهمة فى القصة لأن القيم (تأملات باطنية) كما يقول نيتشه ٠٠ القاص يجب أن يكون من دقة الملاحظة ورهافتها بحيث تلتقط عينه فتات الحياة الذى يمر به الكثيرون دون أن يلحظوه ٠٠

ومن القصص التى توفرت لها القيم قصة جراهام جرين (نهـــاية المسألة) وقصة همنجواى (الشمس تشرق أيضا) فالأولى تدعو الى العودة الى الدين والثانية تستمد عنوانها من سفر (الحكمة) أى من الكتاب المقدس ٠٠ وهى تصوير الضياع الذى يحس به جيل ما بعد الحــرب العالمية الأولى ، ومع هذا فقد وفر لها الكاتب الأمريكى قيما كثيرة وأبطالها مع ما يحسون به من شقاء يدركون الحياة وينفذون الى أعماقها ٠ لــم تستطع المرارة أن تحجب عنهم باريس وجمالها ، أو اسبانيا ومباهجها لقد نفذوا حتى الى المعانى المجردة من ذكاء وشجاعة وغيرها ٠

وقد نشأت القصة مع نشوء الديمقراطية فى القرن التاسع عشر ٠٠

أن يصير القاص حيــاة الآخرين ويسبر أغوارها ويحس مشاعرهم وآلامهم ويطب لها وآمالهم ويبشر بها ، **رؤية ذات قيمة ٠**

الواقعيــــة :

على أن أشخاص القصة ليس معناهم الواقع حرفيا ومجردا بل هم أوسع مجالا من الحياة وأكثر واقعية من الواقع كما قال هاردى ٠٠ لأن القاص يضيف اليهم بعدا جديدا هو تفكيره ورؤينه الخاصة لهم التى فيها من ذات نفسه حتى ليقول فلوبير (أنابوفارى) هذه صناعة الفن ولا فن بلا صنعة (ولكن الصنعة فى الفن هى أيضـــا فن ، وأن قشور الصنعة قد تنال بالتعليم أما روحها فهى روح الفنان ذاته) ٠

ان القصة عالم انسانى شامل بنماذجها وأشـخاصها ونوازعهـــا أو نوازعهم ٠ وكلما تعددت النماذج والنوازع ازدادت القصة شمولا ٠

الصراع :

المخرج والصدق :

للمخرج الفنان والمثقف مهام كثيرة فمنها أنه يجب أن يعـــرض الصدق تحت أضواء مختلفة فالحقيقة نرى من أكثر من زاوية ٠ وخاصة حين تتعلق الحقيقة بالشعب أو بالحياة اليومية له ٠٠ هنا تتعدد وجهات النظر الى حد التضارب والتناقض أحيانا وتبرق أثناء هذا جوانب من النفس وتختفى أخرى ٠٠ ويضىء (الانسان) فى أنماط من السلوك ، ويعتم فى أنماط أخرى ٠٠ وعلى المخرج أن يمسك كل هذه الخيـــوط بمهارة شديدة وذكاء أشد حتى لا ترتبك أو تنقطع ، دون ان يفقد صبره على الخطأ ان لم يكن عطفه عليه ٠

حين يلتقى على أرض الملعب اثنان وعشرون لاعبا ويبدأ الكر والفر والمحاورة والمداورة والصراع ، يشتعل حماس المشاهدين ٠ على المخرج أن ينقل مدل هـــذه الحيــوية والحركة الى ساحة الفيلم باعتباره مساحة الحياة أو مصغرا لها على الأقل ٠ وعلى المخرج أن ينقل الحوار من القدم الى العين والعقل والقلب جميعا فالفيلم الناجح شحنة من الشعور والأفكار ٠ والمخرج فى هذا عليه أن يجيد الاستعانة بما عنده من عنـــاصر بشرية ورسائل تكنية ٠٠ عليه ان يستعين بما عنده هو من ثقافة وتجـــارب ومشاهد ورؤى وسياحات فى المكان والزمان غـــير غافل عن التغـــيرات السريعة التى تحدث للنفس البشرية من يوم الى آخـــر حتى لا يحس

المشاهد أنه يتحدث اليه من بطن الماضي السحيق أو حتى على الأقل من وراء الجدران ٠

وعلى المخرج أن **يتحرى الواقع** ٠

وعلى المخرج ان **يفوف الوافعية بالخيال** لاثراء التجربة بالمثل الأعلى واسعادها بالأمل ، وحفزها الى السعى الموصول لبلوغه أو على الأقـل ، الحلم ، مثل سومرست موم بمدينة الله ٠

هنا يرتفع الفيلم على عامل التسلية أو تزجية الفراغ الى لقاء مشوق بين الانسان ونفسه ، وجد ممتع من وراء الفن ورؤاه ٠

٢ ـ الاخراج والأدب

الاخراج رؤية جديدة وشاملة • يقول سومرست موم محدثا أو متحدثا عن نفسه باعتباره كاتبا : (ان مواهبى الأصيلة ليست ذات شأن ولكنى أملك قوة شخصية ساعدتنى على الاستعاضة عن قصورى لأن فى **حوزتى شعورا عاما** • كثيرون من الناس لا يرون شيئا ، ولكنى أبصر بما هو فى متناول انفى بكل وضوح وجلاء ، أما أعظم الكتاب فيسعهم أن ينظروا الى ما خلف الجدران القرميدية غير ان بصرى ليس حديدا نفاذا الى هذا الحد) •

مرة أخرى يلتقى المخرج مع الكاتب • ان ما وصف به موم نفسه يستطيع المخرج وهو مطمئن ان يصف به نفسه ـ فليس مطلوبا منه أكثر من هذا •• ليس مطلوبا منه الا آن يرى الذى امامه بوضوح وجلاء وليس هذا بالهين فما أحوجنا الى فلسفة كبيرة لنلاحظ ما نراه كل يوم• والفن كما يقول « موم » ، شىء شخصى فريد • وهنا لا يسعنا احلال كاتب محل الآخر حتى بمن يقاربه •

ويرى النقاد أن القضية الفنية الصحيحة **تختار بطلها رجلا عاديا** ممن أهملتهم صحائف التاريخ ووثائقه اذ ليست القصة بحاجة الى الرجوع الى الماضى لانتقاء أبطالها من بين أبطال التاريخ وأولى بها أن تقصد الى تصوير هؤلاء الناس الذين نعيش بينهم • أضف الى ذلك أن معرفة الدقائق التى أحاطت بحياة البطل التاريخى متعذرة أو مستحيلة •

ويشترط نقاد القصة أن تكون (**وحدة فنية**) فيبرز الكاتب الفكرة الاساسية بروزا كاملا ، كما يطالبونه أن يكون لبقا مع قارئه فيفصح له مرة ويستسر عليه أخرى فى غير ابهام حتى يستثير شوقه ليتعرف بنفسه على الخافى ويستعلن المضمر وهذا هو ما يسمونه **عنصر التشويق** • وحذار أن ينصب من نفسه خطيب منبر يعظ ويعد • ان الرمز واللمس الناعم أبعث للنفس على التأسى من الغمز الصريح والأمر الجهير •

كما أن بناء القصة يشترط فيه أن يكون **وحدة** فان نسجها كذلك يتحتم عليه هذا الشرط بحيث يصور كالبناء ، حدثا متكاملا له وحدة مستعينا بما فيه من لغة ووصف وحوار وسرد فى خدمة هذا الحديث وتطويره بحيث يصبح كالكائن الحي له شخصية مستقلة يمكن التعرف

عليها . والنقاد يسمون هذه النقطة (لحظة التنوير) أى عندها يكتسب الحدث معناه المحدد الذى يريد الكاتب الابانة عنه اذن يجب أن يتوفر للقصة :

- الوحدة الفنية ·
- الواقعية ·
- التشويق ·
- تطور الشخصيات ·
- التحليل ·
- أن يكون البطل رجلا عاديا ·
- الصراع ·

الصراع :

الواقع أن جوهر الرواية الجيدة هو (الصراع) وقد استطاع الكتاب الشعبيون فى انجلترا أن يثبتوا أن الجنس والحب ليسا هما الصورة الوحيدة من صور الصراع التى تتخذ مادة للقصة بل ثمة فى المجتمع من عوامل الصراع ودواعيه ما يمكن الكاتب من انشاء قصة ·

المخرج بين الحرية والالتزام :

فى تناولنا المنتج كفنان نواجه السؤال التقليدى : هل ، يلتزم ، فنانا بقضايا مجتمعه ؟ أم التزامه لفنه فقط فاذا بلغ الاجادة فيه لم يعد مطالبا بشىء ·

فالفنون بعامة فيها من القيم ما يفوق كل ما تعلمه المدرسة بين جدرانها من فلسفات وليس المقصود بهذا الناحية التعليمية للفنون ·

فالفنون ليست دروسا تلقن كما أنها لذة ومتعة ، كما أنها ليست كما يقول هوبرت سبنسر للتنفير ·

التزام الفنان :

تتصارع حوله ككل شىء ، الآراء بين مؤيد ومعارض · فرأى يعطى الفن حرية مطلقة فى التعبير عن نفسه دون قيود أو حدود ·

ورأى يحتم التزام الفنان بقضايا المجتمع الذى يعيش فيه وغالبا ما يقصد هؤلاء القضايا السياسية وبين هذين يدعو قوم الى موقف وسط ·

فالفن بدون شروط من طبيعته اسعاد الناس وتحريرهم من مرارة الواقع الى سموات الابداع الفنى وما فى هذا من تعزيز ثقتهم بأنفسهم بما يؤكد من قدرة الانسان على العطاء ٠

الفن بطبيعته بما فيه من تقنين ودقة ورقة عدل وانصاف فهو يأبى الظلم ويحرر المظلومين ٠

لابد للمخرج أن ينتقى ما يخرجه فانه شريك فيما ينجم عن الرواية من أضرار اذا كانت سقيمة فجة كما أنه له دور محسوب اذا كانت الرواية ذات قيمة فنية واجتماعية ٠

ان الأفلام السينمائية بما يحتشد فيها من فنون ووسائل تأثير ، لها رد فعل عميق فى التكييف العقلى لجمهور المشاهدين ٠

ومع هذا فليس للمجتمع أن يملى على الفنان رأيا بعينه أو موقعا بعينه ٠ ان الفنان يملك رؤية سابقة ، ورهافة احساس تجعله أكثر تقديرا وأصدق حسا وأعمق وعيا بما يحتاجه مجتمعه ٠ وفى حسابه دائما أن القيم تتغير ويتغير النظر اليها بتغير المجتمع ٠٠ وهنا يكون الفنان أصدق حكما وأبعد نظرا ٠٠٠

كثيرا ما تكون الفنون ارهاصا للمستقبل ٠ وكم أدت الفنون ببصيرتها للانسان والحضارات ٠٠ على الفنون يقع عبء المواجهة فالمجتمعات عادة تعفى نفسها من التعبير اللازم لها بالهروب من المشكلة أو الصمت عليها ٠٠ انها تفضل (جنة المغفلين) كما يقولون ٠

وهنا نفهم السر فى مهاجمة (ابسن) على روايته (الأشباح) انها تعادى الرذيلة لا تعرضها فحسب ٠

ان برنارد شو فى مسرحينه المشهورة (مهنة مسز وارين) كان يحارب البغاء ٠

كما قال فلوبير وبلزاك وجيمس وويلز وغيرهم ٠

ليس للمجتمع أن يلزم الفنان بشيء ولكن ليس للفنان أن يعتزل

المجتمع فى برجه العاجى فهو قلبه الخافق ووتره الحساس وهو المنارة فى ظلام المحيط وهو من تلقاء نفسه محاميه فى قضاياه العادلة ٠

الفنـان المقصود هنـا هو الكاتب وهو المخرج باعتبارهما أقرب الفنانين الى المجتمع والى التأثير عليه ٠

وعلى المجتمع العربى فى شتى أقطاره أن يعى هذا جيدا فلا يحجر على الفنان ولا يلزمه بشىء ٠ عليه أن يفهم عنه جيدا ما يقول فهو ينطق بلسانه ويعبر عن ضميره ٠

القصة عند الدكتور يوسف ادريس (*)

أظهر ما فيها « الأعماق » التى نفذ اليهـا الكاتب ·· « التغلغل » النفاذ ·· لقد تغلغل الكاتب فى قصته (العيب) فى عالم الرجال ·· فى عالم النساء ·· فى عالم المصالح الحكومية كما تغلغل فى قصته (الحرام) فى الريف··وبحكم هذا التغلغل حلل كليهما يعينه ما بين يديه من حشد التفاصيل ·· فمثلا قصة (العيب) تجلو ثلاثة قطاعات كبيرة جلاء يكشف عن حقيقتها كشفا سافرا بلا زيف (ولا رتوش) فعالم الرجال تختلف فيه المقاييس وفقا لضروب المنافع ·· عالم تحكمه مبادىء مختلفة ·· ومن الغريب أنها متناقضـــة ·· ولا بأس من هذا التناقض فى نظرهم فكل مبدأ دوسه ·· الرجل عنـده (الشرف فى بيته غير الشرف فى عمله والحرام فى الليل غير الحرام فى النهار ·· والفضيلة ماتمنعش الرذيلة كله موجود مع بعض فى حالة تعايش سلمى) (١) ·

وكأن المؤلف يتوقع من يستنكر هذا الرأى منه فمضى يضرب الأمثال وكأنه يعزز رأيه فالوزير الذى يقبل الدعوة ليلا وهو يعرف أنها ثمن توقيعه غداة الوليمة يخـدع نفســه بما يستحدثه من مبررات تســوغ موافقته بل تحتمها لأفضلية صاحبها على الآخرين وأحقيته بها ·

ويمضى المؤلف فى سخريته من أفضلية الرجال المزعومة الى أقصى مداه وأقسى المدى أيضا حين يقارن بينهم وبين المرأة (النساء أو الستات شخصياتهن متماسكة مترابطة ككتلة واحدة تضم قيمهن جميعا ، وكلها قيم متحدة واحدة الحرام فيها حرام تحت مختلف الظروف والأحوال ، والحلال أيضا واحد ، والعيب فى العمل مثله العيب فى الشرف ، وما يعيب

(*) اكتب الآن دراسة جامعة عن اديبنا نجيب محفوظ فى الجزء الثانى من كتابى (قمم ادبية) ·

(١) ص ٨٢ ·

فى البيت يعيب أيضا فى المصلحة كتلة مترابطة واحدة فرق كبير بينها وبين قيم الرجال الموزعة على أدراج دوسيهات بحيث يحيا الرجل صادقا بأكثر من مقياس وأكبر من شرف وأكثر من حلال أو حرام ، ويستدعى اذا اضطرته الحاجة المقباس الذى يناسبها ٠٠ أبدا ليس مثل الرجل الذى باستطاعته ان يفقد احدى قيمه دون أن يؤثر هذا على غيرها من القيم ٠ باستطاعته أن يكون زير نســـاء ولكنه فى نفس الوقت نجـده صادقا وشجاعا وأمينا بل ربما تجده شاعرا) (١) أى سخرية ٠٠

ولهذا علمت الأيام والتجارب ، « عبادة بك » « صائد الذمم » ، أن المرأة أشد حفاظا من الرجل وأقوى منه استمساكا بالمبادىء ٠٠ أن المرأة عصية على الشراء ٠٠ بل ان المرة الوحيـدة التى باءت مساعيـه الملتوية بالفشل كانت أمام احدى الموظفات الكبيرات ٠

ومن خلال صورة (الجندى) بشخصيته المنحلة ونزواته الطائشة وثوراته النزقة ، وصف الكاتب الرجال بأنهم أجرأ اقتحاما وأشد حدة وأكثـر قدرة على التحطيم والتخـريب ٠٠ انهـــم أقسى ضراوة ٠٠ وأعنف ثورة ٠٠

وبعد تحليل مستقصى لنفسية الرجل ونفسية المرأة ومقارنة طويلة بينهما أعلن الكاتب ، الحكم ففى مجلس ضم بضع فتيات مثقفات وموظفات ودار الحديث حول الرجال وسرعان ما صدرت الأحكام بالادانة ناقمة على حقيقتهم المتشكلة ومبادئهم المتذبذبة المطاطة التى تختل معها المقاييس وتضل القيم ٠٠ والتقت آراؤهن عند كلمة واحدة ٠٠ (هؤلاء الرجال وان كانوا أكثر منهن خبرة وقدرة الا أنهم أكثر منهن قذارة أيضـــا وأنهن بعالمهن قد يكن أكثر تخلفا وضيق أفق الا أنهن أكثر نظافة) ص ٨٣ ٠

أما عالم النساء فقد بدأ الكاتب تصويره منذ البداية ٠٠ الشباب الأخضر أو العمر الأبيض الذى تلون دنياه أحلام السذاجة الأولى ٠٠ أحلام كتلك التى تملأ رأس سناء ٠

أحلام تستكثر من الملابس الأنيقة الجميلة وتغدق المال بلا حساب ٠٠ أحلام تكيفها حاجة صاحبتهـــا الحاضرة فاذا كان الجوانتى ضرورة بالنهار استقرت الرغبة الملحة فى العقل الباطن حتى تأوى صاحبتها الى فراشها فتطفو وتأخذ شكل الحلم الوردى الذى يلعب فيه خاتم علاء الدين دورا كبيرا فيجوس محال الأزياء ويصطفى ويختـــار ثم يضع بين يديها ما تشتهى ويقف منتظرا صدور أوامر أخرى ٠٠ وأحلام العذارى دائما

---

(١) ص ١٢٠ ٠

طيعة ذكية تحقق الرغبات فى استسلام عبد تلك الأساطير الذى يردد دائما : شبيك لبيك عبدك بين يديك ٠

وعالم البنات هذا الغرير لايخلو من هنـات تنزل أحيانا الى درك الأخطاء تمثله سناء ذات الوجه المصرى الأسمر الجذاب القسمات لاتخلو حياتها رغم أدبها الظاهر من (تجارب) تخوضها فى حذر وتكتم وكيانها يضج بالنوازع والرغبات واللهفة العارمة ٠

ويمضى الكاتب مع البطلة فى عملية تعرية لخجل الفتيات فسناء رغم نوبات القشعريرة التى تعلوها كلما تذكرت غريمها ، لاتنكر ولا تستطيع، ان شيئا فيها قد استجاب ووافق وارتعش لتلك التجربة الأولى « وأدهى من هذا أنها فى داخلها تحس احساسا خفيا مزعجا ٠٠ انها تتمنى ان تعود التجربة كما هى تماما بشرط ان يتغير البطل وأن تكون التجربة الجديدة عنوة أيضا واغتصابا أى بغير ارادة منها فى الظاهر وان كانت متقبلة مقدما ٠

وان كنت أرى فى هذه التعرية ، بقية من التزام ٠٠ فالعمل أو الشعور على غريزته ما زال يستمسك بالحياء الذى يتمنى معه أن يحدث (عنوة واغتصابا) لتنجو من حساب الضمير ٠

المرة الوحيدة التى قسا فيها المؤلف على المرأة ٠٠ هوى على رأسها فجأة بالبلطة كانت فى الصفحة الأخيرة ٠٠ فى السطور الأخيرة حين ألقى بسناء فى قرار الهاوية ، وقسوته تأتى من أنه يتـدرج بهـا فى طريق الرذيلة ٠٠ لم يحطها بسطوة الاغراء والاجتراء من الغير ليجعل لها بعض العذر ٠٠ لم يجعل العرض والاجتذاب من جانب الرجل بل جعلها هى — أشد ما يكون قسوة — التى نعرض نفسها كالمحترقة حتى على من تنفر منه ٠٠حقا انه مهد لهذا بتحليله لنفسية المرأة التى لا تعرف الا أمرا واحدا اما الحلال واما الحرام ، وفتحه ثغرة كبيرة بقبولها الرشوة ولكنه أجهز عليها بسرعة لعلهـــا هى التى جعلتنى أتهيب قراءة الصفحات الأخيرة عندما وصلت اليها فى قراءة القصه ٠

ولعل هذه النتيجة تفسر « صعوبة » بيع النســاء ذممهن ٠٠ لأن الخطأ هنا لايتوقف عند هذا الحد بل يتجاوزه الى ما هو أخطر ٠٠ ان الدمار سيشمل ذاتها ووجودها المعنوى كله اذ الحرام عندها كما يقول المؤلف حرام تحت مختلف الظروف والأحوال ٠٠ والعيب فى العمل مثله مثل العيب فى الشرف ٠٠ فمن تقبل الدنية فى عملها ما أيسر أن تزل بها القدم وان كانت قبلا عصية على الغواية والزلل ٠٠

ومؤلف قصة (العيب) ناقد اجتماعى فقد نقد التربيـة المتسلطة المستبدة حين جعل (الجندى) ثمرة لها ذلك المخلوق الذى كان (طوال عمره ومنذ أن كف أبوه عن ضربه وعقابه وصب الأوامر والنصائح كالزيت المغلى فوق رأسه منذ مات كأنما عاهد نفسه بعدها ألا يستمع لنصيحة أحد سواء أكان مخطئا أم مصيبا وسواء أكانت النصيحة من عاقل أم أحمق ، بل لقد جعل شعاره بوعى منه وبغير وعى ان يخالف كل ما يقال له من نصائح وهوايتـه الكبرى ان يعصى القوانين ٠٠ ان القانون يظل عدوه اللدود الى ان ينجح فى خرقه ، والتعليمات تظل عبئا لا يطاق الى ان ينجح فى العثور على وسيلة يستطيع ان يتحايل بها عليها ٠٠ وليست فقط القوانين واللوائح المكتوبة ، أكثر من هذا وأبعد ، كل ما يأخذ شكل القانون اذا تصادف ووجد الرخام أو القيشانى فى أية دورةمياه يدخلها لامعا نظيفا أنيقا لايستريح الا اذا أخرج قلمه الكوبيا وخطط وشخبط حتى يشوه من المنظر ، اذا جلس على مقعد عربة الأتوبيس سرعان ما يخرج سلسلة مفاتيحه وبها المطواة الصغيرة ذات السلاح الحاد الذى يفتحه ويعمله فى جلد الكرسى وفى تخف شديد ، يقطعه حتى يطل القطن ، وفى بوية الجوانب حتى يظهر معدنها ٠ واذا أردته أن يكرهك كره العمى أنصـحه نصيحة أو أنقده نقدا) (١) ٠

والكاتب يسـخر ، وهو الطبيب ذو النزعة العملية بالطبع من أطباء النفس ٠٠ « فسناء » حين يطبق عليها زوج خالتها بذراعيه لم تتكون لها عادة فقد سـارت بها الحياة سـيرا طبيعيا فلا هى تخاف الرجال ولا هى تتهافت عليهم كما يحتم علماء النفس أحد النقيضين فى مثل هذه الحالة ناسين أو متناسين عاملا هاما له خطره وهو « الزمن » ٠

وسخريته غير الفكاهة وغير التندر ٠٠ انها سخرية جادة قد يضحك القارىء من لفتة أو لفظة أو معنى ولكن المؤلف لايضحك٠٠ان وراء سخريته رغبة فى عملية كبيرة ٠٠ عملية هز المجتمع أو النواحى الراكدة فيه مادية كانت أو عقلية ٠٠

وقد وقف الدكتور يوسف ادريس عند النظرة القديمة الى المرأة ٠٠ وقف عند عالم الحريم ٠٠ الذى كان ينظر اليه الرجل نظرته الى مقتنياته الخاصة ٠٠ نظرة السيد الى المسود والمتبوع الى التابع ٠٠ عالم المرأة فيه متعة ، عالم تعيش فيه المرأة بجسمها حتى اذا عجز هذا الجسم عن قضاء

---

(١) ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ٠

الأوطار ضمت صاحبته الى قائمة المخلفات وحلت أخرى محلها ‥ بالجسم أيضا فلا الأولى ولا الأخيرة تشارك فى رأى أو تقضى فى أمر أو تحمل مسئولية ‥ وهذه السلبية أزرت بها وهونت من شأنها ‥ فأصبحت بالنسبة الى الرجل (ثانية) لاتتساوى معه وبالطبع لاتتقدم عليه ‥ هو المتقدم دائما ‥ له كل الاحترام ‥ وله كل الحقوق وله كل شىء وهى بعض هذا الكل الذى استولى عليه ‥

ومن هنا أصبح عمل المرأة له خطره فالمصلحة أو العمل هى (الأرض المحايدة ـ حيث لاتسرى قوانين البيت والمجتمع ، حيث لاتسرى قوانين الأخلاق ، حيث القانون الوحيد المطاع هو قانون العمل حيث الخطيئة الكبرى لمن لا يعمل) ·

وهنا استوقفتنى هذه العبارة :

ـ اهو احنا دلوقتى لا احنا ستات على ناحية ولا رجاله على ناحية زى مانكون عملنا جنس تالت) (١) ·

تسمية كنت أبحث عنها فى نفسى ‥ ليست للمرأة العاملة النظرة الكاملة التى للرجل والتى اكتسبها على الزمن باعتباره كاسبا أو كما يقول الدكتور يوسف ادريس باعتبار الرجال أصحاب عالم المسئولية وأكل العيش العالم الذى أقاموه واحتكروه واحتفظوا بمفاتيح أسراره · العالم الذى تكفل بصبهم فى قوالبه وتكوين أمزجتهم وصنع هياكل شخصياتهم وقيمهم) (٢) · وأنا أضيف : وصنع هيلمانهم · ليس للمرأة العاملة هذه النظرة الكاملة وليست لها راحة المرأة العاطلة ‥ امرأة البيت أو ست البيت ، جنس ثالث كما يقول ‥ ولكن الى حين ‥

والمؤلف يؤمن بالانسان الذى قد يختفى وراء حيوانية ظاهرة كما رأينا الجندى ‥ ولكن هذا الجندى نفسه تيقظ الانسان الغائب فيه وان كان كامنا فى أعماقه ، وكاد يستجيب لقيم الخير والطهر المتمثلة فى سناء الى ماقبل ترديها ‥

والدكتور يوسف ادريس من أقدر قصاصينا على (شد) القارىء اليه ، على جذبه ، فالخيط فى يده كالزمام يتحكم فيه قادر مسيطر ‥ هذا الخيط ، الذى كثيرا ما يفلت من أيد كثيرة أو يتميع ، متماسك طول الوقت ‥ مطرد فى يد يوسف ادريس ‥ هنا الحبكة التى يتحدث

---

(١) ص ٧٩ ·　　(٢) ص ٨١ ·

عنها النقاد ويشترطونها ، يوفرها يوسف ادريس بلا تعمل أو صنعة ٠٠ انها عنده احدى مواهب الطبع والخلق ٠٠

وهو يخلع أهمية على الحدث ينظمه مع أحداث أخرى ٠ فكي تحس خطورة تعيين البطلة فى المصلحة يقرنه لك الكاتب بأحـداث عامة ٠٠ أى لاتنسى ٠٠

(ثلاث مرات فى تاريخ المصلحة ازدحمت مثل هذا الازدحام ، يوم توفى سعد زغلول ونعاه الناعى ، ويوم طرد الملك ، واليوم الذى عينت فيه سناء ٠٠) ٠

واذا كنا عند الحديث عن فن الصورة عند الأسـتاذ يحيى حقى ، قد أشرنا الى تخديمه المطابقة بالصورة لرسم الشخصية المراد رسـمها فاننا هنا نذكر أن الدكتور يوسف ادريس ، المفارقات عنده غير مقصودة فسناء البطلة عاش بها فترات بيضاء طاهرة كشعاع من نور يحيط به الظلام من كل ناحية فيزيد تألقه ألقا ، ويزيد تعلق الأمل به تشبثا ويزيد العزاء فيه رضا وتعويضا ٠٠ ولكن المفارقة هنـا طبيعية ٠٠ هكذا الناس فى الحياة يتفاوتون٠٠ليست مفارقة متقابلة صريحة كما هو الحال عند الأستاذ يحيى حقى الذى يرسم صورة لبائسة فيجمعها تحت سقف واحد مع ثرية واسعة الثراء ويجعل الشفية تقف حين تجلس الغنية متكئة فى كرسى وثير لا جالسة فقط ٠٠ الخ المتوازيات عند يحيى حقى ٠٠

والدكتور يوسف ادريس يركز أحيانا على القسمات المادية وأحيانا على القسمات المعنوية للشخصية المرسومة وكثيرا ما يخدم أحد الجانبين ، الآخر ، ويؤصل له ٠٠ وللمؤلف فى هذا المجال ألفاظ خاصة كأنها ولدت لساعتها فى اللغة وأخرى مقصودة فالسيدة العاطلة التافهة التى تبلد الشحم فى مواضع كثيرة من مساحة جسمها الواسعة يجعلها تغطى عقمها العقلى والمعنوى بكلام تلوكه فى نصاعة وهى تجلس واضعة (فخذا فوق فخـذ) ٠

وأعتقد أن المؤلف يقصد هذا التعبير مكان ، مثلا ، (رجلا على رجل) حيث التعبير الأول فيه شـحم ولحم وبدائية حتى يمهد (تخن الجسم لتخن العقل الذى أراده المؤلف بصاحبة هذه الصورة ٠٠ وهى على كل حال من الصور الاجتماعية أعنى أنها تعيش فى مجتمعنا لا بين النسـاء فحسب بل بين الرجال أيضا ٠٠ بينما من تجلس واضعة فخذا على فخذ تتحدث عن كل ما هو « عيب » بانطلاق زائد وكأنما هى العالم المتبحر يطرق موضوعه المفضل ، نجد السيدة الغريبة التي استنكرت حين سألتها

ان كانت تشتغل مجرد السؤال باعتبار أن العمل « عيب » لا يليق بالسيدة الفاضلة أن تترك بيتهـا لأجـل أن تزاوله ، السيدة التى تفخر بأنها « ربة البيت » وتلتقط مواقف العيب لتخوض فيها وتتوسع معتقدة انهن ما دمن يرتكبن العيب الأكبر ويعملن فلم يمانعن فى مزاولة العيوب الصغرى مثل الحديث عن العيب والنكات والقفشات العيب) (١) ٠

وتقابل هذه الصورة صور لألوان من العاملات عند المؤلف ٠٠

والدكتور يوسف ادريس بارع فى اعطـــاء المعانى ذات الدلالات الخطيرة فى عرض الحديث وكأنه لا يعنيه الا الأذكياء وحدهم (الحدقين) ٠٠ فقد يعطيك تحديد ماركة السيارة مضامين كثيرة ٠٠ مثلا ٠٠

والآن ننتقل الى الاسلوب ولست أدرى لماذا تحضرنى فى وصف أسلوب الرجل صفة (الطزاجة) ٠٠ أسلوب الدكتور يوسف ادريس أسلوب « طازج » ٠٠ اسلوب برىء براءة تامة من الكليشيهات المحفوظة فى الأدب العربى ٠٠ فهو من هذه الناحيـــة فى مثل نظافة الصينى والكريستال على حد تعبير المؤلف ٠٠ وهذه الطزاجة تشمل عنده كل شيء الألفاظ والتشبيهات والنظرة الى الناس والقيم والأشياء ٠٠ ولأسلوبه بمقوماته كلها خاصة الاثارة واللفت (ولم تكن استحالة التصور تحيزا ضد المرأة ولكنها استحالة أن يعتقد أحدهم أو يهضم أن تستطيع فتاة أو سيدة ما ، فى الوجود أن تجد لها داخل هذه المؤسسة الرجالية الخالصة تماما مكانا كما لاتستطيع أن تتصور أن توجد فتاة أو سيدة فى جناح الملابس الداخلية الخاصة بالرجال مثلا ، فهنا مكان رجالى مزدحم لا بحكم اللوائح ولكن بحكم الكتلة ونوع الكتلة وكتلة الكتلة تمـاما كمـا لاتستطيع أن تتصور وجود لوزة سوداء مع لوز القطن الأبيض أو وجود رجل أى رجل فى مكان خاص بالسيدات مهما كان السبب فى تجمعهن وحتى لو كان سببا لا يمت الى الجنسين بصلة) (٢) ٠

والخطوط عنـده محددة كالحفر ٠٠ ومن أوصافه مثـلا (سيخى النظرات) ومن قوله (مس مـرآه هكذا شعور سناء مسـا سريعا حاسما داميا كقطع المشرط) (٣) وهنا تغلب عليه مهنته الأولى مهنـــة الطبيب الذى يعرف عمل المشرط ٠

---

(١) ص ٧٨ ٠ (٢) ص ٦ ٠
(٣) ص ٩٠ ٠

ومن تعبيراته العميقة (أيام لا تستطيع حصرها ، لا لكثرتها أو لقلتها ولكن لأنها كانت مجرد يوم واحد متصل طويل) (١) ٠

وقريب من هذا وصفه للبطلة فى محنة الضمير : (قد يكون ألف خاطر وخاطر قد دار فى عقل سناء ، وقد يكون الأمر وكأن خاطرا واحدا لم يدر فالدوران السريع يبدو كالثبات المقيم) (٢) لغة محددة حازمة ٠٠

ومن طرائفه فى التعبير قوله (ليلة الوظيفة) على وزن (ليلة الدخلة) وهذا التداخل اللفظى من عندى صدى للتداخل المعنوى عند الكاتب عندما دق قلب البطلة (وكأنها ستزف الى العمل مثلا) (٣) ٠

أو قوله (الصديقات اللدودات) (٤) ٠

أو قوله (ضحك فى فشله التام للتعبير عن المرح تكاد تضحك عليه) (٥) ٠

أو قوله (« غسيل مخ ») (٦) ٠

ومن ألفاظه الخاصة الجديدة « جهاز رادارها الانثوى » ، « الدموع الداخلية » ، « عقل بناتى » ، « تمكتبت » ولعل الأفضل أن أسجل الجمل كاملة حتى تتبين اللفظة على النحو الذى أراده لها الكاتب :

(لم يكن جهاز رادارها الانثوى ينقل اليها أية نوايا ذكرية خافية » (٧) ٠

تعبير محكم عن طبيعة حساسية المرأة ٠

(الدموع الداخلية غير المرئية التى لاتنى عن سكبها فى المصلحة

والدموع الظاهرة التى تتفجر بارادتها فى البيت) (٨) ٠

(عقلها الذى كان لا يزال بناتيا حالما فى آرائه) (٩) ٠

تعبير لطيف ربما لأنه يذكرنا بالعنب البناتى أو الزبيب البناتى ٠

(وهجم الثلاثة داخلين فى كتلة مندفعة ذات ثلاثة أحجام مختلفة مالبثت ان انقسمت وتمكتبت ٠٠) (١٠) ٠

---

(١) ص ٧٢ ٠
(٢) ص ١١٦ ٠
(٣) ص ٩ ٠
(٤) ص ٧٦ ٠
(٥) ص ٧٦ ٠
(٦) ص ١٢٠ ٠
(٧) ص ٢٥ ٠
(٨) ص ٢٤ ٠
(٩) ص ٢٥ ٠
(١٠) ص ١٨ ٠

والدكتور يوسف ادريس يخدم « **التكرار** » فى الابانة والتعبير ·· ويخدم **العدد** (كان الزمن على عكس عادته ، يمضى بسرعة خارقة فما أسرع ما أصبحت الساعة العاشرة والنصف مضت ألف وثمانمائة ثانية دون ان يجد جديد ··) (١) هنا ترسم عملية تفتيت الدقائق بطء الوقت وثقله ·

وهو يخدم شيئا آخر ، **الخطوط** (سناء من بين الخمس فتيات اللاتى عين كدفعة أولى وخطان تحت أولى هذه ··) (٢) ·

و « العامية » عند الدكتور يوسف ادريس تأخذ مكانها الطبيعى فى الجملة فى راحة تامة بلا افتعال أو اقحام فمثلا يقول (ألقى السؤال سائقا العبط على الهبالة) (٣) أو قبل ذلك حين يقول (الضجة لم تحدث الا حين ذهبوا الى عملهم ذات يوم كالمعتاد لا بهم ولا عليهم فوجدوا فى أكثر من حجرة من حجرات المصلحة فتيات) (٤) ·

وأحيانا يأتى بمترادفين فصيحين كدفاع مقنع عن استعماله العامية · انه استعمال القدرة لا العجز ·· تجد عنده مثلا (طال أمد انصاتة واصغائه) (٥) وفى نفس الصفحة يقول (الصح) فى مكان الصواب ·

ان المسألة أكبر من أن تكون مسألة ألفاظ أمام كاتب فنان يرسم صورا للمجتمع الذى يعيش فيه ·· صورا تحمل معنى الدعوة الى الاصلاح دون أن تلقى خطبة منبرية ، كاتب يكتب فى ثقة ·· ثقة كبيرة تسهم فى عمليات خلق كبيرة أسهمت من قبل مع شجاعة باهرة وارادة قادرة وايمان بالفن راسخ فى الفرار الكبير وهو تضحية الطب على جلال خطره ، من أجل الأدب الذى تفرغ له خالصا الدكتور يوسف ادريس منتقلا من مقعد الطبيب الى مقعد الأديب ·

---

(١) ص ٩١ ·
(٢) ص ٧ ·
(٣) ص ٥٥ ·
(٤) ص ٦ ·
(٥) ص ١٠٣ ·

كتاب (اكتشاف قارة)

الكتاب ألفه الدكتور يوسف ادريس ٠٠ والقارة التى يعنيها الكاتب هى قارة آسيا التى تشرق فيها الشمس قبل شروقها فى القاهرة بربع يوم على الأقل ويسكنها أكثر من نصف عدد سكان الكرة الأرضية ٠

والكاتب فى رحلته كان باطنه يعيش فى مأزق الانسان المصرى ٠٠ وفى مثل هذه المآزق التى يضعنا فيها التاريخ كما يقول (يستحسن ان ننفتح على العالم كى نطفو وننجو ٠٠ ننفتح لكى نرى غيرنا ويرانا الغير ٠ ننفتح لكى نتعلم ، وما أروع أن نتعلم من آرقى مثل ٠٠ وفى طوافى ببلاد الناس لم أجد خيرا من الانسان الآسيوى زميلا فى المآزق ، نتطلع اليه ونقترب منه ، ونتعلم ٠٠) ٠

والمؤلف يرى أن مشاكل العالم كلها لن تحدد الا فى آسيا ٠٠ بل حتى قضية كقضية فلسطين ووجود كالوجود الاسرائيلى اذا كان اليـوم أمره مرهون بارادة أمريكا وما بينها وبين الاتحـاد السوفيتى من صراع حوله ، واذا كان الشد والجذب بيننا وبين اسرائيل هنا ، فان الحـل النهائى للقضية أيضا هناك فى آسيا ٠

ويرى المؤلف أن الحضارة الأوربية انتهت بالحرب العالمية الثانية وتجمدت ، لقد توقفت لتبدأ حضارة أمريكا ٠٠ ليست حضارة فلسفات هذه المرة أو مبادىء أو عقائد أو أديان ، ليست ثورة على حضارة أوربا حتما ، انما هى فى الحقيقة أغرب حضارة فى التاريخ ٠٠ حضارة تكاد تكون مضحكة ، حلفاؤها الرجعيـة فى كل شىء وفى كل ميـدان : فى الاقتصاد ، فى الدين ، فى الخلق ، فى الفن ، فى كافة أوجه الحياة ٠٠ أما وسيلتها فهى التكنولوجيا أو بالضبط علم أوربا مسخرا لا لمصلحة البشرية وانما لخلق جيش آلى منظم ودقيق ومطيع يعمل ضد الحياة وضد الانسان ٠٠ جيش هائل الضخامة أما أوربا فبعد اعتزالها كرسى العرش تحولت الى مزرعة لتربيـــة العلماء والمتخصصين الذين يشتريهم بعد هذا ، سادة أمريكا كما كان يشترى المماليك والعبيد ٠٠ بالذكاء والعلم البشرى يمتص من أوربا وأفلاك توابعها ٠٠ يجمع ٠٠ ويجنـد ويركز لاسـتغلاله وضـمان السيطرة عليه واستقطار كل ذرة قدرة على الخلق والتفكير والابداع ، لديه نظام عبقرى الذكاء بحيث يضمن سادة أمريكا فى قبضتهم جيشا من العلماء المماليك بمثابة مصنع التكنولوجيا الثقيل ، اذ بوساطته تنتج الآلات ، وبوساطته تتطور ليتحقق شيئا فشيئا ذلك

الحام الدموى الذى يراود سادة أمريكا القياصرة الجدد ، حام أن يملكوا العالم ويحكموه بعلم مجرم سفاح لا يكلف ادارنه وتسييره الا مجرد ضغطة على زر بأصبع ٠

ومع هذا كله لم تنتصر آمريكا فى فيتنام لأنها تواجه فى الحقيقة حضارة أرقى ، ولأنها الأرقى فهى الأقوى ، وهى التى سيكتب لها النصر ٠ المعركة فى فيتنام وغيرها معركة حضارية ، ولا علاقة بين الحضارة والثياب التى ترتديها ، فان تكن الامريكية ترتدى افخر الثياب والآسيوية أحقرها فليس معنى هذا أن الحضارة الأمريكية هى الأرقى ٠ فالانسان الفيتنامى هو الأقوى لأنه الأكثر تحضرا ولأن حضـــارته من نوع غـــريب لم تعرفه أمريكا ولا عرفه عالمنا ، حضارة جديدة لأنها قديمة جدا ، وخطيرة لأنها عريقة تأصلت جذورها فى الانسان من قديم الزمان ٠

وفى الكتاب حديث ممتع عن الدين والفن والكتابة والكتاب ، ففى دور الكتب آلاف الكتب ، كم رهيب من الكلمات ٠٠ غابات الكلمات ٠٠ رمال الكلمات وصخورها ٠٠ معظمها نشر وذاع وانتهى دون أن يخلف أثرا أو يغير شيئا فى الانسان ٠ ٠ان الذى غير فعلا ٠٠ الذى حول مجرى حياة البشر ليس سوى عدد محدود جدا من الكتب كمجموعة قليلة من الكائنات الانسانية التائهة فى غابات الكلمات واحراشها ٠٠

وفى الكتاب دروس من اليابان دروس وعاها الكـــاتب ودروس للقارىء ٠٠٠ للتأمل والاهتداء والاقتداء ٠

ان الصدفة والتلقائية لا تلعب أى دور فى حياه الفرد اليابانى ٠ صحيح قد تضيع كل تدبيراته نتيجة امر لادخل له فيه ولكنه هو عليه أن يدبر ٠

والدرس الآخر « نفاسة الوقت » ٠ سائق التاكسى هناك يضـــع الساعة أمامه فوق (تاباوه العربة ٠ ٠التليفزيون ، خاصة فى الصباح يكتب لك الوقت بالثانية فى زاوية شاشة العرض حتى لاتنسى نفسك وأنت تتفرج ٠٠ ان المحـــافظة على الزمن هى المحـــافظة على ثروه لا تراها العين)

وقد لاحظ الكاتب أن آخر من يستهلك الصناعات اليابانية هم اليابانيون أنفسهم ٠٠ ان عدد من يملكون سيارات أقل من مثيله فى أى بلد آخر ، كذلك الكاميرات والريكوردارات ٠٠٠

ان الفرق بيننا وبينهم كما يقول الدكتور يوسف ادريس أنهم ناس طموحهم الأكبر أن ينتجوا السيارة من لاشىء لا أن يمتلكوها بينمـــا نحن

طموحنا الأول أن نمتلك السيارة وبالذات حبذا لو كانت من انتاج غيرنا ٠

والصناعة أولا وأخيرا انسان

والانسان أولا وأخيرا موقف من الحياة

وموقف الانسان الآسيوى ـ بشكل عام ـ من الحياة موقف جاد ٠

وكارثتنا الحقيقية أن موقف انساننا من الحياة موقف هازل ٠

وفى الكتاب قصة منيرة ، ففى لندن ، ذات يوم ، ناقش الدكتور يوسف ادريس اخصائيا كبيرا فى اختبارات الذكاء بمستشفى (هامر سميث) حيث كان طفل مصرى يفحص من اصابة ، وحين أجريت عليه اختبارات الذكاء كانت نسبة درجاته أعلى بكثير من المعتاد فى هذه السن وحسب الطفل نابغة أو فلتة ففوجىء بالاخصائى يقول أن هذا ليس أول طفل من بلادكم أجرى له الاختبار ٠٠٠ هذا فى الواقع هو الطفل العاشر ، وهو ليس أول الحاصلين على هذه النسبة ٠٠ انه السابع ٠٠٠ واعتمادا على خبرتى أستطيع أن أقول ان هذه ربما أعلى نسبة للذكاء بين أطفال العالم ٠

وأحسست كالمؤلف بفرحة حقيقية لولا أن الاخصائى مضى يقول : (ولكن الغريب أن أطفالكم يظلون كذلك الى حوالى الخامسة ثم تبدأ نسبة ذكائهم فى الهبوط بينما تأخذ نسبة قرنائهم الانجليز أو غيرهم فى الارتفاع بحيث يتفوقون عليهم بمراحل ٠٠

وكالمؤلف أيضا تراجعت فرحتى واحترت ٠

السبب أنه حتى هذه السن يكون ذكاء الطفل مستمدا من مخزونه الوراثى من الذكاء ، ولكنه بعدها يعتمد ذكاؤه على مدى تفاعل ذكائه الموروث مع بيئته وعلى مدى أثر البيئة فى تنمية الذكاء ، تماما كأى عضلة تولد بقوة معينة ولكن قوتها تبدأ تعتمد على التدريب والتمارين التى تزاولها ٠

والحل أن أطفالنا الذين يولدون عباقرة بالقياس الى أطفال العالم يجب أن يتلقاهم نظام حياة ينمى هذا الذكاء الفردى ويربيه ويدربه على تكوين مجتمع ذكى يعمل طول الوقت ويطور نفسه بحيث يستطيع باستمرار أن يستوعب ذكاء أفراده وبذكائهم الجماعى يحيا ويتقدم ويخترع وينتج ، ولكن ، لأن عكس هذا ربما هو الذى يحدث ، بحيث يجد الفرد الذكى نفسه فى حالة صدام مع مجتمع قاصر عن استيعاب ذكائه ، حيث يتحول بذكائه لخدمة ذاته أو بالأصح الدفاع عن ذاته وهكذا ٠

ويقف الكاتب عند هذه النقطة طويلا لأنها مكمن من مكامن الداء عندنا خاصة ونحن كما يقول لم نعد فى عصر الفلتات الفردية • نحن فى عصر المجمعات والمجموعات الذكية •• وكما بدأ العالم ينقسم الى أغنياء وفقراء فكذلك بدأ ينقسم الى مجتمعات أذكى ومجتمعات أقل ذكاء أو أغبى، والهوة بينها أيضا تتسع فالذكاء ثروة والثروة ذكاء •• حتى القوة الفيصل فيها هو الذكاء •• والجيش الأقوى اليوم هو الجيش الأذكى •• بل ان التعليم ذاته لا يحل المشكلة •

والمؤلف الطبيب يشخص عيوبنا مرة أخرى ويقول فى وثوق : (هنا فى بلادنا تستطيع أن تضع يدك على الداء بسهولة •• فى قرانا نحن نكون المجتمعات الصغرى هذه وننشأ منها وبها ننشىء المجتمع الأكبر •• كذلك كانت مدننا فى العصور الوسطى مكونة من أزقة وحوارى تكون أحياء تكون مدينة والمدن تكون دولة • فى العصر الحديث وحين حدثت الهجرة الهائلة من القرية الى المدينة •• ومن الزراعة والتجارة الى الصناعة فقد انساننا القادم قدرته على تكوين المجتمعات الأصغر •• امتلأت مدننا بآلاف العائلات أو حتى الأفراد الذين لا يربطهم رابط ولا يسألون أمام مجموعة ولا يحسون بالانتماء •• ومن السهل أن يبدأ الانسان يفقد كثيرا من خصائصه الأصيلة حين ينفرط عقده ويصبح وحده يفكر ، ووحده يستهدف ، ووحده يصنع لنفسه القيم التى تلائمه •• ان من يفقد الانتماء يفقد الأصالة ، والفرد حين يفقد خصائص مجتمعه الأصغر يفقد تماما خصائص المجتمع الأكبر •

والنتيجة أن الكتلة بدلا من أن تكون بناء قويا تتفتت وتتسطح ويصبح فى مكان البناء سطح من الرمال الصغيرة المتراكمة •

ان الدرس الذى نعلمه المؤلف من آسيا أن المعجزة ، ان تحقيق المعجزة أية معجزة ، ليس أبدا مسألة مستحيلة ، هى على الدوام ممكنة ، أوجد الشعب توجد المعجزة اذا حضر حضرت واذا غاب غابت • اذا حملته المسئولية أية مسئولية ، ولو كانت قهر امبراطورية ، حملها كالعملاق وأنجزها ، واذا حجبتها عنه تحول الى متفرج اللامبالاة شعاره •

ما أغرب هذه الكائنات الهائلة العملاقة ، الشعوب •

لقد اكتشف المؤلف قارة فى هذا الكتاب وسيكتشف فيه القارىء بدوره عوالم جديدة عبر قارات •

حين يرتفع الكاتب الى قمة

منذ ثلاثين عاما فقدت مصر كاتبها المازنى . وكم فقدت مصر فى هذه الثلاثين ، ابراهيم عبد القادر المازنى أحد رواد النهضة الأدبية الحديثة . لا أتكلم بهذه المناسبة عن المازنى كاتبا أو شاعرا فقد أفردت لهذا كتابا كاملا تعددت طبعاته دلالة لا تخطىء على مكان المازنى ومكانته فى حياتنا الفنية .

من يرجع الى أعداد جريدة الأساس بدءا من يناير سنة ١٩٤٩ حتى وفاة المازنى فى أغسطس سنة ١٩٤٩ ، يجد عجبا . فقد كان المازنى فى هذه الفترة بالذات يكتب مقالا يوميا تقريبا .. وعلى امتداد ثمانية أشهر حلل موقف مصر فى المنطقه .. ووقف بالتحليل طويلا عند طبيعة اسرائيل بما لا يزيد عليه المحللون اليوم بعد أن وضحت معالم السياسات والنيات. وهى قيمة عزيزة من قيم الريادة ، وقمة رفيعة لا يبلغ ذراها الا كتاب الآفاق والأعماق .

وللقارىء أن يعود الى مقال المازنى فى ١٩٤٩/١/١٦ ، ٣/١٠/ ١٩٤٩ ، ١٩٤٩/٣/٢٩ ، ١٩٤٩/٤/٧ ، ١٩٤٩/٥/١٥ ، على سبيل المثال .

والآن أتكلم عن المازنى الفنان وأحد أعمدة مدرسة الديوان التى أعلت كرامة الكاتب ، وأرست مكانة الأديب .. مدرسة الديوان التى ثارت على المدائح الكاذبة ، والقصائد الرخيصة التى تراق تزلفا ونفاقا بغيضا .. قميئا وكئيبا .

أن يتفاءأ انسان لانسان مثله ، مهانة وادانة للفرد وللشعب معا بما يمثل الكاتب من ضمير الأمة .. بل انى أرى القماءة ، كفرا بالمعنى الدينى فقد كرم الله الانسان وحمله الأمانة ليكون كريما على نفسه وعلى الحياة .. وحين سن الله الشرائع ، قصر العبادة عليه ، ورجاء النفع فيه :

(اياك نعبد واياك نستعين) وهنا « قصر » كما يقول البلاغيون وهى غير (نعبد اياك) التى يجوز معها العطف والاتباع · تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ·

كان المازنى أحد ثلاثه قامت بهم ، وعليهم مدرسة الديوان هم : العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى · وكانت مدرسة الديوان انتفاضة مزلزلة ، وكانت صيحة مجلجلة ضد أدب المباخر والمواكب ··

دعت مدرسة الديوان الى اعلاء الكلمة ، وارساء قيمة الصدق فى الفن وفى التعبير ·· الصدق مع النفس ومع الآخرين · فعلت هذا فى وقت كان فيه الأديب ظل ملك ، أو سمير مجلس ، أو نديم شراب · فصار الأدب على أيديهم رأيا وفكرا ، وصار الأديب من خلالهم فنانا وموقفا · خاضوا معارك الحرية : السياسية والأدبية ولقوا من أمرهم عسرا ·· باع المازنى مكتبته وأودع العقاد السجن ·· فأعطى المازنى ، من ذاته مكتبة يتصدرها من كتبه التى تربو على الثلاثين : «حصاد الهشيم»، و « خيوط العنكبوت » ، و « قبض الريح » ، و « ابراهيم الكاتب » ، و « ابراهيم الثانى » ، و « صندوق الدنيا » ·· وخرج العقاد من السجن ليقول :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر وهأنذا فى ساحة الخلد أولد

عداتى وصحبى لا اختلاف عليهمو سيعهدنى كل كما كان يعهد

كانوا رجالا ·· وكانوا مواقف ·

تزول المظاهر والزيوف ويظل الأدب العالى هو الباقى ·

والشعر من نفس الرحمن مقتبس والشاعر الفذ بين الناس رحمن

المازنى الكاتب القصاص الشاعر ، المترجم ، له ديوان كبير من جزأين وله شعر لم يطبع بعد ·· وليس بين هذا كله قصيدة واحدة فى مدح كاذب ، أو هوان منظوم ·

ألح على المازنى أهل حيه أن يمثلهم فى البرلمان ــ كان عندنا برلمان ــ فقال (لقد خلقت كاتبا وسأظل كاتبا أخدم بلادى عن طريق الصحافة) ·

لأنه كان كاتبا بهبة السماء ، لا بالاحتراف ، أو الاستوظاف ، أو الادعاء ، أو الانتماء ، آثر الكتابة على النيابة بمظاهرها ومزاياها ، مع أن الكتابة لم تغن عنه ، فى دنيا المال ، شيئا ·· حتى ندت عنه هذه

الهتفة (.. وجهت قلبى الى المعرفة . وامتحنت نفسى بالسؤال ، وعلمت روحى التفتيش . بنيت لنفسى آمالا ، غرست لنفسى أوهاما ، عملت لنفسى جنات وفراديس غرست فيها أحلاما من كل نوع ثمر .. وهذا كان نصيبى من كل تعبى .. قبض الريح) .

أقول :

ليس بقبض الريح عطايا الفن الصادق والعمل النفيس فان الله اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه .

ليس بقبض الريح ما كتب المازنى وأنداده .. انه كشجرة وارفة الظلال فى وقدة الهجير . تمضى الريح وتظل الشجرة فى وقفتها شامخة . باذخة بالورق والزهر والتمر .. ولكنه المازنى الكبير فى تواضعه .. والتواضع قمة الكبرياء ..

الأدب الساخر بين المازني وعفيفي

كتابنا محمد عفيفي وقبله « ابراهيم عبد القادر المازني » وقبلهما « عبد العزيز البشرى » أعلام الأدب الساخر في مصر ·· وهو فن مركب أى يحتــاج الى قدرات : قدرة الكتابة ، وقدرة النفاذ الى مواطن الحقيقة وبواطن السلوك ، وقدرة الفكاهة الطبيعية · وليس سهلا أن تكون الفكاهة نهرا عذبا متدفقا حلوا كالنيل ·

ويحسب الناس أن الفكاهة هي الخفة ··· ويخلط آخرون بينها وبين الضحالة مع أن الفكاهة الراقية لا يرفدها الا ثقافة راقية متنوعة عميقة لتكون الفكاهة فنا رائعا وممتعا ·· ريقا شيقا ·· أو ربيعا دائــم الخضرة ·· وبدون هذا تغدو الفكاهة تسلية أو أقصاها تسرية ، ان لم تهبط الى منحدر التهريج أو العبث ·

وقد كان أعلامنا الثلاثة أصحاب أقلام تقول ، لا ألسنة تدور ، أقلام تنقــد ولا تنقض ·· تمزح ولا تجــرح ·· مهتمة بالنقص مهمومة من احساس راق ذكي بالمسئولية ·

والفكاهة من هذا المستوى الرفيع ، بعيدة الأثر في النفوس ، بما تمتل من جمال الصورة ، وجمال الفكرة ، وجمال الصدق معا ·

والانسان المصرى منذ القدم أحب الحياة بعد أن زرع وعرف الشمس والماء والحيوان · اصطلح مع المكان وتحاب مع كل شيء فيه ·

وحين اصطلح المصريون وخاصـــة الأوائل مع الحيــاة ، أكسبهم التلاقى انشراح الصـــدر ، وانفتاح القلب وقراره وقرته فأعطوا بسخاء من معين فياض ·

وانشراح الصدر ، سر الوسامة النفسية في التمثال المصرى ·· وفى الروح المصرية التى نسميها خفة دم ·

ان البشر سر من أسرار الشخصية المصرية فهو يغسل بحرا من الهموم · الشعب المصرى يطرب ويضحك ويتفكه فيحسبه الجاهل به ، سهلا ، وهو صعب يستطيع حين يريد أن يأتى بالمعجزات ويركب الصعب حين لا تدل الدلائل من وجهة نظر المراقبين عليها ·

ومن القداسة ، الفرح ··· ومن البشر ، البشرية ·

ان انشراح الصدر ، عناق للحياة ·

حتى المرارة والألم يستعلى عليهما المصرى بالضحكة والنكتة ليلطف من حدة الموقف • وحين نقول « النكتة » لا نعنى أمرا سهلا • فالنكتة المصرية وحدها ترعب الأقوياء ، حتى حرم الرومان على المحامين المصريين ، وتخديم الألفاظ في براعة وسرعة وفن ولباقة أيضا • لقد كانت النكتة المصرية وحدها ، ترعب الأقوياء ، حتى حرم الرومان على المحامين المصريين ، المرافعة فى محاكم الاسكندرية لأنهم كانوا يغضون من هيبة القضاء الرومانى بالمزاح والدعابة فى أثناء الدفاع وشرح القضايا •

لا أتكلم الآن عن ايجابيات وسلبيات النكتة المصرية التى تشكل عامل تعويق فى أوقات عصيبة يقف ويكف فيها الكلام لينطق العمل • ولكنى أقول ان مثل هذا الشعب ، تكون ، فيه ، مهمة الكاتب الساخر والفنان الساخر ، مهمة صعبة •

ومن هنا يقل عدد أعلام الفكاهة بمقياس التاريخ الأدبى مع أن رجل الشارع متفكه ، فكه ، يسمع النكتة ويقولها •• يخف لها مرسلا ، ويهش لها مستقبلا ، ويضحك منها فى الحالين •

وحين يقصد البشرى من السخرية ، النقد أو النقدات اللاذعة للمجتمع فى كتابيه « المختار » و « قطوف » أو صوره الكاريكاتورية فى كتابه : « المرآة » ••• كان المازنى يقصد ، « الاستخفاف » لونا من الاستعلاء أو ترويحا عن النفس ••• سخريته أقرب الى الفكاهة منها الى السخرية كمذهب • ويتجلى هذا خاصة فى كتابه : « رحلة الحجاز » الذى ينحو فيه منحى الكاتب الأمريكى « مارك توين » فى كتابه :

The Innocent Abroad

كان المازنى « قدريا » كتوماس هاردى أى أن الانسان لعبة فى يد القدر •• وعلى هذه النظرة تقوم سخرية المازنى •

وهذه القدرية فيها لمسة من طبيعة النفس المصرية عامة حتى لتحد أحيانا من استشرافها الى فوق ، وتطلعها الى امام ، وان كانت ترفدها أحيانا أخرى برصيد كبير من السلوى وتمدها بألطاف من العزاء ، يقويها على المعاناة ويحملها على الصبر ، ويصلها بعد القنوط ــ برحمة الله •

كتب الأستاذ العقاد عن (السخرية عند برنارد شو) ، فاستوقفه قوله : (انى أتعب غاية التعب فى استنباط ما ينبغى أن يقال ، ثم أقوله بعد ذلك بأدنى العبارات الى الاستخفاف) •

وأحسب هذه المقولة تنطبق على سخرية كاتبنا محمد عفيفى فقد كان واسع الثقافة •• جادا على الرغم من أسلوبه الساخر وصوره

الضاحكة ، لا يسيل دما أو ينكأ جرحا كما فعل كاتبه الأثير « أوسكار وايلد » الذى ترجم له كتابه : The importance of Being Ernest

أى (أهمية أن تكون ارنست) .

ودون أن تبلغ السخرية عنده ، حد السخط والمرارة كسويفت الذى كان ناقما على جميع الأوضاع فى عصره .

لقد كان محمد عفيفى كالمازنى يسخران ولكنهما فى سخريتهما أقرب الى الكاتب الفرنسى « أناتول فرانس » اى سخرية انسانية عليها مسحة من حزن لا يحجب سماحتها بل ابتسامتها . يقول الأستاذ على أدهم فى كتابه « الوان من أدب الغرب » .

(وأناتول فرانس ســاخر بارع يتخذ ســخره قالب البساطة والتواضع . فهو لا ينكر الأشياء فى عنف ، ولا ينتقص أحدا فى جفاء وشدة ، وانما يبتسم ابتسامة خفية مهذبة ويتحدث فى رفق ولين ، وهو واسع الاطلاع غزير المعرفة .. وكان لا يمل قراءة التاريخ ولا يكل من الغوص فى أعماقه) .

ولا أجد أبلغ من هذه العبارة ، وصفا لكاتبينا : المازنى ومحمد عفيفى .

ارفعوا الوصاية عن الكاتب والكتاب

انتهت لجنة الكتاب المصرى من عملهـا .... وأفرغ النـاشرون شكاواهم التى تتعلق بالاستيراد والتصدير .... وطرح الكتاب قضيتهم الفكرية وهى تتعلق بالحرية فى الرأى والتعبير . وأشهد ان رئيس اللجنة كان واسع الأفق واسع الصدر مخلصا لبلده فى هذا الوزر الذى انقض ظهره . والعجيب أننا نتكلم عن الرقابة المالية على حصيلة الكتب المصدرة كأنها معلم من معالم حياتنا وهى وصمة مستحدثة فلم تكن مصر فى أزهى عصورها الفكرية تعرف عامل هذه الرقابة بل ازدهرت ثقافتها لأنها لم تعرفها الى ان وشى ناشر لبنانى بناشر آخر مصرى من أصل شامى ...

وتقرب الواشى الى أحد رجال الادارة فى ذلك العهد وطبع له كتابا ... الادارة وتم طبع الغريم واتخذ ذريعة لفرض الرقابة المالية على حصيلة الصادرات من الكتب مما يعوق النشر ويطارد الكتاب المصرى حين أرهقوه من أمره عسرا واشيا ورقيبا وحسيبا . وتم للواشى ما أراد . فنفى أعماله من مصر ! وعاد الى بيروت وصال وجال وقد خلت له الساحة العربية فأمعن فى الكتاب المصرى تصويرا وتزييفا حين يحضر . وترويجا لكساد غيره حين يغيب .

ومن هنا نرى قيود الرقابة المالية المستحدثة فخا وقعت فيه مصر ليمرح تجار لبنان . وتفرح السوق السوداء فى بيروت .

هذه قصة القصة

والآن انتهى السبب وهذا ايذان بانتهاء المسبب فليس بين المصريين صاحب مصلحة فى تهييب النقد لأنه ليس له بلد آخر ولأن دورة رأس المال فى الداخل تتطلبه . ومن هنا ناديت فى لجنة الكتاب المصرى ، برفع الوصاية عن الكاتب المصرى والكتـاب معا ... على أن نوضـع قواعد المحساب عند تحريف الكلم عن مواضعه أى متابعة الكتاب بعد صدوره لا قبله . وقال بهـذا فى صـورة أخرى الدكتـور الشنيطى والدكتـور القصاص فقد طلبا أن تحدد مدة بعد ايداع الكتاب هيئة الكتاب يصبح بعدها حرا فى التداول على المستويين المحلى والخارجى ..

وخشى أحد ممثلى الرقابة الدينية من فتنة الكتب الواردة ونسى ان مصر من عمق الجذور الحضارية تميز فى ذكاء احساس وذكاء عقل معا الخبيث من الطيب ... والمثل عندى من القرن السـابع الهجرى الذى

كثرت فيه الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينهما ٠٠ واذ حزب الأمر تطلع الاسلام والمسلمون الى مصر لتحسم الموقف كدأبها فى الأزمات الكبرى فانفق رأى العلماء على رجلنا الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة ، ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللمح المصرى والوجدان المصرى مذهبا ينفاد الناس له ويرتاحون اليه ويقرون عنده ٠

وطرح فى اللجنة موضوع دعم الكتاب المصرى كما يدعم الكتاب العربى فى اقطار حديثة العهد باصدار الكتب ٠ وأقول :

على الدولة أن تدعم الترجمه فان تكلفتها اليوم لا ينهض بها فرد ناشر ٠ هل تذكرون مشروع الألف كتاب الذى فتح أكثر من نافذة على ثقافات العالم المتحضر ثم انطوى ؟ لتخلو الساحة لانفتاحات أخرى ؟

أعيدوا مشروع الألف كتاب (١) ٠

أعيدوا السلاسل الثقافية الرمزية الثمن لتدخل الثقافة كل بيت ففى احصائية الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء عن حركة النشر يتضح ان عدد الكتب المؤلفة والمترجمة من ١٩٦١ — ١٩٧٧ فى انحدار تمثله الأرقام ففى عام ١٩٦١ كان عدد الكتب المؤلفة ٢٤٤٣ والمترجمة ٣٦٦ ظلت تتصاعد حتى عام ١٩٦٧ فبلغت الكتب المؤلفة ٤٥٥١ والمترجمة ٥١٠ وبدأ الانحدار عام ١٩٧٤ فبلغت الكتب المؤلفة ٣٤٥٧ والمترجمة ٢٣٦ واستمر الخط البيانى فى الهبوط ففى عام ١٩٧٧ بلغ عدد الكتب المؤلفة ٢٦٢٧ والمترجمة ١٨١ ٠

فحين أنادى بحث الجهود فى حقل الترجمة وتشجيعها وحفزها فانى لا أصدر عن فراغ ٠

لقد كانت الترجمة فى عصرها الذهبى تحلق فى كل أفق وتغطى كل موضوع ففى (الثبت الببلوجرافى للأعمال المترجمة) فى الفترة ما بين ١٩٥٦ — ١٩٦٧ احصاء ملخصه ان الكتب المترجمة فى المعارف العامة (٣٢) ٠٠٠ فلسفة وعلم النفس (٣٥٠) ٠٠٠ ديانات (٢٢٥) ٠٠٠ علم الاجتماع والاحصاء (٩٩) ٠٠٠ العلوم السياسية والاقتصادية (٥٦٠) ٠٠٠ القانون وعلوم الادارة (٦٤) ٠٠٠ الفنون العسكرية (٢٤) ٠٠٠ تربية وتعليم (١٥٤) ٠٠٠ التجارة والنقل (١٤) ٠٠٠ اللغات (٥) ٠٠٠ الرياضيات والعلوم البحته (٢٧٤) ٠٠٠ العلوم التطبيقية (٧٣) ٠٠٠ العلوم الطبية (٦٩) الزراعة (١٦) ٠٠٠

---

(١) استجابت وزارة الثقافة ممثلة فى (هيئة الكتاب) وأعادت مشروع (الألف كتاب) أى (الألف الثانية) ٠

الصناعات والتكنولوجيا (٣٢٨) ٠٠٠ العلوم التجارية (٧) ٠٠ علوم التدبير المنزلى (٦) الفنون (١١٢) الألعاب الرياضية (٧) ٠٠ الجغرافيا والرحلات (١٧) التاريخ والتراجم (٣٦٤) ٠٠٠ وفى الأدب العـــام (٧٣) الأدب الانجليزى والأمريكى (٨٣٩) الألمانى (٤٨) والفرنسى (٢٤٥) والايطالى (٣٩) والأسبانى (٢٣) والروسى (١١٥) والكلاسيكى (يونانى ولاتينى) (٢٨) وفى آداب اللغات الأخرى (١١٩) ترى ماذا عندنا اليوم من التراجم والمترجمين لقد بلغ عطاء محمد بدران وحده من واقع الاحصائيات ٥٤ كتابا فى اثنى عشر عاما ما بين ترجمة ومراجعة ٠

والانحدار العددى انسحب على القراءة ففى الكتاب الذى أصدرته وزارة الثقافة مطبوعا على ورق كوشيه ومجلدا تجليدا فخما باسم (الثقافة فى عهد السادات) ٠٠٠ فى هذا الكتاب احصائية عن عدد القراء من ١٩٧١ الى ١٩٨٠ تشير الى أن دار الكتب أمها عام ٣٢٠٤٧/١٩٧١ أما فى عام ١٩٨٠ فقد انحصر العدد وانحصر فى ١٢٣٩٦ والوضع نفسه فى المكتبات الفرعية فقراؤها عـــام ٤٢٢٤٩١/٦١ وصلوا ســـنة ١٩٨٠ الى ١٨٤٢٤٠ ولا أحاج هنا بتصاعد ثمن الكتاب فهذه الاحصائية عن القراءة المجانية تؤكد هذا ٠٠٠ فالكتب المعارة من دار الكتب فى سنة ١٩٧١ ـ ٩٠٣٨٢ ومن المكتبات الفرعية ٧٤٤٥٦٩ وصل الرقمان على التوالى فى سنة ١٩٨٠ الى ٢٦٢٣٨ و ٤٠١٢٠١ ٠

اذن المسألة ليست النقود ولكن الاحباط الذى اصاب المثقف المصرى ٠

الاكتشاف الذى تحدثت عنه صحافة العالم

طلعت الصحف المصرية يوم ١٩/١٠/٨٠ بنبـــأ أطلقت عليـــه « اكتشافا » وقع فى موسكو نقلا عن وكالات الأنباء ٠٠ مفصلة القول عن ألبوم كبير يضم صورا فريدة لمصر من القرن التاســع عشر من رسم « دينــون » وأن الخبراء قالوا ان هــذا الكشف يعد من أهم الاكتشافات الخاصة بالحروب النابوليونية فى القرن الحالى ٠

وقد أحسست بالغبطة مرتين عند قراءتى لهذا الخبر ٠٠ فليس أهنأ للقلب المصرى من « وجود » مصر فى سمع الدنيا مقترنا بالقيمة الباقية : « الحضارة » ٠

أما السبب الآخر فهو أن هذا الالبوم التاريخى الذى يكـاد يكون مفقودا لأنه مطبوع سنة ١٨٠٢ تضمه مكتبتى وبينى مع غيره مما كتبه وصوره عالميون عكفوا على دراسة مصر التاريخ ، ومصر الفن ، ومصر الحضارة ٠ وهذا الكتاب اسمه الكامل (رحلات فى مصر السفلى والعليا) ويتكون من مجلدين يحويان النصوص ، ومجلد واحد يحوى اللوحـات التى رسمهـــا « دينون » الذى أصـــبح فيما بعد ، المدير الأول — أى الرئيس — لمتحف اللوفر وأنشأ مجموعة التحف المصرية به ٠

والكتاب ليس ١٤١ صورة كما ذكرت الصحف ولكن ١٤١ صفحة بحجم ٦٣ × ٤٨ وكل صفحة تضم أكبر من صورة ٠

وقد جاء «دينون» الى مصر مع الحملة الفرنسية٠وعندما أقيم المعهد الفرنسى فى القاهرة وقسم الى أربع شعب من بينها شعبة الآداب والفنون، كان «دينون» أحد أعضاء هذه الشعبة مع الرسامين دوتيرتر ، و «ريبوتيه» و « رفاييل دومانشيس » وضم الى الشعبة الرسام « ريجو » بعد هذا ٠

وحدث أن انضم « دينون » الى فرقة الضابط « ديزيه » التى أخذت تتعقب مراد بك من أمراء المماليك الذى لاذ بالصعيد ليباغت الفرنسيين من وقت الى آخر مما جعل ديزيه سريع الحركة — ومع هـــذا استمرت المطاردة تسعة أشهر — مما أعجل دينون أكثر من مرة — الا أن الجنـــد أمام معبد دندرة ، نسوا مؤقتا مطاردة مراد وأطـــالوا الوقوف بالمعبد الرائع ٠٠ وكان دينون أشدهم انبهارا ٠

لن تجد أبسط ولا أحسن حسابا من الخطوط القليلة التى يتألف منها هذا المعمار ٠ فالمصريون الذين لم يســـتعيروا شيئا من غيرهم من

الأمس ، لم يضيفوا زخرفا ماديا واحدا ، ولا حشوا واحدا لا لزوم له الى الخطوط التى أملتها الضرورة مع النظـام والبساطة اللذين سموا بهما الى الذروة ٠

وقد ترجمت ريشته ما سطره قلمه فجاء الألبوم حافلا ٠

والألبوم يضم فى مجموعته صورة مقاسها ٩٦ × ١٢٦ على مساحة صفحتين متقابلتين عن معركة الأهرام ٠٠ كما يضم فى ص ١٩ خمسـة مناظر لأهرام الجيزة ٠

وكان « دينون » وصافا بالحروف والخطوط ٠٠ بالقلم والريشة معا فحين رأى الأهرام ، ندت عنه الهتفة [وددت لو استطعت تصويرها فى تلك الألوان الشفافة المصفاة التى تدين بهـا لذلك القدر الهائل من الهواء المحيط بها ــ والبعد الشاسع الذى يمكن أن ترى منه يجعلهـا تبـدو شفافة بلونها زرقة السماء بلون خفيف وترد اليها ما أفسـدته القرون من كمال الزوايا ونقائها] ٠

ولم يكن « دينون » فى دهشته ، وحـده فان « كريستوفر هيرولد » مؤلف كتاب « بونابرت فى مصر » يحكى عن « ديفرنوا » أنه رأى نقوشا بديعة فى بعض المقابرالقريبة من الهرم الأكبر ، وكانت تمثل سـتى الأعمال الريفية مرسومة بما امتازت به خطوط الفن المصرى القديم من نقاء ودقة ونظام غريب ، فقال متعجبا معجبا : [ان ما يستحق الاعجاب أكثر من كل شيء هو الدقة التامة فى تصوير أصغر التفاصيل ٠٠ لقـد هزت هذه المناظر الرائعة مشاعرى هزا قويا بحيث ما زالت ذكراهـا عالقة بذهنى بعد خمسين عاما] ٠

وفى ص ٢٣ من الألبوم منظر للقاهرة القديمة ومقابر الخلفـاء ومنظر للمقياس ٠٠ حتى شجرة التنور لها صورة فى ص ٢٥ ٠

وفى ص ٣٥ صورتان للحمام المصرى ، والحمامات المصرية شدت الفرنسيين كما شدت بعدهم ، « وليم لين » الانجليزى فى كتابه عن المصريين المحدثين ، وشدت قبلهم الرحالة فى القرون الوسطى ٠

وفى ص ٤٨ منظر لطيبة ومسقط لمعبد الأقصر ٠ وقد حظيت طيبة بعديد من الصور فى هذا الكتاب ٠

استولى الفرنسيون على مصر ، واستولت طيبة على الفرنسيين ٠ يقول كريستوفر هيرولد (وصل الجنود فى الساعة التاسعة من صباح ٢٧ يناير الى منحنى النهر ، فطالعهم على جانبى النهر مشهد طيبـة القديمة

كاملا بما احتوته من معابد في الأقصر والكرنك ٠٠ ووقفت الفرقة كلها من تلقاء نفسها وصفق أفرادها استحسانا ٠

يقول « ديفرنوا » ودون أن يصدر أمر للرجال ، وقفوا وأدوا التحيه العسكرية على فرع الطبول وعزف الموسيقى ٠ وكانت لحظة شبيهة بتلك التى رأى فيها رجال بالبو ، المحيط الهادى أول مرة ، مع هذا الفارق ، وهو أن المحيط كان هدف الاسبانيين ، أما طيبة فكانت منحة خالصة لم يسع اليها الفرنسيون) ٠

وفي وسط هذه التحية العسكرية لعبقرية الانسان . كان «دينون» يرسم أول منظر لطيبة ، وعرض عليه الجنود في حماستهم أن يستخدم ركبهم ، مسندا للوحته ، وأحاط غيرهم به حماية له ، وهو يرسم ، من أشعة الشمس التى تبهر العيون ٠

وعلى الرغم من أن « دينون » استطاع بألبومه أن يروع مشاهديه لكنه عجز عن أن يطفيء ظمأه هو ٠٠ كان غارقا فى كنوز مصر فلم يملك أن هتف حائرا ٠

(ظللت أتنقل والقلم فى يدى من أثر الى أثر تجذبنى طرافة الواحد فأترك الآخر ٠٠ ولم أجد من العيون والأيدى ما يكفى ٠ وكان رأسى أصغر من أن يرى ويرسم ويصنف كل شيء يروعنى النظر اليه ٠٠ وشعرت بالخجل من قصور الرسوم التى صورت بها هذه الروائع)٠

تعجز الكلمات فى العربية ، كما عجزت الكلمات فى الفرنسية على غناهما اللفظى والتعبيرى ، عن وصف روائع مصر ٠

ان المجمع المصرى الذى شكله نابليون من علماء الحملة الفرنسية قام خلال سنوات الاحتلال الفرنسى بقدر كبير من الأعمال قدمها الى العالم فى تسعة مجلدات تحوى النصوص ، وأربعة عشر مجلدا تحوى الرسوم ومجموعها (٢٣ مجلدا) هو كتاب (وصف مصر) الذى طبع فى باريس ١٨٠٩ – ١٨٢٨ ٠ وقد أيقظت هذه المجلدات الاهتمام بمصر وتاريخها وآثارها فى جميع أنحاء أوربا وخاصة الغربية ٠ ونحن نعرف كتاب وصف مصر ، بل شرعنا فى ترجمته الى العربية ولكن (جون مارلو) مؤلف كتاب (تاريخ النهب الاستعمارى لمصر) يقول ان ألبوم « دينون » أقوى أثرا فى فتح العيون والأذهان على مصر من كتاب الحملة الشهير « وصف مصر » ٠

فعندما صدر فى باريس عام ١٨٠٢ كان الأول من نوعه فطار صيته حتى أن انجلترا ترجمته بعد عام واحد من صدوره ٠ وساد

أوربا على أثره موجه من الاهتمام المحموم بآثار مصر بل ان قناصل الدول في أوربا بدأوا يجمعون مجموعات من الآثار المصرية لأنفسهم ولدولهم ·

وسعت الرحلة الى مصر للدراسة ، وللفن ، ولجمع الثروة ، ولارضاء غريزة حب الاستطلاع ·

ونهبت مصر كالعادة تحت سمع الحكومة وبصرها ومن سوء حظ مصر أن ناهبيها ، يصابون بسعار كلما امتلأ يقول كجهنم : هل من مزيد ·

كتب ارنست رينان سنة ١٨٦٥ يقول :

[ظلت الآثار المصرية تنهب لمدة تزيد على نصف قرن · وأخذ متعهدو تزويد المتاحف بالآثار يجتاحون البلاد (كالوندال) المحصول على بقية رأس أو قطعة من نقش وعمد البعض الى فك بعض الآثار الثمينة الى أجزاء صغيرة ! وكان هؤلاء المخربون الجشعون الذين كانوا يحصلون دائما تقريبا على تأييد قناصلهم ، يعاملون مصر كما لو كانت ملكيتهم الخاصة] ·

ما أشبه الليلة بالبارحة ·

وبعد قرنين من صدور كتاب « دينون » نقرأ عن نهب الآثار أو وهب الآثار ·

وقد فجر كتاب « دينون » الكتابات عن مصر · فبعد صدوره بتسع وثلاثين سنة ، صدر فى باريس ١٨٤١ كتاب آخر كبير وهام باسم : Panorama d'Egypt et de Nùbie

بانوراما لمصر والنوبة··ألفه أورو Hector Horeau مهندس معماري فرنسي · وقد ضمن كتابه أبحاثا عريضة عن المدن المصرية الكبيرة وخاصة طيبة · وعزز الكتابة بالصور (رسم يد) فى ألوانها الأصلية · ومن أهم ما فى الكتاب صورة طولها متران عن القاهرة من القلعة فى ذلك العصر · وفى آخر هذا الكتاب قائمة بأسماء من يملكون نسخة منه فى جميع أنحاء العالم وعددهم مائة على رأسهم لويس فيليب ملك فرنسا ، ودون أورلبان ·· وهو كتاب من حقه أن يفرد له الحديث ·

ومن نعم الله أن عندى هذا الكتاب أيضا لتكون مصر فى عمرى ، حياة ونبضا ، وعرقا وحرفا ورسما ومعنى ورمزا وحقيقة ووثيقة وكلا كاملا تاما ·

باب الفكر

الامام الشيخ محمد عبده

وحين تطلق مصر كلمة « الامام » على رجل الدين فذلك يعنى الكثير ·· وبعض هذا وما أكره : الريادة والقيادة ·· وقد كان الشيخ محمد عبده رائدا ·· وكان قائدا فكريا ·· وما بالقليل هذا في وادى النيل ووادى الدين ·

ان رجل الدين حين يرتفع فى عين مصر الى قمة ، يمتل السلطة الروحية وهى عند الشعب أعلى السلطات وأحب الى نفسه حتى أن مصر تسمى رجل الدين من هذا الطراز : سلطان العارفين وهذا السلطان هو الذى يلوذ به الشعب فى الملمات ··

كان الشيخ محمد عبدة أحد الأئمة الأعلام فى تاريخنا القومى فباسمه اقترن فى عصره :

- اصلاح الأزهر
- اصلاح القضاء الشرعى
- اصلاح هيكل النظام القضائى مجابها كرومر بما يردعه ·
- رؤينه للنيابة العمومية والقضاء ·
- وضع قانون للمعاملات من الشريعة ·
- رؤيته للدستور ·
- قوله بتحرير المرأة ·
- تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية ·

وهى جمعية بعيدة مرمى الهدف فهى تستهدف الأخذ بالوسائل الحقيقية التى تؤدى الى (القوة وكمال السيطرة وتأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها) ·

وقد تبرع أقباط لهذه الجمعية ·

ومن الطريف أن تبرع لها ، فى عصر الاحتلال ، انجليز ٠

يقول المستشار عبد الحليم الجندى (وما قدر الشيخ على ذلك الا باشتهاره بأنه سلم لكل رجل ، وأنه رجل وحده ، وزعيم أمة) (١) ٠

لقد رفض الامير حسين كامل أن يرأس الجمعية فى حياة الشيخ محمد عبده ، فلما رأسها بعد وفاته ، كان يقول عن الامام : « أستاذى الذى تشرف علينا روحه الآن ولولاه لم أكن أنا مسلما » ٠

ولكن النجاح له ضريبة عالية ٠

انه سفر طويل فى المصاعب ، وابحار ضد التيار ، فى كثير من الأحيان ٠

وهنا أقول : ما مبلغ معاناة الاستاذ الامام ؟

يقول الشيخ محمد عبده فى مذكراته :

[أصبت نجاحا كبيرا فيما عنيت به ٠٠ أخفقت فى كثير مما وجهت عزيمتى اليه ٠٠ ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرز فى طبعى وشىء منها مما احتف حولى ، وطائفة منها من أصالتى وخطلى] ٠

وهى أمانة نفس تحسب له ٠٠٠

نصحبه من بداية الرحلة ٠

استهل حياته بحفظ القرآن الكريم ثم شرع فى الجلوس الى شيوخ العلم ٠٠ وكان ذلك سنة ١٢٨١ هـ أى فى السادسة عشرة من سنيه اذ ولد سنة ١٢٦٥ هـ فاذا به يفزع من جهامة البداية وعيب تعليم العربية فى مصر ، الذى يبدأ بنحوها ، بصعوبته فاذا بهذا النحو يحجب عن العين المبتدئة عذوبتها وموسيقاها وخصائصها الجميلة ٠

وهنا يحق للشيخ محمد عبده أن ينعى رداءة طريقة التعلم ويضرب مثلا لها ، شرح الكفراوى على الأجرومية الذى حدا به الى تركها وترك التعليم فى هذه المرحلة ، معا ٠٠

وهنا يبدو منزعه الى الحرية الفكرية والشخصية ٠٠ يبدو فى قوة الارادة والحسم فى اتخاذ القرار ٠

وحين رسب هذا كله فى أعماقه ، صغيرا ، اتجه كبيرا الى اصلاح

(ب) كتاب (الامام محمد عبده) للأستاذ عبد الحليم الجندى ٠

التعليم ، واصلاح المعلم ٠٠ الى التطور الذى رخص به الدين يوم احترم عقل الانسان ، وارادته ، وسعيه ٠

ومن مؤشرات طفولته ، الى شخصيته ، أنه كان صغيرا ، معروفا **بالفروسية واللعب بالسلاح** ، والسباحة ٠

يقول الأستاذ عبد الحليم الجندى :

ترى بادىء الرأى أن الرياضة الباكرة ستحفظ عليه العافية طول حياته ٠٠ وأن السباحة ستعلمه الصبر الجميل والسبح الطويل بين التيارات المتدافعة كما تعلمه الفروسية أن يتوازن وينضبط اذ ينطلق ، وأن يركض أو يسبق والناس يمشون أو يتخلفون ٠٠ أما الرياضة فعلمته البدار بالعمل ببدنه وفكره ٠٠ والتركيز على هدفه ، والاستعداد العصبى والذهنى ٠٠ وكل أولئك من السنة ٠٠ وهنا يستشهد بقول الرسول عليه الصلاة والسلام (علموا أولادكم السباحة والرماية) ٠

وتفتح صباه فبدأ رجال يدخلون حياته أولهم خاله الشيخ درويش، لقد نفره من تعلم اللغة معلم درس له شرح الكفراوى على الأجرومية ، وحببه فى اللغة والقراءة معلم آخر هو خاله الشيخ درويش بصفات الصبر والبساطة والوضوح فيه ٠

وفى أواخر سنة ١٢٨٦ هـ جاء السيد جمال الدين الأفغانى مصر ٠٠ وفى سنة ١٢٨٧ هـ ـ سنة ١٨٧١ م اتصلت أسبابه به ٠

وكانت هذه الصلة وراء المعاناة والغبن اللذين استشعرهما فى امتحان العالمية ٠٠ اذ عاداه شيوخ الامتحان **لتطوره** ولصلته بجمال الدين الأفغانى وهى قصة درامية رسبت أثرها فى نفسه فكان **اصلاح الأزهر شغله الشاغل** ٠

وهنا أقف وقفة عند كلمة « تطوره » فى هذه الفقرة ٠

لقد كان اصلاح الأزهر جزءا من نزعته الى التطور الذى أشرت اليه ٠ فقد كان يرى تدريس التاريخ الاسلامى والعالمى ٠٠ كما كان يرى تدريس العلوم العصرية ٠

وقد حقق هذا فى دار العلوم ١٢٩٥ ـ ١٨٧٨ حين عين مدرسا للتاريخ بها فدرس لطلابه (مقدمة ابن خلدون) بل أضاف اليها كتابا وضعه فى (علم الاجتماع والعمران) فكان بهذا ريادة استنها الدكتور طه حسين وتابعه فيها بعد أربعين عاما ٠

كما عين الشيخ محمد عبده بعد عام أى سنة ١٢٩٦ مدرسا للعلوم العربية فى مدرسة الادارة والألسن التى ستصبح مدرسة الحقوق ٠

وهكذا اجتاز الفجوة بين القديم والجديد ٠

وأضاف الى هذا الاشتغال بالكتابة والسياسة والقيادة فأخذ يكتب فى جريدة التجارة بالاسكندرية سنة ١٨٧٩ م كما أسس مع جمال الدين الافغانى حزبا فى مصر باسم الحزب الوطنى الحر ٠

هذا كله ولم يجاوز الثلاثين من عمره ٠

ومن أهدافه عزل الخديوى اسماعيل فاذا بتوفيق الذى كان يدور فى فلكهما ينقض على كل شىء :

- يعطل الحياة النيابية ٠
- ينفى جمال الدين الى خارج مصر ٠
- يعزل « محمد عبده » من وظائفه وينفيه من القاهرة دون أى مجرى آخر مرحلا الى قريته !

وحين عين مصطفى رياض باشا رئيسا للوزارة استصدر عفوا عن محمد عبده وعينه محررا « أول » **للوقائع** فتوالت مقالاته الكبيرة بها منذ سنة ١٨٨٠ حتى بلغت ٣٥ مقالا (خمسة وثلاثين) تحت عنوان (حكومتنا والجمعيات الخيرية) طوف فيها وطاف بحياة الأمة الاجتماعية والقانونيـة والشرعية ٠

ومن عناوينه فى هذا الصدد :

« القوة والقانون » ـ « الشورى والاستبداد » ـ « حاجة الانسان الى الزواج » ـ « حجاب النساء من الجهة الدينية » ـ « الطلاق » ـ « تعدد الزوجات » ـ « البدع » ـ « لجنة اعانة الحجاج » ٠

وقد كان الشيخ محمـد عبـده يرى **الكتـابة والتعـلم** أنجح فى محاربة الظلم الداخلى ، والاستعمار الخارجى من الثورات والفورات التى يسهل قمعها ٠٠ وقد كان هذا المنحى ، سببا فى انفصاله عن جمال الدين الافغانى فى باريس ٠

حقا ان تأثير التعليم يستغرق وقتا أطول ولكنه أعمق وأبقى والدليل على اقتناعه الكامل بهذا ، أنه كان يدعو هذه الدعوة نفسها فى تونس ٠

ورأيه هذا وراء عدم انغماسه مع « عرابى » فى البداية ولكنه حين

أصبحت ثورة عرابى حقيقة مصيرية ، لم يتردد الشيخ محمد عبده فى الالتزام بها .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : [نعم ان الشيخ محمد عبده لم يكن يدعو الى الاصلاح الاجتماعى عن طريق الثورة ولكنه لما رأى الثورة قائمة لنصرة مبادىء هى مبادئه ومبادىء أستاذه « جمال الدين » اتصل بها وألقى فى نارها قبسا] .

وحين أصدر الخديو سنة ١٨٨٢ أمره الى عرابى بوقف الاستعداد للحرب ، اجتمع **بوزارة الداخلية** مجلس وطنى حضره **الأمراء** والعلماء والأعيان .. **وقرروا الحرب** .. فأبى الخديو وعزل عرابى **فلم ينعزل** بل طلب انعقاد جمعية وطنية ..

واجتمع خمسمائة من الامراء (أى أسرة الخديو) والعلماء والأعيان **فيهم شيخ الأزهر وقاضى القضاة ، والمفتى ، وبطريرك الأقباط ، وحاخام اليهود** ومحمود سامى البارودى ثم تليت عليهم الأوامر الصادرة من الخديو والمنشورات التى أصدرها عرابى .

والذى تولى هذه التلاوة ، هو الشيخ محمد عبده بناء على أمر حسين باشا الدرملى **وكيل الداخلية** .

وتليت فتوى شرعية من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى **بمروق الخديو عن الدين** لانحيازه الى الجيش المحارب لبلاده ... وقررت (عدم عزل عرابى من نظارة الجهادية والبحرية .. ولزوم ابقائه .. ووجوب توقيف أوامر الخديو ، حيث انه خرج عن قواعد الشرع الشريف) .

كانوا علماء وكانوا رجالا .

أقطاب الأمة يجتمعون وأين ؟ في وزارة الداخلية !

ومن المجتمعين ، وكيل الداخلية !

هل نحن نتقدم الى الخلف ؟

سؤال جوابه يطول .

وحين بوغت الجيش المصرى فى التل الكبير بعد أن كان قد انتصر فى كفر الدوار ، خسر المعركة فأصدر الخديو قرارا بالغاء الجيش بدلا من تعزيزه ولا غرابة فى هذا فهو منذ البداية كان عونا عليه .

ومن ملك البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

ولكن الانسان المصرى كان له موقف آخر .. لقد قال الشيخ محمد عبده فى سجنه :

مجدى بمجد بلادى كنت أطلبه وشيمة الحر تأبى خفض أهليه

ونفى الشيخ محمد عبده لمدة ثلاث سنوات الى بيروت ولم تنقطع رسائله عن مصر اذ ظل يكتب لرفقة الكفاح .. بها .

وأكدت تجربة الثورة العرابية ، اعتقاده فى أسلوب المقاومة الدارسة .. المقاومة العلمية أى نشر التعليم وبث الوعى فالنفس **العالمة ، القوية ، المؤمنة بهدف ، العارفة أبعاد معركتها** ، هى وحدها القادرة على التفوق الحربى الذى يملكه الخصم ..

ان صلاح الامة بصلاح دينها .

والدين الاسلامى يدعو الى قوة ترهب الأعداء .. وعلم .. وعمل .. وكرامه .. واحترام العقل .. واحترام الارادة .. وتماسك لا تنفذ اليه فرقه أو اختلاف .. أمة أجمعت أمرها فهى كالبنيان المرصوص .

وهذه أسباب المنعة جميعا .

ومثله فى هذا السيد أحمد خان المصلح العظيم فى الهند فقد آثر الارتفاع بمسلمى الهند اجتماعيا وعقليا قبل مجابهة الانجليز .

وفى بيروت صار بيت الشيخ محمد عبده ناديا ، ومركز اشعاع بما علم ، وفسر ، وهدى .

فى بيروت ترجم رد جمال الدين على الدهريين من الفارسية الى العربية .

كما جلس لتفسير القرآن ثلاث ليال فى الأسبوع فى المسجد وكان يمتلىء بالسامعين .. وكان المسيحيون يقفون جماعات على بابه ثم تعودوا الدخول ..

أما فى داره فكان يجتمع فى حضرته كما يقول الأمير شكيب أرسلان (علماء السنة ومجتهدو الشيعة وعقلاء الدروز والى جانبهم أساقفة النصارى وكانوا يرون التردد عليه أمرا طبيعيا .. ويجدون فيه مرجعا عاما) .

وقد درس عليه الأمير شكيب ارسلان نفسه وعبد الباسط فتح الله .

وعرف الجميع سماحته واتساع أفقه فكان قسيس الكنيسة يعرض عليه موعظته . يقول الدكتور أحمد أمين عنه فى كتابه : (زعماء الاصلاح

فى العصر الحديث) [انه خلق فى بيروت حركة علمية راقية استفاد منها كثير من أهلها] .

لقد اشتغل الشيخ محمد عبده فى الشام بالحركة الاسلاميه وبث الدعوة الى التعليم ، والوعى ، وذلك حين نفى بعد الثورة العرابية . يقول الدكتور عثمان أمين : (لم تقتصر جهود الشيخ على التعليم هنالك ، فقد أسس ، بمعونة أشخاص آخرين ، جمعية دينية سرية ، من أهدافها ، التقريب بين الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والاسلام . وكان القس « اسحق تيلر » راعى ، الكنيسة الانجليزية أحد الأعضاء العاملين فى تلك الجمعية ، وهو الذى حاول ، فيما يبدو ، نشر أفكارها فى انجلترا . ويقال أنه قد جرت بين هذا القس وبين محمد عبده مراسلات كان من آثارها أن تحدث القس عن الاسلام حديثا وديا ، ونشر بهذا المعنى مقالات فى صحف لندن ولكن يبدو أن نشاط الشيخ المصرى فى هذه الجمعية قد فسر — فى تركيا — تفسيرا سياسيا يناقض مصالح الخلافة العثمانية مما حدا بالسلطان عبد الحميد الى السعى لدى الحكومة الانجليزية ، لاصدار العفو عن الشيخ المصرى ، ودعوته الى مغادرة سوريا فى أقرب وقت ممكن) (١) .

وأخذ يكتب المقالات وخاصة فى مجلة (ثمرات الفنون) واشتغل بتزكية وتقوية الوحدة بين المسلمين والأقباط فى مصر (٢) .

وعندما نزع بطرس باشا غالى وكيل الحقانية الى التحيز ، ونزغ به الميل ، هاجمته الصحف وتوسعت فكتب الشيخ محمد عبده يناصر الجريدتين الذائدتين عن طائفة الأقباط فى مصر ، لأن النقد فى نظره يقتصر على الفاعل ولا يتجاوزه الى غيره وان كان من دينه أو طائفته .. بل رأى فى باب الاستعانة أن يستعينوا ببقية الطائفة .

وظل هكذا الى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٣ حين دعاه جمال الدين الأفغانى أن يلحق به فى باريس ليؤلفا جمعية (العروة الوثقى) ويصدر صحيفة باسمها فاستجاب له .

وصدرت الصحيفة وفى العدد الأول مقال عن : (الاستعمار فى مصر) وفى العدد الثانى (انجلترا والمسألة المصرية) يعلن فيه أن الحل

---

(١) انظر كتاب (رائد الفكر المصرى) للدكتور عثمان أمين ط مكتبة النهضة سنة ١٩٢٥ ص ٢٣٩ — ٢٤٣ .

(٢) انظر كتاب (الاسلام دين العلم والمدنية) للشيخ محمد عبده ، عرض وتحقيق وتعليق الأستاذ طاهر الطناحى .

الوحيد للمسألة المصرية (**لا يكون الا على يد أهلها**) وفى العدد الثالث مقال (ماضى الأمة وحاضرها) يهيب بها **أن تتحد** .

أما الخط الرئيسى فى سياسة العروة الوثقى فهو الدفاع عن الاسلام وكشف الغرب .

وقد حدث فحين كثر قراؤها ، ترصدت لها انجلترا كل مرصد حتى بلغ الأمر ، أن اللورد كرومر ممثلها فى مصر ، فرض عقوبة الجنحة (خمسة جنيهات غرامة كحد أدنى !) على من يقتنيها !! فكانت تصادر فى البريد أو تهرب ثم توقفت بعد ثمانية عشر عددا فى ١٧/١٠/١٨٨٤ .

ومن باريس قصد الى لندن .

وفى لندن أعلن تصريحاته الجريئة المنافرة ضد الاحتلال وضـــد الخديو وهو المغترب الأعزل على أرض دولة تحتل بلاده لم يأبه لم أن يؤيد ثورة المهدى فى السودان دينيا وسياسيا ‥ ولم يأبه أن يعلن احتقاره للخديو الذى تواطأ مع المستعمر ورماه بالخيانة ورفضه ‥ وقال قولته الباقية :

(اننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية)

وفى لندن دار حوار بينه وبين وزير الحربية البريطانية رفض فيه منطقه فى تبرير الاحتلال وانتفض انتفاضة الأسد الجريح مسفهـــا رأيه وأسلوبه معا .

وعندما زار مجلس العموم فى ٢٣ يوليـــو سنة ١٨٨٤ ، وصفته الصحافة البريطانية حين دخل فى سمت علماء مصر (معمما يرتدى جبة زرقاء أنيقة فاسترعى بزيه الأنظار ‥ وتسابق النواب والزوار الى الردهة لرؤية أحد قادة الثورة المصرية جاء الى انجلترا لأول مرة ليطلب الجلاء عن مصر) .

ووصفوه مرة أخرى بأنه (ليس عليه أدنى مسحة من التقـــاليد الأوربية متوسط الطول أسمر اللون ذو لحية سوداء ، حاد البصر له وقار ومظهر مهيب وابتسامة جذابة ‥ اذا استثاره محدثه تكلم كلام الفصيح المتواضع قوى الحجة) ‥

احترمه الجميع فى قرارة نفوسهم ‥ وحاربه الجميع ــ الا قلة نادرة ــ فى ظاهر أمرهم فقد كان طبيعيا أن يناصبه العداء ، مصريا وطنيا ، ممثل الاحتلال كرومر ، وأن يناصبه العداء ، اماما للمسلمين ، أوربا مجتمعة ، وأن يناصبه العداء ، قوة شعبية ، الخديو .

ولكنه كان أعظم منهم جميعا وأبقى ٠

كان مع الخديوى أعلى رأسا وأشد شموخا حتى ليقول الخديوى الجالس على عرش الفراعين لحاشيته : (يدخل على وكأنه فرعون) ٠

وكان فى القضاء ملكا وكان مهيبا ٠

أساء أجنبى الأدب فى الجلسة معتمدا على حماية الامتيازات فأمر بحبسه وسأله مستر « سكوت » فقال :

(ما دمت على كرسى القضاء فلن أقصر فى احترامه)

تعلم الفرنسية فى القاهرة ورحل لاتقانها الى « جنيف » فى سويسرا ٠ وكان فى ذلك الوقت قاضيا فى عابدين ٠ ورأى نفسه كما يقول الدكتور أحمد أمين ــ (فى بيئة من القضاة يدلون بمعرفتهم للقوانين الفرنسية وشروحها) فعزم على تعلمها ، ليثرى نفسه ويجدد نفسه ٠

وقد ترجم عنها كتاب التربية لسبنسر بعد أن نقل من الانجليزية الى الفرنسية ٠

لقد أجمل الشيخ محمد عبده رسالته فى ثلاث حين قال :

● ارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى ٠

● الأمر الثانى اصلاح اللغة العربية فى التحرير سواء كان فى المخاطبات الرسمية أو فى المراسلات بين الناس ٠

● وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعا فى عمى عنه ٠ ولكنه الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ٠٠ وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بخلو مجتمعهم منه ٠٠ وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، **وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ٠**

وايمانا منه بدعوته ، بثها فى تونس حين نهد اليها مما ينقض حجة خصومه وحملهم أسلوبه على مهادنة الانجليز فلم يكن فى تونس مستعمر انجليزى ولم يكن لأحد عليه يد ، يخشاها ولكنها مسألة رأى .

ان الشيخ محمد عبده لم تكن صلته بالانجليز ممالأة للمستعمر ، أو رضا ، عنه أو تسليما له ، أو استبقاء لوجوده ، ولكنه استعانة بمصدر قوة واقعى فى تحقيق أهدافه الاصلاحية لا سيما بعد معارضته

للخديو فى استباحة الأوقاف وبعد نقده الجرىء لحكم محمد على مما أوغر صدر الخديوى ضده ، هذا مع احتفاظه بدينه ووطنيته التى شهد لها « كرومر » — والفضل ما شهدت به الأعداء — وهذا الرأى الذى ارتآه ، أمر ، يطحن الأعصاب فى ذاته وفيما يجلبه ظاهره من سيوف يطعنه بها خصومه وما أكثر ما فعلوا .

لقد حاسب الانجليز فى (العروة الوثقى) وحارب الانجليز فى (المنار) وحارب الانجليز فى (لندن) نفسها .

لو عشت فى عصره لناقشته فى هذا دون أن اتهمه فى وطنيته التى لا يمارى فيها نزيه الرأى حتى ولو كان يخالفه فى الأسلوب .

كان الشيخ محمد عبده مؤمنا بفكرة الاصلاح من خلال التعليم دينيا ومدنيا . الى الحد الذى حدا به أن يكتب بهذا الى شيخ الاسلام فى الآستانة اذ بعث اليه تقريرا فى اصلاح التعليم . بل كتب تقريرا الى « كرومر » فى مصر .

لقد كان الاستعمار الأوربى فى القرن التاسع عشر — وأبرزه الاستعمار الانجليزى — تقف ضحاياه من الشعوب وقادتها ازاءه موقفين :

أحدهما : الثورة الجامحة عليه والتنديد العالى الصوت به كما فعل مصطفى كامل وعبد الله النديم .

الموقف الآخر : الاصلاح الداخلى لتقوية الشعوب فالشعوب القوية التى تبلغ حد النضج السياسى لا تقبل الضيم .

ومن هذا الرأى فى الهند غاندى من ناحية ، وأحمد خان من ناحية أخرى ...

ومن هذا الرأى خير الدين فى تونس .

والشيخ محمد عبده ، وخير الدين التونسى يلتقيان فى النزعة الروحية وفى الأسلوب الأخلاقى وفى تحكيم العقل .

هذا النحو من السياسة كما يقول الدكتور أحمد أمين ، وهو الاعتماد فى النضج السياسى على التعليم والتربية ، (برنامج عقلى لا برنامج شعورى وهو قلما ينجح فى الدعوة السياسية ، انما ينجح فيها

من يعتمد على الشعور ، والهاب العواطف ، ولذلك نجح عبد الله النديم ومصطفى كامل سياسيا أكثر مما نجح محمد عبده) (١) ٠

ومع هذا هزت آراؤه الركود وأشعلت الجذوة تحت الرماد (٢) حتى الخصومات التى فجرتها آراؤه وأورى نارها خصومه على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ٠٠ حتى هذه الخصومات كما يقول الدكتور أحمد أمين (زادت الحركة قوة والحياة نشاطا واستخرجت من الشيخ محمد عبده أقصى قواه وملكاته ، واستخرجت من خصومه أقصى قواهم وملكاتهم) ٠

كان أسلوبه فى الاصلاح عقيدة لديه ، كما كان الدين قدسا عنده فحين يفتى مفتوح العقل فى لبس البرنيطة ، يثور على « هانوتو » وفرح أنطون ويكتب المقالات ويكتب كتابه : (الاسلام والنصرانية) ٠

غير أن أروع ما تتجلى عليه صورة الاستاذ الامام ، كما يقول الدكتور عثمان أمين فى كتابه (رائد الفكر المصرى) [حين نرى الفيلسوف وعالم الدين يتعاونان فى شخصه تعاونا لم يتهيأ لنا من قبل على مدى قرون عديدة ، وحين يلوح لنا فكره موفقا بين طرفين جرت العادة أن يراهما المفكرون متعارضين ، وهما المذهب العقلى والمذهب العملى ٠

٠٠٠ ان الاستاذ الامام قد حقق آخر الأمر ذلك التأليف الذى طال انتظاره فى الفلسفة الاسلامية ، وهو الجمع بين فلسفتى ابن سينا والغزالى ٠

٠٠٠ واستطاع بعنايته الدائمة ألا يفصل الفكر عن العمل ٠ ولا العلم عن الدين ، وأن يعود بالفلسفة الاسلامية الى أحسن تقاليدها ، وأن يفتح لها فى الشرق والغرب آفاقا بعيدة] (٣) ٠

كلمتى فيه تواضع يكبره أنه لم يكن النصر يبطره ، ولم تكن الخصومة تطامن منه ، ولكنه فى الحالين كان مترفعا ٠٠٠ وينفذ الى هذه الحقيقة جمال الدين الأفغانى ، الذى عرك الحياة ، وخبر معادن الرجال فكان يقول له : [أى ملك فى جلدك ؟]

وأراه أعظم من ملك ٠ فقد كان للمسلمين ، اماما ٠

---

(١) انظر كتاب (زعماء الاصلاح) للدكتور أحمد أمين ط مكتبة النهضة سنة ١٩٢٥ ص ٢٣٩ ــ ٢٤٣ ٠

(٢) انظر كتاب (مواقف تاريخية لعلماء الاسلام) للدكتور محمد رجب البيومى (كتاب الهلال) العدد ٤٠٢ يونيو سنة ١٩٨٤ ص ٢٢٣ ٠

(٣) اقرأ ص ٢٣٢ ــ ٢٣٥ من كتاب (رائد الفكر المصرى) للدكتور عثمان أمين ٠

دعوة الى احياء مكتبة الاسكندرية

وتستحضر ذاكرة مصر أحداث ما قبل (٢٣٠٠ سنة) ألفين وثلاثمائة سنة أى تاريخ انشاء مكتبة الاسكندرية ٠

وحين يلتقى المثقفون المصريون على احياء مكتبة الاسكندرية يتذكر التاريخ تاريخ الاسكندرية وقبلها « منف » و « طيبة » و « عين شمس » وبعدها « أوريجانوس » المصرى الذى لم تعرف المسيحية فى مصر وفى العالم المسيحى كله فيلسوفا مثله ، واثناسيوس السكندرى وكيف أن علماء الغرب والشرق تلقفوا كتابات مصر مترجمين وشارحين ٠

وكما وقفت مصر وراء المسيحية مما تسجله لهما كتب : (بستان الرهبان) و (المعاهد) و (المقابلات) كانت فى الاسلام كما يقول ابن خلدون فى (مقدمته) :

[مصر أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم]

أقول منذ القرن الثانى للهجرة تصدرت مصر ورحل اليها من الأندلس « الباجى الاشبيلى » و « ابن لبابه » وغيرهما وقامت مساجد مصر بدور كبير فى الثقافة الاسلامية حتى لقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرين مجلسا من مجالس العلم فكانت مطمح طلاب العلم وأساتذته على السواء ٠٠ وفيها تخرج أعلام وتلقى مشهورون ٠ أدى عن مصر هذا الدور جامع ابن طولون وجامع عمرو ابن العاص بل سوق الوراقين حيث كانت تدار فى دكاكين الكتب المناظرات ، ثم الجامع الأزهر فيما بعد حيث كانت مصر تشع العلم وتجرى الرزق ٠ وظل الأزهر يحمل المشعل منذ انشائه فحفظ للأمة تراثها من القرآن والسنة واللغة والعلوم حتى ليقول الدكتور أسعد طلس وهو سورى فى حديثه عن العهد العثمانى بالشام [ولولا الأزهر فى مصر لانطفأت شعلة العلم فى الشام] ٠

كم من الصفحات المشرقة المتألقة تتوارد وتتواتر على ذاكرة التاريخ حين قرر أساتذة جامعة الاسكندرية أن يدعوا الى مشروع احياء مكتبة الاسكندرية احدى عواصم تاريخ مصر أم العلوم والفنون والقيم ٠

ويستشرف المثقفون الى دورهم القومى فى بلدهم العريق الذى عرف القيمة علوما وفنونا وشرائع .. بلدهم الذى قدس الكتابة والكتب فكان البلد الوحيد الذى جعل للكتابة الهة سماها « سشات » وزوجها من اله الحكمة « تحوت » فى احساس رقيق ودقيق .. عميق ووثيق بما بين الكتابة والحكمة من صلات وشيات .

بلدهم الذى رفع الحضارات وأقام المكتبات وبنى صروحا للعلم تتحلق حول أهله ، فيها ، الندوة يستارون سيرتهم ويشتارون جناهم.

ويبدو أن المثقفين ملوا حب مصر بالأغانى أو الأمانى أو الهتاف وهو وطنية البسطاء .. والحب الحقيقى عطاء أو كما يقول المتصوفة (المحبة بذل المجهود) .

الحب الحقيقى عمل وعلم وبذل وهى المعانى التى نستشرف اليها ونتقرب بها الى مصر حين نحمى أثرا حاضرا أو نبعث الأثر الذى اندثر . وهو المعنى الذى حدا بأساتذة جامعة الاسكندرية الى تكوين فريق عمل لاحياء مكتبة الاسكندرية أشرف بعضويته ، والاحياء المقصود ، المكتبة فى صورتها الأولى .

ومكتبة الاسكندرية لم تكن مجموعة كبيرة من الكتب فحسب بل مركز اشعاع ثقافى فى العالم القديم بل لعل شهرة مكتبة الاسكندرية كما يقول كتاب (تاريخ الاسكندرية) قد فاقت شهرة جامعة الاسكندرية ولا تشائيها فى نباهة الذكر جامعة أخرى فى عصرها ، فى العالم كله .. ولا يستثنى من هذا مكتبة معهد اللوقيون التى أنشأها أرسطو أو مكتبة أكاديمية أفلاطون ، استنادا الى شهادة مواطنهما ديوبينيس لاثريتوس .

لقد بلغ من شهرة مكتبة الاسكندرية أنها كانت تضم من مفكرى العالم فى عصرها ، **مائة من أفذاذ العلماء** فى شتى نواحى المعرفة .

يقول تاريخ الاسكندرية أن المكتبة [ضمت أكبر عدد من المجلدات أو اللفائف المكتوبة **Biblia** عرفته مكتبة واحدة فى العالم القديم اذ بلغت تسعمائة ألف لفافة تساوى ما يقرب من ١٢٨ ألف مجلد حديث . يزكى هذه الثروة العقلية المكتوبة ، ثروة عقلية حية من العلماء الأمناء فى مختلف الميادين ، وقد ضمت أسماءهم بردية البهنسا التى عثر عليها أوكسيرينخوس ومنهم أبولونيوس شاعر الملاحم السكندرى .

وتجمع البحوث على أن مكان الجامعة والمكتبة كان يقع فى المنطقة بين شوارع شريف وسيزوستريس والنبى دانيال وكان ذلك فى القرن الثالث قبل الميلاد ما بين ٢٨٨ – ٢٨٠ ق٠م ٠

وكان لمكتبة الاسكندرية ، امتدادات نفيسة مثل مكتبة السرابيوم Serapeion التى حوت خمسين ألف مخطوط من أندر المخطوطات وأنفسها وكانت تقع فى الحى الشعبى « كوم الشقافة » ٠

حتى أحبار اليهود لاذوا بمكتبة الاسكندرية وفي ظل مصر العلمى ، ترجمت التوراة من العبرية الى اليونانية وكان عددهم اثنين وسبعين حبرا ، تمت على أيديهم القراءة السبعينية للتوراة ، المعتمدة حتى اليوم والتى يفضلها البعض على سائر القراءات العبرية كما يقول « سارتون » ٠

ويظاهر المكتبة والجامعة ، ٠٠ المتحف الذى أنشأه بطليموس الأول ٠ كان مزارا للعلماء ومهوى أفئدتهم ٠ وتتكثر المدن باللهو والتجارة ، وتشرف الاسكندرية بالجامعة والمكتبة والمتحف والمعامل والحلقات العلمية ونوابغ العلماء ٠

ان العلم هوى مصر وهوايتها ٠٠ هدفها ورسالتها منذ القدم ٠

يقول ول ديورانت فى الجزء الثالث من المجلد الثانى من موسوعته الكبرى (قصة الحضارة) عن متحف الاسكندرية : (بقى الى آخر أيامه معهدا للدراسات الراقية أكثر مما كان جامعة للطلاب ٠ ومبلغ علمنا أنه كان أول مؤسسة أقامتها دولة للعمل على تقدم الآداب والعلوم ٠ وكانت أهم ما أفاده تاريخ الحضارة من الاسكندرية) ٠ ص ٦٣ ٠

كان لمكتبة الاسكندرية (ثبت) فهرس يضم أسماء الكتب مع التعريف بها ٠ وكان هذا العمل أسلوبا جديدا فى العالم القديم ٠

ويشتد العداء بين المسيحية والقياصرة وتدفع الاسكندرية الثمن غاليا فى حصار قيصر لها سنة ٤٨ ق ٠ م والذى انتهى بتدمير معبد السرابيوم وحريق مكتبة الاسكندرية عندما أحرق يوليوس قيصر ، « الأسطول المصرى » وامتد اللهب الى رصيف الميناء وما جاوره وذهبت المكتبة فيما ذهب !! ويرى الدكتور ابراهيم نصحى أن اهداء أنطونيو كليوبطرة مائتى مجلد من مكتبة « برجام » انما كان تعويضا عن خسارة مصر الفادحة بحريق مكتبة الاسكندرية ٠

ومع هذا بقيت من المدينة العريقة ، بقية نقلها عنها العرب الذين بهرتهم فلسفة رجلنـــا « أفلوطين » الذى يلتبس اســـمه على الكثيرين فينسبونه الى اليونان وهو مصرى صعيدى من أسيوط ·· حتى العرب كانوا يسمونه (الشيخ اليونانى) وهو ، الى مصر ، يبدأ وينتهى بـه الانتماء ·

كما نقل العرب عن الاسكندرية فلسفة الاسكندرانيين ونقلوا علم الجغرافية والفلك والكيميـــاء والرياضـــة وقام بالنقل لهم النساطرة واليعاقبة ، ومصر مربأهم العلمى ·· والى جامعـة الاسـكندرية ومكتبتها ومتحفها ينسب (مافى) فى كتابه (امبراطورية البطالمة) نظائرهـا فى العالم أجمع فى العصر الوسيط ·

وتأثرت المسيحية والتصـوف الاسـلامى بالأفلاطونية الحـــديثة كمـا تأثر اخـوان الصفا بكتاب « ديونيسيوس » وتأثر بالأفلاطونيـة الحديثة كتاب (الشفا) لابن سينا بل يظهر أثرها فى كثير من آراء ابن سينا ولهذا ، بعد ، تفصيل كبير ·

وبهـذه المناسبة أقول أن كثيرا من علمـاء مصر فى ذلك الحين اتخذوا أسماء يونانية ، نوعا من التقية تلجأ اليها الشعوب فى المحنـة فى محاولة مسـايرة قشرية حفاظا على الجوهر المكنـون ·· ولم تكن مصر بدعا فى هذا فقد نحا هذا النحو ، الفارسى الكبير داعية العباسيين الأكبر ، أبو مسلم الخراسانى ، وكان عمله فى سبيل دولتهم كفيـلا ببث الطمأنينة فى نفسه ولكنه لم يأمن واصطنع اسما عربيا مسـايرة للغالب ·

ومن ناحية أخرى كان اليونانيون يضـيفون الى الأسماء المصريه أداة التعريف عندهم OS الواو والسين ·

واذا كان بعض المصريين قد تأغرقوا اسما فان كثيرين من الاغريق قد تمصروا فتعلموا اللغة المصرية وعبدوا الآلهة المصرية بل اتخـذوا أسماء مصرية ·

وكما كانت مصر بجامعة الاسكندرية ومكتبة الاسكندرية مدرسة للعـــالم القـديم ، كانت بالبقيـة الباقية منهما مدرسـة للعصر الوسيط لا سيما العرب فى ابان دولتهم ·· نقلوا عنهـــا الكثير وتجمع لهم من التلقى والنقل والترجمة مادة على أســاسها بنوا حركتهم العلمية حتى الذى أضافوه كان يمت بسبب قريب أو بعيد الى مدرسة الاسكندرية·

واذا كانت الحضارة الاسلامية التى ازدهرت فى العصور الوسطى أساسا نقلت عنها ، أوربا ، حيث اتخذت الأندلس مرادا وموردا فان مصر بهذا تكون أعطت الحضارات جميعا بما علمت اليونان ونقلوا عنها ، وبما قدمت للعالم القديم كله من خلال جامعة الاسكندرية ومكتبة الاسكندرية وبما قدمت للعرب من مادة علمية ، وبيئة حضارية كانت وراء عصر النهضة فى أوربا .

● ● ●

قطرة من بحر الاسكندرية جامعة ومكتبة ومدينة أقدمها تعريفا بالهدف الكبير الذى نجتمع اليوم على تحقيقه وهو [**احياء مكتبة الاسكندرية**] احياء يرتفع الى سابقتها فى الحضارة ، وسالفتها فى العلم ، يرتفع الى هذا الصرح مكانا ومكانة .

المراجع

تاريخ الاسكندرية

قصة الحضارة   موسوعة ول ديورانت

لمحة من تراث الاسكندرية الانسانى

فى ٢٨ يونيو ١٧٩٨ أذاع نابليون على جنوده بيانا كان أعده قبل ذلك بستة أيام جاء فيه :

[ان أول مدينة سنشهدها ، بناها الاسكندر • وسنجد فى كل خطوة آثار أعمال جديدة بأن ينسج الفرنسيون على منوالها] (١) •

لقد جاء نابليون ، مصر ، غازيا ولكنه كان يعرف أنها أكبر منه حضاريا وأن ما عندها •• ما عند الاسكندرية وحدها ، يفوق فى ميزان القيم كل ما عنده من سلاح • ولا أدل على هذا من منشوره ذاك •

ويفند الدكتور أحمد أمين (٢) المقولة : ان الشرق موطن الروحانية والغرب موطن المادية مستشهدا بقول « بلدوين » فى كتاب « معجم الفلسفة » عند الحديث عن الاسكندرية • يقول بلدوين :

ان الشرق والغرب اختلطا فى الاسكندرية ، وامتزجت آراء روما واليونان والشام فى المدنية والعلوم والدين ، بآراء الشرق الأقصى فى ذلك فنشأت قضية جديدة ، عمل على ايجادها بحث الغرب والهام الشرق •

• • •

ما القضية ؟

أو ما بصمة الاسكندرية فى التراث الانسانى فى الشرق والغرب ، أى موضوع بحثى فى المؤتمر الذى انعقد من ٢٥ ـ ٢٧ مارس سنة ٨٦ وهو الذى آثرت أن أسميه لمحة من أثر الاسكندرية فى

---

(١) كتاب (بونابرت فى مصر) تاليف كريستوفر هيرولا ترجمة فؤاد أندراوس ص ٨١ •

(٢) (فيض الخاطر) ج ٢ للدكتور احمد امين ص ٥٣ •

التراث الانسانى لعمق احساسى بدافق من عطاء الاسكندرية لاتستوعبه صفحات فى بحث أو ساعات من زمن · سميته لمحة وكتبته خطوطا عريضة ، كل منها هو خليق أن يفرد له البحث والتأصيل ·

ـ مكتبة الاسكندرية ـ مدرسة الاسكندرية ـ تاريخ الاسكندريه أما المكتبة فقد تحدثت عنها عقب يقظة الدعوة وبعثها من جـديد ··· أما مدرسة الاسكندرية فى عهودها المختلفة فقد كانت منارا مع المنار يشع الثانى النور فى البحر ، وتشـع الأولى النـور فى الأرض وفى الانسان عقله ولسانه أى وجوده النفيس ·

فعلى يد مدرسة الاسكندرية الوثنية ورجالها المصريين تخرج فى المعهـد اليـونانى والرومانى ، علمـاء العالم القـديم فى الطب والتشريح **والكيمياء والصيدلة والهندسة والفلك ·**

وعلى يد مدرسة الاسكندرية المسيحيه ورجالها المصريين تخـرج علماء العالم المسيحى فى هذه العلوم بما ورثه أقباط مصر من قدمائنا من دراية فيها وبراعة مشهودة ·

وفى العلوم **أسست الاسكندرية علم وظائف الأعضاء وعلم التشريح وهى صـاحبة نظـرية الذرة وواضـعة تذكرة الطب المشـهورة** باسم تذكرة كرنيلوس · وظلت الدنيا تستعمل عقاقير مصر القديمة الى القرن الثانى عشر ·

ووضعت مصر المسيحية فى الاسكندرية ، **غالبية المصطلحات الطبية** وعليها تتلمذ جالينوس ولها شهد (نيتولنسكى) فى كتابه الطب الشعبى المقارن ·

لقد سبقت الاسكندرية بفضل هيروفيلوس ، العـالم ، ظل فى دراسة الأمعاء الدقيقة **كما سبقت الى اصطناع البحث العلمى** بفضـل « اقليدس » صاحب (المبادىء) ·

يقول الدكتور نصحى (١) (لم يعمر كتاب فى العالم ـ باستثناء الكتب السماوية ـ مثل ما عمر هذا الكتاب ، الذى استمر تلاميذ الهندسة فى مختلف أنحـاء العالم ، يستخدمونه منـذ العصر الهلينستى حتى عهد قريب جدا · وأهم ما يمتاز به هذا الكتاب ، ما اختاره فيه اقليدس من المعلومات المسلم بها كالتعاريف والفروض والبدهيات ، ولا سيما النظريات

---

(١) كتاب (تاريخ الحضارة المصرية) مع آخرين المجلد الثانى ·

التى تستحق أن تسمى « عناصر » لأنهـا أساسية وتفوق غـيرها فى الأهمية وفى التطبيق) .

ولا يغير الحقيقة ، أغرقه هذه الأسماء فى ظاهرها فقد ألف علماء مصر بالاغريقية بل اصطنع المصريون أسماء اغريقية أو أضـيف الى أسمائهم مقاطع اغريقية أشهرها الواو والسين فظنت يونانية .

ان بعض المصريين فى العهد البطلمى قد تأغرقوا سطحيا فى محاولة ارتقاء طبقى او صراع طبقى .. والاغريق ايضا تأقلموا فى مصر وتمصروا بالقدر نفسه فتعادوا اللغة المصرية وعبدوا آلهة مصرية بل اتخذوا أسماء مصرية وعادات مصرية (١) كما أسلفت .

وفى مكتبة الاسكندرية ، كما يقول آيدرس بل (**وضعت أسس علوم التصنيف ونقد النصوص** ، كما وضعت قوائم للمؤلفات الاغريقية الأدبية ، ونقحت مؤلفات هوميروس ثم أخرجت فى صـورة لا تختلف كثيرا عن التى بين أيدينا الآن ، كذلك **ابتكرت العلامات الصوتية** التى يضيق بها الآن كثر من طلاب المدارس والجامعات ، ولم تهمل الرياضيات والعلوم البحتة .. ففى الاسكندرية استطاع اريستاخوس Aristarchus **أن يكتشف دوران الأرض حول الشمس** قبل كوبر نيكوس Copernicus وفى الاسكندرية استطاع اراتوستينيس Eratosthenês **أن يقيس محيط الكرة الأرضية** قياسا يمكن أن يوثق بصمته .. **وفيها أيضا ألف اقليدس** Euclidis **كتاب « الأصـول »** فى عام الهندسة ، **واخترع هيرون** Hêrôn الآلة البخارية ، أو لعله نقلها من غيره ، كما **اخترع الآلة الأوتوماتيكية** .. وقد ذاع صيت مدرسـة الطب السـكندرى لا سـيما فى التشريح والجراحة) (٢) .

فلا غرو أن يقول آيديرس بل : (أصبحت الاسـكندرية اعجوبة العالم) (٣) .

وتعتبر الاسـكندرية كمـا يقول الدكتور ابراهيم نصحى ، بحق **عاصمة الأدب الأغريقى فى العصر الهيلينستى** ، حتى أنه يندر أن نسمع أن أحدا من فحول شعراء ذلك العصر لم يزر الاسكندرية أو يعيش فيها، لينعم برعاية ملوكها وينهل من موارد علمها فلا عجب أن كافة أنواع

---

(١) كتاب شخصية مصر للدكتورة نعمات احمد فؤاد .

(٢) ، (٣) كتاب (مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى) تاليف هـ . آيدرس بل ، أستاذ شرف علم البردى بجامعة اكسفورد ، ترجمة عبد اللطيف أحمد على .

الشعر الأغريقي ، فيما عدا الكوميديا ، قد تأثرت فى خلال هذا العصر بالشعر السكندرى (١) ٠

يقول س٠م٠ باورا عن شاعر الاسكندرية « ثيوكرينوس » انه كان (أعظم من كل من « كاليماخوس » و « أبولونيوس » وكان له تأثير كبير على من جاءوا بعده) ٠

ويقول : (وقد وجد شعراء الاسكندرية ــ وبخاصة «كاليماخوس» و « ثيوكريتوس » أتباعا كثيرين ، ساعدت محاكاتهم لهم ٠ الشعر ، على أن يستمر حيا محتفظا بوجود متصل ، وان كان هادئا) (٢) ٠

وفى الاسكندرية بدأ زنودوتس ، كمـــا يقـــول ول ديورانت ، تهذيب الالياذة والأوديسة ٠٠ وواصــل أرسطوفان عمله ، وأتمـــه ارستارخوس ، وكانت نتيجة عملهم هو النص الحالى لهاتين الملحمتين ، وهم الذين شرحوا ما غمض فيهما شرحا يدل على غزارة الاطلاع ٠ ولـم ينقض القرن الثالث حتى أضحت الاسكندرية بفضل متحفها ومكتبتهـا وعلمائها العاصمة الذهنية للعالم اليونانى فى كل فرع من فروع العلم والأدب عـــدا الفلسفة (٣) أو العاصـــمة الفـكرية أو كمـــا يقول لودفيج العاصمة الثقافية فى القرون الثلاثة الأخـيرة قبل الميلاد مع أن روحــه كانت أقوى ٠ مدينة الاســكندرية (كانت أول مدينة عصرية فى العالم القديم وتربط بين ثلاث قارات أحسن مما تربط أية مدينة أخرى ٠٠ وفى الاسكندرية كانت توجد مكتبة « أشهر » من مكتبات التاريخ وأكمل من مكتبات العالم الحاضر) (٤) ٠

وأضافت الاسكندرية الى اللغة اليونانية علوم النحو وفقـه اللغـة فأصبحت قراءتها وفهمها من الأمور الميسرة (٥) ٠

---

(١) كتاب (تاريخ الحضارة المصرية) المجلد الثانى ص ٨٣ ٠

(٢) كتاب (الأدب اليونانى القديم) تاليف س٠م٠ باورا ترجمة محمد على زايد واحمد سلامة محمد ، ص ١٥٢ ــ ١٥٣ ٠

(٣) (قصة الحضارة) تاليف ول ديورانت ترجمة محمد بدران ج ٣ ص ٩٠ ــ ٩١

(٤) كتاب (البحر المتوسط) تاليف اميل لودفج ترجمة عادل زعيتر ص ٢١٢ ٠

(٥) كتاب (تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها) تاليف الدكتور نجيب بلدى ٠

يقول الدكتور نجيب : (جميع هذه الأعمال أمور جديدة طريفة فى تاريخ الفكر الانسانى . يتبين فيها طابع الاسكندرية وطابع متحفها ومدرستها الأولى نقصد طابع المنهج والدراسات العلمية المنهجية .

ولا يمكننا أن ننسى فى هذا المضمار المنهجى ، عملا من أهم الأعمال التى تمت فى العصر السكندرى وفى مدينة الاسكندرية وهو ترجمة التوراه اليهودية من العبرية الى اليونانية . فقد أم اليهود مصر من قبل حضور الاسكندر اليها .. وزاد عددهم فى عهد البطالسة الذين عملوا على احضار أكبر أحبار اليهود الى الاسكندرية وعلى أن يحضروا معهم أسفار التوراة من فلسطين ، وباشر هؤلاء الأحبار عملهم بالاسكندرية حتى انتهائه فتمت على يدهم — وكان عددهم اثنين وسبعين حبرا — القراءة السبعينية للتوراة ، المعتمدة حتى اليوم ، والتى يفضلها البعض على سائر القراءات العبرية) (١) .

ومن مدرسة الاسكندرية الثقافية طائفة (الآسين) بين اليهود وهى من أقوى الطوائف اليهودية أو هى تزيد عليها فى القوة والأثر وان كانت أقل عددا . ويرجح الأستاذ العقاد أنها نشأت بالاسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد واقتبست من مدارس الاسكندرية كثيرا من انظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثاغورس الذى يحرم ذبح الحيوان ويدعو الى التقشف والقناعة بالقليل فكانت لا تقدم القرابين من غير النبات .

وطائفة الآسين بما قبسته من الاسكندرية ، تميزت بين طوائف اليهود حتى كادت بآرائها الخاصة أن تستقل عن الهيكل كله فى علاقاتها بالدين والقومية .

ويبدو أن أثر الاسكندرية الفنى وصل حتى شرق آسيا فان المؤرخ الكبير توينبى يقول : (عندما حطت الماهايانا رحلها فى امبراطورية كوشان واستقر المقام بها هناك ، اتخذت هذه الديانة الاسلوب الفنى الذى سمى بأسلوب جاندهارا Gandhrara وكانت هذه أولى مقاطعات الامبراطورية ، أداة من أدوات التعبير المرئى لديها . وقد ترك الأسلوب الهندى الذى يرجح أنه نشأ عن النقل بطريق البحر ، للتأثيرات الفنية من الاسكندرية . وهكذا حملت عقيدة الماهايانا فى زحفها نحو الشرق

---

(١) راجع سارتون (العالم القديم والمدنية الحديثة) ترجمة عبد الحميد صبرة ص ٤٨ — ٥٠ .

بعض سمات الحضارة الهلينية على أقل تقدير ، حتى الأطراف الشرقية القصية من العالم القديم) · (١)

ويقول دى لاسى أوليرى عن علوم الاسكندرية فى الهند أن كتاب بانس سيد هانليكا Pance-siddhanlika وهو مكون من خمس مقالات معتمدة فى الفلك ، أربع منها يظهر فيها (أثر أبحاث مدرسة الاسكندرية وتحمل اثنتان منها اسمين غير هنديين هما رومانك وباوليا وفى ثانيتهما جدول يعتمد على جدول الأوتار الذى وضعه كاوديوس بطليموس) (٢) ·

فى الدين والفن :

ولعبت الاسكندرية دورا كبيرا بارزا فى المسيحية بل ان كتاب (حياة انطونيوس) وحده الذى وضعه الأب اثناسيوس استجابة لالحاح روما قد أشعل روح الرهبنة والنسك فى بلاد الغرب ·

وقد حولت الأفلاطونية الحديثة الهلينية الى لاهوت · ولم تسيطر مدرسة مسيحية فى العالم كما سيطرت مدرسة الاسكندرية التى صارت **العاصمة الثقافية للعالم المسيحى والوثنى على السواء** بلا تفرقة فى الدين أو الجنس ·· بلا تفرقة بين ذكر وأنثى ·· بلا تفرقة بين سيد وعبد .

كانت الاسكندرية عاصمة ثقافية ديمقراطية بما علمت من طلاب وأخرجت من أساتذة ، صاروا فى شعوبهم أعلاما حتى أن بطريرك الاسكندرية كان يلقب بـ « قاضى المسيحية فى العالم » وكم تخرج على يد أوريجانوس المصرى من أساقفة وبطاركة وقادة للشعوب · ولم تعرف المسيحية ، فيلسوفا فى مصر وفى العالم المسيحى كله طوال عصوره المتتابعة مثله ·

وكما كانت الاسكندرية رائدة فى ميادين العلم والدين ، كانت تعمل جاهدة فى ميدان الفن فهى المدينة صاحبة (الطراز) التى كانت تحدد أسعار الحرير للعالم المتمدين ، فى تشكيل المرمر وفن التصوير وصناعة الزجاج والفسيفساء والسفن والورق مادة الكتب التى عرفت الاسكندرية منذ القدم تاليفها وزخرفتها وتصويرها ورسمها

---

(١) (تاريخ الحضارة الهلينية) تاليف ارلولد توينبى ترجمة عبده جرجس ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ·

(٢) كتاب (علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب) تاليف دى لاسى وليرى ترجمة د· وهيب كامل ·

ومهرتها باسمها بل انفردت بصناعة الأواني الذهبيه والفضية حتى ليعدها « شربير » Shreiber استاذا فى هذا المضمار • كما اشتهرت الاسكندرية بصناعة الخزف الاسلامى وقد كشفت الابحاث الأثرية (١) فى منطقة كوم الدكة عن كشف قطع عديده من الخزف الفاطمى والخزف المعروف بالاسجرا sgar الشائع فى عصر المماليك • واحتشدت البحوث الأوروبية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر لدراسة الفن القبطى مسجلة كما جاء فى كتاب : (تراب العصور الوسطى) (٢) أن مصر المسيحية أحد المنابع الكبيرة التى سفت الفنون الرومانية بعد جفافها وجمودها •

تقول دائرة المعارف الاسلامية (كانت الاسكندرية مشهورة بنوع خاص بصناعة النسيج ووصفت منسوجاتها بأنها نادرة المثال • ويقال انها كانت تصدر الى جميع الجهات • وكان الكتان الجيد الذى كان يصنع منه فى الاسكندرية نوع من المنسوجات الكتانية يباع بما يوازى ثقله فضة • أما ما كان يستخدم منه فى التطريز فكان يباع بأضعاف ثقله فضة • وجاء فى البيانات الخاصة بالصناعة فى عهد الفاطميين من القرن العاشر الى القرن الثانى عشر ، ذكر حرير الاسكندرية • وكان يعتقد أن جزءا كبيرا من المنسوجات التى كان يقدمها البابوات الى الكنائس الايطالية فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين قد صنعها صناع من الاسكندرية • وكان فى الاسكندرية عدد كبير من الصناعات المختلفة) (٣) •

ومن الاسكندرية خرجت نسخة الانجيل المصورة التى تجمع بين فن التصوير وفن التلوين وهى المعروفة بنسخة « كوتون » وهو اسم ثرى انجليزى اقتناها • وهذا الكتاب لا يقل عن الياذة ميلان فى الجمال ودقة التصوير واختيار الألوان •

والاسكندرية مصدر الأيقونات التى يعود تاريخها الى القرنين الخامس والسادس مما يحفل به دير سانت كاترين • انها الاسكندرية التى احتفظت من ناحية بالتقاليد الكلاسيكية فى الفن ، وذلك حتى عصر متأخر ومن ناحية أخرى تأثرت بالفن المصرى التقليدى وبالفن القبطى

---

(١) قام بها الأستاذ الان ركس أستاذ الآثار بجامعة الاسكندرية ١٩٤٨ •

(٢) كتاب (تراث العصور الوسطى) مجموعة بحوث أشرف على تحريرها ج• كرامب أ• جاكوب وقام بترجمته مجموعة أيضا من الأساتذة المصريين •

(٣) دائره المعارف الاسلامية جـ ٢ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ •

الناشىء بل ان من الغريب أن طريقه رسم هذه الايقونات عن طريق خلط الألوان بالشمع ، هى نفس الطريقة التى كانت مستعملة فى أقنعة الموميات وتدلنا على الأصل المصرى لهذا الفرع من الفن (١) ٠

وفى الاسكندرية حدثت محاولات للتوفيق بين الأديان المتعددة فى حركة عرفت باسم (التوفيق) وقد امتدت هذه الحركة الى اليهود المقيمين فى الاسكندرية ٠ يقول الدكتور مراد كامل :

(وفيلون الفيلسوف اليهودى الاسكندرى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ، حاول هو أيضا التوفيق بين العقل والوحى ، وتأثر بالأفلاطونية ، وكان له تأثيره على المسيحيين فيما بعد) (٢) ٠

وتذكرنى هذه الحركة بما حدث فى القرن السابع الهجرى حين اشتد الصراع بين الفرق والنحل الاسلامية ٠٠ ولجأ المسلمون الى مصر لرأب الصدع كعادتها فاتفق رأى العلماء على رجلنا الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللمح المصرى ٠٠ والوجدان المصرى مذهبا ينقاد الناس له ، ويرتاحون اليه ويقرون عنده ٠

ومرة أخرى تقوم مصر من خلال مصرى آخر بلدى السبكى هو الامام الشعرانى وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا ٠

وعلى يد فيلسوف الاسكندرية فالنتينوس ، ارتفعت الغنوسية حتى ايقول « شاف » انه (أسس أكبر مدرسة للغنوسية وكانت له فلسفة خاصة ، ولهذا تمثل طريقته أحسن وضع انتشرت فيه الغنوسية) (٣) ٠

ويقول عنه الدكتور مراد كامل (هو مؤسس أعمق وأمتع الأنظمة الغنوسية وأكثرها تأثيرا ورواجا ٠ كان مصرى الجنسية واسكندرى الثقافة درس الغنوسية ونشرها فى طابع جديد شاعرى ، له جمال فنى ٠

ومن الاسكندرية « ديديموس الضرير » الذى ولد فيها سنة ٣١٣م ٠

---

(١) اقرأ كتاب (تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور) محافظة الاسكندرية ص ٢١٠ بحث (فن الاسكندرية فى العصر البيزنطى) للدكتور داود عبده ٠

(٢) كتاب (حضارة مصر فى العصر القبطى) تاليف الدكتور مراد كامل ٠

(٢) المصدر السابق ٠

فقد بصره وهو فى الرابعة من عمره فبدأ يدرب ذاكرته تدريبا دقيقا حتى أصبحت تساعده على حفظ كل ما يسمعه • ولما كبر بدا يعلم نفسه القراءة بحفر الحروف على قطع خشبية يتحسسها بأصابعه كما شهد المؤرخ سوزمين بذلك • وهكذا استطاع ديديموس الضرير أن يسبق **طريقة برايل بخمسة عشر قرنا** •• ونمكن من اتقان علوم كثيرة فألم بالشعر والبلاغة والفلك والهندسة والحساب ونظريات الفلسفة على تنوعها كما برع فى العلوم اللاهوتية ودراسة الكتاب المقدس حتى استحق أن يعينه القديس اثناسيوس مدرسا للمدرسة اللاهوتية بالاسكندرية •

وخلف ديديموس حوالى ٤٨ مؤلفا فيما فى اللاهوت (١) •

وهكذا فى كل العصور كما يقول الدكتور جمال حمدان (كانت فترات النشاط المدنى هى فترات الانتفاض الدينى •• حتى ليعد المدينة بعامة مدينة للدين بأصولها فى كثير من الأحيان وأن الشيوخ والأنبياء وليس فقط الملوك والحكام كانوا من زرعة المدن) (٢) •

وكان أشهر المدارس التى صادفها انتجاع العرب للاسكندرية غداة الفتح حوالى منتصف القرن السابع الميلادى ، **مدرسة (طيبه) أفاد** منها السريان والعرب فائدة كبرى ونقل العرب فيما نقلوا عن الاسكندرية « فلسفة الاسكندرانيين » أو فلسفة « أفلوطين » كما نقلوا الجغرافية والفلك والكيمياء والرياضة وغيرها (٣) •

وكان من أثر هضم العرب لفلسفة أفلوطين الاسكندرى الروحانية تقوية التصوف الاسلامى (٤) •

وبعد أن استقر الفتح العربى ، وبعد أن قر بهر العرب ، أكبوا على مدينتنا الاسكندرية اذ بهرتهم فلسفة « الشيخ اليونانى » كما يدعوه الشهرستانى أى أفلوطين المصرى الصعيدى ، ينقلون وينقلون •

كانوا يسمون الكيمياء (علم الصنعة) وعكفوا على الرياضة والطب ينقلون عن الاسكندرية حتى لتعد كتب جالينوس فى الطب وكتاب المجسطى لبطليموس مما ترجمت مدرسة حنين بن اسحق من دعائم النهضة العلمية فى العالم الاسلامى ولكنهم امام « انطونيس » حاروا

---

(١) كتاب (حضارة مصر فى العصر القبطى) للدكتور مراد كامل •

(٢) كتاب (جغرافية المدن) للدكتور جمال حمدان • ص ١٧٦ •

(٣) و (٤) كتاب (جامعة الاسكندرية) للدكتور ابراهيم جمعة •

وامام ديسكوريدس النباتي المصرى المعروف . فوجدوا المخرج من حيرتهم أن يقتنصوا كتاب (خواص العقاقير) ليصوروه فى العراق .

وكم عمرت خزائن بغداد بنفائس الاسكندرية مما نقلته عنهم أوربا فيما بعد ، عن طريق الاندلس وفي ابان الحروب الصليبية .

وكانما سخر العرب لنقل طب الاسكندرية (ابن ابجر الكنانى) و (سرجيوس الرسعنى) ثم حنين بن اسحق العبادى وان كان نسطوريا وقد نقل لهم فيما نقل عنا ، علومنا فى الهندسة والطبيعة .

وكتاب الخوارزمي (السند هند) خلاصة لآراء كلوديوس بطليموس الاسكندرى كما كانت جهود بطليموس و (ارتو) الاسكندريين أساسا لكل مباحث العرب فى علمى الفلك والهيئة . وعنهم ترجم الى اللاتينية والاغريقية حيث كان ركيزة لعلم الفلك الحديث .

– والتصوف الاسلامى الذى وقفت وراءه الاسكندرية ، منبع ثر من منابع الأدب العربى ، تماما كما كانت وراء (الميتافيزيقا) المسيحية . كانت نظرية أفلوطين فى قدم الله ، وصدور العالم عنه وراء نظرية المسلمين المشهورة (العقول العشرة) أو (الوسائط العشرة) كما كان أسلوبه فى الامتزاج بالله وراء نظريتهم فى الاتصال بالخالق وان اختلفت الوسيلة .

كما تأثر العرب بالافلاطونية فى زيها المسيحى ممثلة فى كتاب « ديونيسيوس » **Dionysius** الذى يتناول أسرار الالوهية وعلم الملكوت مما قبس عنه الكثير (اخوان الصفا) .

– ويلمح بعض الثقات وجه شبه بين كتاب الغزالى (المنقذ من الضلال) وبين كتاب القديس أوغسطين المعروف « الاعترافات » فان بين الكتابين (موازاة تكاد تكون تامة فيما يحكيه كل من الرجلين عن تاريخ حياته ، كما جاء فى كتاب أرنولد نيكلسون .

كما تأثر ابن عربى بأفلوطين تأثرا بعيد المدى يعكس هذا كتاب : « ابن عربى » حتى ليشك اسين بلاثيوس مترجم حياته فى صدق تجاربه الذوقية لحرصه على ادراج هذه التجارب فى التعريفات التقليدية للأفلاطونية .

وهكذا قام للنهضة العلمية العربية بناء على دعامة من مدينة الاسكندرية واستثارت أوربا سيرتهم فى العصور الوسطى فكانت

الافلاطونية ركيزة لفلسفة العصور الوسطى وهى الفلسفة المدرسية : Scholartic philosophy ونركت طابعها على الفلاسفة المدرسيين .

وتاثر العرب بالاسكندرية مرة أخرى بالواسطة أى عن طريق النساطرة الذين كانت الاسكندرية مرباهم العلمى . وقد نقل العرب عن هؤلاء منطق ارسطو الذى كان من اثره فيهم نشوء مذهب الاعتزال (١) .

لقد علل الأستاذ العقاد فى كتابة « ابن رشد » ، **الحركات الثقافية فى الغرب عامة** ــ خلافا للمستشرقين ــ بظهور الدعوة الفاطمية فى افريقيا الشمالية .. ورأى أن ظهور هذه الدعوة فى المغرب غيرت فيه كثيرا من وجهات الثقافة والسياسة . كما كان له الأثر المباشر فيما شغل الأوربيين بعد ذلك خلال القرون الوسطى من موضوعات الفلسفة الدينية ، وأهمها موضوعات النفس وخلودها وموضوعات العقل وعلاقته بالخلق والخالق .

ثم يرى الأستاذ العقاد ان الدعوة الفاطمية هى الدعوة الاسماعيلية بعينها لما كان الفاطميون ينتسبون الى فاطمة الزهراء أو الى اسماعيل ابن جعفر الصادق تمييزا لهم عن سائر العلويين .

وينتهى من هذا الى أن اولئك الاسماعيليين كانوا يشتغلون بالفلسفة **« ويرجحون مذهب الافلاطونية الحديثة »** .

ومن أتباع الاسماعيليين الذين نشروا هذا المذهب اخوان الصفا أصحاب الرسائل المنسوبة اليهم ، ومنهم مسلم بن محمد الاندلسى الذى نقل مذهبهم الى البلاد الاندلسية .

وقد شاع مذهب الاسماعيلية شرقا وغربا فى العالم المسيحى من جبل اطلس الى تخوم الهند وآسيا الوسطى ، وكان ابن سينا يقول : (كان أبى ممن أجاب داعى المصريين ويعد من الاسماعيلية) .

يقول توينبى (فى الفترة القصيرة التى عمر فيها المجتمع العربى، كانت مصر هى البلد الذى اشتد فيه نبض هذا المجتمع الذى كان ضعيفا خافتا فى غيرها من البلاد . وقد قدمت مصر لهذا المجتمع حافزا هو التربة الجديدة) .

---

(١) كتاب (شخصية مصر) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد (فصل مصر والاسلام) .

وحين انحسر الحكم الاسلامي عن الاندلس استقبلت الاسكندرية كثيرا من العلماء الذين تحمل اسماءهم الى اليوم بعض أحياء الاسكندرية ومعالمها كالشاطبى « والمرسى أبو العباس » .

وليست المرة الأولى التي تستقبل الاسكندرية فيها اللائذين فان ادوين بيفن يصف مكتبتها بأنها بوصفها أعظم مكتبة فى العالم القديم ، كان العلماء والفلاسفة الاغريق يتوافدون عليهـــا مـن جميع انحـــاء العالم (١) .

ويراها الدكتور صفر خفاجة (أهم ثغر يطل على قارات ثلاث يفد اليها النـاس من كل مكان ويلتقى فيها التجــار من كل قطر ، فنشطت تجـــارتها وازدهرت صناعتها ، وأصبحت بفضل البطالمة الأوائل كعبة للعلوم والفنون ومركزا للآداب .. **لجأ اليهـا الأدباء والعلمـــاء الذين ضاقت بهم بلادهم وضاقوا بهـــا** فتركوها وانتقلوا الى الاســـكندرية واتخذوا منها موطنا جديدا) (٢) .

وكانت الاسكندرية مع القاهرة مهجرا للعلماء العرب أيام سقوط بغداد فى يد التتار فنزح الى عاصمتى مصر ، الرجال العلماء وما استنقذ من تراث العباسيين بل استقدمت مصر الخليفة نفسه اليها وبهـــذا حفظت الخلافة الاسلامية نفسها .

وصف صاحب كتاب الاستبصار مدينة الاسكندرية وعمرانهـــا فى العصر الأيوبى فقال :

(والاسكندرية تعجب كل من رآهـــا لبهجتها وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها واتقان وسعة شوارعها وطرقاتها ، وهى برية وبحرية، وفيهـــا من النعـم والأرزاق والفواكه ما ليس ببلد مع طيب هوائهـــا وتربتها) .

وقال فى موضع آخر : (ومدينة الاسكندرية أعظم مدن مصر وبلاد مصر كلها فيها من العجائب والغرائب ما يعجز عنه الواصفون) .

ويقول ابن بطوطة :

(وهى الثغـر المحـروس ، والقطـر المأنوس ، العجيبة الشان ، والأصيلة البنيان . بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضـخامة والاحــكام ، مبانيها فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية

---

(١) كتاب (تاريخ العالم) نشره السير جون . أ. هامرتن ـ المجلد الرابع .
(٢) كتاب (شعر الرعاة) للدكتور محمد صقر خفاجة .

بجمال المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغـرب فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفه فاليها انتهاؤها وقد وصفها الناس فأطنبوا وفى عجائبها أغربوا) .

فاذا طوينا القرون سريعا ، مجاراة لايقاع العصر . وصــلنا الى اسكندرية القرن العشرين التى وقف عندها جمع من اليونانيين المحدثين . كتبت عنها الشاعرة اليونانية أليزابيث بساراس فى مجموعتها (البحار) عن منار الاسكندرية وبنات الاسكندرية ، وفى ديوانها (ليالى معطرة) عن شتاء الاسكندرية ..

وكتب كفافيس عن (المدينة) وأسوار المدينه ، وملوكها ، وبحرها وليلها ، وأمسياتها ، وشوارعها ، وحوانيتها ، ومعابدها ، وكنائسها .

كانت الاسكندرية حبه ، كمـا كانت محبوبة مواطنيه الشعراء « بريسيمراكيس » ، و « غلافكوس » ، و « لينرسيس » ، و « نيقوس »، و « نقولائيدس » ، و « قسطنطين قسطنطينيدس » ، و « نقولا فيلاس »، و « مارينو سينوروس » ، و « آلرى تروفير » .

ومن الشاعرات : مارى ينولى – اوبى بابا ستامو – اماليا نقولائيدس – والشاعرة بترونده باليولوغو التى رقرقت للثغر الجميل قصيدة طويلة اكتفى منها بقولها :.

اسمك موفق يا وطن روحى

يا عروس الفنون يا اسكندرية

ها أنت تهبين من سبات السنين ذات المرتقيات والمهابط

وتطلين على البحر بعين آكثر من عين منارتك سطوعا .

كم سفينة تهاوت على شواطئك الرملية .

– وبعد :

أمس انقضى واليـوم مرقاة الغـد ... اسكندرية آن أن تتجـــددى

يا غرة الوادى وســـدة بابه ... ردى مكانك فى البـرية يردد

قبضى كأمس على العلوم من النهى ... وعلى الفنون من الجمال السرمدى

وسمى النبـالة بالملاحم تتسم ... وسمى الصبابة بالعواطف نخلد

لا تجعلى حب القـديم وذكـره ... حسرات مضياع ودفع مبـدد

ان القديم ذخـيرة من صـالح ... نبنى المقصر أو تحت المقتـدى

٦ مارس ١٩٨٦

مؤتمر الاسكندرية ١٩٨٦

المراجع حسب ترتيب ورودها

● كتاب بونابرت فى مصر	تأليف كرسنوفر هيرولد ترجمة فؤاد اندراوس
● فيض الخاطر	تاليف الدكتور أحمد أمين
● معجم الفلسفة	تأليف بلدوين
● تاريخ الحضارة المصرية	مجموعة من الأساتذة
● كتاب شخصية مصر	للدكتورة نعمات أحمد فؤاد
● كتاب (مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى)	هـ · آيدرس بل ترجمة عبد اللطيف أحمد على
● الأدب اليونانى القديم	س·م· باورا ترجمة محمد على زيد وأحمد سلامة محمد
● قصة الحضارة	ول ديورانت ترجمة محمد بدران
● البحر المتوسط	اميل لودفج
● تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها	د· نجيب بلدى
● العالم القديم والمدنية الحديثة	سارتون ترجمة عبد الحميد صبره
● تاريخ الحضارة الهلينية	أرنولد توينبى ترجمة عبده جرجس
● علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب	دى لاس وليرى ترجمة د·وهيب كامل
● تراث العصور الوسطى	
● دائرة المعارف الاسلامية	مجموعة بحوث
● تاريخ الاسكندرية منذ اقدم العصور	محافظة الاسكندرية
● حضارة مصر فى العصر القبطى	د· مراد كامل
● جغرافية المدن	د· جمال حمدان
● جامعة الاسكندرية	د· ابراهيم جمعة
● تاريخ العالم	نشره هامرتين
● شعر الرعاة	د· محمد صقر خفاجة
● رحلة ابن بطوطة	

١ ـ الأقصر وثقافة الحضارة

هل هذه هى مدينتنا العريقة الأقصر ؟

منذ خمس سنوات لم أر الأقصر . وحين سافرت اليها الأسبوع الماضى لحضور مؤتمر (الذاتية الحضارية) الذى دعت اليه اليونسكو وأشرفت عليه مصرية حميمة الانتماء هى الدكتورة زينب الديب .

فى طريقى الى الأقصر ، استيقظت أشواقى اليها . وكنت فى الطائرة أحس الوقت طويلا وأنا أعلم كم من الساعات تستغرقها الرحلة بالقطار ولكنها لهفتى على الأقصر بلد المجد .

كان الوقت ليلا فسلمت روحى ، واستروحت هدوءها فى ارتفاع العظيم على اللغو ، وامتناع الكريم عن اللهو ، وابداع الأصيل فى القيمة واتراع السخى فى العطاء .

انها مدينة الآلهة « ميريت سجار » التى تصورها المصريون القدماء تتخذ مجلسها على جبل الشاطىء الغربى ، كما تعلو الشمس فى الصمت، تستمرىء الصمت ، وتستقرى النيل صاحب الأسرار .

وانتظرت النهار ــ عينى عليها ــ فماذا رأيت ؟

لم تحظ الأقصر بعناية .... لم تضف اليها الأيام شيئا محسوبا اذا استثنينا « المتحف » حتى النيل وله فيها شخصية خاصة وحضور مميز .... حتى النيل وصلت اليه العشوائية الحجرية فقامت على ضفته المبانى تحجبه عن الناس فضلا عن أنها تفتقد الجمال والذوق والسببية .

هل هذه هى الأقصر التى يهوى اليها الناس من جميع أنحاء العالم ليروا روائع العمارة ، وبدائع الآثار ؟

ألم تسمع وزارة السياحة ، أن السياحة علم وفن وصناعة لا يلمس السائح منها ، فى الأقصر ، شيئا ؟

ألم تسمع وزارة الثقافة أن الأثر ، يعنى حرم الأثر أيضا ؟ وهل أكوام التراب أمام معبد الأقصر ومعبد الكرنك ، حرم أم حرام ؟

ألم تسمع وتسمح ميزانية الدولة وهى بالمليارات وان كانت ديونا ندفع ثمنها من عرقنا وارادتنا معا أن هنا مجلى من مجالى مصر القيمة جلوته محسوبة اذ تدر أضعاف ما ينفق عليه .

هل مصر هي العاصمة ولو كان غيرها يحمل ريادات التاريخ وابتهالات الأولياء كالأقصر ؟

ان وزارة الثقافة تعيش على النهضة المستحدثة في حقل الآثار فهل الأقصر بآثارها الشامخة نهمل هذا الاهمال لأنها بعيدة عن أضواء للاعلام والاعلان ؟

ان وزارتي الثقافة والسياحة حسابهما عسير عن الأقصر . أما محافظة قنا فهي ثالثة الأثافي ... اني خلال اقامتي القصيرة رأيت تمزق الأصلاء الطيبين من أهل الأقصر لأن المحافظة تزمع اقامة كوبرى جنوب الأقصر على مسافة ١١ كيلو ؟ ترى لمصلحة من ؟ هل (لتصقيع) أراضي ملاك هذه المنطقة حين تتحول بعد الكوبرى الى أراضي بناء ؟ وفات المحافظة أن مثل هذا الكوبرى يقضي على كنوز الطبيعة والآثار في المدينة التي لم يبق لها غيرهما . انك مع الأقصر القديمة النقية تتمتع ببكارة الاحساس وعصر التاريخ وأصالة العراقة ، عراقة الأصل مع الأقصر ، نرتاح خاصة اذا كنت قادما مثلي من القاهرة المركبة التي تعلو بعضها بعضا بفضل مهرجان الكباري الذي يركب أكتافها .. فهل راقت اللعبة محافظة قنا ؟ نسيت هذه المحافظة أن الكوبرى وما سوف يتبعه على الأثر من مبان وصرف ودخان وتلويث البيئة والنيل ، سيكون معول هدم يقضي على آية محاولة للحفاظ على طابعها وتوريطها فيما يتبع التحديث من ويلات ؟

ليت محافظة قنا تستوعب هذه النذر وليتها قبلا تستوعب الأقصر حضاريا وثقافيا حتى تستطيع أن تتعامل مع مدينة التاريخ من منطلق حضاري وثقافي يتغيا وثوق الحضارة وسموق العلم لا حجرية المشروعات سيئة السمعة لزوم التجارة والشطارة لا الثقافة أو الحضارة .

أكتب عن الاقصر وأنا أحمل هموم القاهرة ونيلها ولكن عزائي أن حملتي أعقبتها حملات واعية وان كانت متباعدة على تجريف أراضي النهر ، والاعتداءات الآثمة عليه بالاستقطاع والهدم والبناء .

قضايا ماثلة وقضايا قادمة ليست القاهرة أولها وليست الأقصر آخرها .

٢ ـ الأقصر مدينة التاريخ والقيمة

الأقصر مدينة التاريخ والقيمه ، بل مدينة ما قبل التاريخ كما تقول الموسوعة الأثرية ، **أولى أن تكون محافظة** فانها لن تأخذ حقها من العناية الخليقة بها الا اذا كانت الادارة الاقليمية العليا فيها ، تلمس حاجاتهـا وتتفقدها تفقد المقيم لا الزائر أو المتفضل . ان الأقصر سياحيا أخطر شأنا من قنا .

ان أهل الأقصر الذين يتجرعون المرارة اليوم من الاهمال والاحساس بالغبن ، هم أولئك الذين خرج من بين صفوفهم أوائلنا وأوائل التاريخ الذين وحدوا القطرين .

ان أهل الأقصر وراء « أحمس » هم الذين حرروا مصر ، وطهروها من الهكسوس .. لقد كتبوا أنصع صفحات التاريخ المصرى من خلال ميتا وأحمس وتوحتمس بطل « مجدو » ورمسيس بطل « قادش » ..

مثل هؤلاء يكرمون ويؤثرون بالرعاية ... مثل هؤلاء لا يعيشون تحت رحمة التبعية التى لا تعرف عنهم فيما يبدو ، شيئا يستحق الذكر ، ولا تفعل لهم شيئا يستحق الذكر ..

« الأقصر » يطلق عليها « المدينة » فقط من اكتفاء وازدهاء .. المدينة على حد قول أنشودة وضعت فى الاشادة بطيبة فى أواخر عهد المملكة الحديثة : (انها تدعى « المدينة » وجميع المدن الأخرى تستظل بظلها لتكتسب العظمة بالانتساب اليها) .

ترى هل محافظة قنا ، قرأت مثل هذه الحقيقة التاريخية الثابتة ؟

حينما شيد رمسيس الثانى ، عاصمة له فى الدلتا بعد أن بات الغزاة يتربصون لمصر من الشمال والشرق ، كان خير مدح حظيت به ، قوله (انها تاج جميل ... على غرار طيبة) .

انها طيبة التى تعيش على آثارها التى بهرت أنظار العالم فى رحلة الربع قرن تحت اسم كنوز توت عنخ آمون والتى عادت بعد أن سُقى الصبر فى المطالبة بعودتها ..

انها طيبة عاصمة مصر من الأسرة السابعة عشرة حتى التاسعة

عشرة ٠٠٠ بل ان حضاريها ازدهرت كما يقول دكتور ايمارليس فى كتابه (الماضى الحى) سنة ٣٥٠٠ ق٠م٠ أى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ٠ ترى كم ألف سنة سبقت هذا الازدهار أو صنعته وأدت اليه ؟

انها طيبة مثوى الملوك أو وادى الملوك ٠ وحين ألف المهندس الفرنسى أورو Horeau كتابه : (بانوراما مصر والنوبة) سنة ١٨٤١ أى منتصف القرن التاسع عشر قال بعد أن أمعن فى وصف طيبة وآثارها ٠ (ان الأجيال جميعا لا تستطيع أن تنساها ، انها فوق النسيان) ٠ ثم ما يلبث الرجل أن تند عنه هتفة : (ألا ما أعظمه مكانا يبعث على التأمل العميق) ٠

ولكن يبدو ان محافظة قنا ، ليست منا فهى كما يبدو للعيان ، لم تسمع عنها ، بل تتأملها ، أو بأسلوب أدق لم تسمع عنها قيمة حضارية استوقفت الغرباء فى اجلال ٠

هذه « طيبة » الطيبة ٠٠٠ ولو أن مصريا كما تقول الكاتبة أليزابيث رايفشتال ، من عهد الأسرة الثامنة عشرة (شاهد طيبة فى ثوبها الرخيص الذى ترتديه اليوم ، لأنكر فيها مدينته الجميلة التى كانت تعج بالنشاط والحركة والتى شهدت فى وقت ما ، على ضفاف النيل لتصبح على مدى الأيام رمزا للثراء والعظمة والقوة) ٠

لقد انحدرنا بطيبة اليوم ، أى الأقصر ، الى بلدة ريفية كما تقول مؤلفة كتاب (طيبة) ، يخيم عليها الركود تحف بها قرى عفراء وحقول غبر مغطاة يكد فيها الفلاح من الفجـر حتى الغسق فلا يضمن تحصـيل قوته ٠٠٠ تلك هى طيبة اليوم ـ صدر الكتاب سنة ١٩٦٧ ـ ومهما كان من سحر تمتعت به قبل سنوات معدودة شأنها شأن العـديد من مدن الشرق ، فان ذلك السحر يتلاشى بسرعة تحت وطأة التجديد والتحسين لاجتذاب السواح والزوار ٠ فمن أول الشتاء الى آخره لا يطالعك فى طيبة الا السيارات تنهب الأرض بين نصب أثرى وآخر مثقلة بالزوار الذين لا ينقطع سيلهم ، لقد انقضى عهد السير على الأقدام ولم يعد الزائر يخرج فى الأمسيات الباردة فيمشى على ضفة النيل وسط الظلال المتراقصة ليزور الكرنك فى ضوء القمر ٠ فالطريق اختفت فيه ظلال الأشجار لتحل محلها أنوار كهربائية ساطعة ٠ وحتى وادى الملوك فى مدينة الأموات عبر النهر لم يستطع الاحتفاظ بغموضه ورهبته ٠ فالطريق الصحراوى المؤدى اليه أصبح شارعا معبـدا واسعا وارتفعت أعمـدة المصـــابيح الكهربائية على جانبيه) ٠

وأضيف : ان الأدهى من كل هذا ، **الكوبرى** ، الذى تزمع محافظة قنا ، اقامته ، ليتم مسحها وتشويهها ٠ لقد اعتدى الاهمال على « المدينة »

وتريد محافظة قنا أن تعتدى على (الطابع) وهو بالنسبة اليها ، رأس مال بلا حدود ·

من أجل هذا كله نطالب **باستقلال الأقصر فى ادارتهـا ، أى أن تصير محافظة ·**

وليس بكثير على عاصمة مصر كلها بالأمس ، أن تصير محافظة · هذا اذا أردنا اقالة عثرتها ، أو اقامة نهضتها ·

١ ـ نصف مصر الذى لاتعرفه

من الوادى الجديد أتحدث

وهو فى التاريخ الوادى القديم

فمصر بدأت رحلتها الطويلة على أرضه فى العصر المطير حين كان النيل فى النصف الثانى الذى نعيش فبه ، اليوم يشبه منطقة بحر الجبل تغلب عليه مستنقعات وأحراش استأدت الانسان المصرى جهودا جبارة موصولة ليجفف المستنقعات وينظف الأرض من الأحراش ويعدها للزراعة ٠

سفر طويل فى الحضارة انجازا واعجازا ، قام به الانسان المصرى قبل الزمان بزمان ٠

ومن هنا نرفض القول بأن مصر (هبة النيل) مع ارتباطى به وارتباط الحى بسر حياته ، ونبع وجوده ، ومجلى تاريخه ، وصانع النهار فى واديه ، ان مصر ، هبة النيل وهبة الانسان المصرى ٠

ودليلى أن هناك دالات أنها كثيرة ولكن واحدا منها لم تقم عليه حضارة كالتى قامت على ضفاف النيل فى مصر ٠

أعود الى الحديث عن « الوادى الجديد » « القديم » ٠

نصف مصر الذى لا نعرفه ٠

نصفها حقيقة لا مجازا ٠

فمصر مساحتها مليون كيلو متر مربع ٠

(والوادى الجديد) مساحته ٤٥٨ر٠٠٠ كيلو متر مربع أى ٤٥ر٨٪ من مساحة مصر ٠

فى هذا النصف يعيش ١١٧ ألف نسمة (مائة وسبعة عشر ألف) و ٤٨ مليون فى النصف الآخر (ثمانية وأربعون مليونا) ٠

ونحو ربع هؤلاء فى القاهرة وحدها !!

وتزدحم بالطبع القاهرة حتى نكاد نخشى عليها ـ لا كان ـ الاختناق٠

سلمت للدنيا وسلم تاريخها ٠

وحين يكربنا الزحام أو حين يروعنا الزحام فى القاهرة ، نصرف

الملايين لمحاربة (الانفجار السكانى) المزعوم ... والمشكلة الحقيقية خلل **التخطيط السكانى** ، والتوزيع السكانى .

فسيناء وهى ٦٪ من مساحة مصر أو ثلاثة أمثال مساحة الدلتا يقطنها نحو ١٥٥ ألفا (مائة وخمسة وخمسون ألفا) .

والوادى الجديد ، نصف مصر ، يقطنه ٥٪ من سكان أى حى شعبى فى القاهرة ... حى واحد فقط .

وفى (الفرافرة) احدى واحات ثلاث بالوادى الجديد ، ألف وخمسمائة فدان خصبة جاهزة تقوم عليها بيوت خالية لا تجد من يعمرها .

ويعمر الفلاحون المصريون ، العراق أى بلادا أخرى !!

مفارقات ومتناقضات تثقل على الوجدان المصرى .

ولا ألوم الفلاح المصرى الذى هاجر لأول مرة فى تاريخه وكان اذا انتقل من قريته الى المدينة المجاورة ، كان كالقصبة حين تنزع من مغرسها ، تصير شبابة ترسل النغم ، شجى (بفتح الجيم) كقطرات الدموع ، فيقول (أنا كل ما أجول التوبة يابوى ترمينى المجادير) .

وتقسم زوجته بغربتها .

ولكن ضغط الحاجة ، واغراء الحافز أسلمته الى (المجادير) .

والحافز هنا بيت وأرض وامكانات زراعية .

وعلى ذكر الحافز أقول ان البدل فى الوادى الجديد ٣٠٪ بينما هو فى بعض المجتمعات الجديدة ١٠٠٪ .

والوادى الجديد بالطائرة خمسون دقيقة .

أما بالبر فله طريقان مرصوفان .

١ ــ من الصعيد .

٢ ــ من الهرم الى الواحات البحرية التابعة للجيزة الى الفرافرة . الى الداخلة الى الخارجة .

ولكننا نهاجر الى العراق أو نسافر الى ليبيا .. وبيننا وبينها بحر الرمال الأعظم .

فلو أن الاجتماعات الرسمية التى تنعقد وتنفض بحثا عن حلول اقتصادية وحلول اسكانية وحلول الخ ، دار بخلدها ، الوادى

الجديد ، أو اتسعت رؤيتها فاستشرفت الى الوادى الجديد ، وخصصته تخصيصا علميا ، الكلمة فيه للتخصص ، لضاعفت مصر **زراعتها وسياحتها، وصناعتها** ، ولتفاوت بهذا أو امتصت أزماتها جميعا ٠

ولكننا لا نعرف الوادى الجديد معرفة الدراســة الا قلة قليلة من المصريين ولا نعرفه معرفة الرؤية والمساعدة الا ندرة نادرة ٠٠٠ حين كان المصريون القدماء لا يغيبون عنه ولهم فيه ٠٠ آثار بين معابد ومصاطب يزورها السياح لا الأبناء ٠

وفى قرية (بشندى) بعثة كندية للحفر عن الآثار !!

وفى قرية (دوش) بعثة فرنسية للبحث عن الآثار ٠

وبعثة أخرى فرنسية أيضا فى قرية « بلاط » ٠

حتى الرومان ، عرفوه ، فقد كان الوادى الجـديد مخزن حبوب الامبراطورية الرومانية ، أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس٠

هذا الوادى الجديد به ملايين الأفدنة الصالحة للزراعة بل الجاهزة ٠ مثلا سهل الزيات الذى يمتد ما بين الكيلو ٩٧ والكيلو ٨٣ طولا أما عرضا فانه يمتد فى كلا الجانبين الى أربعين كيلو متر ٠

وفى (أبو منقار) ٠

و (غرب الموهوب) ٠

أمامى أرض طميية واعـدة لا ينقصها لتفجير طاقات الخصب بهـا الا دراسة للمياه الجوفية ٠٠٠ وحافز حقيقى للانسان الزارع ٠

أما الأراضى المزروعة بالفعل فانى أحسبهـا من فورة النبات ومن الأخضر الزمردى أرضا عفية تتفجر حيوية ونبضا ٠

أما مجال السياحة ففى الوادى الجديد ، عيون معدنية ساخنة وباردة تشفى عـدة أمراض ٠ لهذا يؤمها السياح من أصقاع بعيدة فى الشرق والغرب ٠

وفى الوادى الجديد (مدينة الخـلود) التى تسمى (البجوات) عن الاسم العربى (قبوات) ٠ أما اسمها الفرعونى فهو (من آمون) بفتح الميم أى حب آمون تم « هيشر » أى المحراث فى الهيروغليفية رمزا الى خصوبة المكان ٠

وفى حكم الرومان آوى اليها مسيحيو مصر ، وبنوا خلوات بها على شكل القبو ، لباذا بها من الاضطهاد ، ولواذا بالعقيدة من بغى الطغاة . فاطلق وليها فى العصور المتأخرة « القبوات » وحرفت فى اللهجة الصعيدية الى « جبوات » ثم صارت « بجوات » .

هذا المكان يزوره المسيحيون من جميع أنحاء العالم رمزا لتوحد المسيحيين وأملا فى عودة هذا التوحد الذى يتباعد بينه ما بين البروتستنت والكاثوليك .

اذن هذا المكان الرائع مركز جذب **لسياحة دينية** .

ألم أقل ان الوادى الجديد « نصف مصر الذى لا تعرفه » !

وفى الوادى الجديد معبد « هيبس » سمعت حارسه وهو شاب فارع الجسم ، متواضع الثياب يقول : (اننا ننفض التراب عنه بخشومنا) بأفواهنا ! وتذكرت فى هذه اللحظة ، المعاول التى تعبث فى مسجد نفيس هو (الحرم المصرى) أى مشهد الامام الحسين .

ان الانتماء الى هذا البلد يدمره سعار المال تدميرا ...

وينتشر على معبد هيبس « مفتاح الحياة » و « مين روء » اله التناسل كانوا يعرفون هذه الحقيقة : **أغلى شىء الانسان** .

والأرض فى واحة (الداخلة) كأنها أهرامات مبثوثة .. أهرامات طبيعية ، شكلتها الرمال السافية التى لها فى الصحراء الغربية قدرة نحتية مخيفة كما يقول الدكتور جمال حمدان حتى ليقارن دورها فى تشكيل الصحراء بدور النيل فى تشكيل الوادى (شخصية مصر ج ١ ص ٢٩٠) . وأهل الوادى الجديد يسمون هذه الرمال (غرود) . ولعل هذا الشكل الهرمى للصخور ، هو الذى أوحى الى الموسوعى الأول فى تاريخ الانسان ، « امحتب » ، هندسة الهرم المدرج بسقارة .

وفى الوادى الجديد ، آثار اسلامية رائعة ، تجتلى فى قرية (القصر) ، بقصرها الكبير الذى ينسبه الأثريون مرة الى العدل ، محكمة للفصل فى قضايا الناس وينسبه آخرون الى العلم ، مدرسة لتنشئة الأجيال .

والعدل والعلم قيمتان عاليتان .. فالتفسيران مقبولان ..

وفى الوادى الجديد مسجد بنى سنة ٥٠ هـ (خمسين هجرية) .

مرة أخرى أقول ان المصريين الأوائل ، والمصريين فى العصر

البيزنطى ، والمصريين المسلمين فى أول عهد مصر بالاسلام ، كلهم عرفوا الوادى الجديد .. نصف مصر الذى لا نعرفه نحن المحدثين .

وفى الوادى الجديد الطبيعة بنقائها لم يلوثها ما فى المدينة من قمامة كربونية أو قمامة صوتية بالضجيج ، أو قمامة ضوئية بالنيون ، ألوانا .

الطبيعة فى الوادى الجديد ، رحبة ، لم يزحمها عشوائية معمارية .. كم تفوق بيوت (بشندى) و (موط) و (القصر) ... هذه البيوت الجميلة المعبرة التى بناها أهلها بأيديهم من الحجر الرملى والطفلة ... كم تفوق هذه البيوت ، علب الكبريت المتراكمة رأسيا فى ناطحات ، تنطح الذوق والأعصاب ، لا السحاب ... طبيعة تغسل أدران النفس فتعود طفلة لم تعرف الاثم أو الخطيئة .

طبيعة مشرقة متألقة فيها بكارة الاحساس وبهجة الرؤية .

* * *

الوادى الجديد ، نصف مصر ، مساحة .

والوادى الجديد ، نصف مصر ، سياحة .

سياحة صحية ، وسياحة طبيعية ، وسياحة دينية .

ولكنه النصف الذى لا نعرفه ... نصف مصر .

وقد حرصت فى الوادى الجديد على زيارة سجن المحاريق ، حيث كان الكتاب والسياسيون يعيشون ، قدرهم ، فيه وقد ألغى عام ١٩٦١ . (ألف وتسعمائة واحد وستين) .

ولما كان نزلاء هذا السجن من المثقفين وأصحاب الرأى فقد حولوا السجن الى دار للفن !! اذ بنوا بأيديهم فى ساحته مسرحا ، ورسم الرسامون منهم لوحات جميلة على الأبواب .. أبواب الزنزانات ... ومن هؤلاء الفنان حسن فؤاد الذى وقفت طويلا أمام لوحته على باب زنزانته وقتئذ .

نوافذ هذا السجن فتحات طولية قبيل السقف ، فلما ألغى استخدموه مزرعة دواجن وهنا استحدثوا نوافذ منخفضة ليتمتع الدجاج بالشمس والهواء !! .

على كل حال لقد سخر الانسان المصرى كعادته من الحدث واستعلى على المحنة فملأ العزلة بالرسم والنحت والكتابة ... لقد علمه النهر .

الاصرار ، حين استمع الى نداء النيل وهو يكون الدلتا عاما بعد عام متحديا البحر ... أخذ يرسب فيه فيتراجع البحر كل سنة حتى وقف عند موقعه الحالى .

واستوعب المصرى الدرس ووعاه .

وأصبح العمل الدءوب علامة عليه .

وأصبح الصبر الواثق قدرة لديه .

والايمان الراسخ رصيدا فى قلبه وكنزا مكنونا .

وهـذا سر امتصاصه للمحن ، وقهره للصعب ، واستعلائه على الأحداث ووثوقه بالله ويقينه فى النصر ... فى النهاية .

انى أقترح أن يقام على أرض هذا السجن مدينة للفنون الجميلة حيث المنطقة فيها الكثير من فنانى الخزف والنحت يكتبون حياتهم بالتشكيل وحيث الصمت المشحون الذى يعين على التأمل والخلود الى العمل .

والعمل الجميل دائما يولد حيث يبلغ الصمت أعلى ذراه .

والآن ماذا عن ربوة الفوسفات ؟

ماذا عن تخطيط اسرائيل للتسلل الى الوادى الجديد .

ماذا نحن صانعون ؟

علامات استفهام نجيب عليها بمشيئة الله ، غدا .. وان غدا لناظره قريب .

القاهرة ــ فبراير ١٩٨٥

٢ ـ نصف مصر الذى لانعرفه

من الوادى الجديد أواصل التعريف ويتصل الحديث وما انقطع فقد دار فى الحلقة الأولى عن مزاراته الدينية .. عن امكاناته الزراعية ... عن كنوزه السياحية ... عن حلوله الاقتصادية والقومية .

وقفتى اليوم عند ربوة (أبـو طرطور) بعد أن غدت من معـالمه الواعدة ...

هذه الربوة الغنية بالفوسفات تم اكتشاف كتلة بها تحتوى على ٧١٥ مليون طن من الاحتياطى المؤكد من خام الفوسفات المحتوى على ٢٥ر٣٪ من خام اكسيد الفوسفور ٢ أ .

وبهذه الربوة تحت الأرض منجم للتعدين واستخراج الخام بالطاقة اللازمة لمصنع التركيز .

كل هذا تم فى المدة من ١٩٦٠ الى اليوم .

والآبار الآلية التى حفرت وعددها ٣٧١ تغطى مساحة تزيد على ١١٠ كيلو مترا مربعا (مائة وعشرة) وهذه المساحة تمثل ١٠٪ فقط من أرض الربوة الحافلة بالفوسفات والتى يبلغ سمك الطبقات الفوسفاتيـة بها ٦ر٣ متر .

وفى ربوة (أبو طرطور) شاهدت لونا عزيزا من الانتماء الى مصر .. شاهدت الوجوه السمر النبيلة سعيدة بعملها الذى يعزلها فى الصحراء .. سعيدة بأنها حلت سريعا بالنفاذ المصرى محل الخبراء الأجانب على أعلى مستوى الشباب الجامعى وحده . بل ان العمال المصريين بذكاء الفطرة التى تقف وراءها ألوف السنين الحضـارية استوعبوا الأجهزة التكنولوجيـة الدقيقة ، وصاروا منجما بشريا أغلى كثيرا من مناجم الثروات .

ربوة (أبو طرطور) لا يملك الوجدان المصرى ، الا الصلاة عندها لله واهب النعم .

ربوة (أبو طرطور) فى عينى ، قسمة جميلة من قسمات مصر التى تتبدى فى الصحراء وتتهدى فى الوادى فلا أدرى أيهما أجمل .

والآن بعد هذه اللمحة للوادى الجديد ، ما عسانا صانعين به ؟

أليس غريبا أن يفرض هذا السؤال نفسه على الساحة المصرية بعد أن

استطاعت السعوديه بدون مياه جوفية أو أرض طميية أو نيل أو بحيرات عذبة أن تزرع القمح وتصل به الى الاكتفاء الذاتى ثم تتسلل المعونة الغربية الى الوادى الجديد بعد القديم ·· لماذا ؟

ان الوادى الجديد يستطيع أن يكفى حاجة مصر الى القمح . ويحفظ عليها ، « ارادتها » ··· وحرية القرار ·

وأتذكر مديرية التحرير ··· وأتفكر فى الصالحية فلا أشك فى أننا أصبنا بحول تعميرى فغدونا لا نرى ما أمامنا من كنوز الخصب فى الوادى الجديد ·

بعض الحلول أطرحها من موقع السياحة النفسية فيه قبل جولة المكان ·

ـ وطنوا الشباب المصرى به الذى يرضى بالعمل من أى مستوى فى الخارج ·· والتوطين هنا : أرض وبيت وامكانات زراعية كما أشرت ·· كما فعلت العراق · رشدوا خطاه قبل أن نضيع من قدمه ، الطريق ·

ـ إعطفوا مسار الدراسات العلمية الى الوادى الجديد نستخرج خيره كما فعل مخلصون فى ربوة (أبو طرطور) ·

ان الوطنية علم بالوطن ·· والمحبة كما يقول المتصوفة :

« بذل المجهود » ·

أحد طلابى رسالته عن الوادى الجديد ·

وهذه الرسالة ترجمها مع أهل الواحات صناعات نسجية وفنونا شعبية ، وأياما معهم غدت أعواما ···

ـ خريجو كليات الزراعة فى جامعاتنا ، هذا مجالهم ··· مجال للاستصلاح والاستزراع والاستغناء أجدى كثيرا من مكاتب الحكومة وأغلال الوظيفة التى تقتل الطموح أو تحبطه ·

ـ الاعلام الذى يبدو أنه اكتفى ببرنامج يتيم عن الوادى الجديد · هنا مادة للصورة والكلمة والدعوة والتعريف ·

عرفوا المدينة ، بالصحراء ، التى كانت قديما ، للانسان المصرى مرادا وموردا الاعلام الشامل صحافة واذاعة مرئية ومسموعة ·

ـ وجهوا الرحلات الجامعية والمدرسية الى الوادى الجديد ·

ان لم يعرف أبناؤنا كبارا وصغارا مصر ، ويروها فى السهل والجبل ٠٠٠ فى النيل ٠٠٠ فى الوادى الجديد والوادى القديم فلن يقدروها حق قدرها بمجرد التلقين فى المدرسة ٠

دعوهم تكتحل عيونهم من واد ينادى على بنيه ٠

ـ السياحة التى غدت اليوم صناعة وعلما وفنا ، تنحصر عندنا فى الفندقة ٠٠ عدد الليالى والأسرة والنزلاء ٠

انتبهوا أيها السادة فى المكاتب المكيفة ٠٠ نصف مصر يحتاج الى التعريف به ولكن هل نحن نعرفه ؟ لنعرفه أو نعرف به الآخرين ٠٠٠ هل فاقد الشىء يعطيه ؟ أليس كذلك يا وزارة السياحة ؟

الحوافز الحقيقية السخية تشكل عنصر جذب والمثل عندكم : العراق الذى جذب مليونين من فلاحينا فأينع هناك الماحل ، وأمرع القحط ، وأزهر الجديب ٠

أما هنا فهل من يجيب ؟

وأخيرا أدعو الدكتور الجبلى والدكتور يوسف والى وزير الزراعة أن يقفا وراء الوادى الجديد وخاصة أن محافظه أستاذ زراعة الحوار معه يؤتى الثمرات ٠ ولنعجل بهذا الاجتماع وخاصة أن اسرائيل تحوم حول الوادى الجديد وتعرض على الحكومة المصرية ، اقامة مركز اسرائيلى لدراسة المياه الجوفية بزعم تقديم خبرتها فى زراعة الصحراء ٠

ونحن لا نريد تجربتها ٠٠ نحن بعلمائنا فى غنى عن خدماتها ذات الغرض الخبىء ٠٠٠ اسرائيل لا تعطى خيرا ولكن تعتدى بالاقتطاع أو الانتزاع أو الابتلاع سافرة أو متسللة وراء مشروعات هى الغشاء الذهبى على الناب ، والغطاء الوردى على المخلب ٠

لقد بدأت من جديد الزراعة والرعى فى واحة (الخارجة) وفى واحة (الداخلة) وبدأت الصناعة ترتكز على فوسفات (أبو طرطور) وبدأ التعدين يقترن بمنجم الحديد فى الواحات البحرية ولو أنها تابعة اداريا لمحافظة الجيزة ٠

يقول عالمنا الدكتور جمال حمدان :

(لكن الانقلاب الفذ هو الفرافرة لا شك ٠٠ فهذه الواحة القزمة « فرفور » الواحات سابقا ، تبشر بأن تقفز الى الصدارة بين الواحات جميعا فقد اتضح من الأبحاث الحديثة الأخيرة أنها تنطوى على أكبر خزان

جوفى بين واحاتنا من ناحية ، وانها تضم أكبر رقعة صالحة للزراعة على الاطلاق • فاذا أضفنا انها تتمتع بأعدل مناخ واحى ثم الموقع المتوسط بين كوكبة الواحات ، ادركنا ما يمكن أن ينتظرها من مستقبل وافد حتى لقد رشحها البعض عاصمة للوادى الجديد) (شخصية مصر جـ ١ ص ٢٢٥) •

فلنكف اسرائيل عن التسلل الأفعوانى الينا تحت ستار البحث العلمى ••• فنحن لم ننس بعد ، عالمنا يحيى المشد ، ولم ننس بعد مشروع الجنيزة وأحابيلها فيه ••• ثم أننا عندنا الأبحاث والباحثون والدراسات والدارسون ونحن نعرف أرضنا علميا حتى ان تقاعس التطبيق العملى ، ولكن شيئا ألبتة لا يسوغ الركون الى اسرائيل أو يبرهن على حسن النية من جانبها وهو بالقطع ، معدوم •

ان كل ما نحوم حوله اسرائيل ، خارج النمن ••• له فحيح • والتجارب ماثلة ••• وقد كابدناها فلم تعد العبرة بحاجة الى ذكاء شديد •

القاهرة – فبراير ١٩٨٥

مصر والنهب متعدد الجنسيات !!

هذا الاسم أو الصفة ، فنـــاع يحمي وراءه مركز النقل الحقيقي أو مركز القوة الفعلى ·· فهذه الشركات تحرص على أن تســلك فى تكوينها عدة أسهم رمزية لأشخاص من جنسيات مختلفة حين نكون حصة الأسد فيها لبلد واحد هو الذى يسيطر وراء التعدد المصنوع للتغطية وهى بهذه الصفة ، سلاح من أسلحة الامبريالية الجديدة ·

فصفة « تعدد الجنسية » التى تتمتع بها تلك الشركات (لاتعنى فقط أن هذه الشركات قد تخلصت من بعدها القومى واكتسبت جنسيات عديدة بقدر ما تملك وتسيطر على المشروعات والشركات فى العالم ـ وخاصة فى البلاد النامية ـ حيث تثير قضايا هامة فى الواقع الاقتصادى والاجتماعى وأولها مسألة الولاء حيث يتجـه ولاء الشركات التابعــة للمؤسسات الأجنبية فى أية دولة الى الشركة الأم والدولة التى يقع فيها مركزها الرئيسى ·· ومن ثم فان ما يطلق عليــه (الشركات متعــددة الجنسية) هى بكل المعانى شركة قومية مكانا أساسيا فى اقتصاد ومجتمع الدولة المتقدمة الأم ·· وتحتفظ هذه فى يدها بكافة القرارات الأساسية وبمهمة التخطيط والحسابات والرقابة ·

ولقد كانت هذه الشركات أداة الاستعمار القديم فى القرن التاسع عشر وسراياه اذ انتشرت فى مناطق نفوذه ، قوة ضـــاربة تسـتغل المزارع والمناجم وتنشىء البنوك مستندة الى وجوده العسكرى والسياسى ·

وهى فى القرن العشرين تقوم بالدور نفســـه مع التشكل وفقـا لمقتضيات العصر والتطورات ولا أقول التغييرات ، التى طرأت على أسلوب الاستعمار فى القرن العشرين ·

انها « العبارة الاستعمارية » بما تتحرك خارج حدودها الاقليمية متغلغلة فى بلاد الآخرين · (ففى عام ١٩٣٩ كانت ١٨٧ شركة أمريكية كبيرة قد نجحت فى اقامة ٧١٥ فرعا صناعيا خارج الولايات المتحدة ، منها ٣٢٥ فى أوربا و ١٦٩ فى كندا و ١١٤ فى أمريكا اللاتينية والباقى موزع على المناطق الأخرى فى العالم) ·

وفى السبعينات ازداد توغل الشركات المتعددة الجنسيات فى البلاد النامية (فقد ارتفع المعدل السنوى للاستثمارات الخارجية الخاصـــة

والمباشرة فى الدول الناميه ــ والتى تقوم الشركات المتعددة الجنسيات بالجزء الأكبر منها ــ من حوالى ٣ر٢ مليار دولار دولار خلال عقد الستينات الى حوالى ٧ر٦ مليار دولار سنويا خلال الفترة ١٩٧٢ ــ ١٩٧٨ ٠

هذه الشركات المتعددة الجنسية تتغلغل وتتغول فى البلاد النامية حتى أن بعضها أصبح أعظم قدرة من دول قوميه عديدة حتى فى أوربا الغربية حتى آسيا وأفريقيا ٠٠ وحيث ان قواعدها الرئيسية فى البلاد الصناعية فتأثيرها الثقافى وأسلوب ادارتها للعمل ، وطابعها الأجنبى المقتحم من المحتم ان يتناقض مع الانماط المحلية ــ وفى حالة الحكومات الأقل تحضرا ، كثيرا ماتهيمن هذه الشركات نتيجه لما توافر لهـا من امكانات رأسمالية وتكنولوجية وقانونية ، على المجتمع بصفة شاملة ٠

لقد لاحظ « ستيفن هايمر » ان هذه الشركات قادرة على تحقيق معدلات ربح على استثماراتها فى الخارج أعلى بكثير من معدلات الربح فى داخل دولها فى مجالات استثمارية مماثلة ويرجع هذا الفارق الهام فى الربحية الى كون هذه الشركات تتمتع بدرجة عالية من الاحتكار للتكنولوجيا وللمعرفة التكنولوجية وللتنظيم والادارة الحديثة وللخبرات والكفاءات المالية المتخصصة وتتمتع بقدرة تمويلية هائلة داخل بلدها الأم وفى الأسواق المالية الداخلية ٠٠ وداخل الدول النامية نفسها ٠

هذه الشركات المتعددة الجنسية ، المحدودة المسئولية ، حذرت منها الهيئات العالمية الآتية :

★ منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية فى اجتماع باريس الذى عقد فى يوليه ١٩٧٦ وضربت مثلا لها شركة لوكهيد ٠

★ السوق الأوربية المشتركة ٠

★ الجمعية العامة للأمم المتحدة ٠

★ منظمة العمل الدولية ٠

يقول كتاب (الجوانب القانونية للاستثمارات العربية والأجنبية فى مصر) ٠

يتعين على فريق المفاوضين المصريين ان يكونوا على دراية تامة بأهداف تلك الشركات ومدى تأثير النشاط الذى تقوم به بالنسبة لكل مشروع على حدة ، على الاقتصاد المصرى ككل واستغلال كافة الوسائل الممكنة مع تلك الشركات لوضع شروط نتجنب بها مخاطر الانزلاق فى فك الاخطبوط المخيف وتخفى من أمامنا صورة الوجه القبيح لتلك الشركات ٠

ونتمتع هذه الشركات أيضا أو قل لاتتورع عن استخدام الخدع اللفظية لتغطية تدليسها ونياتها البعيدة المدمرة ٠٠ والمثال قريب ويقوم على أرضنا ٠٠ فمشروع هضبة الأهرام ، بدأ بدخول شركة جنوب الباسفيك من الباب المفتوح الانفتاحى ٠٠ وعند التعاقد أضافت فى العقد عبارة لم يشعر بها الجانب المصرى ٠٠ عبارة صغيرة الحجم فادحة المضمون عبارة من لفظين هما (الشرق الاوسط) فكانها شركة جديدة اسمها جنوب الباسفيك للشرق الأوسط ولا توجد شركة مسجلة بهذا الاسم ٠٠ وهنا تعاقدت مصر مع شركة وهمية !!

وهنا يفضح التخطيط فهى لاتفعل هذا الا اذا كان هناك غرض خبىء مسبق ، يضمر النهب والهرب وعندئذ لاتجد الحكومة المصرية شخصية معنوية أى شركة حقيقية تقاضيها ٠٠ وهذا ماحدث ٠

انها شركة استحدثوها ساعة ابرام العقد مع وزارة السياحة دون أن يقدموا – وهذا بدهى – عقد التأسيس لأنه أصلا لا وجود له حتى اننا عندما طالبناها فى المحكمة بعقد التأسيس لنتبين صفة « جيلموز » أحد الشركاء اسقط فى يدها وقد نص العقد ، على علاته على تنمية السياحة على أحدث الأساليب العلمية المتطورة فى هضبة الأهرام ورأس الحكمة فاذا بها تبدأ بتقسيم الأرض وبيعها قبل ان تنجز التزاما سياحيا واحدا خلال سنة وثمانية أشهر !!

وجملة بيع ٥٪ (خمسة فى المائة) فقط من حصة أرض الهضبة ، فى الداخل والخارج ، وهو ممنوع – أربعة ملايين من الدولارات قبضتها الشركة مقدما قبل أن تبدأ فى المشروع مخالفة القانون رقم ٥٢٠ لسنة ١٩٤٠ فى البنود ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ اذ باعت الأرض قبل صدور مرسوم التقسيم ، والقانون ١٢٣ لسنة ١٩٥٨ الخاص بتنظيم تملك الأراضى الصحراوية اذ لم تحصل الشركة على الموافقة ٠

فعلت هذا بداءة مع أن حصتها فى المشروع مليونان دفعت منها نصف مليون ويسدد الباقى على أقساط سنوية على خمس سنوات !! ثم شرعت تقترض بفوائد على حساب المشروع !! الذى حولته الى مجمع اسكانى على هضبة الأهرام وليس هذا مهمة سياحية الا اذا كان هربا يتوارى خلف السياحة لتتمتع بالتسهيلات السهلة فى السياحة والاعفاء من الضرائب وتحويل العائد أو استبقائه أصلا بالخارج ٠

ان أبرز الوالغين فى هذا المشروع « بيتر مونك » هنغارى الأصل ، كندى بالتجنس ، انجلزى بالاقامة ، هونج كونجى بالعمل قالت عنه

المجلة الكندية الاقتصادية (بيترمونك) أول رجل يعطى تفويضا على بياض لكى يعبث بالأهرام Munk was the first to be given carte planche to trifle with the pyramids

لقد أحدث المشروع على حد قول أحد الشركاء فيه « جيلمور » (توترا فى مجتمع الاستثمار عند سماع أخبار الخبطة المصرية الكبيرة وعانت أسهم ممتلكات جنوب الباسفيك من هبوط مفاجىء) ·

وقد كشفت هذه المجلة فضائح « مونك » و « جيلمور » فى كندا وإستراليا وفيجى قبل قدومهما الى مصر ·

هذه « عينة » منال من الشركات المتعددة الجنسية التى ابتلينا بها · القصة طويلة مزيرة اكتفى منها بهذا لأننا عشناها يوما وقد ملأت تفاصيلها كتابا كاملا غير التقارير المذهلة ·

وهكذا تقع الدول النامية فى اخطبوط من التدليس والتبادل التجارى الابتزازى وغير المتكافىء والمرسوم لصالح دول هذه الشركات بحيث تستورد خيرات البلاد النامية ، بأبخس الأسعار وتصدرها لها بعد تصنيعها بأبهظ الأسعار ·· اخطبوط من فرض سلع معينة وكماليات لا حاجة ماسة اليها وتغيير عاداتها الاستهلاكية لتصريف الفائض والبائر أو المن عليها من ثقب قطارة ، بصناعات براقة ، شركا منصوبا لأستيراد عمالة فنية وخبرة فنية بأرقام فلكية مما يورث التدهور فى الوضع الاقتصادى ·

اخطبوط من تسرب الأرباح مع أساسيات رأس المال الى الخارج بعيدا عن رقابة الدولة ·

اخطبوط من التحلل من الضرائب العالية مع المبالغة فى أسعار استيرادها لصالحها خالصا ·

أخطبوط من استدراج الدول النامية فى عملية وجود فى المشروعات ، ببيع غوالبها من أرض ومبان ومواد أولية تستنزف حتى تنفد أخطبوط من اكتساح ونسف صناعات وطنية تقع صرعى على أرضها أمام منافسة أجنبية غير متكافئة فتضطر الى البيع الجبرى أو الذوبان أو الاقتراض من بنوك أجنبية هى فى الواقع شريكة فى المخطط التدميرى ·

هذه الشركات تعمل على اذكاء التفاوت بين الدخول والطبقية الاجتماعية التى تتحول الى قدرة شرائية استهلاكية تمتصها هذه الشركات المتعددة الجنسية اذ تجد فيها سوقا لمنتجاتها ومرعى غريض الكلأ

للاستهواء والاستهلاك ٠٠ وبهذا تصب الدخول الجديدة فى خزائن الشركات المتعددة الجنسية ، وهذه الدخول على قلة نسبة أصحابها العددية تمثل ٤٠٪ من الدخل القومى ٠٠ وهكذا تقع البلاد فريسة غير منظورة للشركات متعددة الجنسية ٠

حتى العمالة المحدودة والمقصودة والمحسوبه التى تستعين بها الشركات المتعددة الجنسية يتم تخديمها وتوظيفها للاضرار بمصالح البلاد المستهدفة وذلك بحرمان الاستثمار الوطنى من قدراتها العالية فينخفض الانتاج المحلى ثم يرتفع معدل البطالة فى المجموع وفى النهاية فان ما تعطيه هذه الشركات باليمين تأخذه بالشمال بعد أن تزيد هوة التخلف عمقا لأنها لا تعيش الا على تخلف الآخرين لتتبيعهم اقتصاديا والتجارب التى تؤيد هذا كثيرة فى البلاد التى فتحت أبوابها للشركات الدولية والمتعددة الجنسية كالبرازيل وكينيا ٠

ويشير تقرير الأمم المتحدة عن الشركات متعددة الجنسية الى أن كثيرا من الدول النامية يبدى قاقه حول نوع التكنولوجيا التى يمكن أن تحولها له هذه الشركات وما اذا كانت ملائمة لظروفها خاصة فى علاقتها بالمشكلة التى يضعها فيض العمالة وندرة رأس المال والحجم المحدود للأسواق القديمة ٠

وقد لاحظ التقرير أن هذه الشركات تتعمد عدم التجديدات التكنولوجية حتى داخل فروعها فى البلاد النامية الا بالقدر الذى يمكن اهماله ٠٠ وعلى هذا فان مستوى التكنولوجيا الوافدة ، أقل كثيرا منها فى البلد الأم ٠

انها شركات ضاخة ماصة كابسة تدفع شعوب الدول النامية الى الاستهلاك بتركيز الاعلان وترسيخ الايهام ثم يباع الوهم مقابل حقيقة هى أموالنا المهدرة فى استهلاك جعله الاعلان عادة مستحدثة وهو ليس ضرورة بل عندنا ما هو خير منه صحيا واقتصاديا ٠

ان هذه الشركات لاتقدم تكنولوجيا بل تبيع علامة تجارية هل الكوكا كولا والشويبس اختراعات أو تكنولوجيا ٠٠ انها خداع اعلان ٠

---

(١) اقرأ (العرب أمام تحديات التكنولوجيا) أنطونيوس كرم ٠
(٢) (الخطورة الدولية للشركات متعدده الجنسية) د٠ حسن الجمل ٠
(٣) (تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية) د٠ جلال أمين ٠
(٤) محمد السيد سعيد ص ٢٥٦ ٠
(٥) (أزمة الشباب وهموم مصرية) للدكتورة نعمات احمد فؤاد ٠

ان شركة « سفن آب » رأسمالها ٢ مليون جنيه جمعت قبـــل أن تبدأ ٧ ملايين باسم التأمين للصناديق والزجاج الفارغ وممن ؟ من أصــحاب الجلاليب والاكشاك الصغيرة . يحدث هذا ونحن بلد الليمون والبرتقال والكركديه والخروب .. الخ .

لقـد كانت مصر قبل الاحتلال البريطـاني لا تعرف الشاي فأشاعه الانجليز ومن ورائهم الشركة الشرقيـة ، في الحيـــاة العصرية . ثم ظهر مكتب الشاي الدولي لجميع منتجي الشاي وكل منهم يدفع نصف بنس على كل رطل شاي وبدا مهرجان الاعلان عن الشاي في بادىء الأمر كان يركز على الشاي في ذاته مثل (الشاي منعش) (الشاي مهضم) حتى حقق الاعلان هدفه فأخذ المنتجون يسفرون عن وجوههم وشرع كل منهم يعلن عن (ماركة) أي الخاصة به .

ومن زاوية مصر أقول انتشر الشاي في الريف والحضر حتى غدا مشروبا رئيسيا تدعمه الحكومة !!

وغدا تدعم المشروبات التي أتى بها الأمريكان .

وهذه وتلك تمثـل نهبـا اقتصاديا لمصر . وأستند الى الاحصاء . عام ١٩٧٢ كنا نستهلك من الشاي ١٤ر٢٠٠ طن وفي عام ١٩٧٨ تقول الاحصائية اننا استهلكنا ٣٦ر٨٠٠ طن أي ضعفين ونصفا .

ولا أحاج هنا بالكليشيه التقليدي ـ « الانفجار السكاني » فنحن لم نتضاعف مابين سنة ٧٢ ، وسنة ٧٨ ضعفين أو ضعفا واحدا .. ان المسألة هنا الانفجار الاستهلاكي كما قلت سابقا ، ونوعيـة هذا التغير وسرعته ومداه مؤشرات الى تغيرات حضـــارية تحدث ببطء لانراه ، أو بسرعة تذهلنا ولكننـا في الحالين لانملك التوقف .. التوقف عن المواكبة أو التوقف عن التفكير فالمسألة ليست سلعا تبـــاع وتشترى ولكنها أعمق من هذا بكثير .. انها محاولة تغيير اجتماعي وسياسي مرسوم ومحسوب .. فلم يعد الغرب الحديث جيوشا ظاهرة تستفز المشـــاعر ولكنه يتزيا في أثواب عدة ، ويبغيا أهدافا بعيدة فالاستنزاف العقلي ، والتحول الاجتماعي ، والتطوير الشكلي ، والتحديث المظهري ، والتأثير الفكري .. كلها عمليات تسير جنبا الى جنب في محاولة « تغريب » أمم الحضارة القديمة وبلبلتها وذبذبة مسارها بحيث تقف على الأعراف لاتنطلق فتحيا ، ولا تسقط فتموت ، فان الأمم العريقـة تحمل قوة في ذاتيتهـا تجعلها اذا أريد بها شر ، أو أريد لها الموت ، تنتفض انتفاضة قوية تعود

معها فتية من جديد وهذا ما يحيف أعداءها مهما بلغ قوتهم وبلغ ضعفها .. فيعرقلون مسيرتها دون ان يميتوها ، ويمسخون سحنتها دون أن يشعروها .

ان استيراد المشروبات أو حتى الآلات والميكنة والمشروعات « تسليم المفتاح » ليست خدمة أو نقل تكنولوجيا . ان الاضافة الحقيقية ماصنعته اليابان أى (صنع الموتور) .. وبدون هذا يكون نقل الآلة تعويقا لا اضافة بما تشكله من بديل عن التعلم واستنامة الى الراحة والتبعية للدول المصنعة .

ان أفدح الخطر يكمن فى ضعف حكومات البلاد النامية التى توقعها الشركات المتعددة الجنسية فى عملية تعتيم تتجرعه أو تستسيغه بل تستزيده بفتح صدرها للشركات المتعددة الجنسية والعمل على اجتذابها كأنها موجبة لا سالبة .

وهنا تتعقد مشكلة المثقفين الذين يكونون عادة أو أغلبيتهم عداؤهم مستحكم لهذه الشركات يؤرثه قلق دائم على حاضر الوطن ومستقبله .

وهنا تفوم الشركات المتعددة الجنسية ضمن ما تقترفه من آثام بتأريث البغضاء واصطناع التعارض والتناقض بين فئات المجتمع الواحد ، طبقا .. وتطبيقا للقاعدة «فرق تسد» فتسود الجميع غالبين ومغلوبين .

ان الشركات المتعددة الجنسية قواعد اقتصادية (وأوفرها عددا هى الشركات الأمريكية ثم البريطانية والفرنسية والالمانية وهى درجات من القوة تنفق تقريبا مع الأهمية السياسية لبلادها فى المعترك الدولى) وفى أمريكا يحاربها « رالف نادر » بلا هوادة منتصرا للانسان ضد لا انسانيتها .

ولهذا يصل أمر حماية هذه الشركات الى حد التدخل العسكرى الذى فصله « مايكل تانزر » ويمكن رصد أربع فئات من التدخلات العسكرية لحماية هذه المصالح :

١ ـ التدخل العسكرى بالحرب الباردة مثل كوريا ١٩٥١ ـ ١٩٥٣ ، لبنان ١٩٥٨ ، جمهورية الدومينكان ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ ، وفيتنام ١٩٤٦ ـ ١٩٧٣ ، كمبوديا ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣ ، لاوس ١٩٦٥ ـ ١٩٧٣ .

٢ ـ الامداد بالمستشارين العسكريين الأمريكيين والتسليح :

الصين ١٩٤٦ ــ ١٩٤٧ اليونان فى الأربعينات ، فيتنام ولاوس فى فى أوائل الستينات ، بوليفيا ١٩٦٧ ، الكونجو ١٩٦١ ، أنجولا ١٩٧٥ ٠

٣ ــ التدخــل التفويضى فى ايران ١٩٥٣ ، جواتيمالا ١٩٥٤ ، وكوبا ١٩٦١ ، غينيا البريطانية ١٩٦٣ ، ويدخل فى هذا الباب أيضا العمل على تحريك الانقلابات العسكرية بالتخطيط الأمريكى وثمة تدخلات لا حصر لها فى آسيا وأفريقيا اللاتينية ٠

٤ ــ الأحلاف العسكرية : الريو والسيتو والسنتو ٠

والمعاهدات الثنائية للدفاع المشترك مع كوريا الجنوبية ونايوان وبرامج التسليح للحلفاء ٠

يضاف الى هذا تحريك العدوان العسكرى من احدى الدول الحليفة على الدول الأخرى وثمة أمثلة عديدة غير أن أكثرها أهمية هى الحرب الاسرائيلية المتعددة ضد الشعوب العربية لحماية مصالح عديدة من أهمها المصالح البترولية فى الشرق الأوسط ٠

على أن التدخلات العسكرية ، لها أسباب أخرى تحكمها فى حالات أخرى ولكن الشركات المتعددة الجنسية أحد أسبابها الرئيسية وفى جميع هذه الألوان من أساليب الضغط السياسى أو العسكرى أو تدبير التدخل المسلح والانقلابات العسكرية ، تتعاون الشركات المتعددة الجنسيــة مع حكوماتها وغالبا ما تعمد الى توريطها للتدخل ليعظم نفوذها هى ٠

ولما كانت الأسباب ينضم بعضــها الى بعض ، فان هذه الشركات « القنطرة » التى يعبر عليها عملاء أجهزة المخابرات الأجنبية التابعــة لبلدها الأم ومنظمى الحركات الانقلابية وخبراء الثورات المضــادة الى المجتمع المحلى ٠

والشركات المتعددة الجنسية فى عملية انجاح مآربهــا الوبيلة (تستقطب عددا كبيرا من العلاقات الاجتماعية والشخصيات السياسية العامة حولها) لتخديمها وتحريكها فى خدمة أغراضها سترا لوجهها الكالح والمكروه حتى ليسمى بعض الكتاب نشاطاتها المريبة « السياسة الخارجية الخاصة » ويدخل فى هذه السياسة الخاصة ، تمويت العملة المحليــة لتضغط على الحكومات ، والمساعدات المالية للأحزاب السياسية وتخطيط الدعاية الانتخابية فضلا عن الرشاوى السافرة والمقنعة ، وتنظيم الرحلات والزيارات وتمويل المدارس والجامعات ، وعضوية مجالس الادارة بهــا وجمع المعلومات من خــلال الأبحاث المشتركة ٠٠ وخلق فوضى اقتصادية

تؤدى بالقطع والضرورة الى اهتزاز سياسى يودى بالاستقرار ويؤدى الى التفسخ فالانقلاب ٠

وفى عاصـف من هذه البلبلة والرلزلة تلوذ الحكومات الضعيفة بالصمت أو قد تتقرب بفتح بابها على مصراعيه لهذه الشركات الرهيبـة وهنا يكون العلاج الأضمن والأمل ، غلق الباب باحكام ٠

وويل للدول الناميـة من البـاب المفتوح أو حتى الموارب حيث لاتجدى كثيرا صرخات المخلصين والمتحسبين للخطر المحدق ٠٠ فان هذه الصرخات تضيع فى الغابة فاذا سمعت فان الوحوش المفترسـة تسخر منها حيث تعرف قدرتها على الافتراس ٠ يقول «راى فيكر» ساخرا ومتبجحا [اننا بحاجة الى اعادة توزيع ليس للثروة بل للتكنولوجيا التى يملكها العالم الصناعى ٠٠ ومتلقى التكنولوجيا يجب أن يرحب بتغيير أسـلوب حياته وسواء شاء أم أبى سيكون عليه أن يتعاون تعاونا وثيقا مع مانح تلك التكنولوجيا خلال فترة تدريب انتقالية ، تستغرق سنوات قد يسمى البعض من سكان العالم الثالث ذلك « اسـتعمارا جديدا » فمرحبـا بمعتقداتهم أما غيرهم فقد يسمونه « تعاونا متبادل النفع »] ٠ أى شبلنى وأشبلك ٠

على أن هذه « التكنولوجيا » يشكل التسرع فى نقلها خطرا داهما فقد تتقادم بسرعة أو قد تتضح أخطارها الاقتصادية والمادية والاجتماعية كما أثبتت الدراسات خطر الخيوط الصناعية والتيفال والمبيدات الحشرية وغـيرها ٠

ومع رسوخ هذه الظاهرة (سرعة تغير التكنولوجيا) تزداد تبعية الدول النامية حيث تلهث خلف المستحدث منها ٠٠ فقد أصبح الأمر كله كالدائرة المغلقة : طلب مستمر على أحدث المنتجات (والاستهلاكية منها على وجه الخصوص) وعدم قدرة على تلبية هذا الطلب واللجوء الى الطريق الأسهل والأقصر وهو نقل تكنولوجيا جاهزة ٠

ان الابتكار المستمر لسلع جديدة مع أسـاليب الدعايه والاعـلان الفعالة على مستوى عالمى تدفع مجتمع النخبة لأن يصبح صاحب مصلحة فى تأجيل التبعية لضمان حصوله على آخر المبتكرات ٠٠ والعلامات التجارية تكرس التبعية لاعتياد المستهلك على اسم معين ٠ لقد بلغت الدول النامية ، على الرغم مما تعانيه اقتصاديا ، حالا متطرفة من الاستهلاكية ٠٠ وفى الواقع فان عصر (الاستهلاك المرتفع) حسب تعبير روستو ، قد حل بيننا فجـأة دون اكتمـال الشرط المسبق الواجب استيفاؤه وهو « التنميـة المرتفعة » ٠

أن العالم الثالث لا يملك الا عمل أبنائه وما عنده من موارد .

فاذا أراد أن يخرج من قبضة الفك المفترس فعلية الاعتماد على النفس على المستوى الجماعى ثم على المستوى الاقليمى ثم على مستوى العالم الثالث .. الذى يجب أن يترابط أفراده كتلة ذات وزن مؤثر ..

ان الاعتماد على النفس مع الاختيار والانتقاء فى حدود الضرورى مع الاستيعاب وقدرة التعامل ينقذ من التتبيع والاستغلال والاستقطاب . يقول أوزفالد سنكل :

(ان عملية التنمية هى عملية معقدة وخالقة فى الوقت نفسه ، تبنى على اختيار واع ومعتمد لما هو عالمى . حقيقة ، فى الحضارة والثقافة الحديثة وعلى قدرة على التخيل واستخدام متميز للامكانات السياسية ، والاقتصادية والمؤسسة للمجتمع المعنى) .

تقول فينان محمد طاهر :

(أننا حقا لانملك رفاهية الانتظار حتى تذهب الطفرات التكنولوجية اللانهائية بهويتنا الحضارية تماما) .

ان النخبة المثقفة فى البلدان النامية اذا لم تهيىء الجماهير لمتطلبات التنمية وتقدم لها ولصانعى القرار تشخيصا صحيحا لأهم مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية من أداء مهمتها ، ومظاهر عجزها ، أما أن تنعزل عن مشكلات غالبية الشعب وتمعن فى (التخصص والأناقة النظرية) .. أو تتقرب الى النخبة الحاكمة وتصبح من أهل الموافقة .

على العالم الثالث ان يعى جيدا تجربة اليابان . ان العالم الثالث فى مجال نقل التكنولوجيا قلما اختار فقد كان مصدر التمويل يفرض عليه أنواعا بذاتها من تكنولوجيته .. أنواعا تضمن شده الى عجلتها .

العالم الثالث ، قلما « انتقى » وكلمة الانتقاء تفيد معنى البحث الدقيق ، والعميق والشامل للأساليب الانتاجية المتاحة وتقدير آثارها الفنية والاقتصادية ، وكذلك مايترتب عليها اجتماعيا وحضاريا .

وتجربة اليابان فى هذا الشأن مثيرة للتأمل فقد حرصت على الفصل الكامل بين التكنولوجيا والتمويل .. وبينما اعتمدوا اعتمادا كبيرا على نقل التكنولوجيا منذ عشرات السنين ، الا أنهم لم يصرحوا ، بالاستثمار الأجنبى الا منذ بضع سنوات وتحت ضغط شديد من الولايات المتحدة

وحلفائها وكانوا يجرون عملية الانتقاء من خلال مواجهة مستمرة بين الخبراء الأجانب وزيادة المصانع فى دول مختلفة قبل اتخاذ أى قرار .

ويلتقى دور الشركات متعددة الجنسية بدور المعونة المحددة الجنسية .. الوجه الآخر للعملة الاستعمارية .

ان المعونات حتى فى مجالات التحسين اليومى أو ميادين الخدمات المباشرة لها غرض خبىء لايفترق عن مآربها المخططة بحساب دقيق فالاصلاحات فى التعليم أو الزراعة ، انما يقصد بها : اما تشتيت الظروف الثورية الكامنة أو مساندة الأنظمة الحكومية الموالية أو ضمان سداد الديون واخراج الفوائد ، أو ازالة القيود على الواردات حتى ينتعش البلد قليلا ولو بالقدر الذى يلتقط فيه أنفاسه .. أو استقطاب واستيعاب وامتصاص الانفجار المكتوم .

وهذه المعونات تخلق جوا سياسيا واجتماعيا تتمتع فيه بعض الفئات بامتيازات يتهدد استئصالها ، نظام الحكم ، فيغض عنها ، أو يتحسس ردود فعلها عند كل قرار ..

ان وثيقة الأمم المتحدة الداعية الى اقامة نظام اقتصادى جديد ، تدعو الى زيادة ما تحصل عليه الدول المتخلفة من معونات بحيث تقدم هذه المعونات على حد تعبير الوثيقة عن طريق (المجتمع الدولى بأسره) وبغير شروط سياسية أو عسكرية .

ولكن يبدو أن الأمم المتحدة فى واد ، والتحديات ، الأخرى فى واد آخر ..

كلمة أخيرة أقولها مصرية : ان الحضارات المصرية قام بناؤها الباذخ الشامخ على الجهود المصرية الخاصة والأموال المصرية الخاصة .. قدماؤنا زرعوا فعرفوا الوفرة والتحرر من سلطان الحاجة .. فلم يجرؤ مجترىء على المساس بالكرامة المصرية فى عهدهم .. وعرفوا الكرامة ، فضائل النفس العزيزة على نفسها وعلى الحياة . فان الجوع يتهدد الأخلاق . والامام الشافعى يقول (لا تستشيروا من ليس فى بيته دقيق فان عقله غائب) .

والمعونة تساعد على ابقاء الجوع باهمال أية محاولة جادة لزيادة الانتاج وخاصة انتاج الغذاء . والمثال عندنا (الوادى الجديد) الغنى بالأرض الطيبة والمياه الجوفية ، وتشترط المعونة الغذائية ان تصرف لملاك الأرض !!

لماذا ؟ حتى لا يزرعوا ·· حتى نستجلب غذاءنا ·· ومن يستورد خبزه يصدر كرامته وارادته في المقابل ··

ومن هنا نفهم قول « مارشال » (الغذاء عامل حيوى فى سياستنا الخارجية) ويقول « هيوبرت همفرى » (الغذاء سلاح سياسى قوى) وهنا . يمكن للمعونة الغذائية أن تتحول بسهولة ، ولكن فى تكتم الى مساندة مباشرة للجهود العسكرية الخارجية ·

لابد من الاعتماد على النفس اذا أردنا النجاة والحياة ·

ادعاء النبوة

كأى مرض له سبب وله علاج ... وهذا العرض المرضى موجود فى الغرب والشرق على السواء .

السبب هنا : **غياب الدين عن الساحة** .. الدين الجوهر لا المظهر ..

السبب : ضعف المناعة ، فالجسم الضعيف تهزمة الفيروسات .. وجسم المجتمع هنا تنوشه علل شتى ، وضغوط شتى تضعفه فكان من السهل اصابته .

السبب : غياب القدوة وافتقاد المثل الأعلى .

السبب : ضعف المسلمين وعزو البعض ـ خطأ وظلما ـ هذا الضعف الى الاسلام مع أن الاسلام على الجانب الآخر يخيف الأقوياء ، لأنهم يحفظون جيدا أن الاسـلام فى مبـدأ أمره ، أزاح امبراطورية الفرس ، وأطاح بامبراطورية الروم .. ولم يكن أتباعه أو جنوده فى ذلك الوقت . الأعلم او الأغنى أو الأكثر عددا وعدة بل العكس هو الصحيح .

السبب : الكلام المتوسع عن خوارق الأولياء مما يغرى بالـولاية وادعاء الخوارق ثم تطور المسألة الى ادعاء النبوة من البعض فضلا عن رسوخ المبالغات التى تبلغ حد الأساطير فى وجدان العامة فتقع فريسة لأدعياء الولاية ثم النبوة . ويكون التصديق واردا من طول ما سمعوا بل شاهدوا على الشاشة فى مواسم الموالد من خوارق فى هالة من البريق .

السبب : أسلوب التعليم فى كافة مراحله مما يستوجب تغييرا جذريا فى مناهج المدرسة المصرية .

السبب : أسلوب المسجد والكنيسة الذى يحصر نفسه فى الحلال والحرام غافلا قضايا العصر ونبضه الحقيقى الذى تتعطش الجموع الى الوعى به وتستشرف الى ثقاة يبصرونها به .. على أن الدين فى جوهره ، انسانية وارفة الظلال أكبر كثيرا من الحلال والحرام .

لقد نصرف بمرونة امام العادلين عمر بن الخطاب مرتين :

الأولى : فى عام الرمادة حين لم يقم حد السرقة على الجائع .

والأخرى : حين امتنع عن ارضاء المؤلفة قلوبهم بما ألفوا فى عهد

الرسول عليه السلام وعهد الصديق أبى بكر رضى الله عنه .. فقد رأى أن الاسلام وقد رسخت قدمه وذاعت دعوته ليس بحاجة الى تأليف هؤلاء . ان الدين رحابة أفق ولا يشاد الدين أحد الا غلبة .. ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

السبب : **الفساد المستشرى** مما يقابله على الجانب الآخر ، التزمت الشديد أو التطرف الشديد ، لونا من الدفاع عن الذات أو حماية الذات أو الخوف فى صور شتى وفقا للقاعدة (كل فعل له رد فعل مساو فى القوة مضاد فى الاتجاه) وفى هذا الجو تختلط المعانى والأفكار والتصرفات ، وتفرخ الادعاءات فى جو مشحون بالرغبة فى الخلاص .

السبب : **أن الاسلام مستهدف ومصر مستهدفة** وهى بهذا ، مستهدفة مرتين : **وطنا .. وقلعة للاسلام** .. وهنا يأتى التغريب والتحديث أسلوب الاستعمار الجديد ، يشكك انسان الحضارات القديمة فى ذاته واعتقاداته وقيمه وموروثاته جميعا فى عملية زلزلة كيانه ، وبلبلة وجدانه وايقاعه فى محنة الاختيار بين حضارته وحضارة الآخرين ... هذا الانسان الممزق يسهل انقياده وتطويعه للغرب أو للشرق ... لأدعياء سيادة الحضارة الحديثة ، أو أدعياء نبوة الدين ...

والعلاج : صياغة مبسطة ومشرقة للاسلام فى نسقه الأعلى بحيث يكون قريب المأخذ شديد الأسر يفعل بالنفوس المكروبة والمحروبة والحائرة ما فعله بأهل الجاهلية الأولى من نقلة حضارية تعد بكل المقاييس نقطة تحول فى تاريخ العالم فقد غدت القبائل المتصارعة : أمة ودولة وحضارة وسيادة .

العلاج : غربلة التراث وتنقيته من المدسوسات .. وفى مقدمتها ، **الاسرائيليات** وكم عانى الاسلام من « ابن كمونه » وغيره مما شقى علماؤه فى تفنيد مزاعمهم كرسالة « الشيرازى » وكتاب (الدر المنضود فى رد فيلسوف اليهود) لظفر الدين البغدادى المعروف بابن الساعاتى . ومنها كتاب « الماردينى » الذى كتبه سنة ٧٥٢ هـ « ومنه نسخة فى روما » .

وعند تنقية التراث مما علق به ، نتعامل معه مطمئنين ، فى معاصرة وأصالة تقضيان بالاستمداد من الماضى ، والامتداد به الى الحاضر فى استشرافه الى المستقبل فمن لا ماضى له ، يتيم حضاريا ، فقير معنويا وان كان أغنى الأغنياء .

العلاج : تغيير المدخل الدينى الى الطفل . وقد فصلت هذا فى لجنة المناهج الدينية بوزارة التربية والتعليم التى تضم صفوة يمثلون الوزارات المختلفة والقطاعات المختلفة ، فقد طرحت بحكم عضويتى ، رؤية موضوعية

كانت موضعا لدرس جامع ركزت فيها على الأخذ بمبدأ (**الاختيار**) لا التتابع فى حفظ القرآن الكريم · فى « الاختيار » نبدأ بآيات الطبيعة الجميلة حرفا ووصفا ·· الجميلة معنى وصورة ·· مثل (والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها) ·

وآيات الدماثة فى سورة الضحى « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » ·

أما أحكام الطلاق ·· أما مشاهد القيامة فليست فى هذه المرحلة ·· ليست لبراعم غضة نقية الصفحة ·

العلاج : عدم التكفير لفتح باب الأمل والتوبة والعودة الى الجماعة فالامام أحمد بن حنبل الذى أخذوه بتصرفات أتباعه . ونسبوا اليه التشدد ، كان يرى أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا هو فى منزلة بين منزلتى الكفر والايمان وأيضا ليس معفوا عنه وانما عليه أن يتوب · لقد تحرج الامام أحمد بن حنبل رقيقا دمثا من قوله : حرام حلال ·· حرام ·· حلال ··

كان يتورع من قولها شأن الأئمة العظام ويكتفى بأن يقول :

هذا أكرهه أو هذا أحبه ···

سئل عن بيع الماء فقال : أكرهه وهو يريد أنه حرام ··

وكان الامام ابن حزم يرى الفضيلة وسطا بين الافراط والتفريط وكلاهما مذموم ·· وانما الفضيلة بينهما حاشا العقل فانه لا افراط فيه··

والتفاصيل هنا كثيرة نرجئها الى مجالها ··

وأرى أن سن قانون للردع فى موضوعنا الراهن ، منتهى الخطورة ·· ان تحكيم القانون فى قضايا العقيدة ، أمر شائك لعدة اعتبارات ·

ان الاسلام لا يصادر ولا يلغى ··· فهو يأمر بالجدل بالتى هى أحسن وهو الذى ينص فى كتابه الكريم : (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) · ويقول (لست عليهم بمسيطر) امعانا فى احترام الارادة ويقول (وهديناه النجدين) وهما لغة ، طريق الخير وطريق الشر ··· حتى الكافرين قال فى شأنهم (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون · ولا أنتم عابدون ما أعبد ···) فى احترام للارادة على الجانبين وانتهى بقوله : (لكم دينكم ولى دين) فى ارتفاع وامتناع ·

ان الحجة تقارع بالحجة ، والرأى يصاول بالرأى .. والقانون العام يغطى الردع من زاوية الحكم على الضال المضلل ، ومن زاوية النصب والاحتيال ... وهى درجة خفيضة خافضة .

بينما لو حاكمته فكريا ، سلكته فى عداد أصحاب الفكر وهو ليس منهم ... وكم بين الثرى والثريا .

العلاج مرة أخرى وأخيرة ، **مراجعة حساباتنا كلها** فى شجاعة أدبية لا تتنصل من المسئولية فكلنا بشكل أو بآخر ، مسئول عن انحدار القيم ، واختلال المفاهيم ، واهتزاز المقاييس .

نريد حلولا هادئة فى محاولة اتقاء فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منا خاصة .. ومصر لها سالفة فى هذا ، ففى القرن السابع الهجرى عندما كثرت فيه الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها .. واذ حزب الأمر ، تطلع الاسلام والمسلمون الى مصر لتحسم الموقف كدأبهـــا فى الأزمات الكبرى فاتفق رأى العلماء على رجلنا الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللمح المصرى والوجدان المصرى مذهبا ينقاد الناس له ويركنون اليه ويقرون عنده .

ولو لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا فقط فى هذا الشاهد فانا لنجد كما يقول الأستاذ الخولى (هذا الميل المصرى للتوفيق بل الدعوة اليه ، يتجه اليها صوفى مصرى بلدى السبكى هو الشعرانى) وهو أصيل فى الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الأول ، وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال . ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا (وحسبنا تزكية لميل البيئة المصرية الى هذا التوفيق الفقهى الذى لا تسمع فيه لهذا العصر صوتا أجهر من هذا الصوت) .

هذا الأسلوب الحضارى هو طابع مصر عندما يحتدم الخلاف فيتوب الضال ، ويثوب الرشاد ، ويفىء اليقين .

أعترض على تخصيص ٣٠ مقعدا للمرأة في مجلس الشعب

الحضـــارة المصرية المعروف فقط بمن عمرها نحبو ثلاثين ألف سنة لا سبعة آلاف فحسب كما يتردد . ان سبعة آلاف انما هى عمر الحضارة المكتوبة أى عمر الكتابة الهيروغليفية التى اخذت عنها الفينيقية أبجديتها ، وتبعتها اللغات الأخرى . هذه الحضارة العريقة يعزوهـــا بعض المحللين التاريخيين الى المرأة المصرية . ففى رأيهم انه لولا راحة الرجل المصرى فى بيتـــه لما أعطى هـــذا العطـــاء ـ كما .. وكيفا .. خارجه .

على أن المــرأة المصرية أعطت بنفسها أيضـــا لا من خلال الرجـــل فحسب فقـــد شـــاركت فى الحـــكم ملكة هى حتشبسوت . وشـــاركت فى العلم حيث سجل معبد سيتى الأول أنها كانت نقيبة للأطباء وهو ما لم تظفر به المرأة الى اليوم حتى فى بلاد الذين يسمون أنفسهم العـــالم الأول والآخرين العالم الثالث .

وشاركت فى الكهانة وهى فى مصر القديمة تعنى قمة الأســـرار العلمية ، ومعبـــد « أبو سمبل » يسجل للمملكة نفرتارى أنها تمسك بآلة النسستروم الموسيقية فى سمت الكاهنة

واشتركت المرأة المصرية فى تنظيم المقاطعة السلبية ضد العـــدو بل شرعتها من خلال الملكة تتشرى التى جمعت المصريات وقالت :

« نحن على رجالنا حرام حتى يطهروا مصر من الهكسوس » .

أعلنتهـــا فى « طيبـــة » الأقصر اليـــوم ، حيثما كان الهكسوس فى « صان الحجر » فى الدلتا فلم يجد الرجال بدا من التحضـــير للمعركة وتقـــدمهم زوجها الملك سقنن رع فلما قتل دفعت الى المعـــركة بابنهـــا « كامس » فلما استشهد كان ابنهـــا الوحيد البـــاقى « أحمس » لم يتجاوز السابعة عشرة فأشار القواد بعدم المخـــاطرة ولكن الملكة المصرية أصرت على مواصلة المعركة قائلة ان صغر سنه أعون على النصر اذا قسم الجيش نفسه خمس فرق تختبىء ثلاثة منهـــا ويتقدم أحمس عـــلى رأس فرقتين

بحسنب حتى يستهين العدو بقلة العدد وصغر سن القائد فيهجم عليه ..
وهنا تظهر الفرق الثلاث وتطوق الأعداء .

وكان ..

وطهر « أحمس » مصر من الهكسوس ، كما أرادت .. أخرجهم من مصر ومن التاريخ كله فلم يعد لهم ذكر بعد نصره العظيم .

وقد سجل هذا النصر على معبد الكرنك قائلا : ان الفضل فيه بعد الله ، يعود الى الملكة العظيمة تتشرى .

لا أدل على مكان حضارة من مكانة المرأة فيها ..

وقد أعلت الحضارة المصرية مقام المرأة المصرية والدليل قائم فى المتحف المصرى حيث يتصدره تمثال أمنحتب الثالث ، يسامته بالحجم نفسه تمثال الملكة « نى » حين تعمد الفنان ألا يتجاوز الأبنـــاء ارتفاع الركبة للأبوين . اشارة الى الاحترام و الى النسبة فيه .

الدليل على مكانة المرأة المصرية ، قائم فى معبد الدير البحرى ، للملكة حتشبسوت ..

ومعبد « أبو سمبل » للملكة نفرتارى .

الدليل قائم فى فنون الزينة عند المرأة المصرية فهى لم تكن ممتهنة أو مبتذلة أو متواضعة القدر .. لم تكن ركيكة تلتمس الضروريات بل رقيقة تتحلى ، وتتجمل ، وتتعطر .

الدليل قائم في وصـــايا الحكيم المصرى لابنه أن يرعى زوجته ويغدق عليها الحب والمال معا ويوفر العطور لظهرها كالطعام لجسمها .

الدليل قائم فى التشريع المصرى الذى كان يخص الزوجة بالميراث كله حتى لا تحتاج ولو الى أبنائها أنفسهم .. ولم يظلم بهـذا الأبنـــاء .. ونصيبهم محفوظ من خلالها حية . وبعدها عند تمام الحياة .

أعلت الحضارة المصرية المرأة المصرية حتى جعلت منهـا الهة كل معنى جميل .

فايزيس رمز الأمومة والحنان .

وهاتور رمز الجمال والحب .

وسيشات الهــة الكتابة ·· ولم يجعل بلد آخر غير مصر للكتابة الهة · وزوجت مصر الهة الكتابة من اله الحـكمة فى احسـاس دقيـق ورقيق ·· وثيق وحقيق بما بين الكتابة والحـكمة من صلات وسمات ·

ولم تكن ايزيس مجرد أسطورة ·· لقد أصلت معانى الأمومة ·· والوفاء ·· والاصرار ·· والاستعلاء على المحنة ·· وقهر الصعب وهى صفات الانسان المصرى عند البأس وفى الشدائد ·

وقد مست ايزيس بهــذه الصـفات النـوابغ أعماق الوجـدان المصرى ·· حتى ان مصر حين اعتنقت المسيحية كانت تتمسك بالأم بحس بعيد من ايزيس حين كان العالم المسيحى ، يرمز للمسيحية بالصليب ·

وحين نقمت مصر على الأيوبيين ، ترجم هــذه النقمة القــاص الشعبى ، فصور البطل فى قصة (على الزيبق) مدينا لأمه التى رعتـه ونسجته نسيج الأبطال وقد فعل هذا بحس بعيد من ايزيس وابنهـا حورس حلم مصر بالمخلص ·

وحين خاضت مصر · دفاعا عن المسيحية · معركة الشهداء · لم تغب المرأة المصرية عن ساحة البطولة فتاريخ الكنيســة القبطية يزخر بالنساء اللاتى نذرن أنفسهن لله واضطلعن بتضميد الجرحى ورعـاية اليتامى والعناية بالمسجونين ·

تاريخ الكنيسة المصرية يزخر بالقديسات ·

وقد أهدت مصر فى المسيحية للمرأة دير سـانت كاترين ·

وجاء الاسلام ·· فالتقى مع مصر فى :

● احترام الزوجة التى جعلها سكنا وأمنا وعدل النفس والروح [ومن آيـاته : أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة] ·

وفى قراءة أخرى (من أنفسكم) بفتح الفاء ·

وكما كان يقول المصرى عن زوجه : أختى وشقيقة روحى · نلتقى فى القرآن الكريم بالآية « يا أيهـا الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » ·

● احلال الأم مكان الكرامة الى الحد الذى جعل الجنة تحت أقدام الأمهات ·

ان الحضارة الاسلامية هى احدى اثنتين كرمتا المرأة :

١ ـ الحضارة المصرية كما أسلفنا ٠

٢ ـ الحضارة الاسلامية ٠

لقد كرم الاسلام المرأة بما لم ترق اليه القوانين الموضوعة الى اليوم والتى تتغنى بانصافها ٠

أعطى الاسلام المرأة المسلمة :

● حق الانتخاب منذ أربعة عشر قرنا ، هذا الحق الذى لم تنله الا أخيرا ٠ بعد ثلاثة عشر قرنا من سبق الاسلام ٠

● حرية التصرف فى مالها ٠

● وجوب تعليمها حتى ليفخر الامام الشافعى أحد الأئمة الأربعة بأنه تلقى العلم على السيدة نفيسة ٠

● تولى المناصب حتى أعلاها حيث أثنى على ملكة سبأ وسجل لها صقل الخطاب ٠

● حق ولاية القضاء ٠٠ زكى هذا كل من الامام أبى حنيفة ٠٠ وابن حزم ٠

بل سجل الحافظ الذهبى فى تاريخه ثمانية وثمانين اسما ممن تصدرن للافتاء ٠

بل اشتركت المرأة فى واقعة اليرموك وكان لها نصيبها فى الغنائم ٠

● سوى الاسلام بين المرأة والرجل فى الحقوق والواجبات ٠٠ والثواب والعقاب ٠٠ والجلسة فى جنة أعدت للمتقين ٠

وما يثار عن وضعها فى الميراث والشهادة والتعدد : يرد عليه ٠

الميراث : جعل الاسلام ، حماية لها وصونا ، واعزازا ، نفقتها على الرجل أبا أو زوجا أو أخا ولو كانت غنية ، حين جعل نفقة الأولاد على أبيهم كما جعل نفقة الأقارب الفقراء على الرجل دونها ٠٠ فهى بالنصف المعفى من الالتزامات ، أوفر حظا ، منها بالنصيب الكامل المحمل بالتبعات القريبة والبعيدة ٠

الشهادة :

عرف الاسلام ، للمرأة ، تفانيها فى الأمومة الى الحد الذى يجعل

كل ما عداها فى الدرجة الثانية اى فى المكان الذى يجوز فيه النسيان بدليل الآية (واستشهدوا شـــهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهمـــا فتذكر احداهما الأخرى) ٠

كما عرف الاسلام طبيعتها العاطفية ٠٠ والعاطفه تلون المرئيـات بألوان مشاعرها فتضـــخم الحدث أو تحجمه ٠٠ فلكى يتبين القاضى طريق الحق لابد من شـــهادة اثنتين حتى يعمه الالغاء أو الاختــلاف على كشف الحقيقة ٠

أما تعدد الزوجات فقد جاء الاسلام فى بيئـــة تفشى فيهـــا التسرى بالعشرات والتعدد ٠

والاسلام فى قضايا هذه البيئة يبدأ بالواقعة وينتهى الى المـــالية ٠٠ فعل هذا فى تحريم الخمر خطوة خطوة كما فعله فى قضية الرف والرقيق ٠ وكانت نظاما اقتصاديا ٠ فلم يمر به فى اغضاء ـ كما فعلت الأديان الأخرى ـ بل طرقه فسوى بين الرقـــق وسيده فى المعاملة ، والطعام والملبس والحقوق والواجبات الا فى ولاية الأمر ٠

كما حمل المسلمين على العتق لأوهن الأسباب ٠

كالحنث فى اليمين ٠٠ والكفارة ٠٠ وغير هذا ، بل تجاوز قاعدة اعتبار الثلث فى الوصية اذا كانت تمنا للرقيق ولو كانت المال كله ٠ وجريا على عادته واجه قضية التعدد باجازته ، رعاية لأزمنـــه الحروب التى يكثر فيها ، أو حالات المرض العضال أو العقم وفيما عدا هذا حرمه حين رسخ انتفاء العدل بين الزوجات ولو حرص الأزواج ٠

نخلص من هذا الى أن المرأة ند للرجل وموضع احترام وثقة ديننا وحضارتنا ، وهنا لا يجب التفضل عليها بعدد محدد من الكراسى فى المجلس النيابى ولكن يطلق الأمر ، أى تطلق حرية الاختيار للناخبين ٠ هذه الحرية هى التى نتقبل منها وحدها ، أى عدد تأتى به ٠

باب الفن

الفن .. ما هو ؟

يسمى الناس المتفانى فى الذكر « مجذوبا » ثم أطلقوها بعد هذا في غير موضعها فكل من سخروا منه ، سموه مجذوبا .. مع أن المجذوب هو الذى أعطى بلا تردد فى الرجوع .. **اختار** .

والفنان الحقيقى هو الذى اختار ...اختار أن يضع نفسه فى مجال الخلق وأن يجعل من نفسه مرقبا ومنطلقا للتشكيل .. للبناء .. للتشوف الى الرائع والجليل .

الباليه أى شعر المسرح .. الباليه بالمعنى الانسانى معناه رفاهة الحركة ورهافة الخطوة فى عملية تعبير بغير حروف ، وكل فنان تشكيلى داخله راقص مستور يظهر فى خطوط التمثال أو المثال .

لقد عرف (جوته) العمارة بأنها موسيقى فى الحجر .. الحجر .. الذى يتشكل صورا شتى وليس جامدا كما يظن البعض ، وان من الحركة أن يتحرك رائيه فتبدو له زواياه وأبعاده .

والنحت فن تحسيس الكتلة بأعماق الوجدان وكأنها تحت عصف قوى أو موج شديد ولكنه انسانى . الوجدان هو ادراك قلبى لمعنى الوجود .

وحين لا يستطيع الانسان قراءة روائع الأدب فى لغاته كلها ، يستطيع أن يقرأ الفن التشكيلى فى كل مكان من العالم .

وفن الموسيقى كان فى مصر القديمة جزءا من طقوس المعبد . ومن مصر القديمة انتقلت الألحان بأسمائها الى الكنيسة المصرية . وأوربا يقرر الدارسون فيها أن أجمل موسيقى كنسية فى العالم هى موسيقى الكنيسة المصرية وهى نفسها موسيقى المعبد المصرى بأسمائها الهيروغليفية الى اليوم كاللحن السنجارى واللحن الاتريبى .

وكان الاغريق (يعتقدون أن للموسيقى قوة سحرية ، شأنهم فى ذلك شأن العالم الشرقى ، وقد عبروا عن تلك العقيدة تعبيرا رمزيا فى أسطورة أرفيوس الجميلة التى تروى كيف خرق أرفيوس بغنائه الرائع

قوانين الطبيعة ، وروض الأوابد ، وأنقذ زوجتـــه يوربدلس من براثن الموت) (١) ٠

وأرسطو قال بعلاج الموسيقى فى حالات النونر العصبى وأفلاطون اوصى بأن « نقام الدولة المثالية على آساس من الموسيقى ، وألا يسمح بأي تغيير فى قواعد الموسيقى التقليدية حتى لا يؤدى مثل ذلك الانحراف الى تغيير خطير فى الدولة ذاتها أيضا) ٠

وقد سبقه الي هذا الرأى ، كونفوشيوس فى الصين : وينضـم اليهما المؤلف الموسيقى الكريتى ثاليتاس و « ليكورج » مشرع اسبرطة فى القرن التاسع ٠

ومن الطريف أن دلف عراف الاسبرطيين نصحهم سنة ٦٥٠ ق٠م حين عمت الفوضى المدينة أن يعينوا « ترباندار » الموسيقى لكى تهدىء ألحانه الناس ٠

والموسيقى من خلال شعراء التروبادور الذين تأثروا بالموســيقى العربية والشعر العربى ببحوره وقوافيه والحضارة الاسلامية فى الأندلس ارتفعت بتقاليد الفروسية فى أخـريات القرن الحادى عشر وكانت نقلة كبيرة من فنون القتال ومعاقرة الخمر الى فنون الشعر والموسيقى والخلقيات الكريمة من شهامة ورقة الأسلوب ودماثة الأساوب ٠

وبعض الأمم نعتبر موسيقاها جزءا من وجودها وملمحا من ملامحهــا لا يجوز تغييره ٠ فالصين تحتفظ بسلمها الموسيقى القائم على اثنى عشر نصف صوت طبيعي (غير معدل) وغير محدد ((Lus)) ، وهو سلم تعزوه الأساطير الصينية الى ثلاثة آلاف عام ٠

وكالصين ، الهند فمنذ أن كتب بهــاراتا رسالته بالسنسكريتية عن فنون المسرح والموسيقى من بينها ، وكان ذلك منذ أربعة عشر قرنا ومع هذا ظلت الهند متمسكة بهذا النمط القديم من الموسيقى ذى الأبعاد الصغيرة strutis التى تتكون منها الأصوات الكاملة وأنصـاف الأصوات ، ما زالت الهند متمسكة بسلمها الموسيقى وايقاعاتها اللحنية المميزة ٠

والموســيقى العربيـــة والفارســـية والتركية تجمع على استخدام آلاتهـا التقليدية : القــانون والعود والنــاى والدف والربابة والأرغول والمزمار والطبول ٠

---

(١) اقرأ كتاب (تراث الموسيقى العالمية) تأليف كورت زاكس ٠

ان الفن الرفيع ، تفسير للدين ومقدمة موسيقية له بما يوقظ الروح ويفتح القلب لتلقى رقائق المعانى لتطرح فى النفس وردا ·

● ● ●

أن تخلق الفن عبادة روحية وتطهر · ان الغنى بما تحتويه لا بما تشتريه · ان الذوق تجربة مباشرة · والفن الرفيع لا يولد الا حين تتطهر نفس الفنان من الشوائب ·· من الاهتمامات الصغيرة فى حياة كل يوم ·

والفن بهذا المفهوم ، أصبح فى المنفى · هناك كما قلت يوما ، عملية طرد للفن ··· ليس له فى المجتمع المادى وظيفة أساسية · السائد اليوم هو فن الاعلان وفن الترفيه بينما الحياة الأصلية وثيقة الصلة بالفن تعطيه ويعطيها بينهما زواج سعيد وانجاب رائع ·

فرق بين الدعوة والاعلان ··· الدعوة فن تبصير ، والاعلان فن تغرير ··· فن التسلل من وراء حدود الوعى البشرى والتمكن من ارادة الانسان بحيث يريد ما لا تريد ·· وبهذا يكون الاعلان عدوانا على الانسان العصرى ·

ان الحضارة الحديثة اعتداء على الانسان بتلويث الجو بالدخان ، وتلويث الصمت بالاعلان ، وتلويث الاطمئنان بالقنبلة الذرية ·

وحالة الفن اليوم يحمل وزرها ثلاثة :

ـ **فرويد** القائل بسلطان الغريزة ·

ـ **ماركس** الذى أخضع كل شىء للمادة حتى التاريخ فسره تفسيرا ماديا ·

ـ **نيتشه** داعية القوة ·

هؤلاء الذين قالوا بالغريزة والمادة والقوة ، بينما الفن روح مجنحة ، وكرامة النفس الانسانية وتكريم لها · انه للانسان وجوده النفيس ·

لقد كان أفلاطون يقول ان الموسيقى ، منطق الخلق حين يتسق مع الخالق وهذا هو معنى الفن ·

و « يونج » يقول (ان النفس كل متكامل وان الواجب العناية بنواحيها كلها والا قتل الجزء الخشن الأجزاء المصقولة ·· ومن هنا نفهم أزمة الانسان المعاصر ، فهذا الانسان عنيت التربية بذهنه دون وجدانه فعجز عن ايجاد المعادل المعنوى للتقدم العلمى ·

ان البحث العلمى الحقيقى تجربة وتجرد وعصرنا امتاز فى الأسلحة ومنها التليفون والبرق والتليفزيون ••• الخ ، ولكنه يفقد القيمة التى تتركز فى **الدين والفن والفضيلة** •

وقد تنوعت فنون الانسان لأن روحه لها من الاشعاعات ما لا حدود له •• ومن هنا التعدد فقد يجسم الشكل ما لا يدركه اللفظ ، وقد يصور النغم ما تضيق عنه القوافى •

وليس التكامل وحده بل فى الطبيعة نتلاقى الأضداد أيضا وتتحدد الاختلافات •• والفن مقدمة للطبيعة •

فرحة أن ترى التلاقى فى التضاد •

ان الفن يعلمنا هذه الرؤية ••• الفن حنين نحو الكمال ••• التضاد فصوص البرتقالة •• تكوين وتكميل ••

ما معنى الآية الكريمة (وعلم آدم الأسماء كلها) ٣١ م • البقرة اى علمه التعاطف مع الوجود كله •••

والآية الكريمة (والذين اهتدوا زادهم هدى) اشارة الى اعـادة تفسير الدين وعيشه معايشة متجددة أو كمـا يقول اقبـال فيلسوف باكستان : (انك لا تفهم القرآن فهما صحيحا الا اذا استنزلته عليك من جديد) •

ان المنظار والتلسكوب مع كل قيمتهـا العلمية ، وسـائـل للرؤية البصرية ولكن الرؤية الحقيقية هى الرؤية القلبية • وهذه تتطلب مجهودا ذاتيا معنويا لا تستطيع علوم الدنيا كلها أن تعطيه لفاقده •

ان عالم النبات مهما علم عن الشجرة فان علمه لا يتم الا اذا علم المعنى الوجـدانى الكونى للشـجرة •• وهنا تسمع النفس الشفه نداء الآيات :

(ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيـا به الأرض بعـد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) سورة البقرة آية ١٦٤ •

(ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون • فالق الاصباح وجعل الليل سكنا

والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم • وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون • وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون • وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) •

سورة الأنعام ـ الآيات ٩٥ ــ ٩٩

حين تحدث ابن سينا عن أقسام العلوم العقلية عرف **الحكمة** بأنها صناعة نظر يستفيد منها الانسان تحصيل ما عليه الوجود كله فى نفس الانسان وما الواجب عليه عمله مما ينبغى أن يكتسب فعلا لتشرق بذلك نفسه وتستكمل وتصير عالما معقولا مضاهيا للعالم الأول وتستعد للسعادة القصوى بالآخرة وذلك بحسب الطاقة الانسانية •

ما أصدق « نيوتن » فى قوله :

نحن فى علومنا كأطفال يلعبون بأصداف على شاطىء البحر •• والبحر فى أعماقه ملآن باللآلىء •

ان الفن أدبا أو موسيقى أو تشكيلا هو اناقة المبنى ولطف المعنى ونصاعة الكل •

حشد من الذخر والبشر حيث تنبثق الراحة من فرط الدقة ، وتكسو البساطة ، غزارة التركيب •

والمتسرع فى الحكم على العمل الفنى ظالم لنفسه •• ظالم للفنان فى وقت واحد • ان الثرثرة والقاء الأحكام بلا تثبت ، تزحم السكون بالضوضاء فلا يسمع المشاهد الأصوات الدقيقة الهامسة الآتية من أعماق النفس ، متلاقية أو متوازية ولكنها متحابة • استماع قلبى صاف الى كلمات بغير حروف هذه الكلمات مادة لحياتنا فى العلـم والفن والدين نصوغ منها بمختلف المواهب صورا شتى يستطيع الفنان أن ينفذ اليها ، لأن الفنان الحقيقى قلب كبير •• وعين نافذة يطل منها على عوالم شتى •• لهذا يعتبر الوجود الفنى هو الوجود الانسانى الحقيقى •

مصر الدين والفن .. هل نعرفها ؟

هل نعرف مصر ؟

كلامنا عن مصر ما أكثره وما أقله .

نتشدق كثيرا باسم مصر .. وننفذ قليلا الى ما وراء الحروف .

والوطنية الرفيعة أكبر كثيرا من الكلام ومن الأغانى والشعارات .

انها علم بالوطن

وعطـــاء

وانتماء ليس منه سجلات المواليد ولكنه أسلوب .. وادراك .. وايمان .

وفداء بالنفس .. والمال .. والمنافع الزائلة مهما بلغ اغراؤها .

ان الهتاف وطنية البسطاء .. والشعارات املاء على ارادة الانسان والغاء لشخصيته ..

ولكن الوطنية علم بالوطن .. أتحدث عن البعد الأول للوطن .. فالتعصب للمكان يستشعره الطائر مع عشه ، والفأر مع جحره ، والأرنب مع وجاره ، والأسد مع عرينه .. ولكن العلم بالمكان هو الرباط الحقيقى .

وقد ارتبط المصريون فى عصور زهو الحضارة المصرية بأرضهم ارتباطا فى فنونهم ومأثورهم .. ظهر فى صناعاتهم وفى علومهم .. ارتباطا طبع حضارتهم كلها .. فلم تكن هجينا أو خلطا أو تخليطا بل كانت من عز التأصيل ، علامة فى تاريخ الانسان فى كل مكان .

ومن الأصـــالة ، **الطابع والروح** وهما أسلوب شخصية .. تتعدد الطرز من عصر الى عصر وتظل الروح واحدة .. فمصر قبل الأديان .. ومن قديم الأزمان ، كانت مؤمنة .. وغدا الايمان لها طابعا ..

الوجدان الدينى من مقومات الشخصية المصرية حتى حين كان الانسان المصرى القديم ملكا عظيما فله اله يترضاه بالقرابين والمعابد والعبادة بل كان الملوك يستمدون عظمتهم بنسبة أنفسهم الى الآلهة وأنهم من نسلها .

وليس اعتباطا أو مصادفة ، وقوف مصر وراء الأديان · احتضنت العذراء المسيح ، واحتضنت مصر المسيحية نفسها ·

ومكث الاسلام فى الأندلس تسعة قرون ما بين أوج القوة ووهاد الضعف ثم خرج ـ حكما لا حضارة ـ ولكنه فى مصر وقف على أرض صلبة بما فيه ، منها ، أرض قوية عز فيها بناؤه وبقاؤه بما أمدته بيئتها الحضارية من مقومات الازدهار بسابقة الحضارة وسالفة التاريخ ·

الطابع هو عز الشخصية لأنه التفرد والامتيـاز ·· وبدونه تغدو وحدة عددية فى جمع متكرر متشابه ·

حين بنت مصر المعبد والمسلة والهرم ، غدا الشموخ ، والارتفاع ، وأحلام الصعود ، والتوق الى فوق ، لها طابعا واسلوب بنــاء واسلوب شخصية ·

فلما اعتنقت مصر المسيحية ، وآمنت بالاسلام ، وبنت لهما ما بنت ، فعلت هذا بأسلوبها هى ·

كان تأكيد الاسلام للمساواة وراء الخط الأفقى فى العمارة الاسلامية بما فى الأفقيــة من تواضـــع وقبول حين يعين الخط الرأسى على ترفع الارتفاع ، ويمد له فى المباهاة ·· ومضت المساجد الاسلامية فى البلاد الاسلامية تقلد مسجد المدينة بأفقيته وبساطته ولكن مصر ما لبثت أن أعملت شخصيتها فارتفعت الأعمدة والايوانات فى مسجد السلطان حسن ، رائعة العمارة الاسلامية وقمتها ، حتى عده أساتذة العمارة فى الغرب : هرما اسلاميا ·

مرة أخرى أقول تتعدد الطرز وتظل الروح واحدة · بى شوق الى الوقوف طويلا عند مســـجد السلطان حسن فى مقارنة بينه وبين المعبد المصرى دون أن يحاكى ··

فالمدخل الضيق فى المعبد فى عملية تحضير للنفس تنفتح بعده على بهو الأعمدة ·

يقابله المدخل الضيق فى المسجد الذى ينتهى بالصحن حيث تتصل الأرض بالسماء ·

وينشرح الصدر ويتفتح القلب ··

وكأن الزائر سلم ·

وقدس الأقداس فى المعبـد ، يقـابله القبلة والمحراب فى المسجد

غير أن قدس المعبد لا يدخله الا الملك والكهنة حين يؤم القبلة ، الناس ٠٠ كل الناس ٠

تساووا فلا الأنساب فيها نفاوت لديك ولا الأقدار مختلفات

وبحيرة الاغتسال فى المعبد تقابلها **الميضة** فى المسجد وضاءة نفس فى الحالين قبل غسل الجسم أو الوجه والكمين ٠

وهكذا تتعدد الطرز فى مصر والروح واحدة ٠

فالعمل الفنى لا يحدث فى لحظة زمنية محددة بل ينشـأ ويتكون ويتجمع من عوامل عدة سابقة عليه ووراثات كثيرة ٠

ان المئذنة هي الترجمة الاسلامية للمسلة ٠ فالمساجد في عهد الخلفاء بغير مآذن ولكن مصر تفننت فى المآذن وطورت فيها من احســاس قديم بالمســلة ٠

والمسجد المصرى فبه روح مصر التى مهرت فى البناء والانشاء منذ القدم ٠فضخامةالبناء ، وحجم الأحجار ، والاتساع المعمارى ٠ والأعمدة الكثيرة فى المسجد كالمعبد وخاصة العمود المربع بلا قاعدة ولا تاج (وهو العمود السائد فى « معبد الوادى ») كمـا انتقلت الى المســاجد ، أعمدة البردى (وعمود البردى ســائد فى معبد أمون بالكرنك ومعبد الأقصر) ٠

وانتقلت الى المساجد ، الأعمدة النخيلية (العمود النخيلى ســائد فى معبد ساهو رع بأبى صـــير ومعبد ادفو) حتى الخط العربى أعملت فيه مصر ، وجدانها المولع بالنبات فاصبح الخط الكوفى ، فيها ، أيام الفاطميين **مشجرا** وهو نوع تنتهى حروفه بتفريعات من المراوح النخيلية ٠

ان القبة هي الترجمة الاسلامية للهرم بعد ان تشرب الفنان المسلم ٠ سماحة الدين الجديد فترفق الخط فى يده ، واستدار بعد صـــلابة وثبـــات ٠

على أن مصر عرفت التسقيف بالقبو والقباب منذ القدم فقد أثبتت الكشوف الأخيرة وخاصة فى الهرم ، هذا ٠

ان الاكتشافات فى هـرم منقرع تكشف عن علمهم بنظرية العقد وأنهم طبقوها ٠٠٠ والذى كان معروفا ومشهورا عنهم ، هو القبو المستمر الذى استعمل فى أسقف بعض المقابر أو أسقف المبانى الملحقة بالمعابد ٠

عرفت مصر القباب منذ عصر ما قبل الأسرات أى ما قبل التاريخ بل من الأقباء ما كان مزدوجا قبوا فوق قبو بل منها ما كان يتألف من ثلاثة أو أربعة أقباء ٠

لقد كان مسجد عمرو بن العاص فى البداية ، بناء بسيطا لا يزيد طول قاعدته على خمسين ذراعا ولا يزيد عرضها على ثلاثين ذراعا ٠٠ وكان سقفه منخفضا ولم يكن له صحن ولا محراب مجوف ٠٠ فاذا بمصر تعليه وتتوسع فيه وتضع عليه بصمتها ، كغيره ٠

ولم يحدث هذا فى البلاد الاسلامية الأخرى أى بنفس القدر والمقدار ٠

انه طاقة مصر وتاريخها الطويل فى الحضارة ٠

وحين أراد صلاح الدين بناء قلعة ، جاءت « قلعة الجبل » نموذجا وحده ٠٠ وكم بين قلعة الجبل فى ضخامتها وتفردها فى الموقع ٠٠ وبين « قلعة حلب » بتواضعها النسبى ، ووجودها فى وسط المدينة ٠

وليس هذا المثال بأوحد ٠

ويقول برستيد فى كتابه « انتصار الحضارة » :

(٠٠٠ وكان لاختراع الكتابة واختراع استعمال البردى أثر عظيم فى رفع مستوى الجنس الانسانى أكثر من أى شيء آخر ٠٠ لأنه أهم من جميع الحروب التى خاض الانسان غمارها ٠٠ وأهم من جميع النظم أو الدساتير التى وضعت منذ خلق الله هذا الكون) ٠

وغير « برستيد » كتب عن مصر « بترى » و « د٠ هول » و «اميابينو» و « كابارت » من الغرب ومثلهم من الشرق ٠

ماذا نقول نحن عن مصر ٠

ولا أقصد بالقول الكلام والأصوات العالية ، ولكن القول المترجم الى عمل أو دراسة ٠٠ الى اضافات تحسب لمصر لا سلبيات تحسب عليها ٠

لقد تطورنا الى أسفل والأمثلة كثيرة ٠

حين ارتبطت **الموسيقى** فى مصر القديمة بالمعبد ، كان الفن مقدسا ومظهرا فخما للحياة بل أساسا من أسسها ٠

أما حين أصبحت الموسيقى طبلة ورقا فى « وسط العوالم » ، تدنت النظرة اليها ٠

اليوم يذبحون الأشجار ٠

وكانت الشجرة عند مصر ، مقدسة ٠

فشجرة الجميز تحل فيها الآلهة هاتور وتعطى الميت الذى لا أهل له القرابين والطعام ٠٠ وتأخذ أوربا ، الفكرة وتترجمها الى شـــجرة عيد الميلاد ، وبابا نويل ٠

وتؤمن مصر بالمسيحية فتقول بشجرة العذراء فى المطرية ، انهـــا المقولة المسيحية لشجرة هليوبوليس المقدسة ٠

عندما تسلق الانسان البدائى ، الشجرة ، كان عمله هذا أول خطوة فى اتساع مجال الرؤية ٠

من أعلى الشجرة راى أكبر ، البيئة المحيطة به ٠

زادت المساحة التى يمكن النظر اليها ٠

انفسحت الرؤية ٠

انفتحت النفس على بيئتها ٠

ومع الانفساح والنفتح ، اتسعت الخبرة وتعمقت وقوى الادراك ، وازداد الوعى ، واشتعلت الرغبة فى رؤية أوسع ٠

تفتحت فى نفس الانســـان غريزة حب الاستطلاع فاكتشف على الأيام ، المجهر ٠

واخترع الطائرة لتطوى رؤيته عالمه وأكملها بالقمر الصناعى لينتقل اليه العالم وهو جالس فى بيته ٠٠ بل اخترع الصــاروخ ليرى الكواكب الأخرى ٠ ولكننا نهوى بأنفسنا على الأرض ونهوى بالفأس على الشجرة ٠

بعد تراب السطح ، أعود مرة أخرى الى المنجم الماسى ٠ أعود الى مصر العطاء ألوانا وفنونا ٠

كانت مصر تعطى الفن وتدل به حتى فى عصور ضعفها الســياسى فيفرح الغزاة بكسب معركة فيحمل الفرح دلالة احســاسهم الكبير بمصر وأن النصر فى حضرة الكبير ، ظفر ثمين بتمين غال ٠

وتستعلى مصر بالفن والعلم بعد الدين فاذا باليونان يتعلمون عليها ، وعندها ٠٠ واذا بالرومان يعبدون «ايزيس» لا فى مصر وحدها بل وفى روما نفسها ٠٠ واذا بالعرب يدخلون مصر فى حرب ضد الرومان لا ضدها هى

فلم يغيروا بعد الدخول شيئا في فنها فمضت فيه غير عابئة بالمعركة الدائرة، في احتدامها ، أو بعد النتيجة ٠

كل ما فعله العرب أن أضافوا الكتابة العربية كعنصر زخرفي في الزخرفة المصرية السائدة ولا بأس بها عند مصر فقد أحاطت الكتابة العربية بفروع نباتية كما أشرت تأكيدا لشخصيتها الزارعة والزراعية كما أحاطتها بالأسماك ولمصر قدرة فائقة في رسم السمك منذ بنت معبد « ميراروكا » وبه من رسوم الأسماك عجب عجاب ٠

والسمك بالذات في الزخرفة العربيـــة ادلال بالشخصية فالعرب أبناء الصحراء ، الأســـماك غير واردة عندهم ٠٠ ولهذا كان إختيـــارها للزخرفة ، **بصمة مصرية** فيها اعلان عن المكان الذي يضم النيل وشواطيء البحر الأبيض والبحر الأحمر ٠

وشاعت **الحمامة** في الزخرفة الاسلامية في العصر الفاطمي تأكيدا لوجدان مصر الديني سواء من ظل من المصريين مسيحيا أو من دخـــل في الاسلام ٠

فالمصري خدم الحمامة في زخرفته ٠

قبطيا اشارة الى روح القدس ، والحمامة رمز اليها ٠

ومسلما احياء لذكرى عزيزة هي هجرة الرسول عليه الســـلام واحتماؤه بالغار الذي عششت عليه يمامسان أو حمامتان ٠

وحبا في حمام الحمى ٠

كم أعطت مصر على غير مثال ٠٠ ان مصر من كثرة معجزاتها غدت المعجزة فيها بلا علامة ٠

وعطاؤها مؤشر الى قيمتين كبيرتين : **الوقت ٠٠ والعمل**

ملأت مصر الوقت ، عملا

وملأت مصر العمل ، قيمة ٠

والمعروف فقط من تراثها الباقي ، شاهد على الاثنين معا ٠

ملأت مصر **القديمة** الوقت ، اعجازا لا يحتاج الى الدليل ٠

وملأت مصر **المسيحية** ، الوقت ، جهادا واستشهادا في معركتهـا ضد الرومان ، والاستشهاد هنا ليس عدما بل حياة ، وملأته كتابة وحكمة

بعد أن انتصر رأيهـا واعتنق قسطنطين امبراطور الرومان ، المسيحية ، حتى قيل ان كتب الأب اثناسيوس بلغت سنة آلاف كتاب • وهب ان هذا الرقم ، مبالغة ، يلجأ اليها الشعوب المعتدة بنفسها ، ابان محنتهـا ، تأكيدا لذاتيتها •• فدلالته الباقية : **الكثرة الايجابية لأنهـا مشغولة** بحساب دقيق •• لهذا بقيت حين يضيع لغو الكلام •

ان مصر المسيحية هي المصدر الأول لعلم اللاهوت بما خطه فيه اثناسيوس الذى تألق فى مجامع نيقية سنة ٣٢٥ م •

واننا لنعجب كيف كانت مصر فى القرون الأولى للمسيحية تابعـة للرومان ثم تستطيع أن تتبع الآخـرين لهـا ومن بينهـم روما • **فمصر لا روما ولا أثينا هي التى كانت مصدر التشريع الكنسى للعـالم المسيحى** •

لقد نشرت مصر **الرهبنة** بسماتها المصرية فى أنحاء العالم •

وحين تضاربت أقوال علمـاء المسيحية فى تاريـخ عيد القيـامة سنه ٣٢٥ م اشرأب مجمع نيقية الى مصر فحسمت الموقف وحددت التاريخ بل حددت مصر الأعياد وأوقات الصيام للعالم المسيحى كله •

ومصر هي التى وضعت النظام الرعوى الذى يبدأ من الأسقف وينتهى الى الشماس • وعن مصر أخذت بقية الكراسى الرسولية •

وقدمت مصر أقدم ترجمة قبطية للكتاب المقدس • وموسيقى مصر الكنسية **(أقدم مدرسة موسيقية معروفة فى العالم)** بل تكاد تكون أغناها أيضا بما انبثقت عنه من موسيقى مصر القديمة التى تحمل أسماءها الى اليوم ، ألحانا •

هذا فى الدين أما فى الفن فحسبى ان أذكر أن **القباطى** أو الزخرفة القبطية للمنسوجات هى أصل **الجوبلان** الفرنسى بعد أن أحيت فرنسـا فى القرن السابع عشر ، هذه الصناعة المصرية القديمة •

كذلك النسيج الذى عرف ب « الأبيسون » نسبة الى مدينة أوبيسون بفرنسا وزخارفه منسوجة بطريقة القباطى •

واعتنقت مصر الاسلام ، فغلبت مصر فى العصر الاسلامى على الصناعة والفن فساد فى الزخرفة استعمال الحفر والتلوين والتطعيم وهى مهارات مصرية قديمة • ومهرت مصر بفنها وزخارفها الهندسية والنجمية اشتهر

الآثار الاسلامية فى العالم مما يشهد به مقام الامام الشافعى بمبنه وتابوت الامام الحسين وقبة مسجد ابن طولون .

ومصر هى التى استعملت لأول مرة الفسيفساء المذهبة . حين زين بها البناء المصرى محراب قبة الملك نجم الدين أيوب . ويطول بى الحديث لو تحدثت عن الجامع الأقمر والآثار الاسلامية الأخرى .

لقد سارعت مصر على اثر دخولها فى الاسلام الى **الحديث وتسجيله** على ورق البردى الذى عرفت به .

وعن مصر نقل البخارى فى تفسيره كثيرا ، وعلى الصحيفة المصرية فى التفسير ، ارتكزت التفسيرات فى سائر البلاد الاسلامية .

وفرضت مصر شخصيتها فى الفقه حيث كيفت آراء الشافعى وحورت وبدلت فيها حتى اضطر أن يكتب رسالته من جديد فيها عدولا منه عن رسالته القديمة التى كتبها بالعراق متأثرا بالبيئة المصرية وآراء امام مصر الليث بن سعد .

واتخذت مصر **دورا ذائعا فى علم القراءات** .

وكما ابتدعت مصر الرهبانية فى المسيحية ، وضعت أسس التصوف فى الاسلام على يد ذى النون المصرى الذى تقول عنه المصادر الاسلامية ومن بينها الرسالة للقشيرى ، والطبقات للشعرانى ، والكواكب الدرية للمناوى ، وحلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ، واللمع للسراج الطوسى ، وكشف الحجب للهجويرى ، وكذلك الرازى والترمذى .. انه وحيد دهره علما وعبادة وحالا ، ومعرفة وأدبا .. وقد كان المشايخ قبله ولكنه أول من فسر اشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق .

وقامت مساجد مصر بدور كبير فى الثقافة الاسـلامية وخاصـة **الأزهر** الذى حفظ علوم اللغة والدين فى الهزات السياسية .

وبعد غارات المغول والتتار فى الشرق وحركات الافرنج فى الغرب (أسبانيا) تجمعت الحركة الفكرية فى القاهرة .

والى اليوم مصر قبلة العرب فى اللغة بعلومها وفنونها وقبلة المسلمين فى علوم الدين .

واذا اعتبرنا المسلمين اليوم عربا وعجما ألف مليون نسمة فان هذا الألف قبلته مصر اليوم وليس هذا بالهين أو القليل الشأن .

ان أضبط مصحف كتابة ورسما وشكلا من عمل مصر ٠

والمصحف المرتل من عمل مصر ٠

والمصحف المجود صوت مصر ٠

وفي العصر الحديث أقالت مصر الأدب من عثرته وشرعت الترجمة والاقتباس ، وكتبت **القصة والمسرحية والشعر التمثيلي** وكانت **في كل هذا رائدة ومنارة اشعاع** حتى في العلوم الحديثة كالطب والذرة والهندسة تتألق في سماء مصر الأسماء الكبيرة والكثيرة على **المستوى العالمي مما شهد لهم به ، الغرب نفسه** ٠

ان تاريخ مصر الديني والعلمي والفني **أبقى وأعظم من تاريخها** السياسي لأنه حافل بالريادات وعطاء الخلود ٠

ان قمة التاريخ السياسي في أمة من الأمم ، هو عصر الامبراطورية فيها ٠٠ ولكن العالم على مسار العصور به امبراطوريات عديدة تتابع موجات ٠٠ ولكن الذي لم يتكرر أو يشائيه أحد ، **ريادات مصر الحضارية** ٠

ليتنا نعرفها ٠٠

الفن المصرى والطبيعة المصرية

الطبيعة فى أى مكان هى أم الفن الصادق •

حتى الفن البدائى وأصحابه رؤيتهم محدودة فى المكان الذى يعيشون فيه •• **ولكنها بلا حدود** فى أعمالهم الفنية •

هذه الأعمال بعيدة بالطبع عن ثقافة العصر الحديث وبالتالى عن التأثر بها ولكنها قريبة دانية من الطبيعة والفطرة والحياة والمشاعر الحميمة والنقية •

انها غنية بصدق الانسان •

وقديما فى نشأة الانسانية ، كانت الطبيعة وراء أشياء وقيم عزيزة فى تاريخ الانسان •• أول هذه القيم : **البيت** •

كان البيت – ولا يزال – لونا من الأمومة منذ التجأ اليه الانسان ليحتمى به من العواصف والخلاء ثم رآه يدافع عنه عوارض الطبيعة . ويدفع عنه البرد والحر فتعلق به أكثر •

البيت هو الحمى •• هو زغب الطائر •

كتب الرسام (فلافيك) عندما كان يعيش حياة هادئة فى الريف (السعادة التى أشعر بها وأنا جالس أمام النار ، بينما تهدر العاصفة غاضبة فى الخارج هى هناءة حيوانية خالصة ، فالفأر فى جحره ، والأرنب فى وجاره ، والأبقار فى الاسطبل تشعر دون شك بالرضا ذاته الذى أشعر به) •

ولكن اذا تجاوزنا (الهناءة الحيوانية) التى يتحدث عنها (فلافيك) فى لحظة دفء ، أقول ان البيت **ذاتية** • انه خاص بصاحبه وحده •• ومسرح لذوقه وأفكاره •

والبيت **سيادة** فهو ملك لصاحبه وحده يفعل به ، وفيه ، ما يشاء •• وهو **حرم** له لا يقتحمه آخر عليه الا باذنه فى عصور الأمان •

وجاءت الأديان فأكدت هذا (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) •

والآية (واتوا البيوت من أبوابها ٠٠) ٠

البيت **حرم** ٠٠ **وحبيب** مهما صغر أو تواضع ٠٠ انه كالأم أعز انسان كما هى ، لا نفارن بغيرها ٠

ومن القيم التى أوحت بها الطبيعة : **عقيدة الخلود فى مصر القديمة** دورة الشمس ٠٠ دورة النيل السنوية ٠٠٠ دورة النبات ٠٠٠ دورية البيئـة هذه أو النظـام الدورى أوحى الى المصرى امكانية **التجدد** وفكرة **البعث** ٠٠ كالنبات ٠٠ كالفيضان ٠

ومن العقيدة عبادة الشمس فى مصر القديمة ٠٠ تأثر بها المصرى وأحبهـا فحصن بهـا ملوكه وأحبابه ٠٠٠ ان قرص الشمس المجنح فى تماثيل الملوك كأنه يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) ٠

لقد امتزجت العقيدة فى مصر القديمة بالطبيعة امتزاج نور الشمس بالخضرة فيها ٠

وتبع العقيدة ، الفن ٠

فاتسمت العمارة فى مصر بامتزاج الطبيعة والدين فيها ٠٠ حتى سمى العمود المعمارى (العمود النباتى) من ولع المصرى ببيئته وطبيعة مصره ٠

لقد كانت أرض المعبد كأنها جزء من الحقل والأعمدة فيه نخيل من حجر أو سيقان اللوتس ٠

حتى الارابيسك فى مصر الاسلامية ، منبعه النبات فهو زخرفة من فروع نباتية وجذوع محورة وأوراق نباتية ذات فصين منثنية ومتشابكة ومتتابعة ٠

الأرابيسك من وادى النبات غـير أن اوروبا رأته لأول مـــرة فى الاندلس فى زهو الحضارة الاسلامية هناك فسمته (أرابيسك) كما سمت الفيروز حين رأته فى تركيا « تركواز » وفى سينا مناجمه ٠

ان الزخارف النسجية فى العصر الفرعونى اقتصرت على العنـاصر النباتية والهندسية دون العناصر الآدمية أو الحيوانية على الرغم من كثرة الأساطير التى وجدت ممثلة فى معابدهم ومقابرهم وعلى الأثاث وأدوات الزينة ٠

فمثلا نجد فى ثوب توت عنخ آمون على كثرة ما بها من زخارف ، آن قوام الزخرفة « زهرة اللوتس » وأوراق نبـاتية محصـورة فى مربعات

أو مستطيلات أو فى دوائر أو منثورة كما فى القطعة رقم ٤٦٥٢٩ بالمتحف المصرى ٠

ان الحفر على الخشب والتطعيم والتلبيس كان فى مصر القديمة ٠٠ فقد عثر فى احدى مقابر الأسرة الرابعة على أثاث فاخر ومن بينه سرير يعد من التحف الخشبية الرائعة وقد استخدم فى تجميله ، الحفر على الخشب والتطعيم بالعاج والأبنوس والتلقيم بالأحجار الكريمة والصباغة بالمعادن النفيسة كما زين هذا السرير بالكتابة الهيروغليفية المذهبة على أرضية سوداء ٠

وكرسى العرش الخاص بتوت عنخ آمون صنع ظهره برقائق الذهب يزينه العقيق والقاشانى والزجاج الأحمر ٠

ومن آثار توت عنخ آمون ، صندوق مطعم دقيق الصنع يبلغ مجموع أجزائه المطعمة ما يزيد على الفى قطعة صغيرة من العاج والأبنوس ويعنى هذا ممارسة طويلة لهذه الصناعة أدت الى هذه المهارة الفذة ٠

لقد كان التطعيم والتلبيس والتلقيم من أهم العناصر الزخرفية التى استخدمت فى تزيين الأثاث المصرى القديم ٠٠ فاستخدم الفنان الفرعونى ، للتطعيم ، العاج المستخرج من سن الفيل ، والأبنوس وكانوا يأتون به من الجنوب ٠٠ واستخدم فى التلقيم الأحجار الكريمة كالزمرد الأخضر والعقيق الأحمر ، والفيروز الأزرق ، واللازورد ، واللايس لازولى كما كان يستخدم فى التصفيح ، رقائق الذهب ٠

ان اسلوب الطردى عكسى أو (التقابل والتدابر) فى الفن الاسلامى المصرى ، أثر من آثار الطبيعة المصرية التى تلتقى فيها الصحراء بالوادى لقاء فيه معنى التدابر من المقابلة بين الخصب والجدب ٠

والفنان المصرى ، على مسار العصور ، عمله باق ، ما ارتبط بهذه الطبيعة ونبع منها ، وصدر عن وحيها ٠٠ فاذا ابتعد عنها ، تاه وفقد نفسه ، شيئا فشيئا فى « التحديث » أو « التغريب » أى المذاهب الفنية المستوردة ٠

ان « التكعيبية » مثلا نشأت عن التقاء الانسان الاوربى من الانتاج الصناعى الآلى ، وفى المدينة التى يعزلها الأسفلت عن التربة ، وفى جو يشبه ، أنبوبة الاختبار ٠

فى هذه البيئة أطل سؤال : أين تكمن فنية الفن ؟

وكان الجواب : فى علاقة الأشياء بالأشكال أى التكعيبية ، كما تعبر المدرسة التنقيطية عن الطبيعة ، بطريقة : **التنقيط** .

ولكن ما لبث الانسان الأوربى والباريسى خاصة أن حرر الأشياء من الأشكال . وكانت النتيجة ، ثورة تسمى **السريالية** التى طرحت أسلوب النسب المحسوبة وحاولت الاهتمام بالمعنى الى حد تجريده من الشكل !!

هل مررنا نحن بهذه الملابسات والاعتبارات حتى نقلد التكعيبية أو السريالية ؟

وبعد الحركات التحررية ، والثورات الاجتماعية ، والحروب ، اختلف الفن عن الفن القديم المرتبط بالعقائد الدينية التى أعطته نمطا ثابتا لأزمنة طويلة اتسم الفن فيها بالموضوعية .

وظهرت المدارس الحديثة وأصبح الفن الحديث وليد انفعالات كثيرة وقوية فى داخل الانسان .. لهذا اتجه الى **الذاتية**.. وهنا وضحت شخصية الفنان فى العصر الحديث حتى أصبحت المدارس الفنية تنتسب اليه فى أحيان كثيرة .

وكانت الأعمال الفنية القديمة وخاصة الكبيرة بلا توقيع .. أعمال يقف وراءها (روح الفريق) كالهرم والمعابد ، **أو الشخصية الجماعية** .

تغير أسلوب الفن الحديث نتيجة الكشوف العلمية ... حتى أن اسلوب الكشف ذاته الذى ينبع فى العلم استخدم كذلك فى العمليات الفنية كتدخل الحاسب الآلى فى توزيع الموسيقى وتأليفها مثلا .. كما استخدم فى الرسوم المتحركة .

ومثلا آخر ترجمة قصص الانجيل الدينية الى صور مرسومة ملونة توسلا بقوة الفن التعبيرية فى نقل المعانى الدينية الى الجماهير .

كما أوجدت سرعة المواصلات خطوطا مشتركة وتداخلا بين الفنون **ففى الغناء** ظهر الفرانكو اراب وأصبح سريع الانتشار فى العالم ..

وفى الأدب ظهرت الترجمة وتبادلت اللغات الأخذ والعطاء .

وبعد هذا كله ، بدأ الانسان ، وخاصة فى الغرب ، يتنادى بالعودة الى الطبيعة .

هذه الطبيعة عندما تكون عدائية فى نظر الانسان البدائى أى ذات قوى يخافها ، يتسم الفن بالهروب منها أى تشكيل المخالف لها أو الرمز اليها ، كفن الكهوف .

ومن هنا نفهم هجرة الفنان « جوجان » الى تاهيتي حيث الطبيعة عروس يانعة الصبا فانتعشت روحه وعبت من النور عللا بعد نهل ·· وترشفت الألوان ، وتفيأت الظلال ·

واذ ارتوى ، استمع الى نداء نفسه ثم ما لبث أن تدفق النبع في داخله ، صورا وأشكالا ·

ولكن الفنان المصرى ليس عنده عذر « جوجان » فطبيعة مصر كريمة ودود ساطعة البهاء يهوى اليها الفن ·

وفن مصر دائما في عناق معها فنقوشه نباتية ، وألوانه منها ، ورسومه البشرية والحيوانية فيها حب وفرحة ··

ويؤكد هذا ما كتبه « هربرت ريد » في الفقرة ٣٢ من كتابه « معنى الفن » ·

ومن التصاق الفن المصرى بالطبيعة ، اختيار المصرى موقع معبده (أبو سمبل) في حضن الجبل حتى ليبدو جزءا منه ، كما أن الدير البحرى يقف أمام الجبل حتى ليبدو الجبل ، خلفية له ·

يقول الرسام بول كلي Paul Klee ممثلا الطبيعة والحياة بجذر الشجرة ، والفنان بالجذع · والأعمال الفنية بالأوراق :

(يدرس الفنان دنياه العامرة بالمتنوعات العديدة ويتغلغل فيها دون عوائق وتدخل النظام على انطلاقات الخيال ومحصلات الخبرة ، وان احساسه بالاتجاه الى الطبيعة والحياة يتفرع وينتشر وهو جذر الشجرة التى تنطلق منه العصارة الى الفنان. ومن خلاله الى الفن) ·

وعندنا مثل حي على دور الطبيعة المصرية ···

آمن حبيب جورجي بالطبيعة المصرية فدفع الى حضنها بالأطفال ··· أطفال لا يقرءون ولا يكتبون ولكنهم أعطوا الحرية في التعبير ، فأعطوا في الحرية ما لم يعطه تلاميذ الجدران الاربعة ·

وطاف بالأطفال وخاصة الموهوبين منهم : الريف والأسواق والأحياء الشعبية فتأصلت الأصالة فيهم ·· وانضم الى الأصالة ، التجديد فعبروا ··· وفاق تعبيرهم كل التوقعات ·· وأقبل الناس على انتاجهم بل تهافت عليه الغرب ·

وحاولت فرنسا تقليد التجربة فلم تفلح التجربة عندها • وسألت عن السر فجاءها الجواب من مصر ، ان أطفال مصر لم يفقدوا بكارة الاحساس •• ولم تتدخل فى تكوينهم وسائل العصر ومغرياته فكانت رؤيتهم دائمة الخضرة •

وفى معرض الفنان الدكتور طه حسين امتزاج حميم بالطبيعة المصرية يتبدى فى الألوان المنسوجة من ضوء الشمس المصرية التى يقسم بها أهلنا فى الريف ولا يزالون •• يقسمون (بالبهية اللى تطلع من جنها) •

ويرجو أولادهم يا شمس يا شموسة فى رجاء أن تعطيهم سنة العروسة •• رجاء هو انتماء وحفاظ مصرى تقليدى •

لقد عرفنا الشمس علميا •

وعرفنا الأديان السماوية عقائديا •

ولكن قديمنا يعيش فى وجداننا غاليا الى حد القسم •

وقد أقسمت ريشة الفنان الدكتور طه حسين باللون وصدقتها •

ان خطوطه صديقة القرية المصرية •• وتشكيله فيه تجمع والضمامة القرية وحنانها ودفئها •

تشكيل يلتصق بالتراب وهو « تبر » فى رأى القلب ورؤية العين أيضا •

وكما ارتبط الدكتور طه حسين الفنان ، بالقرية ، ارتبط بها « مختار » فى لوحته (حاملات الجرار) وارتبط بها فى تمثاله (نهضة مصر) حيث وقفت مصر فلاحة منصوبة القامة والهامة والكرامة ••• فلاحة فى الجسم والرسم والأصل والملامح •• فلاحة فى العود والجود واللون والظل وما أخفه وما أعذبه •

أعلن مختار **بالكتلة** انتماءه الى الفراعنة •

وأعلن **بالفلاحة** انتماءه الى الريف الدائم الهوية ، الممتد المصرية •

الريف الذى عبر عنه ، معهم ، محمود سعيد صاحب لمسات الضوء على الاجسام •• فقد عبر عن الفلاح والعامل ، والصياد • وبنت البلد التى تشبه فى ملاءتها شراع المركب فى النيل حتى ليهتف بيرم : بنت البلد فى الملاءة اللف يا ولد يا ولد •

وكتب محمود سعيد رسائل لونية تصويرية الى الاسكندرية مرباه ومهواه وكأنه « فان جوخ » حين استهوته حقول القمح الذهبية وسيال الأشعة على السنابل فسجلت اللوحات دفق مشاعره ٠

حتى ألوان محمود سعيد ، الداكنة ، حارة ، من وقدة الشبوق الى كل ما هو مصرى ٠

وارتبط الفنان السجينى بعروسة المولد فخدمها كثيرا فى فنه ٠٠

وخدم الفنان « ندا » الرموز الشعبية ٠

وبيئتنا الشعبية عبر عنها « ناجى » فى رسوم النقرزان والمحمل ، وعبد الهادى الجزار فى عالم السيرك ، والفنانة اعتماد الطرابلسى والفنانة حنيفة ذهنى فى رسوم الزار والسبوع والحمام العمومى ٠

كما استوحى الفنان « سعد كامل » الوشم والسيرة الهلالية بعد أن مصرتها مصر ٠٠٠٠

وراغب عياد الأحجية القبطية ٠

لقد غلبت طبيعة مصر ذات الأسر والأسرار على « سيف وانلى » فأقبل بريشته على الناس فى حياتهم اليومية وسجلت : المقهى ٠٠ والحديقة ٠٠ وسباق الخيل ٠٠ والباليه ٠٠

أما الفنانة (تحية حليم) فان مصر والنوبة والنيل والسودان والقاهرة كلها شخوص تتحرك فى فن تحية حليم لا خطوط فحسب من عمق ايمان ودفء عاطفة ٠ أما الانسان المصرى فانه ، هى ٠٠٠ تحية حليم تتحسس عذابه بقدر ما تعذبت فى حياتها ، معنويا على الأقل ٠٠ فلم يكن بدعا أن تبدع لوحة (الحنان) وهى اللوحة التى نالت جائزة جوجنهايم Guggenhiem فى عام ١٩٥٨ ٠

والفنانة (جاذبية سرى) التى ترجمت لوحاتها التراث والمدينة والصحراء والطبيعة المصرية بنصاعة شمسها وتدفق نيلها وسماحتها وبكارتها ، وكان الخط واللون عندها كلاهما ، عارما بالتعبير كما يقول الأستاذ فاروق بسيونى (ساخنا بحيوية الأداء حاملا لقدر من النضج والبساطة البليغة التى يعكسها انصهار المعنى فى الشكل ، والشكل فى المعنى وكأنما هى عملية توقيف قسرية للزمان لبذوب فى المكان أو تحويل للمكان ليصبح زمنا مستمرا لا ينقطع) ٠

دنيـــا ٠

هذه أمثلة فحسب تشير ولا تحيط ٠

ان أحد وجوه أزمة الشباب اليوم ، الانفصام بينهم وبين طبيعتهم ٠٠٠٠ طبيعتهم الداخلية والخارجية ٠٠ الانفصام بينهم وبين تراثهم ٠٠ الانفصام بينهم وبين تاريخهم الصحيح ٠

ولهذا الانفصام حديث عريض بمشيئة الله ٠

الطبيعة المصرية والانسان

كان المصرى القديم يتطلع الى النيل والحقول ، ولما جاء الاسلام أصبح المصرى المسلم يتطلع الى :

الكوثر .. والجنة .

مستمعا الى نداء الآية الكريمة « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار ، من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم » .

النهر والوادى

النيل والنبات مرة أخرى

لقد شكلت الزراعة فلسفة مصر .

ليست نظريات ولكن :

اسلوب تصرف

وروح تصوف

وفن حياة

وذكاء شخصية .

ان الايمان هو الصفة الأولى لمصر فحضارتها منذ البداية دينية ولهذا ، حق وواجب أن يفرد له الحديث .

ما هى فلسفة مصر ؟

النور/السماء/الماء/الحجر

هذه الأربعة هى عناصر الحضارة المصرية وهى فى الوقت نفسه عناصر الشخصية المصرية والفلسفة المصرية .

تعلمت مصر من الحجر الصبر ، ومن النور البهجة . ومن الماء الرقة والعذوبة ، ومن السماء الرحمة والسعة .

روح الوجدان المصرى : البناء .

البناء الذى يتمثل فى :

الاناء : انه بناء جدار واحد يلف ليلتقى أوله بآخـــره · انه بيت الرهر ·

النسيج : فيه روح البناء ·· خيط له طول ويكاد لا يكون له عرض فتأتى اليد الناسجة أى البناءة وتعمل من هذا الخيط بناء له طـــول وعرض ·

الخيط رمز الفرد ·

فمن مجموع الافراد يتكون النسيج الاجتماعى ·

النيل : يبنى التربة طبقة فوق طبقة ·

النبات : يبنى نفسه بالنمو يوما بعد يوم ·

تجفيف المستنقعات : بناء أو تمهيد له ·

العقد : صفوف صفوف من الخرزة ·· بناء مرصوص ·

وأدرك الانسان المصرى معنى (الكيف) ·

ان من المشربيات الذى ابتدعه العصر القبطى كان سببه قلة الخشب فى مصر فأحال الانسان المصرى فقر (الكم) الى غنى (الكيف) ·

لقد شكلت مصر الخشب · وهو قليل عندها ، اروع مـــا يكون التشكيل فى مثال ابن البلد ·

وقد عرفت مصر (الكاويلا) وهو مسمار الخشب وهو أحدث ما يعرف الآن فى صناعة الأثاث ·

وتوسع مصر فى العمل من سعة الصدر ، ورحابة الصبر ، وطاقة الخلق والتشكيل ، والايمان بالجزاء فى النفس والمال يتبدى فى لغتنا الشعبية فى قولنا للمجود : الله يبارك لك ·

ليس أسلوب تعبير فحسب ولكنه أيضـــا أسلوب تفكير من حس بعيد بالثواب والعقاب يحكم الحياة المصرية اذا تكلمت أو عملت ·

ففى مصر المعبد والكنيسة والمسجد يخفت الضوء فى المدخل لتنتبه مشاعر الرهبة والحساب ويشتد الصمت لترتفع عقود البناء ، وترتفع معها النفس الى قمة ·

ان نداء هذا المكان يرد على رجاء الزمان ليشفيه من داء العصر وهو جدب الروح ·

داء لا يداويه الا البلد الذى عرف الزراعة تحضيرا للأرض وزراعة للنفس .. زراعـة للأثر والحجر ، زراعـة للمعنى فى الفكر ، وزراعـة للحب فى القلب ، وزراعة للرحمة تلف الانسان والحيـوان والنبات والحياة فى وحدة .

من أثر الزراعة فى مصر أن فلسفتها غير منفصلة وغير مكتوبة لأنها ليست جزئية . ليست من عمل الذهن وحـده . بل هى من عمـل الانسان الكيان كاملا ومجتمعا بحواسه وعقله وقلبه ودمه وأعصابه على مثال من عالم الزراعة الذى لا تنفصل فيه البذرة عن الأرض أو عـن الساق او الفرع أو الورق أو الثمر .. الكل متكامل .

لهذا وبه تأتلف من عطايا العقل وهدايا القلب وومضات الشعور ويقظات الضمير .

أنها اسلوب حياة وروح انسان .

عرفت مصر القيم .. وكانت مصر القديمة تسمى المدرسة (بيت الحياة) فى ارتفاع على اسلوب التلقين الذى تسير عليه كثير من المدارس فى عصرنا هذا بعد آلاف السنين .

ومن مأثورات الأدب المصرى القديم : (ان كتابا واحدا لأكثر نفعا من بيت مؤثث ومقبرة فى الغرب وأجمل منظرا من قصر منيف) .

ومن حكم امينوبى (لا تقولن لا أحمل خطيئة فليس بين يدى الله انسان كامل) .

(قل الصدق وافعل ما يقتضيه فهو العظيم القوى) .

ومن أدبهم النفسى كانوا يسمون أوزوريس أمير السـلام وهم يعلمون أنه ضحية سيت الذى لم يكتف بقتله بل قطعه اربا .

وفى المعبد المصرى حورس يشترك مع سيت قاتل أبيه فى رفع رمز الوحدة !!

انه شعور الشعب المصرى بالأسرية وهو شعور يتسع فيصبح وحدة أمام الملمات . وتغدو مصر كلها أسرة .

ولعل هذا سر افتقاد أدب الدراما عندنا . لم تتفوق القصة عندنا كأوربا على الرغم من أننا نحب الحكايات .. لأن طبيعة تفكيرنا التكامل لا التصارع الذى هو أساس الدراما .

الملحمة تجلى بطولات يبرزها الصراع السائى ولكن مصر حتى حين تتصارع تفىء الى الوحدة · فحروب الشمال والجنوب انتهت بوحدة الوادى ولبس مينا تاج الوجهين ·

وصراع أوزوريس وسيت انتهى الى تحكيم القضاء ونصب ميزان العدل ·

وهذا الادراك العميق للأمور هو فى صميمه بطولة فكرية ·

التكامل والوحدة سمة من سمات الشخصية المصرية ذلك التكامل الذى تفتقده الشخصية الأوربية ولهذا تهوى التقسيم والتصنيف ·

حتى عصور تاريخها وحركاتها الفنية تتراوح من النقيض الى النقيض كالواقعية والسريالية ·

ليس فى أوربا تكامل ·· عندها الصراع ·

وعند مصر التكامل الذى نسميه اللمة ·· العزوة ومثلها الشعبى يقول : (البركة فى كتر الأيادى) أى فى التجمع ·

تاريخ مصر يروى هذا التكامل ·

كان فرعون أى البيت العظيم رجل سيف أى دولة

+ رجل قانون أى حضارة

+ رجل بناء أى ثقافة

ومجموع الثلاثة معناه أمـــة ·

وهذا هو الفرق بين الأمة والدولة · فالسيف يصنع دولة ، ولكن القانون والحق والخير أى (معات) التي رمزت بها مصر القديمـــة الى الحق والخير والعدل يصنع أمة ·

وشعور الشعب المصرى بالأسرية ، تنبع منه أخلاقياته وتصرفاته ونظراته فى الحياة والناس ، وينعكس هذا على آدابه وفنونه ·

اذا عمل سمى أستاذ الصنعه (معلما) والصبى يناديه (يا عمى) ان العمل قرابة ونسب · كل شىء فى مصر أسرة ·

والأب المصرى يقول لابنه الذى يحمل الكتاب (حافظ عليه كأمك) فى ادراك عال نبيل للأم والكتاب معا ·

مصر والموسيقى

سمعت الفنان المبدع رمزى يسى عازف البيانو المصرى الذى مثلنا فى المحافل العالمية الموسيقية وسعدت بساعات هانئة مع النغم الرفيع٠٠ وسمعت المصرية الموهوبة مشيرة عيسى ٠

وكل صاحب عطاء ، اضافة الى مصر نعتز بها ٠٠ ولكن الاعتزاز بفنان جدير بالاعزاز لا يعنى تجاهل أعزاء آخرين واحباطهم ٠٠ رمزى يسى مصريا ، وفنانا يؤنسه ولا ييئسه أن يكون معه على الدرب رفقة النغم ، واخوة الفن الغالى ، والفن صفاء ونقاء ومحبة ٠ كان فولتير يقول : (من لى بصحبة أربعة يتناقشون فى الأدب والفن معا ٠٠ من لى بهذه الجنة) وكان جيته يقول : (كلما رأيت عملا عظيما ، أفرح لأننى انسان) ٠

ما أحرانا أن نقتصد قليلا فى صيغة « أفعل » ومن توابعها « أوحد » ــ الفنان الأوحد ــ العالم الأوحد والمؤمن الأوحد الخ ٠ ان الفن فى ذروته ، دقة ورقة وثراء يتمثل فى الموضوعية والانصاف لا الاجحاف وان مصر ولود ، ودود ، معطاء ولدت فى العزف رمزى يسى كما ولدت مشيرة عيسى أو زهرة اللونس التى تخطر الى البيانو فى شفافية قطرة ندى . وتعزف عليه فى امتزاج ، كعاشق مشبوب ٠

وهناك « ناجى حبشى » فى تشيللو ٠ وعلى الطريق « بسمة عبد الرحيم » فى « الكمان » ٠

لمصلحة من نغمط أبناءنا وهم جميعا منا ، ونغمط معهم معهد الكونسرفتوار والقائمين عليه اذا لم يخرج الا فنانا واحدا أوحد ! ولو كان فى منزلة رمزى يسى ؟ الذى لا أشك أن مصر أعز عليه من نفسه ٠ مثلنا جميعا ٠

لا تجعلوا منا شيعا حتى فى الفنون ٠٠ ان حبنا لمصر ، خليق أن يجعلنا نبارك أعزاءنا جميعا ونرش الضوء على طريقهم يحدو خطاهم ويزكى جهودا من حقها ، التقدير ٠

ان مصر على مسار تاريخها كله ، ولوع بالموسيقى ولود للموسيقيين والانسان المصرى يحب الطرب والسماع من التنعم الطويل فى الحضارة فهو فنان خالق ٠٠ وهو فنان متذوق ٠

انسان ابن طبيعته يسرى فيه لطف الطبيعة المصرية ورفقها ،

فيتبدى هذا الحديث رقة ، وفى النمنمة الإسلامية دقة وفى الموسيقى المصرية عذوبة وسلاسة وملاسة وبهجة ٠

لقد نهلت مزامير داوود من تسابيح « اخناتون » (المزمور ١٠٤ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦ ـ والمزمور ٥٤١) ٠

فالانسان المصرى طروب من يومه ٠٠ والمعبد المصرى يضج بالفرح والاله يغنون له ويرقصون فى توقيع جميل ٠

حتى المقابر ، رسموا عليها حلقات الرقص وعصير العنب والطيور الشهية ليست للحزن اذن ٠ انها ترد الروح ٠

ومن هنا كانت موسيقى مصر الكنسية (أقدم مدرسه موسيقية معروفة فى العالم) بل نكاد نكون أغناها أيضا بما انبثقت عنه من موسيقى مصر القديمة التى تحمل أسماءها الى اليوم ، ألحانا ٠

يقول الفيلسوف الاسكندرى « فيلو » : (ان بعض الألحان الشائعة الى الآن فى الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد ٠ فاللحن السنجارى نسبة الى بلدة سنجار التى تقع شمال محافظة الغربية ٠ وعرفت منذ أيام رمسيس الثانى وكانت تحوطها الأديرة فى العصر القبطى ، وكذلك « اللحن الأتريبى » نسبة الى « أتريب » القديمة بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة اخميم) ٠

ان آلة « الهارب » التى كان يظن الى عهد قريب أنها آلة غربية ، آلة مصرية قديمة ومعها آلة السسنروم ٠

فاذا بلغنا مصر الاسلامية ، وجدنا مصر ، فى القراءات ، قد موسقت الدين بطبعها الفنان ٠

وكما اتخذت مصر الاسلامية دورا هاما فى علم الحديث ، اتخذت دورا ذائعا فى علم القراءات ٠ فعن « ورش » المصرى أخذ علماء المغرب عن تلميذه « أبى يعقوب » الأزرق بن عمرو بن يسار المصرى ٠٠ وأخذ الأندلس عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصرى ٠

كتب الشيخ البشرى مقالا عن « تقاليد مصر فى الفن » جاء فيه أن متقدمى القراء فى مصر (لا يبدأون قراءتهم الا من « البياتى » ، وبه ، دائما يختمون) ٠

وفى يقينى أن ترتيل القرآن يسهم فى محو الأمية **الفنية** بتركيب الموسيقى القرآنية فى شعور الانسان السامع ٠

وبعــد القرآن يأتى الأذان .. وعمل مصر ، فيــه ، يحــدث عن التناسق والهارمونى فى ذوقها .

فالأذان على مآذن القاهرة دون غيرها يجلجل بنغمة الرصد ، أو البيــاتى أو الحجــاز أو السيكاه وهو دليــل على أن أهل مصر عشــاق موسيقى وأهل ذوق وهواة تطريب .

ومن تقاليد مصر فى الفن أو عمل مصر فى موسقة الدين ،ماستثمت من تقاليد فى حلقات الذكر التى كانت مصر تجعل له قائدا هو بمثابة ضابط الايقاع .

وقد فصل الشيخ البشرى ، فى كتابه (فطوف) الكلام فى هذا المجال تفصيلا يعذب ويروق ..

لقد موسقت مصر الدين حين رددت آياته ، ورتلتها لأنها تعرف بالحس الحضارى أن القلب البشرى يحن الى النغم والتنــاغى فاذا اقترن المعنى الشريف بالنغم الجميل تلقت النفس سيالا من الحنان .

حتى الفنان المصرى التشكيلى كان موسيقيا فى داخله ــ فحين نلقى اللغة العربية ، استخدم موسيقاها فى فنه فان من يتأمل الألوان فى رخام أرضية السلطان حسن يجده لونا (بديعيا) فيه تقابل الألوان وتجانسيها على مثال الطباق والجناس فى الأدب وأحيانا يسجع الفنان المصرى المسلم بالخط والتشكيلات .

واستلم الفنان المصرى فى العصر الأسلامى نظام الأحجار المتداخلة فى البناء ولكنه زاد عليه « التقسيم » بالألوان . كان مأخوذا بالنظــام والموسيقى من أثر التــاريخ الطويل ، فخلق من « التقاسيم » فى الفن الاسلامى أفراحا تغنى .

وتأتى القبلة (فتنشد) بالألوان وتقاسيم الخطوط فى (الحنية) تواشيح .

ولقد عرف العراق التصــــوف ــ فاذا هو فى العراق ينقلب الى شيع وفرق ونحل متعددة ومتعــادية ولكن التصــوف فى مصر ، علم ومعرفة على يد ذى النون . وقصيد ونشيد على يد ابن الفارض .

وابن الفارض فيه من مصر . رقة الاحساس وشفافيته ، وهو بهذه الصورة سلطان العاشقين . ومصر بهذه الصفة فيه ، صاحبة فن فى التصوف ورقه حضــارى .. ولم يعرف عن غير ابن الفارض أن احتشد للغناء وألوان الفن حتى لتنشد أشعاره انشادا من ولعه بالنغم والتطريب .

وكان ابن الفارض كالنموذج العام المصرى ، مطبوعا على الجمال ذواقة له ، فقد ذكر المناوى فيما ذكر عنه أنه كان يخرج وقت الأصيل الى الروضة يتأمل انعكاسات الأشعة على صفحة النيل الجميل الذى كان يهوى الخلود اليه فى المساء ٠

حتى أسلوبه نابع من مصر ٠٠ من مدرسة البهاء زهير ثم مدرسة الشعب بأزجاله ولغته الجارية وهى مهموسة رخية ندية ناعمة موسيقية ٠

وحين تكلمت مصر العربية ونظمت الشعر ، استخرجت من البحر البسيط بقدرتها على اللعب الفنى ، صورا عدة للموال من حيث التنسيق والقافية ، فالموال النعمانى من تخريج أهل الصعيد ٠٠ ومواويل (الفرش والغطا)التى ينشدها المغنون علىطريقة الموال النعمانى بل بلغ الصعايدة بفن الموال مبلغا ينظمون معه المواويل ارتجالا على البديهة فى سرعة وملاحية وشفافية أيضا ٠ وهم يسمون عملهم هذا أو فنهم هذا : «الرمى»٠

وأحب المصريون « الموال » حتى كادوا يوقعون أحاديث نفوسهم على « أرغول » ولا تزال مصر الى اليوم ، فيها ، ومنها ، تسرى أقوى الألحان وأبقاها ٠٠ وأعذب الأغانى وأرقها ، واليوم كالأمس نغنى أصوات كثيرة ولكن القلوب فى أنحاء العالم العربى ، تهفو الى المصرية الدائمة الحضور ٠٠ حضور دائم الخضرة بموهبة السماء لا بصنع أحد : أم كلثوم التى لا تغيب لأنها نسيج أمة ٠

ألوان من الموسيقى قديمة وحديثة كانت مصر ٠ رائدة ٠ وأعلام من صناع النغم ومبدعيه فى الكلمة ، والنغمة ، مصر بهم خالدة ٠٠ وفيوض من العطاء تتعدد وتتجدد بتعدد أصحابها وتعاقبهم على مر السنين وكر الأجيال لم يخل منهم عصر ٠

علامات مضيئة هى سمات لمصر ، غالبة ، ليس منها ندرة الفلتات ، انها مصر ٠٠٠

النجمة السداسية مصرية

مفاهيم كثيرة خاطئة فى تراثنا ٠٠ من هذا الكثير (نجمة داود) ٠

ووجود اليهود زمانيا بدأ فى أيام الهكسوس فى الأسرة السادسة عشرة الفرعونية ٠٠٠ ومنذ ظهورهم كانت مصر بالنسبة اليهم ، بلدا مبهرا يعشون الى ضوئه ٠٠٠ و « فرويد » نفسه الذى يعدونه من أكبر علمائهم يقول فى كتابه عن موسى (ان عقـدة اليهـود سبق مصر فى الحضارة) ٠

يوسف يقول لاخوته (وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البـدو) وموسى تربى فى قصرنا ، وتعلم السحر فى مدينتنـا « أهناسيا » كما تعلم فيها من قبل « يوسف » تأويل الأحلام ٠

يقول جارستانج Garstang فى حديثه عن الهكسوس (١٧٥٠ ق٠م الف وسبعمائة وخمسين قبل الميلاد) [ان العبريين الذين يسمون أنفسهم بأبناء اسرائيل لم يكن لهم رأى وأثر بين القبائل التى فى طريق مصر ، ولم يذكر لهم اسم فى أثر من الآثار التاريخية قبل سنة ١٢٢٠ (ألف ومائتين وعشرين قبل الميلاد) ٠

وجاء فى الجزء الثانى من قاموس الكتاب المقدس : [قامت فى مصر فى عصور ما قبل التاريخ عدة ثقافات متنوعة من عام ٥٠٠٠ ق٠م تقريبا الى زمن قيـام الأسرة الأولى أو حوالى سـنة ٣٢٠٠ ق٠م (ثلاثة آلاف ومائتين)] ٠

ويقول د٠ هول Dr. Hall ان اليهودية استعارت من مصر كثيرا من الشعائر والمعبودات (ولا ريب فى أن نفوذ مصر على اسرائيل كان كبيرا وقت طرد الهكسوس) ٠

والوثائق العلمية فى هذا الباب كثيرة يفرد لها الحديث ٠

أقول لا وجه للمقارنة الحضارية **التاريخية** بين مصر واسرائيل !

اسرائيل الى الآن **دولة** عمرها أربعون عاما ولكن مصر **أمة** قبـل التاريخ بآلاف السنين ٠

واليهود فى كتبهم ومنها (الفكر اليهودى) الذى ألفه د. هرش حاخام انجلترا يقول (ان تاريخ اليهود أربعة آلاف سنة ــ ولم يقل أمة اليهود) على أن هذا التاريخ الرقمى ضعف الحقيقة بما عرف عنهم من وضع وتحريف وتزيد واسقاط وانتحال ، فى عملية لوى مسار الوقائع لصالحهم .

وكتاب (تراث اسرائيل) الذى أخرجته اكسفورد فى سلسلة التراث (ومنها تراث مصر وتراث الإسلام) يجمعون على أن مفخرتهم الكبرى « التوراة » وهذه التوراة يصفونها ، هم أنفسهم بأنها « صرح أدبى بحت » وضع خطين تحت كلمة (بحت) بينما تراث مصر منذ أقدم عصورها عمارة ونحت ، ونقش وأدب وموسيقى وهندسة وطب وكيمياء يشهد بهذا آثارها الماثلة للعيان .

وبعض هذا معبد «دندره» وبه مسارات النجوم ، ومدارات الأفلاك . بل قبل هذا بكثير هرم « ونيس » الذى يشيع نطقه « أوناس » تجد سقف حجرة الدفن كله مزخرفا بالنجوم رمزا الى السماء تظله وأنه يعيش فى عالم النجوم .

ويقول كتاب (مصر) تأليف اتيين دريوتون و جاك فانديية (ان ملوك الأسرة الخامسة كانوا يعتبرون أنفسهم تابعين مباشرة للاله رع) أى أن ديانتهم شمسية .

وأقول قبل الأسرة الخامسة ، سقف هرم الملك « زوسر » بسقارة من الأسرة الثالثة ، مزين بالنجوم الخماسية .

وسقف مقبرة الملك « سنفرو » من الأسرة الرابعة مزين بالنجوم السداسية . والنجمة السداسية نقلها اليهود فيما نقلوا عن مصر . وفى كتاب (أخلاق وعادات المصريين القدماء) تأليف صموئيل بيرش ، النجمة السداسية .

فى المتحف المصرى الدور الأول تمثال الاله « نوت » مغطى بالنجوم وهى فى مصر القديمة كما يقول كتاب (آلهة المصريين) تأليف E. A. Wallis Budge . ابنة شو وتفنيت وزوجه (سب) اله الأرض وأم أوزوريس وايزيس وست ونفتيس وهى تجسيد للجنات والسماء والمدارات التى تطلع منها الشمس وتنتقل فى رحلتها من الشرق الى الغرب) .. ج ٢ ص ١٥٥ .

والنجوم موضوع دراسة فى كتاب (المصريون القدماء) ص ٣٧٣ وفى كتاب (تاريخ الزخرفة) تأليف توفيق جاد ــ واسيلى حبيب ٠

كما وردت النجمة (الثمانية) فى قلادة الأميرة « خنوميت » فى كتاب (الحياة اليومية فى مصر القديمة) تأليف Barbara Mertz Red Land, Black Land. Haily Life in ancient Egypt.

هذه النجمة الثمانية اصطفاها الفن الاسلامى المصرى وأشاعها فى زخارفه ومنها الطبق النجمى المشهور ٠

وقد جمعت P. Fortova-Samalova فى كتابها (الزخرفة المصريه) نماذج من النجوم الخماسية والسداسية من معبد دير المدينة بطيبة عن الأسرة ١٩ والأسرة العشرين (النجمة المسدسة المؤنثة) شكل ١٣ ٠ ومن معبد ببان الملوك سيتى الأول الأسرة ١٩ شكل ١٤ ٠

ومن وادى الملكات الأسرة ١٨ تيتى شكل ١٢٦ ٠

وهكذا يتضح أن اليهود أو نجمة داود مأخوذة عن مصر التى نقل عنها فى مواضع كثيرة سفر الأمثال كما نقلت عنها مزامير داود مما فصله برستيد فى كتابه (فجر الضمير) ٠ بل ان هيكل سليمان يحاكى المعبد المصرى حرفيا كما يقول الأستاذ محمد شفيق غربال فى كتابه (تكوين مصر) [فشكل المعبد ذاته بأبهائه ومدخله ، والعمودان البارزان القائمان كالمسلتين أمام المدخل وكذلك الأسدان القائمان على عرش سليمان ٠٠ كل ذلك يحمل الطابع المصرى] ٠

بقيت كلمة عن الديانة المصرية ورمزها بالشمس والنجوم ٠

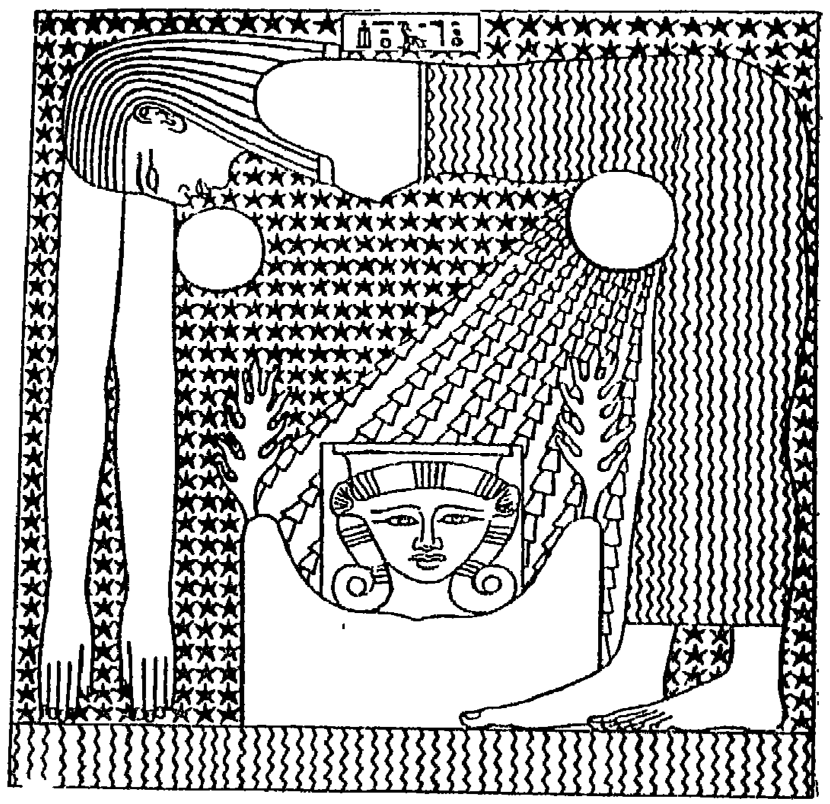
يقول برستيد : (من الواضح أن ما كان يقدسه الملك هو **القوة** التى بمقتضاها تجعل الشمس نفسها محسوسة فى الأرض) ٠

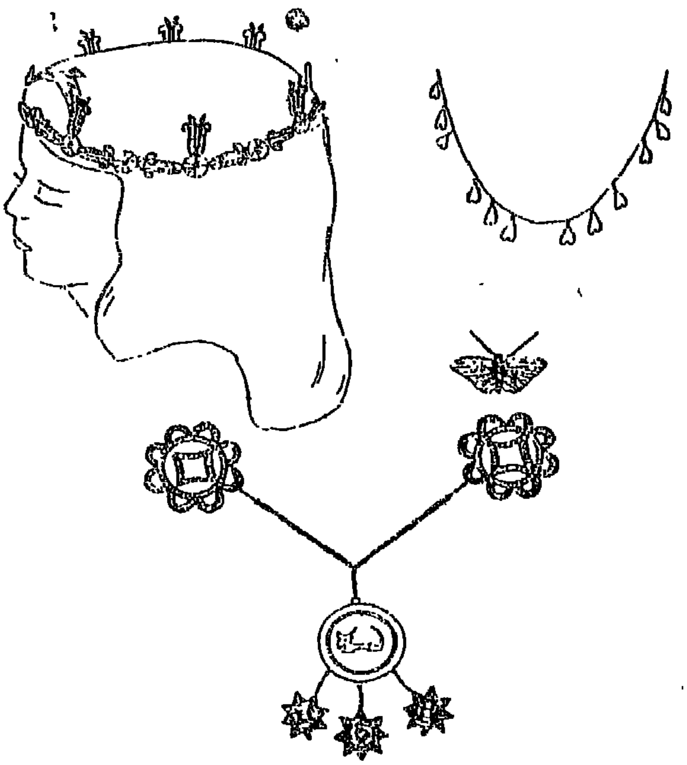
ويقول أدولف ارمان فى كتابه (ديانة مصر القديمة) [هناك كلمات يقصد بها التعبير بشكل مجرد عن حقيقة أن النجم نفسه **ليس محل العبادة** بل الذات الالهية التى تتجلى فيه] ٠

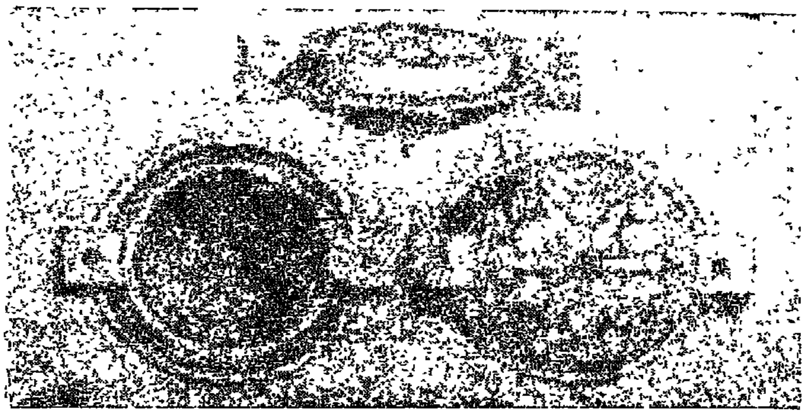
ان الفن المصرى بلغ ذروة لا يشائيها أحد من واقع المجلدات التى ألفها الغرباء ، قبلنا ، مثل G. Maspero فى كتـــابه :
(Essais sur L'art Egyptien)
وهو مطبوع سنة ١٩١٢ وارمان فى كتابه Life in ancient Egypt
وآلن جاردنر فى كتابه (مصر الفراعنة) و Capart فى كتابه
Lectures on Egyptian art وقد زود المقال بصور هى خير شاهد ٠

كلما درسنا الفن المصرى مرة ومرات ، لفنا الذهول ٠٠ كلما أوغلنا فيه قالت آثاره ، أكثر ٠٠٠ وأعطتنا احساسا أكبر بالاتقان ٠٠ وهنا استشهد كابارت بهتفة Nestor L'Hôté أحد رفقاء شامبليون حين صاح (عن الفن المصرى نحن نعرف فقط ، **القشور**) ٠

فما بال الذين لا يدرسون وبالتالى لا يعرفون ثم يتحدثون عن نجمة (داود) وعندهم المنبع دفاقا ، سباقا ، بفتح السين وتشديد الباء ـ رائدا ؟







النجمة السداسية مرسومة على صندوق (علبة) للزينة
من مصر القديمة (محفوظ بالمتحف المصرى)
ويتكرر هذا فى أدوات أخرى مع النجمة الخماسية والنجمة الثمانية .



الاسلام والفنون في البلاد الاسلامية

العمارة عمار واستقرار . والاســـلام يحب العمار (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) .

والاسلام يحب البناء حتى ليشبه به تماسك المجتمع الاســـلامى (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) . واذا كان المسرح أبا الفنون فان العمارة أمها . وكما يعانق المسرح فنون الأدب والموسيقى والتمثيل والغناء ، فان العمارة تحتضن فنون النقش والزخرفة والتلوين .

وقد اهتم الاسلام ببناء المساجد وجعل عمارة البيت الحرام مرقى من مراقى القربى الى الله تعالى .

(انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر)

ومسجد المدينة كان الرسول يعمل بيده فى بنائه مع الصـــحابة والمسلمين تكريما للدين ، وتكريما للعمل ، وتكريما للبناء الذى يضيف ويرفع ، حين يحطم الهدم ، ماديا ونفسيا .

وقد كيف الاسلام ، عمارة المسجد من حيث :

★ الفراغ المعمارى .

★ الارتفـــارع .

★ الزخرفة .

وفى المعبد الفرعونى يتجه الفراغ الى نقطـــة محـــددة من بهو الأعمدة .. الى قدس الأقداس .

وفى الكنيسة المسيحية يتجه المصلون الى الهيكل .

وفى المسجد الفراغ **رأسى** يربطه بالســـماء كمـــا فى المئذنة **وأفقى** يربطه بمكة .

ان ايثار الاسلام للمساواة واحتفاله بها ، وتأكيده عليها ، انعكس على العمارة الاسلامية فمالت الى الأفقية التى تحمل معنى المساواة حين تعين « **الرأسية** » على التفاوت و « ترفع » الارتفـــاع وشـــموخه . **ولهذا يقوم** نظام النسب فى الاسلام كما يقول العالم الأثرى الأسبانى « دون مانويل جومث مورينو » على أساس الوضـــع الأفقى وكأنه تحية لروعة الخلق

الالهى فى البحر والسهل .. وكأنه تأكيد لصفوف المؤمنين فى المسجد حين الصلاة . ولا يستثنى من الأفقية الاسلامية المحببة الى الفنان المسلم، الا المئذنة لحاجة الدين الى انتشار دعوة الأذان على مساحة واسعة لاقامة الصلاة أحد أركان الدين الخمسة ولا يتحقق الانتشار المنشود الا اذا انطلق الصوت طليقا من ارتفاع .

حتى ما يخـــرج عن « الأفقية » من الأشكال ، يطوعه الفنـــان المسلم لها .

يقول الدكتور عبد العزيز سالم (١) ان الفنان المسلم (حين يخطط زوايا ، يؤثر المنفرجة لأن الزاوية القائمة شكل من أشكال الارتفاع ، وحين يبرز استدارات فانه يطوقها باطار مربع ، وحين يقيم قبابا ، فانه يهتم بتصغير نسبها حتى لا تفسد أفقية البناء ، بل يوزع تكورها على فصوص ، أو يقضى عليه بأن يستبدل به تقاطع العقود ، أو يهبط به الى مستوى القبوات) .

وينعكس مبدأالمســـاواة فى الاســـلام ، مرة أخرى ، على العمارة الاسلامية ، فى ميل المعمارى المسلم الى السقوف المنخفضـــة المتمثلة فى المساجد الأولى كجامع المدينـــة والجامع العتيـــق الذى يحـكى المقريزى انه كان منخفضـــا حتى عهد الوليـــد بن عبد الملك حين قام عبد الله بن عبد الملك برفعه سنة ٨٩ هـ . بل ان المقرى فى «نفح الطيب» (٢) يحكى ان جامع قرطبة الذى أقيم بعد الفتح الاسلامى سنة ٩١ هـ ، كان يضغط على المصلين به القيـــام على اعتـــدال لتقارب هذه الأسقف من الأرض وظل هذا طابع المسجد فى دولة الاسلام حتى القرن الثالث الهجرى فان جامع ابن طولون فى القطائع الذى أقيم سنة ٢٦٥ هـ كان ارتفاع مسطحه لا يزيد على عشرة أمتار عن أرضية المسجد .

وما لبثت مصر أن عملت على تصعيد الارتفاع فى المسجد بوراثاتها القديمة التى رفعت المسلة والهرم .. ويتجلى ميل مصر الى السموق فى الأعمدة والأسقف فى جامع السلطان حسن حتى ليسميه أساتذة العمارة من المستشرقين هرما اسلاميا .

لقد قاربت المساواة فى الاسلام بين المسلمين ، وقربت بين الفنون الاسلامية . فى مؤتمر الفن الاسلامى بلندن فى عام ١٩٧٦ ، قال النقاد

---

(١) كتاب (القيم الجمالية فى فن العمارة الاسلامية) للدكتور عبد العزيز سالم .
(٢) نفح الطيب للمقرى جـ ٢ ص ٩٦ .

الفنيون فى شبه اجماع ، ان الفن الاسلامى على اختلاف أوطانه ، متشابه ، وعزوا هذا التشابه الى الخط العربى ٠

الفن الاسلامى يشده بعضه الى بعض ، رباط بلا شك ٠ ان العنصر الرائع الذى يربط عطاءات الفن الاسلامى فى أوطان عدة ، انما هو **الفكر الاسلامى ٠٠ انما هو روح الاسلام من مساواة وحرية وسماحة وتوحيد** ٠٠ ثم تجىء الكتابة العربية فتستوعبه ٠

وقمة العمران فى مجتمع ، المساواة بين أفراده ٠

وقد أعلى الاسلام قيم المساواة من تكافؤ فى الحقوق والواجبات ٠٠ من عدل ورحمة ٠ حتى **الرقيق سوى الاسلام بينه وبين مولاه فى الطعام والشراب واللباس والتعليم والتهذيب** وفى معظم الحقوق المدنيـــة **اللهم الا فى الولاية** ٠

يقول صاحب كتاب « النظم الاسلامية » (كان من اختصاص المحكمة أن تحكم بتحرير الرقيق اذا ثبت أن سيده يعامله معاملة قاسية) ٠

كان منطق الاسلام (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة) **وقدم هذا** العنق على سائر أعمال الخير التى حض عليها فى هذه الآية ٠

هذا بينما يرى الرومان ، أرقاء :

أبنـــاء الأرقاء ، حين ينص الاسلام على ألا تزر وازرة وزر أخرى، **والمدينين ٠ والعجز عن الوفاء بالدين** يستوجب الرق فى شرعهم ٠

واليهود يرون أرقاء :

المدينين ٠٠ كالرومان سواء بسواء ٠

والعاصين الشرع ٠

من يقعون فى يدهم من أبناء الآخرين ٠

وجاء المسيح ومضى — فى وقت قصير — والرق باق لم ينله تعديل ٠

ومجتمع يشيع التراحم بين أفراده من كل لون وصفة كالمجتمع الاسلامى ٠ مجتمع مستقر وقرير يرتفع به الانسان وبناء المكان ٠

***

كيف الاسلام بروحه وتعاليمه العمارة الاسلامية ٠ يقول الدكتور فريد شافعى (الدين قد يستخدم العمـارة والفنون للتأثير على النـاس أو يستخدمها هؤلاء للتعبير عن شعورهم نحو دينهم) ٠

وقد عدد الدكتور فريد المؤثرات التي تكيف العمارة فى أى مكان ٠٠ من تلك العوامل : النظم السياسية ـ الحالة الاقتصادية ـ البيئة المناخية ـ الطبيعة الجغرافية ـ التكوينات الجيولوجية ٠

وقد خضعت العمارة الاسلامية لهذه العوامل فى نشأتها وتطوراتها وخاصة فى مصر حلقة الوصل بين الشرق والغرب ٠٠٠ ويؤكد الدكتور فريد ان العمارة الاسلامية فى المسجد نمت نموا محليا جعلها تختلف فى وحداتها ، وفى نسبها ، وأحجامها ، عما يقابلها فى البلاد الاسلامية ٠

اننـا نلاحظ فى المسجد المصرى ، كالمعبد المصرى : الممر الضيق الطويل يخرج منه السائر الى الرحاجة الرحبة فى البناء ، وفى المكان ٠

هل يوفر الفنان للمكان ، عنصر المفاجأة ؟ عنصر الدهشة الجمالية ؟

هل هو درس نفسى أن الضيق بعده فرج ؟ هل هو ترديد للآية : (ان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا) ٠ هل هو تحضير للدخول ؟

تحضير للنفس وتحضير للصمت يفتح بعدها المكان قلبه وذراعه ؟ وينشرح الصدر وكأن الزائر مسلم ٠

وبعد الممر ينفتح المسجد على الصحن كما كان ينفتح المعبد على بهو الأعمدة ٠ وتقابل الميضة فى المسجد ، بحيرة الاغتسال فى المعبد ويقابل المحراب والمنبر فى المسجد قدس الأقداس فى المعبد ، ان القبة هى الترجمة الاسلامية للهرم ٠٠٠ ترقق الخط فى يد الفنان المسلم ، من سماحة الدين الجديد ، فاستدار الخط بعد صلابة وثبات ٠

القبة فى المسجد الاسلامى مظلة رضوان ٠٠٠ وهى تميل فى فارس الى التثمين متأثرة بالآية (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) ٠

القبة فى العمارة الاسلامية تنتهى الى نقطة يعلوها هلال هو رمز الميلاد الجديد فى عملية اختزال رائع للحياة ٠٠٠ ميلاد وعمل باق ثم موت تعيد بعده الحياة نفسها كرة أخرى ٠

***

والحرية فى الاسلام واحترامه للانســـان ، انعكس على العمــارة الاسلامية ٠ فى الفن الاغريقى أمر order أى مقاييس ثابتة ومحددة وهى بهذا محدودة ٠

الفن الاسلامى له رؤية ثم يتنوع بتعدد الانسان الخلاق الذى يحترم الاسلام حريته ٠

كرم الاسلام الأم والأب فارتفع فيه معنى الأسرة وكرم الانسان فارتفع فيه معنى السر والستر ٠

ومن هنا احتفل الفن الاسلامى بالباب فنقشه ونمنمه بما يقفل على أسرار مصونة ، ويفتح على عالم سعيد ٠ أسرة ٠٠٠ أب وأم وأبناء ٠

الباب الاسلامى معمور ٠٠٠ انه بستان نباتى ملتف الأغصان تحفه النجوم اشارة الى وحدة الكون واستضاءته بفضل الأصل الواحد ٠

***

حبب الاسلام الحجاب بما فيه من ذاتية وخصوصية وانعكس هذا على طراز عمارة البيت الاسلامى الذى يفتح على الداخل لا الخارج ٠٠٠ والذى تشكل نوافذه مشربيات حاجبة ٠٠ حتى حديقته ونافورته تقوم فى الداخل حتى يستقل أصحابه بما حوى ٠

هذا حين يدخل الجميع من باب المسجد لأنه بيت الله اله الناس ٠٠

تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت لديك ولا الأقـــدار مختلفـــات

المسجد للجميع لأنه بيت الله ، اللائذون به كثيرون وهو لا يصد أحدا ٠٠ فلهذا تعددت الاتجاهات المفضية اليه بل تعددت الأبواب فى المسجد الحرام وكان المسجد فى البداية يبنى فى وسط المدينة تيسيرا للجميع ، ليس بالمسجد حجاب أو أماكن متفاوتة مخصصة انه مكان واحد رحيب كالقلب المفتوح ٠ من يحضر أولا ، يتقدم فى الصفوف ، على سواء ، بين الناس ٠

***

الترتيل فى القرآن (ورتل القرآن ترتيلا) انعكس على العمارة الاسلامية ، ظاهرة العقود المتوالية ٠

توالى العقود ، لون من الترديد ٠

لون من التطريب الهندسى ، ونثر النجوم فى الزخرفة الاسلامية فى أحجام مختلفة ، نوع من الترديد والتوليد ٠ انه تحية لسورة النجم ٠٠ تحية للآية : (والسماء والطارق ٠٠٠ والنجم الثاقب) ٠ ونظام الوحدات فى الزخرفة الاسلامية ، لون من الترديد ٠ ويجىء الطبق النجمى المشهور فى الفن الاسلامى تحية أخرى لسورة النجم ٠

وفي المسجد ، دكة المرددين وهذا غير التكرار الذى نوقع فى الملل • أن يكون التكرار محسوبا فى هدف أعلى ، فن •

بل الاسلام وراء فن الموسيقى فان تجويد القرآن وترتيل الأذان وراء حفظ الموسيقى العربية •

ومبدأ التكافل الشامل فى الاسلام كان وراء العمارة الاسلامية والجامعة الاسلامية ويمثل هذا : الأزهر ، انها روح الاسلام وراء نظام الأروقة فيه •

(المسلمون أمة) و (خير أمة أخرجت للناس) لهذا لم يكن الأزهر مسجدا محليا بل مسجد أمة تلتقى فيه عدة جنسيات فى ٣٦ رواقا •

وتأكيد الاسلام لقيمة العمل ، جعل العمارة الاسلامية لا تتوقف حتى فى عصور ضعف الدولة الاسلامية •• وقيم الاسلام هذه تجذب الآخرين اليه وتهيئهم للدخول فيه حتى فى عصور الضعف السياسى أيضا دليل قوته الذاتية وقوة قيمه الانسانية •

الاسلام وراء تاج محل فى الهند بناه مسلم لمسلمة •

الاســلام والبنــاء :

لقد حالت روح الاسلام دون الهدم حتى فى الحروب فحرم هدم المنازل أو بيوت العبادة أو قتل النساء والشيوخ والأطفال •

لقد خرج هولاكو والتتار فى صحراء فخربوا وألقوا بمكتبة بغداد فى النهر لتكون موطئا لخيولهم ! وخرج العرب من صحراء فعمروا فى الشرق والغرب •••

وليس معنى هذا أنه لم يحدث هدم فى دولة العرب ودولة الاسلام فالملوك كما يقول الجاحظ (١) من شأنهم (أن يطمسوا آثار من قبلهم والعمل على اماتة ذكر أعدائهم فقد هدموا لهذا السبب ، المدن والحصون)•

لقد أجرى الخليفة المأمون عمارة (٢١٦ هـ ـ ٨٣١ م) بقبة الصخرة المطلة على القدس ، فاتخذها سببا أو مناسبة لمحو اسم منشئها عبد الملك ابن مروان ووضع اسمه مكانه •• وفات أنصاره تغيير التاريخ الأول وهو ٧٢ هـ ـ ٦٩١ م فانكشف أمرهم •

ولكن الحقيقة بعد هذا تضيع معالمها كالأثر •

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ١ ص ٣٦ ـ ٣٧ •

وتحق كلمة المقريزى صاحب المواعظ والاعتبار (اذا تأملت البقاع وجدتها ، تشقى كما تشقى الرجال وتسعد) (١) ٠

حتى صلاح الدين هدم سور مدينة أنصنا بالصعيد وشحن أحجاره ليبنى بها مع أحجار الأهرامات التى هدمها وزيره بهاء الدين قراقوش ، سورا يحيط بالقاهرة والفسطاط ٠ كما انه خرب كما يقول الأثرى حسن عبد الوهاب ، القصور الفاطمية وكانت من عجائب الدنيا ٠٠ فتبعثرت أجزاؤها فى منشآت المنصور قلاوون وغيره ٠

حتى المساجد لم نسلم من يد الهدم والتخريب ! فقد هدم الملك (الصالح) ! نجم الدين أيوب كثيرا من المساجد والقصور ليبنى قلعة الروضة ٠

ولكن هؤلاء غلبت بشريتهم الأرضية ، سماوية العقيدة ، ومثالية الدين ٠

وكما يتجاوز الخير والشر فى الحياة بل فى الطبيعة الواحدة أى فى الانسان الواحد ، فان هؤلاء يقف الى جانبهم ، أخيار عمروا ٠٠ أقاموا المدن والمكتبات وشجعوا العلوم والفنون فازدهرت وأزهرت ٠ ومما بنوه مدينة (اللد) فى فلسطين ، و (بغداد) فى العراق فى مكان بابل القديمة ، والقطائع والعسكر والقاهرة المعزية فى مصر الاسلامية ٠٠ ولو أن الثلاث ، امتدادات لمنف العظيمة التى تتجدد ولا تتبدد ٠٠٠ تتغير ولا تغيب ٠٠٠ شاهدة الحضور ٠٠٠ عزيزة الوجود ٠٠٠ لها ، بعد كل الأسماء ، فى الوجدان المصرى بل الانسانى ، مكان لا يشابه الا طيبة الطيبة أقدم مدينة فى الدنيا ٠

وتضـــم مصر المدينتين ٠٠٠ ويتـــوج اسمهـــا المدينتين ٠٠ مركزين حضاريين مصريين ٠

ويفتح العرب المسلمون الأندلس ، فينقلون اليها كل ما فى بغداد من علوم وفنون وينشئون فى قرطبة كثيرا من المبانى الفخمة ٠ والمكتبات العظيمة العامة والخاصة ٠

ومن أشهر المكتبات العامة ، مكتبة قرطبة — بلغ عدد المكتبات العامة ستين مكتبة — وقد بلغ عدد الكتب فى مكتبة قرطبة أو مكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦) مائتى ألف مجلد جمعها من افريقية وفارس وسائر البلدان ٠٠ وكأنه يستمع الى الحديث (اطلبوا العلم ولو فى الصين) ٠٠٠

---

(١) المواعظ والاعتبار للمقريزى جـ ١ ص ٣٤٨ ٠

وكأنه يصغى بقلب مفتوح الى نداء الآيات التى تردد فيهـا اسم العلم ١١٦ مرة ٠

وكثرت رحلة العلماء بين المشرق والمغرب للافادة والاستزادة وليست كرحلة أخرى مذعورة حين دهم هولاكو بغداد ففرت العقول وتركها العلماء ولولا مصر التى احتضنتهم بل استقدمت الخليفة نفسـه احياء للخلافة الاسلامية ، وكان هدف التتـار القضـاء عليها ، باسقاط الخليفة وتدمير بغداد عاصمة الدولة ٠

لقد جعل الرسول فدية الأسير تعليم عشرة من صبيان المسلمـين فى دعوة الى العلم كالدين ٠

ان الذين بكوا على الاسلام فى الأندلس انما بكوا فى الحقيقة على زائل من الحكم أما **الاسلام فهو باق فى الأندلس** بل ان أسبانيا تعيش عليه اليوم بما تقصد اليه السياحة والرواد ٠

الاسلام اليوم ماثل فى مسجد قرطبة وقصر الحمراء بغرناطة وآياته الباقية فى اشبيليه ومرسيه ومدريد العاصمة نفسها وغيرها ٠

الاسلام بنـاء ٠

(انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) ٠

وقد جعل المسألة ليست البناء فحسب بل ٠

★ المحافظة عليه ٠

★ **الاضـافة اليه ٠**

لقد بدأ جامع قرطبة بفدان وانتهى بثمانية ٠

لقد كتب الاسلام تاريخ العمارة الاسلامية :

وتاريخ الأزهر خاصة ٠ فواحد يضيف اليه ، وآخر يوقف عليه ، وثالث يجعل منه مدارس لتعليم القرآن وهو الجامعة الكبرى ٠ انها روح التكافل الاجتماعى فى الاسلام وانه تطبيق وقفة الاسلام الطويلة عند (العلم) ٠

تخطيط المدن فى الاسلام :

وقد عنيت الشريعة الاسـلامية بتخطيط المدن ٠٠ ففى سنن أبى داود : أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بأن ينادى فى معسكره بأن من ضيق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له ، وذلك حينما لاحظ تضييق صفوف الأخبية فى ميادين القتال (١) ٠

---

(١) كتاب (التراتيب الاداريه) ج ١ ص ٢٨٢ ٠

انظر كتاب (توقيعات الصناع على آثار مصر الاسلامية) للاستاذ حسن عبد الوهاب

وقد وضع عمر بن الخطاب دستورا لانشاء المدن ، أذاعه على نواحي الأمصار ومنشئيها في صدر الاسلام ، فجعل المسجد محور المدينة أو مركز الدائرة بحيث تتفرع الشوارع حوله ... وأن تكون المناهج أربعين ذراعا وما يليها ثلاثين ، وما بين ذلك عشرين ، والأزقة سبعة أذرع والقطائع ستين (١) .

وكذلك تناول المشرع الاسلامي قوانين سعة الشوارع والطرق ، وتناولها في أحكامه . واتفقوا على أن الطريق النافذ مباح المرور فيه لكل انسان لأنه حق للمسلمين ، فليس لأحد ان يبنى فيه أو يخالف خط جاره (خط التنظيم) (٢) فلا يبرز عنه ، كما وضعوا لاقامة الأسبطة (٣) واشترطوا أن تكون مرتفعة بحيث يمر المحمل،أو الفارس على جواده ورمحه قائم ، وحرموا بناء المصاطب وغرس الأشجار أمام الدور ، ما دام يترتب على غرسها تضييق الطريق) .

ووضعوا في حكم المنافع العامة الشوارع الخاصة التي أبيح استعمالها ، ومثلها الشوارع التي اصطلح الملاك على تركها من أملاكهم ، والطرق التي تشقها الدولة ، فلا يجوز شغلها ، ولا تضييقها صونا لنقوش الجدران في واجهات المساجد والدور ، وتيسيرا للمرور ، ولتوفر الهواء والنور . شددوا على سعة الشوارع .

وبمناسبة التخطيط وصف الكاتبون القاهرة وصفا لا أدرى هل نسر به أو نحزن ...

خرج اليها يوما موسى بن عيسى فهتف بمن حوله في بهر الاعجاب ، قائلا أو سائلا :

أتتأملون الذى أرى ؟ قالوا : وما الذى يرى الأمير ؟ قال أرى ميدان رهان ، وجنان نخل ، وبستان شجر ، ومنازل سكنى ، وذروة جبل ، وجبانة أموات ، ونهرا عجاجا ، وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومربع خيل ، وساحل بحر ، وصائد نهر ، وقانص وحش ، وملاح سفينة ، وحادى ابل ، ومفازة رمل ، وسهلا وجبلا **فهذه ثمانية عشر متنزها في أقل من ميل في ميل** .

ماذا نقول الآن ؟

---

(١) المرجع السابق .

(٢) كتاب (الفوائد الباهرة في حكم شوارع القاهرة) .

(٣) الساباط . ممر بين منزلين من أعلى .

وقد استحدثت العمارة الاسلامية عناصر تعد كل منها موضوعا هاما في تاريخ هذه العمارة مثل المئذنة المصرية بمراحل تطورها ... مثل القباب .

واحفل البلاد بالآثار الاسلامية ، مصر .. حتى ليقول الأثرى حسن عبد الوهاب : (ان مجموعة القباب والمنارات في مصر لا نظير لها في أى قطر آخر من الأقطار من حيث الكثرة والتنوع في مادة البناء ما بين آجر وحجر ، أو الجمع بينهما ، وما بين تنوع في الطرز والزخرف ، ومباراة في الرشاقة ، حتى أصبحت المنارة والقبة المصرية ، جديرتين بلقب عرائس القباب والمنارات في العالم الاسلامى) (١) .

وقد مهرت مصر الآثار الاسلامية على أرضها وخارجها . ففي أنحاء العالم الاسلامى مآثر لمصر وآثار حفر اسمها عليها ، عمالها الذين كانوا يقصدون للبناء والتعمير والتجميل .. ان من يراجع (توقيعات الصناع على آثار مصر الاسلامية) وقد أفرد لها الأثرى حسن عبد الوهاب ، كتابا ، يزدهيه ويرضيه أن (أكثر العمارات التى أجريت بالحرمين الشريفين نفذها مهندسون وعمال مصريون) (٢) .

وقبل الأثرى المصرى ، أشاد بصناع مصر ، الرحالة عبد الغنى النابلسى ، وابن فضل الله العمرى ، والرحالة البشارى المقدسى ، والبلاذرى ، والهروى ، وابن بطوطة .

لقد استرعت الحضارة الاسلامية أنظار الناس من غير العرب وغير المسلمين منذ مايقرب من ألف سنة ، وبخاصة أولئك الغربيين الذين خضعوا لتاثيرها كما يقول الدكتور فريد شافعي فى كتابه (العمارة العربية فى مصر الاسلامية) عندما أخذت أفواجهم تتابع على بلاد العرب والمسلمين أثناء الحروب الصليبية واستمرت تشد أبصارهم وتستهوى أفئدتهم طوال تلك الحقبة الى وقتنا هذا . وقد أنصفها الكثيرون وفى مقدمتهم الدكتورة سيجريد هونكه فى كتابها (شمس الله تشرق على الغرب) .

غير أن فئة من هؤلاء العلماء لم تلتزم المنهج العلمى الخالص فحاولت حجب الفضل عن أصحابه من شدة احساسها به وهو نوع من التقدير المعكوف كما يقول الأستاذ العقاد . فقد اشتد نفوذ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى فلما لم يملك الجاحدون فكاكا من أسرها سموا المسلمين نقلة فى اشارة الى مرحلة الترجمة التى سبقت مرحلة الابداع .

---

(١) كتاب (الرسومات الهندسية للعمارة الاسلامية) للاستاذ حسن عبد الوهاب

(٢) كتاب (توقيعات الصناع على آثار مصر الاسلامية) للاستاذ حسن عبد الوهاب .

يكفى أن العرب وفروا على الحضارة الأوربية والحضارة الحديثة اليوم ، زمنا طويلا يعد بعشرات القرون ٠

لقد لبثت أوربا فى طور التخرج والنقل حين أخذوا عن العرب والمسلمين أكثر مما لبث العرب فى هذا الطور حينما أخذوا عن اليونان ٠

ومهما يكن من أمر فان أشد الناس تعصبا لا يمكنه الاقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية ، وترتب على ظهور محمد النبى العربى وعلى قيامه ببث الدعوة الى الدين الاسلامى وعلى انتشار هذا الدين فى منطقة كبيرة من العالم ، فان ما أحدثه محمد بما أتى به من عقيدة وتعاليم يدعو بها الناس الى عبادة رب واحد عظيم ، والى خلق قويم ، وترشدهم الى ما فيه صلاحهم وصلاح البشرية ، والى العلم والعدل والشورى ٠٠ كل ذلك لا شك **يعد نقطة تحول هامة فى مجرى حضارات العالم ولا يمكن مقارنة هذا الحدث بأى حدث آخر فى تاريخ البشرية ٠**

كانت صفات وأسماء الله الخالق المبدع أمام عمل الفنانين ووجداناتهم وأحاسيسهم فانتاجاتهم القيمة محملة بهذا الاحساس القدسى والعبادة والتوحيد والثناء حتى وقف العالم الفرنسى Bourgoin برجوان طويلا عند الفن الاسلامى ٠

وقيل عن ليونارد دافنشى أنه كان يقضى وقتا طويلا فى رسم هذه الزخارف الهندسية الاسلامية ٠

ان الخاصية الرئيسية التى يوصف بها العالم الاسلامى من حيث الحضارة بعامة ، هى أنه **حقبة ثقافية** فى تطور جماعات متعددة ومتميزة من حيث الجنس والظروف الجغرافية ، وليس تعبيرا عن شعب واحد من الشعوب أو منطقة من المناطق (١) ٠

ومن هذا المنطلق نجد **العمارة الاسلامية ذات أثر بعيد فى العمائر المسيحية واليهودية** خلال العصر الاسلامى فى الأندلس وبعده (٢) ٠

---

(١) اقرأ (تراث الاسلام) جـ ٢ لمجموعة من المستشرقين (الترجمة العربية) ٠
(٢) اقرأ (تراث الاسلام) جـ ٢ :
● بحث : أجرونيه (عناصر اسلامية فى عمارة البندقية فى العصور الوسطى) ٠
● بحث : ج٠ مايلز (الدولة البيزنطية والعرب) ٠
● بحث : د٠ أ٠ جيراز بهوى فى (التأثيرات الشرقية فى الفن الغربى) ٠

وقد عرفت الحضارة الاسلامية . للعمارة ، حقها **فألفت الكتب في العلوم الهندسية والرياضية والحيل الميكانيكية وجر الأثقال** مما أفاض في ذكره (الفهرست) لابن النـديم و (مفاتيـح العـلوم) للخوارزمي ، و (ارشاد القاصد) و (كشف الظنون) ٠

كما وضعت المؤلفات في علم عقود الأبنية ٠

ويروى الأثرى حسن عبد الوهاب أن في مكتبة أيا صوفيا نسخة من كتاب أبي الوفاء اليوزجاني (ت ٣٨٨ هـ - ٩٩٨ م) يتناول ما يحتاج اليه الصناع من أعمال الهندسة ، ولأحمد بن عمر الكرابيسي ، كتاب : حسن الدرر ، وكتاب : مساحة الحلقة ٠

والقلقشندي في (صبح الأعشى) له وقفة عند هندسـة العمائر ومهندسيها ٠

ولم يقتصر المهندس المسلم كما يقول الأستاذ حسن عبد الوهاب على رسم منشآته المعمارية بل وضع لها أحيانا نموذجا مجسما (ماكيت) وأقدم نموذج اسلامي هو قبة السلسلة بجوار قبـة الصـخرة بالقدس الشريف ٠

ويروى قصتها بأنه (في أول انشائها وقبل تجديدها كانت شكلا بنيت على مثاله قبة الصخرة سنة ٧٢ هـ - ٦٦١ م لأن عبد الملك بن مروان حينما أراد بناء قبة الصخرة ، وصف ما يختاره من عمارة القبة وتكوينها للمهندسين والصناع فصنعوا له قبة السلسلة فأعجبه تكوينها وأمر ببناء قبة الصخرة طبقا لهذا النموذج) (١) ٠

وقد أكد هذه الرواية مؤرخون ثقة ، منهم صاحب (الجامع المستقصى في فضائل الأقصى) وغيره ٠

ان العمارة الاسلامية تنتمي الى الاسلام فنا لا اسما فحسب فلم تكن لموطن الاسلام الأصلي هـذه الطرز من العمـارة ، ولكن يحسب للعـرب السرعة والنجاح اللذان تم بهما ظهور طراز معماري اسلامي من شعورهم بالحاجة اليه (وهو شعور يدعو الى العجب حقا) ٠٠٠ الى اظهار حقيقة الوجود الاسلامي في صورة مادية تختلف عما يحيط بها ٠

وتتميز مع ذلك بهيئة اسلامية مفهومة وتعتبر هذه النقطة كما يقول أوليج جرابار على جانب كبير من الأهمية عندما نحاول ان نقدر تراث الاسلام المعماري ٠

---

(١) اقرأ كتاب (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) جـ ١ ص ٢٤١ ٠

لقد انبثق هذا الشعور من طموح حضاري الى مواكبة ما يحيط بهم من طرز معمارية في البلاد المفتوحة فنشأت العمارة الاسلامية ردا على مجموع كبير معقد من الأشكال السابقة عليها أو المعاصرة لها دون أن تكونها جملة وتفصيلا .

بل مما يسترعي الانتباه كما يقول أوليج جرابار (ان التوليفات المعمارية التي تكونت خلال القرنين أو الثلاثة الأولى التي نشأت عنها كل التطورات المعمارية اللاحقة . انما كانت في ذاتها مجرد مثل واحد لقدرة فريدة لدى المسلمين على تحويل عناصر شكلية أو وظيفية عديدة أخرى الى شيء اسـلامي مع الاعتراف بأن هذه التوليفات كانت أول أمثلة هذه القدرة الفريدة وأقواها تأثيرا) .

لقد نشأت المسيحيه في منطقة الشرق العربي الا أن الاسلام كان أكثر انتفاعا بما ورثه من حضارات وأكثر تفننا فقد (أعطى معاني جديدة لأشكال كانت معروفة وشائعة ، كما أعطى معاني قديمة لمبتكرات جديدة في الأشكال) .

ومع العمارة ، **تراث اسلامي في فن الزخرفة الى حد الولع** . ولعل السر في هذا هو طول عهد العرب بالصحراء والرمال والتشابه والرتابة الشاملة والطويلة فما ان وقعت عيونهم في البلاد المفتوحة على الفنون والألوان حتى ابتهجوا بها ... وخدمتهم **وخاصة التعليم** عندهم فوصلوا الى **المشاركة** ثم **المهارة** ..

وهنا لم يتركوا شيئا الا زخرفوه ولونوه وكان صنيعهم ردا ماديا على اللون الواحد (الصحراء) حتى الجدران غطوهـا بالألـوان رخاما وفسيفساء ومربعات قيشانية ملونة ، حتى المعادن كفتوا النحاس بالفضة ، وموهوه بالذهب ، ولونوه بالمينا ... حتى الكتب جلدوها بالألوان ... حتى ملابسـهم غرقوها بالأصـباغ مما استلفت نظـر سولومون دوف جويتين ، في تحليله للألوان والأصباغ التي كان يستعملها الرجال والنساء في ملابسـهم ، والتي ورد ذكرها في وثائق الجنيزة في مصر القديمـة (الفسطاط) في القرنين الخامس والسادس للهجرة ، الحادي عشر والثاني عشر للميلاد .

وبخاصة عندما يتحدث عن العدد الهائل في الالوان التي كانت تستخدم في تلك العصـور ، والتي كانت تجعل الانسان في العصـور الوسطى يبدو كالطيور الاستوائية وهي تصدح بين الأشجار بألوان متداخلة ، وأشكال لامعة براقة ، ذات أطياف متغيرة وخطوط وتموجات .

* * *

نظام الاسلام المجتمع العربى بالحكم النظامى ممثلا فى الخلافة بعد النظام القبلى · وكم بين الاثنين فيما يتعلق بالانسان من حقوق وواجبات تعمل عملها فى مجتمعه الجديد كرامة واعتدادا ·· علما وفنا وصناعة ·· عمارا وعمارة ·· أنسا وايناسا يعطى الانسان فى ظلها عطاءه ويؤتى خيره لم يظلم منه شيئا ·

ويقارن توماس أرنولد فى كتابه (الخلافة) بين الخلافة فى الشرق والامبراطولية الرومانية المقدسة فى الغرب فيقول ان كلتيهما تستند الى قوة الدين غير أن الامبراطورية المقدسة مستحدثة أو هى استمرار للامبراطورية الرومانية فى الوثنية وحتى بعد المسيحية لم تكن الامبراطورية نظاما جامعا فقد كان الامبراطور الحاكم الزمنى ، حين يعتبر البابا الحاكم الروحى · أما الخلافة (فانها لم تقم على نظام سياسى سابق ، بل هى نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التى نشأت على أثر ظهور الاسلام وبسط سيادة العرب على بلاد الفرس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية · والخليفة حاكم سياسى يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية)·

انه أسلوب الاسلام الذى حد كثيرا من بطش الطغاة فأمن المجتمع الاسلامى واستقر · ومع الاستقرار انتشر العمران فى صور شتى ·

لا أريد أن أتكلم عن الخلافة نظاما سياسيا ودينيا فقد تناولها فقهاء ومؤرخون منهم أبو الريحان البيرونى (٤٤٠ / ١٤٠٨) وأبو الحسن على الماوردى (٤٥٠/ ١٠٥٨) وابن حزم (٤٥٦/ ١٠٦٤) والشهرستانى (٥٤٨/ ١١٥٣) وابن خلدون (١٣٨٢/٨٠٨) ·

كما تناولها مشتغلون بالفلسفة منهم أبو نصر الفارابى فى كتابه عن أهل المدينة الفاضلة ، واخوان الصفا ، وشهاب الدين السهروردى فى كتابه (حكمة الاشراق) ·

وتناولها مستشرقون منهم (متز) و (جولد تزيهر) و (توماس أرنولد) ·

ما أريد **أن أقوله هو أن الاسلام وراء كل صغيرة وكبيرة فى عمران المجتمع الاسلامى** حيث استندت السياسة والقضاء ··· فى الاسلام الى **روحه وتعاليمه** ثم بعد هذا الى **مذاهبه الأربعة** · وعندما كانت السياسة ، خاصة ، تتغيا ما أمر به الاسلام أن يتبع ، كان يشيع فى المجتمع العدل والخير · يعزز هذا ويرسى قواعده القضاء الاسلامى · فالاسلام **منذ وجد كان عقيدة وشريعة** ··· وكان المسجد جامعا وجامعة وقبلة للرأى كالصلاة ومكانا للعبادة ، والشورى ، و الأحكام فى وقت واحد ·

يقول توماس أرنولد (لم يكن المسجد ، مكانا للعبادة فحسب ، بل كان أيضا مركز الحياة السياسية والاجتماعية . فكان النبى يستقبل فى المسجد السفراء ويدير شئون الدولة ، ويخطب جماعة المسلمين على المنبر فى الأمور السياسية والدينية . فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر عن تقهقر جيوش المسلمين فى العراق ، واستحث قومه على السير الى هذه البلاد . ومن على المنبر أيضا وقف عثمان يدافع عن نفسه ، كما كان الخليفة عند استخلافه يلقى من فوق المنبر على الجمهور خطبته الأولى التى هى بمثابة بيان عن سياسته فى الحكم) . أى خطبة العرش بالاصطلاح الحديث .

وفى المسجد كانت تنحلق حول العلماء الندوة يفسرون ويشرحون .

وفى المسجد تلقى أطفال المسلمين العلم وحفظوا القرآن .

وفى المسجد تصدر القضاة للحكم بين الناس ونصبوا موازين العدل .

وحين أخذ المسجد هذه الأهمية فى حياة المسلمين ومدنهم صار مثابة عمرانيا علميا وفنيا .. هندسيا ودينيا ، ومساجد العصور الوسطى من أهم آثار الحضارة الاسلامية فى ذلك العهد .

اذا كان المسرح أبا الفنون فان العمارة أمها . وكما يعانق المسرح فنون الأدب والموسيقى ، والتمثيل والغناء ، فان العمارة تحتضن فنون النقش والزخرفة والتلوين .

فن التلوين فى الاسلام :

ان اللون والزخرفة فى الفن الاسلامى قصد :

- ★ لقيمته الجمالية .
- ★ للرمز عن الأشياء .
- ★ لمحاكاة النماذج .
- ★ للراحة النفسية بالتغيير .

ويعتمد **الايقاع فى الفن الاسلامى** على :

التماثل والتناظر والتبادل على الخط اللين والهندسى .

كان الاسلام وراء تشكيل الفراغ فى الفن الاسلامى . فحين كره الفنان المسلم ، الفراغ ، أراد ملء المساحات الكبيرة . وهنا رأى اعتماده على الخطوط والتوريقات النباتية الدقيقة تتطلب وقتا وجهدا مضاعفا فرسم

الحيوان والطير ليعينه الحجم على ملء المساحات ... ولكنه تفاديا لرسم الكائنات الحية كما هى ، لجأ الى **تحرير الشكل** .

كان الاسلام وراء الخليات المعمارية التى تشبه **خلايا النحل** والتى استعملت فى المساجد فى طبقات مرصوصة وتستعمل فى الزخرفة المعمارية .

وقد أشاد القرآن بالعسل : فيه شفاء للناس ، وأشار الى بيوت النحل . والسورة ١٦ من القرآن الكريم تحمل اسم : النحل (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وقد تفكر الفنان المسلم فاستهدى بيوت النحل واستوحى خطوطها .

وسورة النحل فيها ذكر لنعم كثيرة مما خلق الله ومما استوحى الفن الاسلامى فيما بعد على هدى من نوره ... فيها ذكر للسماء والأرض وما ذرأ فيها مختلفا ألوانه .. فيها ذكر للانسان والأنعام والماء والزرع وكل الثمرات .. والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحر والجبال (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

وهذا الثراء ، أمتع الفنان المسلم وأترع فنه برؤية روية من الأشكال والألوان .... والخطوط حتى **الأعداد** .

ان القبة الثمانية فى فارس تقف وراءها الآية (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) . كما ذكرت .

الاسلام والجمال فى الحياة :

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين **تريحون** وحين **تسرحون** ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها ، **وزينة** ويخلق ما لا تعلمون) .

الزهد يضعف الجسم .

ولما كان العقل السليم فى الجسم السليم .

فقد أحل الاسلام الزينة والمتعة فى غير حرام لبناء مجتمع صحيح قوى .

الزخرفة والفن الاسلامى :

والخيل والبغال والحمير لتركبوها ولكم فيها مباع ٠٠ اتخذها الفنان المسلم عناصر لزخرفته ٠

وفى المتحف الاسلامى القطعـة المنسوجة سجل رقم ٩٠٦١ وبها شريط من الكتابة العربية مرسومة بأسلوب زخرفى ٠ وفى أعلى هـذه الكتابة شريط أحمر اللون به صف من الجمال البيضاء والخضراء مرسومة بأسلوب هندسى محور جدا ٠

أكده التوازى الشريطى فى الطبيعة المصرية فالوادى الأخضر شرائط هندسية جميلة دائمة الخضرة تشقه قنوات هى شرائط كالخير فالماء حياة ونعمة ٠٠٠ ويتوج هذا كله النيل وله ضفتـان يليهما سـهلان يليهما صحراوان ٠٠٠ طبيعة منظومة من بحر النيل ٠

ان تعلق القلب المسلم بالمطلق كان وراء حب الفنان المسلم للتجريد حتى فى رسمه للأشكال يغطيها بالزخارف ويوشيها بالنمنمة أو يحيل الأجزاء الى وحدة زخرفية فى تحوير يكاد يبلغ مرتبة التصوير ٠

ونمطر السحائب بعد كلمة الرشيد بغزارة ويتدفق المال كالسيل ويظهر ميل النفس الطبيعى الى الاستمتاع بل تشتد الرغبة فيه بعد حرمان طويل ويجد العربى المسلم حلا سعيدا للمعادلة الصعبة ٠٠ بين حض العقيدة على القسط والقوام بين الاسراف والتقتير ، وبين حب الفخفخة وجنون العظمة فيعرض الفنان المسلم عن التماثيل الضخمة الى النمنمات والوشى والتذهيب والترصيع حتى الجدران والأرض غطاها بالفسيفساء ٠٠ حتى الفخار أصبح خزفا له بريق معدنى ٠

***

ان الفن التشكيلى له قدرة على الاقناع والامتاع عبر حواجز الجنس والمسافة واللغة **والقرآن الكريم فيه توجيه للتشـكيل** (هو الله الخالق البارىء المصور) ٠ **وفيه توجيه للنور والظلال** (والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) ٠

الكون فى الاسلام صور ٠٠٠ الزهرة صورة ، والقمر ، والضحى ، الليـل ، صور ٠٠ صور حتى الكلمة الطيبـة ، صورة من القرآن فهى

كشجرة طيبة ، صور أقسم بها القرآن اشارة اليها واشادة بها ، واعلاء لها ، ودعوة الى اجتلائها فى سجدة قلبية ، هى هدف الاسلام من السجود ٠

السجود الحقيقى فى الاسلام ايمان القلب بالقدرة ، وشهادة للخالق بالتفرد ، حين ينبهر الانسان المحدود ، بالكون الشامل فيقول بالحركة (ولم يكن له كفوا أحد) ٠ حتى التماثيل أجازها الاسلام بل أوردها وفى الآية ١١ من سورة سبأ (ولسليمان الريح ٠٠٠٠ يعملون له ما يشاء من **محاريب وتماثيل** وجفان كالجواب وقدور راسيات) ٠ وكان الرسول عليه السلام يتعامل بنقود عليها صور (١) ٠

ومع هذا تطوحت الآراء فى فن التصوير ما بين حلال وحرام ٠ وقد لعب اختلاف الرأى فى هذا الموضوع من موضوعات الفن دورا كبيرا فى الزخرفة الاسلامية التى ابتعدت عن رسم الانسان ايثارا للسلامة واتجهت الى التجريد خطوطا ، والى النبات أغصانا وأورافا ٠

ولكن الزخرفة الاسلامية أعتقت من الواقعية الهللينية والصلابة الفارسية فانطلقت بلا نهاية لأنها تتطلع كالمسلم الى الله الذى (هو الأول والآخر) ٠ الحديد ٣ ٠

الخطوط فى الزخرفة الاسلامية دوارة طوافه ٠٠٠ ويدركها البهر فتتوتر ، ولكنها تمضى بلا ملل من يعرف الصبر ٠ فاذا قابلها حاجز من اطار ، أو حافة من جدار ، أفاقت كمن يصطدم بالواقع ثم ما تلبث أن تستأنف نشاطها من جديد ، فى ساحة أخرى ٠٠ بالروح نفسها ٠٠٠ والتصور نفسه ، مما يحسبه النقاد ، تشابهسا وهو وحدة مع تنوع الأنماط ٠

* * *

الزخرفة الاسلامية مؤمنة بأن الغيب سر من أسرار الله فهى دائما تواقة الى المجهول ، مشتاقة الى المكنون والمضمر ٠

وفى نشوة الخلق الجميل ينطلق الفن الاسلامى فيتعمق فى كل شيء حتى طيات الكساء وثناياه فاذا حقق غايته نعزى وارتوت روحه الظمأى ، بعض الشيء الى عالم المجهول ٠

---

(١) اقرأ كتاب (الشارات المسيحيه والرموز الشعبية) للدكتور عبد الرحمن فهمى ـ كتاب ـ (المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربيه سنة ١٩٥٩) ٠
كتاب (التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى) للدكتور حسن الباشا ٠

وحين تروى الزخرفة الاسلامية بوجدان حساس تشيع فيها رائحة عجيبة مستقرة وقريرة لأنها نابعة من ابتهاج ضميرى ، فلا غرو أن ينزلها الفارابى منزلة « الألحان الكاملة » ٠

* * *

والزخرفة الاسلامية نحتفل باللون حتى لتقيمه مقام الضوء محاكيا للطبيعة مرة أو مخالفها ولكنه فى الحالين لا يشوبه تكبر أو تجبر لأن الفنان يقرأ فى قرآنه الآية (ومن أحسن من الله صبغة) البقرة ١٣٨ ٠ ويعرف اللون مكانته عند الفنان المسلم فيمضى يكتشف له الأشياء حين تكتنفه ويندمج معها ٠٠٠ ويعطيها وتعطيه فيغدو الاحساس ملونا ، واللون حساسا قبل « سيزان » رائد التصوير الحديث الذى تجاوز أسلوب عصر النهضة الاتباعى ٠

وكثيرا ما غمس الفنان المسلم ألوانه فى ماء المعادن يلامس بها السطح ، ويؤنس بها الشكل فتلمع أو تتطوس وهى فى الحالتين ما يكاد الفنان يسكبها على السطح حتى تؤدى فى غناء ٠٠٠ وكأنها افضاء نفس الى نفس ورجاء روح الى روح ٠

هذا اذا كان الفنان واجدا سعيدا عنده ما يقوله ٠ أما اذا كان الفنان لم تلمسه بعد الشرارة المقدسة ، فان ألوانه تكون صارخة كأنها تعبير عن ضيقه المكتوم ٠

* * *

ويبدو أثر الاسلام فى أثر آخر وهو تركيز الفنان المسلم ، الزخرفة وتكثيفها فى مواضع معينة كالمنبر والقبلة والمحراب والمئذنة وكأنها تحية خاصة للاسلام ٠

* * *

ومن الظواهر الزخرفية التى انتشرت فى العمارة الاسلامية وصارت من مميزاتها (الشمسيات) أى الشبابيك المفرغة المحشوة بالزجاج الملون التى تفننت فيها مصر فى آخر العصر الفاطمى ٠

* * *

ان الاسلام رسالة ثقافية فنية على أعلى مستوى ٠ يوم حبب الينا الجمال والزينة (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ٠ (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون٠ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) ٠

وتشرب الفنان المسلم روح دينه فمضى يزركش المربع ويحنن المستطيل ويعشق الخشب ويستنطق السطح الصامت بالنقش والنمنمة · وفى القرآن الكريم (سورة الزخرف) · وفى سورة الحجر (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين) آية ١٦ وفى سورة فصلت (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا) آية ١٢ وغيرهما من السور الكريمة ·

حتى الخشب أرواح تنحاب وتعشق· يقول ديورانت فى قصة الحضارة ان « المسيحية فى مثاليتها المجردة ، قد وضعت لتسير عليها أقلية ورعة ، ولكن الاسلام احتفل بالدين والدنيا »

الاسلام ميزته أنه **أسلوب حياة** ··· نمط سلوك من أبسط الأشياء الى أعلى الأشياء ·

الاسلام يحب المتعة فى غير اثم ، والفن نعيم روح ، ان الترف المادى عبء ، ولكن الترف المعنوى جناح ·

أن تجعل من الحياة فنا جميلا . وأن تجعل من الفن حياة جميلة ، نعمة كبرى ·

❋ ❋ ❋

ولما كانت العربية جزءا من الاسلام لنزول القرآن بها ، فقد تمثلت ، هذا ، **الزخرفة الاسلامية فى محبة للاسلام ، فغدا الخط العربى عنصرا بارزا من عناصر الزخرفة الاسلامية** حتى وصلت به تسعين نهرا (أى طريقة) ·

وانتقل حب ترتيل القرآن الى ترتيل الخط أى تحسينه فقال الامام على (الخط الحسن يزيد الحق وضوحا) ·

وحين أقسم الله بأداة الكتابة وهى القلم · ارتفع شأن العلم وارتفع شأن الخط باعتباره حامل المضمون وعنوانه · وهكذا انبعثت قواعد الخط محاذاة لأصول مخارج الحروف فى جميع البلدان الاسلامية كما لاحظ هذا وسجله الدكتور بشر فارس فى سماحة تجمع المسيحية والاسلام عند العارفين ·

وهكذا أصبح الخط العربى فنا جميلا ، وجليلا ·

والرحمة فى الاسلام ترجمتها العمارة الاسلامية فى عدة صور : البيمارستان والأسبلة والأبسطة والخانقات والأوقاف والأحباس ·

والجنة فى الاسلام شكلت كثيرا من العمارة الخيرية ٠

وقف وراء الفنون فى البلاد الاسلامية :

سماحة الاسلام وشموليته الذى سمى نفسه دين الفطرة اشارة الى أنه دين الانسان السوى أينما وجد وفى أى مكان (بعثت الى الناس كافة) لقد طبق الاسلام هذا المعنى عمليا وتلقائيا حين صارت له دولة وصولة وخلافة فلم يتمسك بمكة أو بالمدينة عاصمة له ٠

ان الامبراطورية الاسلامية هى الامبراطورية الوحيدة التى تتمسك بعاصمة واحدة تقليدية ٠

كانت العاصمة في الاسلام ، دمشق ثم بغداد ، ثم القاهرة ، هذا غير المدن الأندلسية وكان من أثر هـذا أن ازدهرت في الاسـلام العواصم معماريا وفنيا وعلميا لأن كل عاصمة يوفر لهـا أهلهـا رصـيدهم من الحضارة ، وطاقاتهم الانشائية والفنية فكسب الاسـلام هـذه العواصم الزاهرة الزاخرة التي أعطته وأعطاها ٠٠٠ وهى فى النهاية محسوبة له اذ بها يميل الميزان الحضارى الى الرجحان حاملة اسمه آخذة مكانها فى التاريخ ، فى مصاف الحضارات ، حضارة اسلامية ٠

العمارة المصرية

العمارة أحد أركان فلسفة مصر التى ترتكز على أربعة :

الماء النور السماء الحجر

هذه الأربعة هى عناصر الحضارة المصرية وهى فى الوقت نفسه ، عناصر الشخصية المصرية والفلسفة المصرية مع ولع بالرائع . وتعلق بالأعلى واستمراء للعمل الجميل يمرى عليها فترتفع الشوامخ من أعمالها ، معابد ومساجد وفنونا وعلوما وحكمة ...

تعلمت مصر من الحجر ، الصبر ، ومن النور ، البهجة ... ومن الماء ، الرقة والعذوبة . ومن السماء ، الرحمة والسعة .

تقطع مصر ، الحجر فينتفى عنها الضعف ، ويتأكد العزم ، ويستعلن الحسم . وتولد القيمة .

وحين المولد ، ينبثق الحنان .

وتحتضن مصر العمل الفنى ، بالزينة والتحلية ، والتنمية فى لمس يقارب الهمس ، وهو على رقته ، توثيق وتحقيق ... وتترعه بالراح والراحة فيفيض الرى على الحنايا والمنحنيات تبدو معه الأعمدة فى البنيان كأنها سيقان حية مملوءة بالعصارة النباتية ... ويخضر كل شىء فى وادى النبات حتى الحجر كأنه نوع جديد من الشجر .

ثم تدخل مصر فى الاسلام وتشرع فى بناء المساجد له وتأخذ بالتقسيم فيسرى التنغيم وتغنى القباب والايوانات بالنقوش والنمنمة ويحلو الشدو على الترديد والتجويد ... ويتسع الصحن فى المسجد كالبهو فى المعبد ... فى دعوة للنور الخارجى أن يغمر المكان ، ونداء للنور الداخلى أن يعمر النفس فيشف الحس وتتوهج الروح .

روح الوجدان المصرى : البناء • ولهذا نجد أن ابن البلد عندما يرضى ، يقول : الله يعمر بيتك ••• وعندما يغضب ••• احنا عارفين •

روح الوجدان المصرى : البناء الذى يتمثل فى :

الاناء : انه بناء له جدار واحد لياقى أوله بآخره • انه بيت الزهـــر •

النسيج : فيه روح البناء ••• خيط له طول ويكاد لا يكون له عرض

فتأتى اليد النساجة أى البناءة وتعمل من هذا الخيط بناء له طول وعرض •

الخيط رمز الفرد فمن مجموع الأفراد يتكون النسيج الاجتماعى •

الحصير : قبل التاريخ ، بناء ، حين شكـل منه الانســان المصرى جدارا ودثارا وفنا •

النيل : يبنى التربة طبقة فوق طبقة •

النبات : يبنى نفسه بالنمو يوما بعد يوم •

تجفيف المستنقعات : بناء أو تمهيد له •••

الحكومة : المفروض أنها بنـــاء للقانون • ان العدالة اذا وجدت بناء كبير •

العقد : صفوف صفوف من الحرر بناء مرصوص •

وتشتد الألفة فى مصر بين فنون العمارة والنحت والتصوير والحرف من بناء ونجارة وسبك وتزجيج كما تتواصل فى الحضارة المصريـــة ، العصور ••• ويتواد فى المجتمع المصرى الجيران ويلتقى الاحباب •

وتتوسع مصر فى العمل من سعة الصدر ، ورحابة الصبر وطـــاقة الخلق والتشكيل ، والايمان بالجزاء فى النفس ، والمـــال من حس بعيد بالثواب والعقاب يحكم الحياة المصرية اذا تكلمت أو عملت ففى المعبد والمسجد يخفت الضوء فى المدخل لتنبيه مشاعر الرهبة والحساب ويشتد الصمت لترتفع عمود البناء وترتفع معها النفس الى قمة •

والآن مع سيال من القـــوانين منيت الحياة المصريـــة باللامبـــالاة ، وابتليت بالتسطيح والنقص من جدب الروح لاننا نسينا قيمنا الدينية والوطنية والفنية بأبعادها فى النفس والروح فأنسانا الله أنفسنا •

مصر بنيت الانسان على طريقتها فى بناء الهرم الأكبر • ان اكتشاف الحجرة اكتشاف عظيم فما أصنعه يصنعنى وما أبنيه يبنينى ، ان دخول التجربة ، خبرة وقدرة وتشكيل للنفس •

ان الهرم يرفعنا من الأرض الى الأفق ، وينتعنا من الوهاد الى اشراف واشرافة القمة ٠

وحين بنت مصر الهرم ، كانت رائدة فى اتجاهات كثيرة فهناك مدونة طيبة التى نعود الى عصر الاهرام يتحدث عنها الطبيب الدكتور كامل حسين وكيف أنها تصف الجسم من قمة الرأس الى اخمص القدم تشرح كل جزء داءه ودواءه ٠

ولكن الذين لا ينفذون الى روح مصر يقفون عند مظاهر خارجية يعدونها وثنية ٠ ولو كانوا كابن الفارض لعرفوا أنها :

جلت بنجليها الوجود لناظرى ففى كل موجود أراها بصورة

ان مصر بروائع التشكيل رمزت الى وحدة الوجود ٠

وجاء الاسلام فحقق أمل مصر حين وثق بالتنزيل العطاءات الايجابية لحضارتها القديمة ٠

حتى العصر الحديث وهو طابق فى البناء الذى تشكل مصر أساسه العريض ، يلمحها فى موسيقى باخ وفن رمبرانت الذى يستقطب معبد الكرنك لا فى الشكل ولكن فى جوهر الخلق ٠

ان الهرم مثال لتماسك الذات المصرية مثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ٠

فى العمارة المصرية ، من الذات المصرية ، روح الايمان ، السحاب يمر من فوق المسلة والمئذنة وكلتاهما ثابتة ٠٠٠ يمثل السحاب الأحداث ، وتمثل المئذنة الايمان الثابت وقلب المؤمن المستقر ٠٠ ثبات عرفته مصر يوم رفعت المسلة فى مصر القديمة ، وعلى نمطها بنت مصر الاسلامية المئذنة حوارا بين التكعيب والاستدارة فى حب مستقيم متسامق لتمثل ضمير الاسلام ورؤيته ٠

حتى الشموع شكلتها مصر فى العصر الاسلامى على هيئة المئذنة اذا قلبت الشمعة ، سقطت منها دمعة ولكن اللهب يتجه الى أعلى لا الى أسفل ٠

تماسك وتمسك بالشعلة ٠٠٠ بالوهج ٠

وحين عذب الرومان مصر المسيحية لم تنس العمارة ولكنها نقلتها الى داخل الراهب المصرى ففى قلب الراهب المصرى معبد مصرى بمعانيه لا بأحجاره ٠

ان ولع مصر بالبناء ، لون من البناء النفسى ولعل البناء أكسبها النضج النفسى . هل الحجر أوحى اليها القوة ؟ أم أن قوتها اختارت الحجر للبنـــاء ؟

وهذا يفسر أن مصر أول عهدها بالاسلام بنت بالطوب فى مرحلة التحفظ لتبين الجـديد ... حتى جامع ابن طولون على ضخامته مبنى بالطوب ... واذا اتخذت مصر ، فى الاسلام ، دورا قويا ، بنت بالحجر ، وبالروح القديمة نفسها ــ الروح غير الطراز ــ وخير شاهد على هذا جامع السلطان حسن الذى يعده مستشرقو العمارة ، هرما اسلاميا .

ورؤية الاسلام للايمان أنه بنيان مرصوص فى عملية ربط بين النفس والبناء ... بين العمارة والعمار ... ولكن المدرسة المصرية تتكلم عن وحدة الشمال والجنوب فى عهد مينا ولم تتكلم عن وحدة الفن المصرى والنفس المصرية ... لم تتكلم عن أن العمــارة ، انصاف فهى بدقتهــا الدقيقة فى وزن وتوازن المربع والمستطيل والزاوية عدل وتقنين ينعكس على النفس .

لقد وجد الاسلام فى مصــر بيئة حضارية استلهمها طويلا ، استاهم المسلمون نظام الأحجار المتداخلة فى البناء ولكنهم زادوا عليه (التقسيم) بالألوان ... كان الفنان المصرى المسلم مأخوذا بالنظام الموسيقى فخلق من (التقاسيم) أفراحا تغنى .

ان الايقاع فى الفن الاسلامى يعتمد على التماثل والتناظر والتبادل على الخط اللين والهندسى .

ان روعة الصحن فى المسجد بعد المدخل الضيق حيث تلتقى السماء بالأرض فى تواصل يشتاق اليه كل حجر ، موقف للتجريد ترتفع به ، وفيه ، النفس وتطوف ... وتبصر بعد أن كانت ترى .

ان أثقال الحجر فى مداخل المدارس الأربعة بجامع السلطان حسن ، أجنحة طائرة .

فى العمارة الاسلامية انتشاء بالسماء يفسر معنى ديانة سماوية ، أى أنها تنشد المثل الأعلى .

ان المئذنة بانطلاقها نحو السماء ... نحو اللامحدود ، تقول :

لا اله الا الله ، حين تقول القبة بما هى مظلة الرضوان : أنه رحمن رحيم ، وهكذا نرى فى العمارة الاسلامية تجمعا يهوى الترابط أو انبثاقا يهوى الاشعاع .

ان عمارة السلطان حسن بمدارسها الأربعة أو ايواناتها الأربعة والنوافذ الخمس يعلو بعضها بعضا فى عملية تنظيم للرؤية وجمع النفس وصعود بالقلب عن طريق العين ، الى أعلى فى سياحة علىا ، حيث تكون العمارة ، هندسة ادراك ... وحيث تكون العقود المتوالية فى الايوانات لونا من الترديد هو تطريب هندسى .

لقد بنت مصر المساجد على طريقتها فى بناء المعابد ... ومصر فى الحالين كتبت تاريخها بالفن عمارة وتشكيلا ..

اذا كان المسرح أبا الفنون فان العمارة أمها . والهندسة المعماريه هى فن تشكيل الفراغ والفن المصرى من ورائها يعبر عن الحركة والسكون ويستقيم الخط ويستدير ويتأفق ويترأس ، وينساب ويتحفظ وهو فى هذا كله يعبر عن أصحابه صناع النهار كما عبرت عنهم القصة والأسطورة والقصيدة والترتيلة ويمد نراث مصر رواقه ، ويوسع آفاقه حتى تغدو الحضارة له طبعا وطابعا .

وبعد الحضارة المصرية يرفع الغرب ناطحات السحاب فاذا بالكم فيها وله تاثيره لا يحظى بسحر الدقة الدقيقة فى الترصيع المصرى وحساسية الانجاه فى الهرم (وأبو الهول) وأنس العمارة فى معابد امحتب ومساجد مصر الاسلامية بقدر محسوب لانه أسلوب حياة طويلة روية بالدين والتقنين والمعنى .

هذه لمحة من العمارة المصرية فى العصر الفرعونى ونفحة من العمارة المصرية فى العصر الاسلامى . أما العمارة الحديثة فقد فقد الكثير منها النبض حتى أصبحت مكعبات حجرية ومربعات واسطوانيات ، ومن الطريف قول المهندس حسن فتحى أن وسائل البناء الحديثة كالمسلح حررت المهندس المعمارى لسوء الحظ فضاع الوعى الدينى ... يقصد غابت القبة فى المبانى .

ويذكرنا هذا بكلام ديهامل عن الثقافة فعنده الثقافة اختيار + مجهود فاذا اختزلت هنا : الاذاعة والسينما كانت جناية العصر على الثقافة : السهولة والضحالة والسطحية .

ويأتى الغزو الثقافى وتغير النمط الاجتماعى والنمط الاستهلاكى الذى شمل فيما شمل العمارة ، فتعددت فى مصر بلد الشمس المشرقة ناطحات السحاب التى يقول وزير الكهرباء عن احداها انها تستهلك من الكهرباء بسبب أجهزة التكييف والمصاعد والاضاءة بحكم الواجهات الزجاجية الحاجبة ، مقدار ما كانت تستهلكه القاهرة مجمعة سنة ١٩٥٢ .

انه البهر بمانهاتن ونيويورك وبادروا أن نيويورك محتاجة الى التجميع لأنها جزيرة صغيرة أطرافها مناطق مخيفة يصعب الامتداد الأفقى فيها فضلا عن العامل التجارى فتعمدت الامتداد الرأسى ٠

على أن التوجه الجديد فى نيويورك كما رأيتها فى العام الماضى يتطلع الى طابعنا فبدأت العمارات ذات الطوابق المحدودة والشرفات والنافورات والحدائق الداخلية ٠

كأننا موكلون بتشويه القاهرة الجميلة العريقة أعظم مدينة فى الدنيا معماريا بخطى التاريخ على أرضها ٠٠٠ يكفى ميدان القلعة الذى يطل عليه ثلاثة عشر قرنا ،،، ولكن القاهرة الآن غدت برج بابل حين تحمل مراكش طابعا خاصا بها مستمدا من لون جبالها ٠ ولا يشذ عن هذا اللون بناء واحد ٠ فيها ٠٠ كما استعزت مدينة الدار البيضاء اللون الأبيض وحين لا تخطىء العين طابع الريف الانجليزى ٠٠ وحين تتسق مبانى باريس كأنها مرسومة على الورق ٠ لقد ثار الفرنسيون على ناطحات السحاب فانزوت فى طريق المطار لا تتعداه ، بعيدا عن المدينة وقد خصصت لسكن العمال ٠

وخرج العرب من الأندلس ولكن اسبانيا تحافظ على الأندلس كما هى وهذا الحفاظ على الطابع العربى ينسحب على ما يستجد من البيوت ٠ وثمرة هذا هى ازدهار السياحة فى اسبانيا من أجل الأندلس بالدرجة الأولى وان انضمت أسباب أخرى تتصل باتقان صناعة السياحة التى غدت علما وفنا وصناعة ٠

اننا فى عملية تقليد مندفعة أعرضنا عن نداء البيئة ٠٠ التى تتطلب فى العمارة القباب التى تتكسر عليها الأشعة العمودية وقد عرفت مصر القباب من الأسرة الثالثة بل من عصر ما قبل الأسرات ٠

يضاف الى هذا ويزيده تفاقما سوء التخطيط العام على مستوى البلد كله لا جزءا من مدينة أو مدينة من القطر ٠ فالتركيز على العاصمة واهمال الأقاليم ٠٠٠ فالأقاليم زحفت على المدينة وبدلا من تحضير الريف حدث ترييف القاهرة وانتشار البثور المعمارية على وجهها الجميل الذى علته غبرة ترهقها قترة ٠

ومن سوء التخطيط أن غدت القاهرة مثقلة بأربعة عشر مليونا حين يمثل الوادى الجديد ٤٥٨،٠٠٠ ك م مربع ، نصف مساحة مصر كلها ويقتصر سكانه على (١١٧) مائة وسبعة عشر ألف نسمة ٠

والنتيجة أننا اندفعنا رأسيا بلا ضابط وأفقيا بلا تخطيط لتستوعب

القاهرة ما يستجد بدلا من التخفيف عنها ٠٠٠ وجعلها عاصمة حضارية واتخاذ مدينة أخرى عاصمة ادارية ٠٠٠ والأمثلة كثيرة ٠

لماذا لم نمتد فى الصحراء ؟ ان حيا من أرقى أحياء القاهرة أنشىء فى قلب الصحراء (مصر الجديدة) أنشأها غريب ونحن الآن لم ننشىء حيا مثله ٠٠٠ لأننا مشغولون بتجديب الأرض أو تجريفها وكلاهما قتل ثم نتنادى بتخضير الصحراء بالأغانى (يا صحرا المهندس جاى) ٠

ان المدن الجديدة فى غيبة الوعى المعمارى والفنى غابات من الأسمنت بلا طابع ٠٠ بلا هوية وعندنا طرز تاريخية متعددة ٠

سبب آخر يقول به الدكتور سامح العلايلى فى مجلة المهندسين العدد الثانى سنة ١٩٨٦ المجلد الخامس والعشرون من أن (الفنون تعبيرات حرة عن أحاسيس الفنان تجاه أمور دنيوية وروحية بالكتلة واللون والملمس وينحصر أثر هذه التعبيرات فى نطاق مجتمع خاص ومحدود ممن لديهم القدرة على التذوق الفنى ٠

أما بالنسبة الى فن العمارة بالذات فانه يختلف عن سائر الفنون التشكيلية الأخرى من حيث مجال عرض نتاجها ، فهذا المجال مفتوح على الملأ بجميله وقبيحه وبالتالى فالتفاعل مباشر بينه وبين قاعدة عريضة من الأفراد ٠

ومع تعقد واتساع متطلبات الحياة ، اندمج ذلك الفن الجميل (بالتدريج) ليس فقط فى علوم البناء المتطورة ، بل أيضا بعلوم أخرى كالتخطيط والاقتصاد والبيئة والاجتماع ٠٠٠ ثم حل الانتاج الجماعى محل الابداع الفردى ، وأصبح الأسلوب النمطى التقليدى هو الغالب) ٠

أقول ان الحديث الكثير عن الأزمة الاقتصادية ينسى أنها نتيجة وليست سببا فالأزمة فى حقيقتها أخلاقية دينية فنية تاريخية ٠ أزمة تراث أى اعتداد بالذات وتمسك بها فى عملية تماسك فى وجه التغريب والتحديث والاختراق الى الأعماق ٠

على المعماريين تدارك القاهرة اليوم بعد أن عدا عليها كل شىء حتى النيل لم يسلم من الاعتداء فانتشرت الشاليهات الفئوية على شاطئه ٠ ان جسم اوزوريس مقطع مرة أخرى ٠ انه واقعنا اليوم ونحن بحاجة الى جمع أشلائه واعادة الحياة اليه ، نريد عمارة تكون بمثابة تراث للمستقبل أى اضافة منا للأجيال القادمة كما يقول المهندس الكبير على نصار فى كلمته الجامعة ٠

تنادى اتحاد المعماريين بمسح شامل للعاصمة لا ينتظر اللجـــان الحكومية. ثم وضع تخطيط لها يشمل ازالة العشوائيات وانشاء ما يستحق أن يكون تراثا جيدا للأجيال القادمة كما قال المهندس الكبير على نصار .

★ عدم الترخيص بأى بناء الا بعد عرضه على اتحاد المعماريين .

★ تشكيل وتجميل الميادين والشوارع الرئيسية يكون بمسابقات.

وبما أننا بلد حضارة وتراث أقترح أن يضم اتحاد المعماريين ممثلا للآثار الفرعونية وممثلا للآثار الاسلامية والمسيحية حتى لا يصرح بالبناء فى المناطق الأثرية علما بأن الأثر يساوى الأثر زائدا حرم الأثر .

وهنا أقول أن على اتحاد المعماريين مسئولية أو رسالة احياء القاهرة القـديمة والحفاظ على طابعها التاريخى . وليكن للقاهرة الجديدة طابعهـا العصرى .

أما أن تقوم مساكن شعبية فى مواجهة مدرسة السلطان حســن وهى أروع عمارة اسلامية فى العالم الاسلامى قاطبة لا مصر وحدها ، فأمر مرفوض .

وحين أتكلم عن القاهرة فانى أرجو أن تمتد رؤية اتحاد المعماريين الى عواصم الحضارة فى مصر وفى مقدمتها الأقصر .

نريد رؤية شاملة .

لكى تقوم لهذا البلد الحبيب قائمــه من جديد يجب أن يشكــل المثقفون المتحررون من الوظائف بذيولها وقيودها ، رأيا له قوة يعمــل حسابها . أى يدرسون المشاكل الفنية والعلمية ويضعون لها حلولا يدعون اليها فى اصرار فلا يتمزقون بين الجدران الأربعة من أعمال المقاولات التى تحركها أشياء غير الحضارة والتراث والعلم والفن والحاسة الجمالية .

أنسانى حديث العمارة شكر المعماريين المصريين لتقـديرهم الذى أضاف الى وأضفى على . وهل حديثى عن العمارة الا تحية للمعماريين ؟ وبقدر التحية طال الحديث . وفى المنيا نقول : والحمام اللى يعشج الغية لا يشبع كلام ولا مناغية .

الفنان مختار

الفنون أسرة واحدة تنبع من الشعور الذى يشكله الفنان ، كلمة أو نغمة أو رسما ، أو نحتا ··· ولهذا يقول الفرنسيون بالنفس العاقلة واليد المفكرة ··· ولم لا تكون اليد مفكرة وهى تعزف ونرسم ، وتلون وتسوى الحجر تمثالا بعد تحسيس الكتلة ، مشاعر الوجدان ·

من هذا المنطلق أكتب عن « مختار » الفنان ·

كان مختار فى وقته ، تعبيرا فنيا عن الوطنيـة المصريـة يواكب التعبير الاقتصادى ممثلا فى طلعت حرب ، والتعبير الفنى ممثلا فى نهضة الأدب المصرى وريادته ، وتطور الموسيقى المصرية والغناء المصرى والمسرح المصرى ··· يواكب التعبير السياسى ممثلا فى الثورات الشعبية ابتداء من ثورة ١٩١٩ بل اشترك مختار فنيا فى الجنازات القومية فحمل الشباب فيها تماثيل لمصطفى كامل ومحمد فريد ، من صنع مختار كما عبر عن مقاومتها فى تمثال (الخماسين) ·

وهكذا أرانى كاتبة ، انبع فى هذا الموقف عن اساتذتى من الرواد : « العقاد » الذى ارتفع صوته سنة ١٩٣٤ عند قيام معرض الفن التشكيلى ينادى باعطاء المصريين حقهم من التقدير وعدم ايثار الأجانب على الفنان المصرى حتى لا تختنق المواهب المصرية ولا يحبط الفن المصرى ·

العقاد الذى كتب عن الفنون بل ان قصيدته « ترجمة شيطان » عمل خالد يجمع بين الأدب والفن ·

أنبع عن « المازنى » و « طه حسين » الذى كان عضوا عاملا فى جمعية محبى الفنون الجميلة حتى وفاته ··

أنبع عن لطفى السـيد وتوفيـق الحكيم ومحمد حسـين هيكـل ويحيى حقى وكلهم أعضاء فى هذه الجمعية ·

« مختار » من مصر ··· تعامل مثلها مع البيئة مكانا وانسانا ونباتا ونهرا وشمسا ··· مصر الزراعة التى هى مصر الفن ·

زرعت مصر الحجر ، بعد الأرض فشكلته فنونا وأشكالا مختلفة · من الحجر بنت البيت وشيدت المعبد ، وسوت التمثال ورفعت الهرم ·

وعلى الحجر ، كتبت مصر ·

حولت مصر الصخر الى حجر، كريم أحين روته بالمعنى وشحنته بالرؤى ووشوشته ، وحملته من أسرار الفن والأدب والحكمة والدين ماجعله مصدر تاريخ ومظهر حضارة ٠

والتصوير المصرى تصوير بالنور على الحجر ولهذا هو ملىء بالرؤى وبين النور والحجر تتسلل المياه رمزا لانسياب الفكر ٠

ان التكعيبية والسريالية القائمة على التجريد وتجاوز الشكل بل تجاوز المنطق ، والتطويح الى ماوراء العقل ، يتفوق عليها الفن المصرى القائم على نقاء الشكل مع الاحتفاظ باللمحات الانسانية فهو بسمة ايمان على صفحة الوادى ٠

انه كالطبيعة المصرية نور وحجر وصفاء ٠٠٠ نشيع فيه الوداعة من البسمات الرقيقة اللطيفة حتى لتبدو التماثيل كأنها من لحم ودم ٠

وقد تشرب فن مختار هذا كله ونبع عنه وأسقى منه ٠

وحين تتحول الكتلة الى مرآة لقلب بشرى ، يولد فن النحت ٠ يقول « هنرى مور » وهو رائد فن النحت الحديث :

[أعطى كل شيء اذا اتيح لى أن اكتسب الانسانية الماثلة فى التمثال المصرى القديم ٠٠٠ هذا السكون والجلال] ٠

هذه الانسانية اكتسبها « مختار » بالوراثة الحضارية ٠ لم تشغل ثورة ١٩١٩ مصر عن الفن هواها وهوايتها منذ القدم فقد أثبتت الوجود المصرى على مختلف الساحات حتى ليسميها توفيق الحكيم « عودة الروح »

وحين ركز المحتل على اضعاف الجيش وقتل التعليم بقصره على المرحلة الابتدائية وتخريج مجرد موظفين للادارة البريطانية ، ووأد الصناعة ، وبث الفرقة السياسية ٠٠٠ أفلتت الفنون لانشغال العدو عنها ٠٠٠ بل أفلتت التعليم والصناعة التى اقام لها طلعت حرب صرحا : بنك مصر وشركاته ٠٠٠ أما التعليم فقد اكتتب الشعب ١٩٠٨ لانشاء الجامعة الأهلية التى صارت سنة ١٩٢٥ : الجامعة المصرية ٠٠٠ الجامعة الرسمية ٠٠ وكما قامت مدرسة الفنون الجميلة والجمعية المصرية للفنون ٠٠٠ ونهض الأدب من كبوته ٠٠٠ وولدت القصة المصرية ٠٠٠ أما الموسيقى والغناء فقد ظهرت كوكبة من الموهوبين ملحنين وعازفين ومطربين ٠ ويتحدث الدكتور حسين فوزى فى كتابه (سندباد مصرى) حديثا ممتعا عن الموسيقى فى تلك الفترة ٠٠٠ وظهرت أم كلثوم ٠ وفى العشرينات عرفت مصر ، المسرح الغنائى بل قامت نهضة مسرحية باركها

طلعت حرب الذى أنشأ شركة التمثيل العربى وتياترو الحديقة الذى مثلت عليه اوبرات كاملة • واستقدمت مصر روائع الفن العالمى وكان معرض رودان ومعاصريه الذى أقيم فيها سنة ١٩٣٩ حدثا ثقافيا هاما • وقبله المعرض الفارسى سنة ١٩٣٥ احتفالا بذكرى الفردوسى • • • وكان المعرض الاسبانى بسراى اسماعيل سنة ١٩٥٠ من الأحداث الباقية فى ذاكرة القاهرة •

فى هذا المناخ الصحى والنفى فنبا على الرغم من المعاناة السياسية ، أعطى مختار أربعين تمثالا من الرخام والبرونز وأقام تمثالى سعد زغلول فى القاهرة والاسكندرية •

أما تمثال نهضة مصر فتاريخ فى تاريخ مختار فهذا التمثال عمل نموذجا له حين كان يتلقى دراسة الفن فى مدرسة باريس ونال عليه جائزة تقدير سنة ١٩٢٠ فى أكبر معارض باريس وهو أول مصرى تقبل أعماله فى باريس ويستدعى للعمل فى متاحفها •

كان غائبا عن مصر ولكنها كانت تعيش فى كيانه وحين أراد تشكيل التمثال وصادف من المعوقات ما آلمه حتى كتب الى رئيس الحكومة فى وقته خطابا لا يقوى على كتابته فى ذلك الوقت غير الفنان المستعز بفنه كمختار • يقول فى خطابه :

[لقد كنت أرى على الدوام أن تدخل الحكومة فى شئون الفن بالوضع القائم ليس فقط عديم الفائدة ولكن بالغ الضرر أليس من المضحك والمؤلم فى الوقت نفسه ، وصاية وزارة الأشغال على الفنون الجميلة ؟ الى أى طريق يستطيع أن يوجه الفنون جهاز تشغله دائما أمور بعيدة عن الفن ؟

لو كان كل الفنانين فى العالم يلقون مثل هذه المعاملة من حكوماتهم لهجر أغلبهم الفن واشتغل بالبقالة] •

ولكن الشعب المصرى اكتتب من أجل اقامة تمثال مختار « نهضة مصر » • • ومختار بدوره أعطى فيما أعطى جماعة (الخيال) وجعلها مركزا للثقافة والفن ضمت أجمل قاعة للفنون ، قربى ، الى مصر وحدها كما أسهم فى انشاء المدرسة الرسمية للفنون الجميلة •

كان « مختار » يصرف ما لديه من مال قليل على المسابك ودور العرض • لم يكن له سند من سلطة أو رفد من مال ولكنه وصل بالاصرار واقتحام العقبة والارتفاع على المحنة وهو درس للشباب •

لقد صاغ مختار آلامه فى تمثال (الأسى) وتمثال (الحزن) وان كان صاغ تمثالا للفرح وتمثالا للحب بالنقاء الدائم فى قلب الفنان ·

وصاغ مختار أحلامه فى تمثال (العدالة) وتمثال (الدستور)

ورقرق مختار حبه لمصر فى تماثيل ·

رمز الى مصر بالسيدة التاريخية المعطاء بلا حدود : الفلاحة المصرية صنع لها مختار تماثيل لا تمثالا واحدا · فلمختار : تمثال (الفلاحة المرحة) وتمثال (العودة من النهر) أى الفلاحة حاملة الجرة · · وتمثال الفلاحة (العائدة من السوق) وتمثال الفلاحة (تجر الماء) وتمثال الفلاحة (بائعة الجبن) وتمثال الفلاحة ، حبيبة ، (مناجاة الحب) ·

وتمثال الفلاحة (عروس النيل) ·

وتمثال الفلاحة الملكة دائما على مر العصور أى ايزيس ·

أما الفلاح المصرى فقد عبر عنه مختار فى ايجاز وبلاغ فى تمثال (حارس الحقول) ·

ولمختار تمثال (القيلولة) وتمثال (ابن البلد) وتمثال (بنت الشعب) وتمثال الدكتور على ابراهيم ··· وتمثال (الزراعة) وتمثال (شيخ البشارين) لمحة من الصعيد ·

دائما أعرف ، **المعاصرة** ، بأنها استمداد من الماضى ، وامتداد به ، الى الحاضر فى استشراقة الى المستقبل ·

وفن مختار يمثل عندى هذا المعنى وبهذا استحق مختار أن يقول عنه الفنان حامد سعيد فى العام الماضى : [**انه فنان رائد فى الفن المعاصر فى مصر يتسم بصفة المصرية التى لا يخطئها أحد من العارفين بمختلف ملامح الفنون · كما يمتاز فن هذا الرائد فى مصر بأنه فن معاصر على المستوى العالمى**] ·

أقول مختار دعوة مصرية ، ودفقة نيلية وهو بهذا باق ما تواصلت الأجيال على هذا التراب الطهور وجرى بيننا هذا النهر المرتبطة به الحياة ·

الفنان شادى عبد السلام

مع الربيع أهل على الدنيا ، فنان .. وأطل على مصر فى النصف الأول من القرن العشرين ، انسان كبير .

من المنيا أرومته ، وفى الاسكندرية مولده فى ١٥ مارس ١٩٣٠ انه الفنان شادى عبد السلام .

وكما ربت ايزيس ، حورس ، للمجد .. ربته أمه فأحبها حبا جما .

شب شادى عبد السلام فى مدرسة فيكتوريا بالاسكندرية حتى اذا كان فى الثالثة عشرة من عمره ، شهدت الاسكندرية فى الحرب العالمية الثانية ، غارة ، هاجر على اثرها الكثيرون ..

وحفرت هذه الهجرة خطا لاينسى فى ذاكرته .. رأى أمه لاتقوى على زحام المسافرين .

ويتألم الصغير الحساس لأمه وللطيبين الذين فرضت عليهم ، الهجرة ، هربا ليسوا من جناتها .

وفى القاهرة مكثت الأسرة يومين ، أزمعت بعدهما العودة الى المنيا .

وفى المنيا فتح الغلام عينه على دنيا أخرى لها مذاق خاص .. فيه من عطر التاريخ وعراقة تل العمارنة ، وأصالة أهل الحضارة .

رأى الطفل ، الرجال ، فى المنيا لهم سمت خاص وأقدار .. رأى المجلس يتهيبه الأطفال فاذا وجد طفل فانه يتصرف ، فى نضارة العمر ، تصرف الرجال .

رأى النساء لهن مكان ومكانة .. رأى جدته لأمه تعامل كملكة .. ان المنيا هى المحافظة الوحيدة التى اتخذت شعارا لها : « نفرتينى » أى المراة المصرية .. والمنيا هى المحافظة التى أنجبت العظيم اخناتون ولكنها بحس بعيد من ايزيس ، اتخذت « نفرتيتى » شعارا .

وصحبه أخواله الى بنى حسن وراعه ما رأى .. التقى بالتاريخ فى معبده وأحبه حب العبادة واختزن هذا كله واعتز به . وجن بالتعبير عنه رسما وكتابة واخراجا .. عاش عمره له .. حتى فى أيامه الأخيرة ، كان حين يفيق من غيبوبته ، بين الحين والحين ، يحكى عنه بذهن صاف .

شب الغلام في بيت كريم الأبوين · عرفنا لمحة من أسرته لوالدته أما أبوه فكان محاميا ثم مديرا بالاسكندرية وقتا ·

وعملت هذه النشأة عملها فكان متعففا مترفعا على الدنايا كريما دمثا·

ولما بلغ سن التجنيد انتظم في الجندية وهنـــاك تعامل مع الفطرة المصرية ·· مع البساطة والطيبة والتلقائية ·

وفي القاهرة ، بعد الحرب ، دخل شادى عبد السلام كلية الفنون الجميلة قسم عمارة وتخرج منها ١٩٥٥

وفي كلية الفنون الجميلة ، اكتشف باقي الفنون ·

واستهواه المسرح فدرس المسرح ، عامين ·

وحين كان شادى عبد السلام يدرس ، العمارة ، في كلية الفنون الجميلة ، قرر ترك العمـــل بها حزنا على العمارة الحديثة بعشوائيتها وتبعيتها للأساليب الغربية بعد أن كان لنا أسلوب وطابع مميز مرموق ·

قرر شادى عبد السلام دخول السينما ·· عمل في البداية مساعدا لصلاح « أبو سيف » ورمقته عين المخرج ولى الدين سامح فأسند اليه تصميمات ملابس فيلم صلاح الدين الذى أخرجه يوسف شاهين ·

وشادى عبد السلام مغرم بالرسم ورسم الأزياء خاصة ·

واشتغل بتصميم الملابس في الأفلام الى سنة ١٩٦٦ ·

صمم ملابس وديكور فيلم (وا اسلاماه) ولكن كيانه النحيل كان أكبر من هذا كله ·· كان صاحب فكر ·

كان يقلقه ويمضه أن تنسب العمارة والدراما الى اليونان وكم بين مصر واليونان في العمارة والدراما ·· مصر صاحبة مسرحية منف التى كتبت قبل الدراما اليونانيـــة بنحو ثلاثة آلاف ســنة (كتبت ســنة ٣٤٠٠ ق٠م٠) ·

كان شادى عبد السلام ، رساما ، الوجوه عنده نبيلة في مثل نبله ·

الكتابة في مصر القديمة التى عشقها ، كانت رسما ·· والرسم عند شادى عبد السلام كان كتابة من فرط ولعه ، به ·

كان قلمـا لا يسبتعمل بمحاة (أسبتيكة) أو يتردد فى لون .
كان يكتب السيناريو كأنه يترنم . ويرسم الشخصية فيرسم نفسه من خلالها من طول اطلاعاته وقراءاته حول الشخصية المرسومة .

كان فى كل فيلم له يخرج أكثر ثراء ونضارة روح .

كانت الأحداث تغدو عنده ، حوارا ، والكلمات أوتارا ..

كان يغوص فى موضـــوعه حتى يدخل في نسيجه العقلى والروحى والبدنى .

كان فى عمله ، ملكا ، سلوك تصرف ، وأسلوب تصوف ، ووضاءة تفكير . وعمق تعبير .

كان يدرس اللفتة والسكنات .. كان فى فيلم « اخناتون » يطوف بالمعابد ، ويطوف فى الكتب (ليجمع الحركة) حتى يستطيع احـكام حركة الممثل .

كانت مصر فى عيونه ..
والعين الواحدة ، حين تبصر بعد أن ترى فهى عيون كثيرة .
الخط من ريشته يقول ..
والحدث من رؤيته يقول
ولهذا خلت أفلامه من الفضول .
لأن عندها إما ترويه وتوحيه .
أكتب عن شادى الانسان
وأكتب عن شادى الفنان
أفلامه ماذا تقول ؟
كلمة مصرية حية فى [المومياء]
وكلمة مصرية روية من النيل فى [آفاق]
وكلمة مصرية مؤمنة فى [الفلاح الفصيح]
وكلمة مصرية حاسمة فى [جيوش الشمس] .
وكلمة مصرية مصممة فى [الحصن]
وكلمة مصرية ملونة فى [كرسي توت عنخ آمون]
وكلمة مصرية عالمة فى [الأهرامات وما قبلها]

وكلمة مصرية قادرة فى [رمسيس الثانى]

وكلمة مصرية مرنمة فى [اخناتون]

وكلمة مصرية منمنمة فى هؤلاء جميعا ٠

اكتشف شادى عبد السلام ، نفسه فى المنيا ٠٠ وعاش للاكتشاف ٠ يجمع المشاعر من الأفراح ٠٠ والدموع من الأتراح ٠٠ ويجمع الروح من الأثر والبشر ٠٠ من العـــادات والكلمـــات والسكنـــات والضحكات والآهات ٠٠ من الصمت والكلام ٠

خلقه دماثة ٠٠ وثقافته رؤى ٠٠ ورؤيته وسامة روح التى نسميها خفة دم ٠

كل شىء عنده له طقوس فهو عميق الاصغاء للأشياء ٠٠ ان عندها ماتوحيه ٠٠ وفيها كثير ترتجيه العين الناقبة صاحبة الرؤية وهى شىء أكبر من البصر ٠٠ انها **البصيرة** ٠

كان شادى عبد السلام ، مخرجا ، لا يلوى مسار الحدث ولكنــه يتعايش معه ويسايره فيتحرك الحدث من تلقاء نفسه ٠٠ وفى أثناء هذا يناقش شادى عبد السلام دون أن تحس خطابيـــة ومن هنا جاء فيلم « اخنـــاتون » الذى توقف بســـبب المـــال ٠٠ وما أكثر المال المنزوف بلا أثر ولا خبر ٠

فيلم « اخناتون » الذى لم ير النور ٠٠ سينما وتاريخ ، وسياسة ودين وحضارة وانسانيات ومصريات ٠٠ ان الحيرة على وجــه العجوز الذى يتساءل بعد حركة اخناتون الروحية ، كيف يدفن موتاه وفقا للعبادة الجديدة أو تطبيقا للطقوس القديمة ؟ هنـــا يرسم شادى عبد السلام علامات استفهام غير منظورة ٠٠

هل التغيير يأتى من أعلى ؟

هذا على الرغم من ولوعه باخناتون ٠

فيلم يقول ٠٠

وآخر مشهد فى الفيلم بعد أن مر بـ « حور محب » الذى صنعت ذنوحاته الامبراطورية ٠٠ آخر مشهد بعد هذا ، غبار كثيف ٠٠ ليس من تراب ولكن من أحداث ومعارك وقلق وعذاب وانتصـــار ٠٠ نعم ولكن يهدأ هذا كله أو يخف ويشف وينجلى عن **فلاح يزرع الأرض** ٠٠ فى اشارة غنية الى حقيقة خالدة مضمونها ٠

بدأت مصر بالزراعة ·· والى الزراعة تعــود ·· خلودا الى خلود يتجدد ولا يتبدد ·· دائم الحضور لا يتبدل ·· ولا يبيد ·

هذا سرها ·

فحين زرعت مصر ، علمتها الزراعة بالملاحظة بدءا من الحبة ، وانتهاء بالثمرة ، أن الحياة الخصبة خط صاعد وصامد ·· عميق وموجب ·· نشيط ومتفاعل ·· حي ودءوب ·· مترابط وأصيل ·· آخذ ومعطاء ·· ودود وولود ·· عامل بنفسه ومتحد مع الكل فى ايقاع متناسق متكامل وبديع ··

ان المجاعة الحديثــة مؤشر الى أن الزراعة هى موضــوع المستقبل كما كانت موضوع الماضى ·

لقد ظمىء الانســـان منذ بدء الخليقــة الى اثنين : الحب والرى (أى الماء والطعام)

وعلى هذا الظمأ ولد الفن خطوطا فى الكهوف وتعاويذ للسحر ونما الفن بنمو الزراعة فتألق فى الاناء ، وتأنق فى الحلى ثم فى وســـائل الحياة اليومية ·

اختزل شادى عبد السلام هذه المعانى كلها فى صوره ·· كما اختزل القدر ، حياته ، فى هذه الأعمال ·

- **المومياء ١٩٦٨**

- **الفلاح الفصيح ١٩٧٠**

وهو فيلم تسجيلى مدته عشرون دقيقــة مشحونة بالصمت العارف والكلام البليغ وما فى عالم مصر القديمــة من ايمان بالجزاء والثــواب والعقاب والقسط والميزان ·

لقد سجل البردية والتزم بها مع حذف المكرر وتنميق الحدث ·

- **آفاق ١٩٧٢**

فيلم تسجيلى مدته أربعون دقيقة عن النشاط الثقافى فى القاهرة ١٩٧٢ ســيمفونية فنــــون ·· موسيقى ·· فن تشكيلى ·· عوالم شتى تسجلها كاميرا ذواقة تواقة ، فى طوافها بالخيامية والخرانة والمراسم · كاميرا تتنقل بين روائع يوسف كامل وبدائع آدم حنين ·· كاميرا تتخطر

فى منف وتتعطر بدار الكتب .. لم يفتها من مفاتن مصر ، لمحة ، حتى الصحراء .. وللصحراء المصرية فى نفس عشـاق مصر ، مكانة وعلامة بما أعانت على التوحيد وبما وفرت من خلوة للتأمل .. الصحراء المصرية فى فيلم « آفاق » انبعث منها صـوت الصمت فرددته الرياح بضـوت أعلى نبرة .

فيلم « آفاق » فيه الحب الغالى العالى لمصر .. فيه الانتماء الى الطبيعة فيها .. الى الحرف الشعبية .. الى العمارة المصرية على مسار عصـورها الى الفن المصرى .. الى الفنان المصرى .

● **فيلم جيوش الشمس : ٧٣ ــ ٧٤** (فيلم تسجيلى مدته ساعة)

جيوشنا فى الأرض والبحر والجو التى عبرت القهر والهزيمة وكان انتصارها مادة للدرس فى الأكاديميات العسكرية ومادة للتاريخ فى ملاحم البطولة ..

واضافة شادى عبد السلام المصرى الفنان فى هذا الفيلم أنه قال بالتدريب بعد المعركة واختـيـار نهـاية الفيلم ، جنديا ينظر الى الحدود مشدود البصر والبصيرة .

وسرى الى سمع مصر مايريد أن يقول شاديها :

[كونى مستعدة]

وفوقك عين الله التى لا تنام يا كنانته فى أرضه .

● **فيلم الحصن** : (لم يعرض بعد)

فيلم تسجيلى عن معبد ادفو يحكى قصة ايزيس . وقد شد أشواقه أن الفنان المصرى الذى بنى المعبد ترك الخراطيش به خالية ، لونا من التعبير عن الحلم بالمخلص .. لونا من رفض الأجنبى حتى ولو تمصر . ان معبد ادفو بنى فى عصر البطالمة .. وعلى الرغم من انتمائهم الى مصر مولدا ومربى ووجودا الا أن الفنـان المصرى لا يحبهم فعز عليه أن يملأ الخراطيش بأسماء بطلمية وتركها خالية تنتظر فرعونا مصريا يجدد المجد ويشعل الوجد .. انه عرش حورس فحسب .

● **كرسى توت عنخ آمون الذهبى : ٨٢ ــ ٨٣**

وهو فيلم تسجيلى مدته أربعون دقيقة ناقش فيه شادى عبد السلام اشاعة تقول ان الملكة تى زوجة امنحتب الثالث وأم اخناتون من أصـل

أجنبى • وينفى هذا عنده وعندى أنها الملكة الأم التى تورث العرش وأنها الزوجة الملكية وهى مقومات مصرية لاتتمتع بها زوجة من أصل أجنبى •

● الأهرامات وما قبلها : ٨٣ ـ ٨٤

يقول هذا الفيلم كيف وصلت مصر الى بنـاء الهرم • وقد وقف شادى عبد السلام طويلا أمام مدينة « نخن » فى ادفو حيث ولد « مينا » وكانت « نخن » عاصمة الصعيد •• كما وقف عند الطرق التى شـــقها الملك سنفرو والد خوفو للمناجم فى سينا •

وفى هذا الفيلم ناقش شادى عبد السلام مقولة (السخرة فى بناء الهرم) •• كيف ؟ ان الأرض الزراعية كانت فى مصر القديمة ســـتة ملايين من الأفدنة عالية الخصوبة يعيش عليها بضعة ملايين بينما انخفضت هـذه النسبة اليـوم لغامل التجريف والتجديب للبنـــاء ويعيش عليها ٤٨ مليونا •• وهو مؤشر الى أن الخير كان موفورا غداقا فى مصر القديمة فما حاجتهم الى السخرة •

هذا سبب من أسباب عديدة استغرقت جزءا كبيرا من كتابى عن مصر لايتسع له المقام هنا •

● رمسيس الثانى ٨٤ ـ ٨٦

بطل قادش الذى نسمى باسمه عدد ممن جاءوا بعده من فراعنة مصر تيمنا به • وقد وقف شادى عبد السلام طويلا فى هذا الفيلم عند اكبر المعابد قاطبـة : معبد الكرنك •• ومن هذا المعبد بعث شـــادى عبد السلام رسالة بالصوت والصورة الى وزارة السياحة • ان لهذا الفيلم قصة طريفة فقد سمع شادى مرشدة تقول لفوج من السياح ان رمسيس كان يمحو أسماء الملوك وينتحل أعمالهم فلم يستطع معها صبرا ونهرها قائلا :

ومادام هو كذلك فما حاجتك الى الوقوف أمامه ؟ ولكنها لم ترتدع فشكاها فى قسم البوليس •

وكان هذا الفيلم بعد هذه الواقعة كأنه رد عليها حيث انتقلت الكاميرا الى معبد ابيدوس وفيه لوحة تسجل أسماء الملوك وعت ٧٦ ستة وسبعين ملكا فى حفاظ على الأسلاف واعتزاز بهم ٠

وهكذا كانت أفلامه ، **رسالة** حضارية

وهكذا كانت أعماله فكرا خالصا واضافة ثرية الى فن **الكلمة** ، **والصورة ، واللون والتشكيل والموسيقى** الى فن السينما ٠

كان فنانا أصيلا ٠٠ وكان مصريا عظيما ٠

الفنان أنور عبد المولى

قطعــة من مصر عادت الى حضن الأرض السمراء ، ذهبت لتحيا ، وحين ترجع سيكون العود أحلى ·· فسوف تمتزج بذرات التراب وعبير الأرض ، سوف تخصب التربة فتنبت (الفنان) من جديد ·· ســوف تبعث في نبتة مصرية جديدة تشكل الفن وتبدع الأثر · لقد كانت هى ·· هذه البضعة الغالية ، بذرة كامنة انبثقت عنها الأرض الطيبة الموعودة بالنماء ·· بذرة غذتها جذور بعيدة ضاربة في أعماق القدم فلما أينعت كان عطاؤها طيبا كالأرض المصرية ضافيا كالخير ، صافيا كالطهر ، عذبا كالنهر ، غنيا كالخمائل ، رقيقا كالشمائل ·

كان صورة من مصر ــ كنت معه في سقارة كأني في بيت السنارى بين تماثيله ·· وكنت أراه في بيت السنارى فتنقلني هذه التماثيل عينها الى سقارة بآياتها المنتشرة على الرمال وفي قدس المعابد ·· هنا وهناك نفحة من مصر وقبس من روحها تجذب كالشعاع وينبسط كالشراع يتحدث حديث النبات فيه الورق والزهر والثمر ·· الشمس والنيل والأرض ·· المعالم الرئيسية التى استوحتها حضارتنا بفنونهــا وآدابهــا وعقائدها وحكمتها ·· على طول التاريخ ·

كان مثالا للمصرى الصابر الصامد الذى يستعلى على الألم بالعمل ويسخر من الزيوف بالخلق الفنى ·· انه هو وحده بعد الله ، الباقى ·· وانه لكذلك ·

قلما سمعته يتكلم وان كان حديثــه في آثاره يمــلأ على جوانب نفسى ، فأنا أسمعه من تمثال نغمة ، وأراه على تمثال آخر ، بسمة فيه نور وأمل وطيبة وايمان وحنان كبسمة « موت » زوجة آمون أو بسمة الفاتنة « نفرتارى » في (أبو سمبل) ·

كان وديعا متواضعا وكان منجم عطاء ·· أنه كسنابل القمح فى حقولنا الخضر تبدو للعين صغيرة نحيلة وفي كل سنبلة مائة حبة ·

زرته بعد وفاته لاحيث يوجد الجسم منه بل حيث توجد الروح ·· لم أزره فى قبره فالقبور تملأ الرحب كما يقول أبو العلاء ولكنى زرته فى محياه ·· عشت بين تماثيله بعض يوم ·· هناك حيث تجتمع أعمــاله الفنية فى بيت الســـنارى ·· فى قبالة الباب تمثال من القيم المصرية

الأصيلة : العطاء والنبات والديمومة ·· العطاء السلامى الذى يتمثل فى الزهور التى حماها الفنان تمثالا آخـر لمصرية تقف بأول الممر الخارجى لبيت السنارى · عطاء يستند فى كل تماثيله الى الصدر · وعلى موضع القلب كأنه يؤكد عمق النفس المصرية واخلاصها فى البذل والسماح ·

هذا الممر أو القبو يمثل الفترات الحالكة التى مرت بها مصر والتى خرجت منها أشد قدرة على صنع الحياة المشرقة البسامة بما أضافت اليها التجربة القاسية ، وأضفت من صفات الصلابة والمقاومة والاصرار ·

هذه الفترات الحالكة يمثلها الفنان أنور أو يمثلها تمثاله القائم عند نهاية القبو بأخطبوط وتنين يقابلهما من الجانب الآخر فى نفس التمثال مصرية مجنحة تبغى الخلاص وتعقد العزم عليه ·· انه استشراف مصر الى الخلاص ثم العمـل الذى يرمز اليه حورس يمتطى جوادا ·· بداية الانطلاق ·

بداية الانطلاق فى التمثال وبداية الانطلاق فى المكان نفسه فبعد القبو فناء واسع عليه سماء زراعية وشمس ساطعة وتخيل أخضر ·· صفاء وضياء وخضرة تخصب النفس وتعمرها بالأمل ·

يحمل فن أنور معانى عميقة موحية ·· معانى انسانيـة تتجلى فى تمثال الأمهات المحتجات على الغارات ، الضـارعات الى السـماء بيـد والحانيات على الصغار باليد الأخرى تجمعهم الى الصدر حيث يستشعرون الأمان والدفء على الرغم من قصف الرعود ·

معانى انسانية غامرة يعكسها تمثال ايزيس المطاردة تحمل حوريس، والاعتزاز بالذات تفسره الرأس المرفوعة أبدا ، فى فنه ·

معانى انسانية وصل اليها الانسان المصري الذي جعله الفنان أنور في أحد تماثيله يستبطن داخله ويعرف نفسه ·

معانى انسانية غامرة يعكسها تمثل ايزيس المطاردة تحمل حوريس ، هذا التمثال الذى حشد له أنور أبوته كلها فانسكبت العواطف الجياشة والمشاعر الدافقة فى وجه ايزيس الواثق الخائف معا انها آلهة فى عين مصر القديمة ولكنها أم فلم لا تخاف ؟ مهما بلغت قوتها · انه خوف الحنان لا الضعف ·· خوف الرحمة التى تطل من عينيها اللتين تفتشان الفضاء ، ويدها المترفقة ·· فى لفتتها ·· فى كيانها المزلزل الثابت معـا ·· أحاسيس لا يعرفها الا أب متحنن ، ولا يبرزها الا فنان قادر يصل الى تكييف التمثال وتطويع الانحناءات واللفتـات بحيث ترى ايزيس فى

انعطافها .. معاطف الطريق من كل ناحية .. اتسمت نظرتها لتجمع الوجود كله فى نظرة تؤمنها على كنزها النفيس .. واذ بسط الفنان ذراع حورس على صدرها وجعل كفه تتداخل فى كتفها أسلمه بكل الدفء المنبعث من الصدر الرخام الى نوم عميق .

نام حورس وظلت ايزيس ساهرة . أمومة ..

والأب الفنان فى أنور صور الأمومة صورا شتى فى تماثيل متنوعة .. صورها حتى فى الحيوان فالنمرة المفترسة رقت ولانت عندما تداخل فيها صغارها فخفضت جسمها كله للصغار تتسلقه وتلصق وجوهها فيه .

صور أنور الأمومة فى كل بهائها وروعتها وعزها حين جعل من جلسة الأم وحجرها شبه كرسى مكين وأجلس عليه الطفل فى رضا وسعادة وتمكن .. انه عرش كبير يجلس عليه ملك صغير .

صور الأمومة فى انحناءة تجمع فيها أم كيانها كله ليطل فى لهفة على الصغير السعيد الذى أغراه الحب الخالد بالعبث والدلال فتشبث بأمه فى وثوق المعشوق الذى لايرد له رجاء .

صور الأم على أعتاب الستين وقد فرغ الزمن من حفر أخاديده على الوجه الناضر أو الذى كان ناضرا وتسامت رأسها ، ابنتها البكر ، فى وجهها الصبيح وعد بمشاركتها المسئولية الضخمة .

لقد طوف أنور بالقصص القديم فى تمثال « آدم وحواء » وفى تمثال يوسف يفزع من الخطيئة ويرتفع عليها .

فى فن أنور كالفن الفرعونى : الأجسام المشرعة ، والتقاء الفكر والقوة والقدرة على التحليق بالتقاء الرأس الانسانى بجسم الأسد وجناح النسر . فى فن أنور كالفن الفرعونى مولد الشروق وأفراح الحياة .

فن أنور كالفن الفرعونى الحجر فيه يتحول الى نور ورفيف .

انه كالفن الفرعونى ، الخطوط فيه بسيطة منسابة فى رقة ودماثة معا ، الرخام فى يده لدن رخص فيه ليونه ونعومة ويشع الدفء والابتسام .. والحجر فى يده قادر — من قدرته .. على التثنى واعطاء الظل والنور .

فن أنور كالفن الفرعونى فيه الاتصال الحميم بالأشياء والتعاطف معها فأنت تحس احساسا غريبا عميقا بتعاطفه مع المحارة فى دائرية الخطوط وانسكابها .. حتى السمكة من صنعه تحس تعاطفها مع الطبق الذى تحل فيه .

انه كالفن الفرعونى ، فيه حلم مصر بالسماء والنجوم والشفافية التى تتخلص من كثافة المادة وثقل التراب ·· هل كان هو نفسه يحلم بهذا كله فى آخر تماثيله الذى سماه « الخلاص » ·

لشد ما يأسرنى هذا التمثال · لقد تخلص أنور كما أراد من رق المادة وغدا روحا تحوم فى بيت السنارى الذى شهد كفاحه مع الصخر وانتصاره عليه ·· روحا وهاجة تؤنس المكان وتضيف اليه قيمة جديدة ·

لو قيست الأعمار بالعرض فقد ناهز الثمانين ·· ان كل تمثال من خلقه يعدل حيوات كاملة تعبر الدنيا عبورا ولو عمرت فيها ·

لقد عاش أنور فى الحياة ·· وبعد الحياة ، فالخالدون أربعة : شاعر سار بيته ، ورسام ضحك زيته ، وموسيقى بكى وتره ، ومثال نطق حجره · وقد نطق حجره وضحك وبكى ··

سلام على روحه الوادعة فى محراب الفن · وسلام عليه فى الخالدين ·

من جديد ... « الشاطر حسن »

حين يتحول الانسان الى قطع شطرنج ...

يجرح الفن ويحس الفنان شرخا فى داخله ..

من البداية أبدا .

كان صغيرا يحلم بالتشكيل والتلوين .

وشب وكبر الحلم أو تجدد .

كان هدفه أن يتزوج كلية الفنون ... كانت الجميلة عروس خياله .

وحين انتهى من دراسة الثانوية سنة ٦٧ وقف فى الطابور وكم من طوابير فى حياتنا .

وقف واجفا أمام مكتب التنسيق ... ثم ... ارتطم سمعه بكلمة « لا » . ان مجموعه يفضى به الى معهد التعاون .

ومكتب التنسيق كالقدر لا يرد له قول أو عمل حتى ولو كان الطالب « المجلى » فى امتحان القدرات .

دخل معهد التعاون بجسمه وظل الفن وكليته حلمه وهواه .

كان جرح وطنه فى ذلك العام تسرب الى قلبه فنزف بدوره ..

ولم ينس .

لقد أصبح فنانا ... وله عطاء ... وله معرض .

ولكن ما تكاد تسأله ، قصته ، حتى يستيقظ حزنه القديم :

ــ ان لوحاتك تقول ... قف أمامها ... اسمعها ... أليس فيها عـــزاء .

تقول ولكنى وصلت من طريق أطول ... الدراسة تكشف القواعد التى يصل اليها الفنان بجهده الفردى بعناء شديد يجعل البلوغ عندى بالعرق بعد طول لغوب وكروب .

ــ ولكن قد يكون الذ مذاقا ... مذاق فيه طعم الاصرار وطاقة الاستمرار ونحن شعب ، الطموح طبع فيه .. اذا أراد لا تعجزه الوسيلة .

لقد صنعنا أكبر الحضارات بأبسط الوسائل . وجاءت اليابان ومن ورائها تكنولوجيا العصر لتبنى هرما على مثال الهرم الأكبر فلم تصل

الى هرم يشانيه أو حتى يدانيه . ان هرمنا « عمارة » عامرة بعلوم شتى وفنون عدة لا بناء فحسب .

ونظرت دولة العلم الحديث الى قماءة من الحجر الى جوار صرح الخلود فخجلت ونقضت غزلها أنكاثا .

هدمت الهرم المقلد وعادت القهقرى .

وابتسم الزمن .

أبدأ من جديد .

عن الفنان حسن غنيم أتحدث .. واليه أتحدث :

— هل تعرف قصتنا الشعبية ؟ قصة الشاطر حسن ؟ لقد جعل القاص « الحبيبة » دونها بحور وجبال وأهوال فأخذ الشاطر حسن يتخطى العقبات ويتحدى المعوقات حتى وصل الى ست الحسن والجمال ... أتراك ، الشاطر حسن ، الجديد ؟

— ولكنى لم أدخل كلية الفنون .

— ولكنها هى دخلتك موهبة خلاقة .

مررت بمعرضه ... خطوطه شفافة مجنحة فيها تحليق وفيها أبعاد مترامية وحدة الخرط هى الخط البارز ... ولهذا لا ينطلق الخط خالصا فان تقسيمات الخرط المتقاربة تجعل الخط يحمل معاناة ... بينما الخط المصرى كما نعهده فى المسلة ثم المئذنة هو الخط الصاعد الصامد حتى حين استدار فى القباب ، انما كان فى طريقه الى قمة من جديد .

صورة حافلة بالرؤى الاسلامية من مآذن وقباب وحشوات فن المشربية الذى يغدو فيه الخشب أرواحا متحابة عاشقة . وابن البلد يقول عن صانع المشربية يعشق الخشب يعبر بهذا عن التداخل التشكيلى بلفظ فيه حروف العشق ومعناه .

ولكن المآذن ، أيضا ، فى سموقها خطوطها ليست منسابة ولكنها ادوار متقاربة من التشكيل فيها مجاهدة .. هل يترجم عن نفسه . يبدو أنه تعب كثيرا .

وفى المعرض ، صورة ، لو رأيتها فى أى مكان من الأرض ذات الطول والعرض لقلت أن صاحب هذه اللوحة «مصرى» ففى اللوحة روح الشجرة .. أو روح النخلة على التحديد ... نخلة تفتح شواشيها على هيئة زهرة اللوتس والى اليمين « هلال » . ومصر منذ القدم تعشق الهلال من أجل سيناء واسمها هلال استدار بدرا كاملا ... فسيناء من سين.

اله القمر ولهذا عشقت مصر الخط الدائرى فى الزى والحلى . وجاء الاسلام حمل هلاله فوجد فى مصر محاب كثيرة ولقاءات لروحه ... وجد الهلال والقمر . والمصرى المسلم يحب الهلال مرتين مرة بحس بعيد من مصر القديمة ومرة بحس قريب من الاسلام .

الفنان حسن غنيم يهوى التعشيق بالخط والمادة هوى بنه فى الخشب.

اللوحات عنده متصوفة تفرد عليها القباب السابحة فى الألوان الفضبة مظللة من الرضوان .

انى الى فن « الأدب » أنتمى ولكنى أكتب عن معرضه التشكيلى لأنى أحب الطموح الحقيقى ... الطموح الذى يقتحم العقبة لا طموح الأزرار الذى يطمع أصحابه فيما ليس لهم فيحضر على نغمة « شبيك لبيك » ثم يتغنى الأتباع بالطموح اللبلابى الذى يتسلق « الجدران » .

وبعد ...

ليس معرض الفنان حسن غنيم وحده .

فقد لحقت بمعرض الفنان الصعيدى « مبروك » فى آخر لحظة ولمحت الأعمال الباقية قبل رفعها ، وتعرفت الى القسمات والوجوه .. فى الحقيقة انى أعرفها فعلى هذه الأرض ولدت فى صعيد مصر ... والفنان مبروك . قال كلمة الفن فيه ، « أستاذ » ... أعنى الفنان حسين بيكار فأوفى .

وزرت معرض الفنان عبد السلام عيد فحضرت حفل زواج بين المادة واللون .. بين القديم والجديد ... بين الخيال والواقع ... بين التقابل والتضاد ... بين الأشياء الصغيرة والأشياء الكبيرة بين الفنان والحياة .

يتحدثون عن اختناقات كثيرة فى الحياة اليومية المصرية ومع هذا يبدع الانسان المصرى الفن ، ويكتب الأدب ، و « ينظر » العلم ، ويصنع الحيـاة .

انها مصر .

السجينى الفنان

نفاسة الفن أنه موهبة .

وقيمة الموهبة أنها لا تنتحل ولا تزيف ولا يختلف عليها اثنان من حيث هى موهبة . قد تختلف مع الفنان فى الأسلوب أو الفكرة ولكنه ، فنانا ، لا يتغير فى عينك أو ضميرك .

وهنا ترتفع الموهبة درجات فوق المناصب من أى حجم وطبقة . وهنا أيضا ترتفع الموهبة فوق الشهادات وفوق الألقاب لأن هذه كلها يجوز فيها المنح والمنع والادعاء والاستجداء بل البيع والشراء أما الموهبة فهى عطية الله وحده يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

السجينى الآن الى جوار ربه ، ويسعى الناس من تلقاء أنفسهم الى معرضه تكريما له لأنه كرمهم يوم أضاف الى تراثهم عملا يبقى بل تبرع نفر منهم لتخليد ذكراه تعبيرا عن مكان الفنان من نفوس مواطنيه ولا يفعل الناس هذا حبا وكرامة ، مع غير الفنان الصادق المعطاء .

طفت بمعرض السجينى أكثر من مرة . ويختزن وجدانى أشياء وأشياء ...

زهرة اللوتس ، عين حورس ، أشعة الشمس ، القرية بناء متكامل منضام فى وحدة صنعها الحب قبل الطوب ...

الفلاح يسحق الشر كما طعن حورس التنين ..

الحمامة فى مختلف التشكيلات والأحجام .

النخلة المصرية كيان صاعد يشرئب الى الأفق .

الموج ـ الهرم ـ أم كلثوم ـ النجوم ـ الهلال ـ الزهور ـ تمثال العبور ورغبة مصر الدائمة والدائبة فى الفكاك من الأسر ثم الانطلاق ... حلم مصر بالمخلص .

احساس مصر منذ القدم بالكون الشامل فالاناء له وجه . والمرآة شجرة .

دخل وجدانى من معرض السجينى هذا كله وأحسست أن نسيج شخصيته ذاتها من كيان هذا البلد أرضه وسمائه وتاريخه وعطائه موصولا وواصلا .. مذخورا ونائلا .

فنه ذو أعماق لأنه يستقى من معين فياض دافق · وهو فى فنه مشغول بهموم هذا البلد ففى سنة ١٩٦٧ رسم الجميلة الحبيبة عروسة فى حفل زينتها غير انها تمشى على عكازين فى اشارة الى الشرخ الذى حدث فى نفس الانسان المصرى ·· الى الكسر حين تصدع القلب المصرى فى أعقاب الهزيمة فمال الشموخ وتحايل الرضوخ على عكازين ·

عالم ثرى سرى عالم السجينى فيه الخط واللون والحفر والنحت والصورة تؤلف بينها وتتآلف أصابع خبرتها موروثة ومتطورة منذ العصر الحجرى الحديث الى اليوم ·

خبرة متنوعة وجامعة ·· عميقة ومبدعة ·· راوية ومترعة ··· ما أبدعه عالم السجينى ما أبدعه ·

فى فن السجينى حب مصر التقليدى للولد والأسرة يلف الحياة بالبركة ويجعلها خليقة لا أن تعاش فقط بل أن نحياها ·· وليس من عاش كمن يحيا ·

الأمومة والأنثى فى فن السجينى دليل صدق فالفنان الحقيقى فى احتضانه للفكرة أو الرؤية الفنية ، أم رءوم ·

وفى فن السجينى الايمان عريقا جامعا ··· فالكتلة هياكل مصغرة ·· وبرج الكنيسة والمئذنة مسلات مسيحية واسلامية يصعد فيها الخط الطموح الى فوق فى شوق وتوق ·

ايمان عرفته مصر قبل الأديان ·

وسيظل يعمر قلبها الى آخر الزمان ·

والكتلة عند السجينى حية نابضة تتنوع فى وحدة من خلال الامتلاء والفراغ · ويتلقى المشاهد منها ما تمليه ··· ويسمع منها ما توحيه نداءات رقائق المعانى من كيان صلب متماسك ومكين ·

والصخر اذا خلع الفنان عليه رؤاه خف وشف وكاد يبين ·

والشجرة عند السجينى كلمة طيبة تمد على الجسم والروح وارفا من ظلال ، وتعلن بالورق والزهر والثمر ، انتماءها المصرى الى وادى النبات ·

وتتخطر فى فن السجينى حاملات القرابين تتهادى من مصر القديمة لتتجسد عنده فى فتاة الخزف ·

عطاء موصول تتوارثه مصر الحديثة عن مصر القديمة فى هيئات شتى ·

السجينى متمسك بالجذر واع بميراثه الحضارى بأبعاده وأعماقه حتى حين يسور الخط فى يده ويغضب فاذا بالغضب قمة الحب حين يتجسد غيرة ولهفة على المحبوب ٠

ومن الألم آيات حتى الطين حين تمسه النار يتحول الى خزف جميل ٠

ولا ينسى السجينى المركب طفلة النيل المدللة منذ القدم رمز الانسياب والعذوبة فى الشخصية المصرية ٠

فن السجينى فيه نقاء هندسى محسوب ٠

ويخفق اللون حيث ينتقل من درجة الى درجة وهو فى حالاته كلها يوصل ما يريد الفنان أن يقول ٠٠٠ ففى زهوه فرحة النور وهو فى دكنته كالسحاب فى السماء المصرية لا يحجب صفاءها ، بل يؤكده ٠

فن ممتلئ كالشفاه المصرية ٠ وفيه أيضا من نجل العيون المصرية بريق أخاذ نفاذ ٠

يزاوج السجينى بين الماضى والحاضر فيعكس التوافق فى الربط ، الوفاق فى اللوحات بين الفرح والشجى فى نغمة آسرة ٠

مشاعر يسكبها الفنان فى لمحة البصر أو رفة العطر ، أو خفة الجناح وكان العمل الفنى حدقة ملؤها الحب والحنان ٠

وأحيانا يسيطر السجينى على الفراغ بالكتابة أشكالا ٠

وعشق مصر للكتابة تشهد به الالهة سشات التى زوجوها من اله الحكمة فى احساس كبير وقرير بما بين الكتابة والحكمة من رباط ووفاق وتلاق ٠

وكالفن المصرى يلوح السجينى أحيانا بالنور والظلال ٠٠ ويحرك الكتلة فى مكانها بالتلاقى والانثناء فى الخطوط صاعدة طوافه أو مستديرة ضمانة ٠ وفى الخط المستدير احتضان وحنان ٠

حب لمصر يعبر عنه بالخط والشكل واللون ، وحين يعمق الصمت اللوحات ستبين المعانى بابلغ من الكلام ٠

كم فى الفن من روعة وورع ٠ ومن الورع الدقة والرقة والتشكيل باب دقيق وعميق ٠

ومن الورع مشاعر الوجدان نقية صافية كدعاء أم او ابتهالات عابد ٠

هذا هو السجينى الحر الأداء فى وفاء بالمعانى والقيم ٠

كلمة تحية من مصرية لا تمسك الريشة الملونة ولكن تعانق القلم ... تحية لفنان رمى يوما ، تماثيله فى النيل ، وهى بضعة منه من ألم واحساس بالغبن ولعله كان يقول مع شوقى :

مما يحملنا الهوى لك أفرخ   سنطير عنها وهى عندك ترزق

فاحفظ ودائعك التى استودعتها   أنت الوفى اذا اؤتمنت الأصدق

ولعل كلية الفنون التطبيقية التى أقامت له معرضا ، كانت وفاء حاضرا بعد غياب وعتاب ٠

حين تغلو الخطوط وتغدو رأيا وفكرا وموقفا

هذه الوقفة لى فى معرض الفنان غالب خاطر ٠

حيث يلتقي المشاهد برؤية فنية فكرية غير مألوفة في المعارض التي يهمها في المقام الأول أن توفر الجمال لرائيه مبتعدة ، في الغالب ، عن دنيا الواقع بصراعاته الى عالم مفوف يغذى فيه الخيال ، أشواق الانسان الى الأفضل ٠

فى معرض الفنان غالب خاطر فكرة صريحة أسقطت النفاق ٠٠ فكرة فيها وضوح وفيها قسوة معا ٠

فيها رمز شفاف ولو أن الشفافية درجات ولكنها فى أقصى حالاتها غير ضبابية وغير معتمة ٠

صور فيها التوازن البادى فى توزيع المربعات والمثلثات التى تحتضن التشكيل الفنى كما فى صورة (الكورال) وفى صورة (الاجتماع) ٠

صور فيها تلوين بالنور والظلال ٠

وفيها عمل مشغول صعب لأن صاحبه احتشد له وسكب فيه من ذاته ٠ فهو لا يستسهل ولا يتخفف من صعوبة ومعاناة ٠ له رغبة حميمة فى أن يقول ٠٠ وعنده ما يقول لأنه صاحب مبدأ يستهدف صالح أمته التى تحس ريشته نبضها فى الفرح والجرح ٠

وليس فى الصور شوشرة بالألوان للاستهواء ، بل هدوء حزين ٠٠ ذلك الحزن النبيل الذى لا يذرف الدموع من كبرياء ٠٠ انـه ليس فى اللوحات خروم ٠ فالفنان فيها يلغى الفراغ ويجعله جزءا من المساحة حتى لا تتشتت العين بل تتجمع الرؤية اذ تقابل العمل الفنى « كلا متكاملا » ٠

وفى اللوحات « ترديد » تهيم به الروح المصرية من أثر التوازى والتلاقى فى الطبيعة المصرية ونيلها ذى الشاطئين والسهلين والصحراوين ونشرع مصر فى التقسيم ويسرى التنغيم فتغنى القبـاب والايـوانات بالنقوش والنمنمة ويحلو الشدو على الترديد والتجويد ٠ وتدخل مصر موسيقى المعبد الى الكنيسة المصرية وتعتنق الاسلام فتجود القرآن وتلحن الأذان ٠

وحين يعشق الفنان المصرى الترديد فهو ابن بيئته ٠ فقط ، يرفض امتهان الانسان ٠٠ انه مشغول بمصر التى تكيف أفكاره ولوحاته ٠٠

فمن وجى مصر اللون البنى الغالب على الصور ··· البنى الأسمر مع الفاتح منه ··· المستوحى من لون طمى النيل : ولعل الفنان مشحون باحساس الفقد لهذا الطمى ··· من يدرى ·

ومن مصر السخرية المرورة المبثوثة فى صوره ·· والفكاهة المنداة بالدموع لا تريد أن تظهر ولا هى قادرة على الاحتباس أكثر من هذا ·

ومن مصر فى اللوحات الذكاء العارف وهو يتغابى ·· وفيه من مصر الضحك التنفيسى ، وفيه منها الصدق المنعكس فى الاحساس بالناس وطرح بمشاكلهم من مواصلات وتموين ، وجمعيات تراق على أبوابها آدمية الانسان ، وضغوط بكل المقاييس ·

هذه صورة عامة للمعرض اقف بعدها عند بعض اللوحات بتفصيل · ومن هذه اللوحات :

لوحة الحمير أو « سمها ما شئت » كما يطلق عليها الفنان· فيها خطوط بارزة وخطوط مختفية ·

فالحمير تقود الرجل السائر على يديه ولكن الفنان جعل الرجل يقطع فى الصورة خط الحمير فجأة وكأنه تمرد عليها ·

هل يعنى الفنان أن الانسان حتى فى أسوأ حالاته ، أهم من الحمير ؟

هل يعنى أن الحمير الى زوال ؟

علامات استفهام كثيرة ، تكتنف الفكرة ولكنها لا تطمسها بل تشغل الذهن بها ·

ولهذا تستمر الرؤية حتى بعد أن ينتهى العرض بخروج المشاهد لأن شيئا غير قليل دخل (جواه) ·

لوحة الجماجم الصامتة :

الجماجم الغرقى فى الدم بعد أن عاشت فى سواد ·

ومع أن الجماجم لا تتكلم الا ان الفنان امعانا فى المرارة رسم الجمجمة الكبيرة تحكمها (قمطة حديد) خوفا من أن ينطق الأموات ·

ان الطغاة يخافون الكلام ويخافون الصمت أيضا ولو كان صمت القبور ·

ولكن الجمجمة الكبيرة فى الصورة على شكل صخرة ، انه عناد

الانسان المصرى حين يغضب ٠٠٠ فى هذه الحال يشكل صخرة على الأعداء ولو زهقت روحه بعد أن زهق هو ٠

ان مصر قد تشقى ولكن تشفى ٠

قد تمرض ولكن لا تموت ٠

لوحة الروح الرياضية :

فى هذه اللوحة الكرات تشغل ٣/٤ ثلاثة أرباع مساحة الصورة فى خضرة ونور ٠٠ كما يجب ان تكون الرياضة بينما رسم المتعصبين فى أسفل الصورة أى تحت الأرض حيث القتام والرغام ٠ رسم وجوههم معروقة متجهمة متحفزة متنافرة يتطاير منها الشرر ٠ ورسم فى الرؤوس شباكا معقدة تلقى ظلالا على الكرات القريبة ٠ أما الكرات البعيدة عن هذه الوجوه فهى طليقة فى الخضرة والنور ٠ ليت هؤلاء المتعصبين يلعبون رياضة حقيقية تفيد أجسامهم ــ التى بالغ الفنان فى نحولها عن عمد ــ وأرواحهم ٠٠٠ فتصح الأجسام وتسمو الأفكار بدلا من التعصب الأحمق ٠

لوحة الاجتماع :

وفيها رسم الفنان خروفا واثنتى عشرة دجاجة ٠٠٠ لم يحدد الفنان جسم الخروف الا الخط الأعلى منه مما يلى الرأس ٠ وبعد هذا انساح الخروف فى اللوحة بلا حدود ، وانذاح الخط بغير تحديد ٠٠ رمزا لهيمنته الكاملة على الدجاج القابع لا يتحرك ٠٠ لا ينطق ٠٠ لا يفكر ٠٠ لقد رسم الفنان الدجاج السمين (ذكاء المرء محسوب عليه) ٠

واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

الدجاج السمين كل دجاجة محددة الجسم والمكان أيضا ٠٠ لا حراك ٠٠ لا كلام ٠٠ انها فى الاجتماع ديكور فقط ٠

ويلاحظ المشاهد اتجاه نظرات الدجاج الى اليمين لأن نظرة الخروف اليمين ٠

أحيانا يتفوق الدجاج على القرود فى التقليد المضحك ٠

ة الرفق بالانسان :

وقد كتبت مقالا بهذا العنوان لم ينشر ٠

وفى المعرض رأيت مقالى فى صورة تشكيلية بالاسم نفسه ٠

تصور هذه اللوحة الشباب الذى يجب أن نعنى به . الشباب المصرى الأسمر تدوسه أقدام ملوثة غاصت فى الطين والوحل .

وفى الجانب الأعلى فى يمين الصورة ، صورة طابع تذكارى للحصان .. انه رمز الى ترفق القساة حين يتظاهرون بتكريم الحيوان وهم يستبيحون الانسان .

الفنان في هذه الصورة ينادى وهو يتمزق : الرفق بالانسان يا من تدللون الحصان والكلب « والنسناس » .. الخ .

« الشيوعية » :

صور الفنان ، الشيوعية ، فى هذه الصورة ، مكبسا وحشيا بضغط على الجموع .

الصورة من فوق زرقاء ، رمزا الى ادعاء الشيوعية ، «الرومانتيكية» و «السماوية» ... بينما الصورة فى الجزء الأسفل منها ، فيها الجموع مرسومة باللون البنى ، والمكبس الوحشى فى طريقه اليها . كما رسم الفنان ، الخطباء ، فى هذه الصورة فى هيئة حمير تنهق ولا تطرب .

لوحة « معادلة جبرية » :

لوحة فيها الانسان مطبق الفم .. وجهه كله بين فكى (قمطه حديد) ، بينما الحمير تفتح أفواهها ملء سعتها وتغنى ... أو نقول دا تريد .

لوحة « المواصلات » :

يتوسط هذه اللوحة ، زجاج شباك أنوبيس قد ارتسمت عليه أطراف أصابع المعذبين من وقوف ، أو الكف كاملة ، أو وجه التصق بالزجاج من التدافع .

الزجاج بحر متلاطم .

وفى أعلى اللوحة ، تلاطم آخر من أيدى الممسكين بعلاقات سقف الأوتوبيس يمسك بعضهم من الذعر بعضا كما يقول شوقى فى أعمدة أنس الوجود .

فى الصورة الأيدى والأصابع متشابكة متداخلة يكاد يبريها الاحتكاك .

أسفل اللوحة الأقدام يطحن بعضها بعضا ٠

وفى الصورة فتحة علبة سردين ٠

ان الأتوبيس المصرى علبة سردين كبيرة ٠

لوحة « الكورال » :

ليس كورالا واحدا ٠

فى هذه اللوحة مجموعة حمير منتظمة أى تفتح أفواهها فى وقت واحد تقول شيئا واحدا ٠

ومجموعة من الأيدى تستعد للتصفيق معا ٠

ومجموعة من الآذان ٠٠٠ آذان فقط ، فقد ألغى الفنان الوجه بجوارحه جميعا لأنها ليس لها مكان أو وظيفة فى الكورال ٠ اكتفى بالآذان المفروض عليها السماع رضيت أم أبت ٠

وكما ألغى أرجل الدجاج حتى لا تتحرك فى لوحة الاجتماع ألغى باقى الجوارح وقصرها على فتحة الأذن فى لوحة الكورال ٠

فى هذه اللوحة الحمير وحدها تتمتع بمساحة كبيرة ٠

بينما السميعة والهتيفة آلات تدبيح وتهريج ٠٠ صغيرة الحجم لأنها صغيرة الدور ٠

لوحة « الروتين الحكومى » :

نحلة بيضاء تكز على يد تعبث بها ٠

النحلة ترمز الى الانسان الذى يعصف به دوار الدوران ٠

وفى اللوحة حمار يتربع اللوحة ٠

وفى شمال اللوحة عقد انتشرت وألقت ثقلها على كل شىء حتى على اليد العابثة ، وعلى الحمار ٠

وفى الصورة أيد أخرى صغيرة تعطى أوامر الروتين بحركة الأصابع كما يحدث فى الحياة ٠

وفى الصورة ورق الدمغة يشكل جدارا سميكا وقد تداخلت بينها العقد اياها ٠

وفى الصورة أختام مصالح الدولة ٠

ويشكل خلفية الصورة اللون الاسود على شبكل صليب وكأن أمنية الفنان أن يصلب الروتين ·

لوحة « لماذا الحروب » :

فى النصف الأعلى من الصورة ·

أقدام من يمين ويسار ·

أقدام بيضاء بريئة ·

تلتقى فى وسط الصورة أو معترك الحياة ·

وتجرى الدماء ·

وتتلوث الأقدام ·

وتترك بصماتها الحمراء ·

وفى وسط الصورة تتخلف الجماجم ·· جماجم كثيرة تجمعها الفنان فى تشكيل على شكل علامة استفهام تعكس سؤال أصحابها لماذا القتل ؟ لماذا قتلتمونا ؟ لماذا أهدرتم الحياة ؟

ويأتى الجواب فى أعلى الصورة ··· أيد مضروبة وكأنها مدافع بعضها الى بعض كل منها يقول للآخر : « أنت السبب »

ليس فى الصورة علامة استفهام واحدة ·

ان كل كف وكل جمجمة تقول أين العدل ؟ أين العقل ؟ أين الانسانية ؟ أين الانسان ؟ ·

وأخيرا وقفت طويلا عند تشكيل فنى من نوع آخر

ديك من حديد المسلح ·

هيكل

داخل فى التشكيل نجمة وشمس وهلال ·

انه يودع القمر ويستقبل الشمس ·

ان الديك ليس للأكل يا أصحاب البطون ·

ان الديك صديق القمر

رفيق القمر

بشير الصباح

ومن البشر أصدقاء للشر

يزيفون الارادة
يذبحون الخضرة
يطوحون الانسان
يطيحون بالأمان
يسفحون الأيام
ثم يصلون

لوحة « العناوين » :

تردد هذه اللوحة بالحروف والخطوط ما تنشره الصحف من شعارات مثل (علقوا الأجراس فى رقاب القطط السمان) ، (القنبلة الذرية والقنبلة النووية) ، (وجبة شعبية بأسعار رخيصة) ، (الرغيف الى أين) ... الخ .

فى اللوحة خطافات لحم خالية .. وأيدى تتلهب ونتلقف من خطاف جانبى ، لا اللحم بل عظمة بها بقايا .

الصحف فى اللوحة ، جبل حجارة لا ينتهى .

الشعارات ترديد باللون .

غالية الخطوط والألوان حين « تقول » .

غالية الخطوط والألوان حين « تتنول » .

* * *

حين يرتفع الفنان الى قيمة وقمة

حين يكتب الكاتب عن الفنان صاحب العطاء تكون الكتابة تحية لشعب بقيمه هو ··· بقدرته على الابداع ··· بطاقته فى الامتاع ··· بتراثه من خلال الخالدين ··· والخالدون أربعة كما يقول شوقى ـ أكررها لحضورها الدائم ·

شاعر سار بيته ، ورسام ضحك زيته ، ونحات نطق حجره ، وموسيقى بكى وتره ·

والسنباطى فنان بكى وتره ، وضحك ، وشدا ، وحلق وخلق ، ووفى وأوفى ···

ولا يكون الفنان هذا كله من فراغ ··· لقد كان السنباطى يفرض على نفسه تهجد الفنان الأصيل فى محراب الفن ·

كان يعلم نفسه ·· ويكمل نفسه ·· كان يقرأ كثيرا ··· وكان يسمع كثيرا ·· وكان يتأمل كثيرا ··· وكان ينصت كثيرا وطويلا ·

كان السنباطى اذا لحن ، يتوقف طويلا أمام المعنى واللفظ ثم يقف طويلا أمام القواميس ليتحرى الدقة فى الفهم ، البعد الحقيقى للحرف ثم بعد هذا كله يسأل الشاعر صاحب الكلمات يستوثق ويحقق ويدقق من فرط احساسه بالمسئولية ، وفرط احساسه بكرامة الفنان ، وحرمة الفن ·

لقد تعودنا حين نعدد الفنون أن نقول انها : فن الأدب والرسم والنحت والتصوير والموسيقى ··· وننسى فنا دقيقا ورقيقا ··· ننسى فن الرؤية ··· فن التذوق ··· فن البصيرة ··· فن استماع قلبى صاف هو أبلغ من الكلمات ··· وحين يتم اللقاء بين المتلقى والعمل الفنى ··· هنا تسقط الحواجز وتنسكب سيالات النفس فى وجدان الرائى الفنان فتشرق الصورة ويستعلن المضمر ·

التذوق بهذا المعنى هو تلقى رقائق المعانى ومصاحبتها الى أن تطرح فى النفس ، وردا ··· كما وصفت فن الرؤية ·

وهذا ما كان يفعله رياض السنباطى مع فن الكلمة وفن الموسيقى ·

التذوق بهذا المعنى ذوق وشوق وتوق يزكى النفس وقد أفلح من زكاها ·

وقد زكى السنباطى نفسه وأثراها وارتفع بها وارتفعت به ٠

كان متذوقا ٠٠٠ وكان خالقا للفن غير مقتبس أو ملتبس ٠

ان الرؤية الى أعماق الأعماق تفتح الطريق الى النور والجلوة ٠ وقد كان السنباطى يملك هذه الرؤية ٠

كان يلوذ بالصمت وفى خلاله يتذوق الفن أو يخلق الفن فى سكون واستغراق يسمع فيه نداء الكلمة ، وصوت اللون ، ونبض الحركة بل يسمع فيه صوت نفسه الآتى من داخله والذى يغطيه صخب الكلام وضجيج الحيـاة ٠

وحسبوه بهذه الصفة متكبرا ٠٠ وفات هؤلاء الخيط الدقيق بين التكبر والكبرياء ٠

كان السنباطى جميل الصوت ولكنه لم يغن الا قليلا لأنه كان يركز نفسه فى التلحين ويكتف عطاءه فيه فلا يخرج عن هذه القاعدة الا عندما يضع لحنا ثم يكتشف أنه أكبر من الصوت الذى وضع له كما حدث قبيل عام وفاته مع احداهن ٠ وليت الاذاعة تذيع هذه القصيدة بصوت السنباطى لتكون اضافة اليه ٠٠ واضافة الينا ٠

ان الكلمات تحار حين يرتفع الفنان الى قيمه ٠٠٠ وقمة كما كتبت فى ذكراه الأولى ٠

كان السنباطى كريما على نفسه ٠٠٠ كريما على الحياة والناس لم يتهافت على الظهور ٠٠ ولم يتقامأ رثاء الناس أو رياء النفوذ ٠٠ أو ابتغاء المنفعة ٠٠ أو اشتهاء المال ، بل كان متوحدا منصونا عزيزا معتزا ٠٠

من الناس موتى فى حياتهم ٠٠ ومن الموتى أحياء بصفات فيهم صنعت من حياتهم ملحمة ٠٠ ومن سيرتهم مكرمة ٠٠ ومن ذكرهم مشاهد بطولة ٠

« سلوا قلبى » و « النيل » و « مصر تتحدث عن نفسها » ٠٠ هذه الوطنيات التى هزت الجموع فى احتدام المقاومة للاستعمار البريطانى ، كانت قد سبقتها فى الأربعينات من القصائد العاطفية « اذكرينى » ، « سلوا كئوس الطلا » وروائعه التى كان يحن اليها كلما اشتاق الى عوده « رباعيات الخيام » التى وضع لحن المطلع فيها من الراست الميثاغورى و « ميثاغور » مسقط رأس عمر الخيام ٠

ولعل الرباعيات هى البداية الحقيقية لعهد القصـــائد الكلثومية السنباطية ٠

وقد بلغ السنباطى فى تلحين الأغنية الوطنية بعامة ، والقصيدة بخاصة ، غاية النجاح فى الملاءمة بين الحماسة والتطريب دون تزايل أو ترقيص حتى دموع الهجر أو هتفة الجند ·

وقد استطاعت أم كلثوم بأدائها العميق للمعنى واللحن أن تجعل من الأغنية الوطنية ، نشيدا قوميا ·

ويعد صنيع السنباطى فى هذا المجال ، ولعامل الاستمرار ، حدثا جديدا فى تاريخ الغناء المصرى ·

لقد لحنت قبل ذلك قصائد لحنها ملحنون وغناها مغنون ، ولكن الأمر هنا يختلف من حيث : **العدد والموضوع ، والطول ··· والتواصل** ·

لقد تطورت طريقة أداء الأغنية الوطنية على يدى السنباطى وأم كلثوم·

ان السنباطى أستاذ النشيد والوطنيات ·· انه صاحب « نشيد الجامعة » و « نشيد الشباب » ·

كان أكثر الأغانى قبل السنباطى وأم كلثوم ــ اذا استثنينا أغانى سيد درويش ــ يقوم على ترديد جمل موسيقية بقصد التطريب وحده ــ وهكذا يقف الصوت فى ناحية ويقف المعنى بعيدا عنه فى ناحية أخرى ·

ثم جاء السنباطى ومزج بين الصوت والمعنى ، وعبرت أم كلثوم بغير جهد أو مشقة فى تدفق النهر عن أعمق أحلام الشاعر صاحب الكلمات ·· والملحن صاحب النغم ·

ان مجموعة « السنباطى ــ أم كلثوم » على اختلاف ألوانها ظاهرة أدبية موسيقية وهى جزء كبير من تراث هذين العظيمين ·

أما مجموعة « شوقى ــ السنباطى ــ أم كلثوم » الدينية : « سلوا قلبى ــ نهج البردة » ــ « الهمزية ــ عرفات » يضـــاف اليهـــا « حديث الروح » لاقبال و « القلب يعشق كل جميل » لبيرم التونسى فانها سبحات فى سماء الروح ·

سبحات طويلة مستغرقة لها نفحة تضوع من الموضوع واللحن معا ·

لم يقترب لحن ولم يلتق لحن لقاء حميما بصوت العظيمة أم كلثوم كما التقت الحان السنباطى وزكريا حتى حين تعالت الضجة للحن جديد فى حينه كتبت يومها ان أغنية اللحن لم تعطنى شعور « التفرد » فى بابها كما أعطته أغنية « جددت حبك ليه » بل أكاد أقول فى كل كلمة منها ، نغم فريد ، ومعنى عجيب ، وندية فذة بين المعنى واللحن ، وقدرة

في الانتقال بين أجزاء الأغنية تزيدها جمالا وتكاملا ٠٠ وعمقا في فهم الملحن لدوره من استيعاب المعنى « وتمثله وخلق النغم المتكافىء من حيث القدرة والاحساس والصدق والتوهج » ٠

ولم تخدعني الزفة يومئذ بل كنت كلما دقت الطبول ، واختلطت الأصوات ، تردد في سمعي لحن « هجرتك » ـ « أنا لن أعود اليك » ـ « هات ليالي القمر » ـ « فاكر » ـ « غلبت أصالح في روحي » ـ « عودت عيني » ـ « دلبلي احتار » ـ وخل عنك ـ قصيدة « النيل » بلحنها الغني السرى الزاخر العظيم وقصيدة « ولد الهدى » أي الهمزية ٠

وبعد أن أفاق الناس من السكرة ، أدركوا أن المسألة « الطرافة » ولقاء الطرافة يبهر الجموع ويثير الفضول والحماسة معا سواء أكان لقاء تعاون أو تصادق كما حدث بين تاليران ونابليون ، وبين تاليران وفوشيه وبين فولتير وفردريك الأكبر أم حتى لقاء تصادم كالذى يحفظه التاريخ من لقاء أبي جعفر المنصور وأبي مسلم الخراساني ٠

ولا أدل على صدق ما ذهبت اليه ، من تلاحق النقد فيما تلا من أعوام لغير السنباطي حين سعى التقدير اليه في الداخل والخارج الى أن رحل ، وبعد أن رحل ٠

لقد كان أعلامنا سيد درويش ومحمد عثمان وأبو العلا ، أصواتا قيمتها ليست في الجمال ولكن في «الروح» والاحساس الصادق المشحون، والتعبير الأصيل ، ولكن السنباطي كان صوتا ولحنا وأداء وفهما وتعبيرا ٠

وقد تأثر به من جاءوا بعده حتى ذوى الأصالة والعذوبة المصرية كسيد مكاوى ٠

عندما لحن السنباطي قصيدة « الأطلال » وترنمت بها أم كلثوم فارتفع الشعر والصوت واللحن معا الى قمة ، كتبت للسنباطي رسالة استهلت بهذه الجملة :

(لحنك جعل من الأطلال قصرا منيفا على أرض الألحان العربية) ومضيت أحلل اللحن ٠

واهتز السنباطي للرسالة وزارني في بيتي وهو الذى لم يسع الى أحد ٠

وكانت تحيتي له ان أدرت شريط الأطلال مع لحظة دخوله داري ٠٠ وتهلل السنباطي ثم لم يلبث أن انطلق يغني بصوت جميل مع أم كلثوم « الأطلال » ونحن لا تطرف لنا عين نرشف النغم العالي الغالي من الاثنين معا ٠

ويفرح عباد المال بالملايين واعتز ببيت مصرى صغير يضم مكتبة كبيرة فيها عصارة آلاف العقول ، وذوب ألوف القلوب فى كل علم وفن ٠٠ ومكتبة أخرى صوتية فيها تراث أم كلثوم وتراث السنباطى وفيها تراث مصر مختلفا ألوانه ٠

ثروة بلا حدود فى ميزان القيم ٠٠ وعندى

وبعد هذا تجرى أدمعى ٠٠ وهم معى

عيون الليالى الذهبية

أم كلثوم وبيرم وزكريا

أم كلثوم ورامى والسنباطى ٠

ولهذا فرحت عندما فاز الصدق ٠٠ فاز السنباطى بجائزة الدولة التقديرية ٠٠ أحسست بالوفاء ٠٠ شعرت بقيمة معنوية ، لقد شببنا على ألحان السنباطى يجلوها ويرصعها صوت أم كلثوم وزين الليالى ٠٠ ليالى القاهرة والعالم العربى كله ٠

عندما أعلنت النتيجة كانت لحظة عمرها هذه الليالى الغالية ٠٠ لحظة عمرها حشد من السنين ٠

وهكذا يعيش الفنان الأصيل فى وجدان شعبه بالعطاء الصـــادق بالموهبة الحقيقية الطبيعية التى يهبها الله السعداء فليس لأحد عندهم من نعمة تجزى ٠

ودرس آخر يلقنه السنباطى لأدعياء الفن ومنتحلى الكلمة والنغمة كأن الموهبة مما يباع ويشترى أو يخضع للطلب والعرض ٠

ويبتسم العارفون كلما رأوا غرابا يقلد عصفورا وما أبعد الفرق بين الحجلة والرفيف ٠

ودرس ثالث يلقنه فوز السنباطى ٠٠ فالرجل الفنان كما نعرف قليل الكلام ٠٠ قليل الظهور بشخصه ٠٠ وان كانت أعماله تعيش معنا كأبنائنا ٠٠ لأن الحب الحقيقى يسكن القلب لا يفرض أو يقحم اقحاما ٠٠ ولهذا فاز السنباطى لأن موهبته أكبر من الجعجعــة ٠٠ والصـمت ، بالكبرياء ٠ أعلى صوتا من الكلام ٠٠

فاز السنباطى الذى صعد الى القمة مرتقى بعد مرتقى ومرقبا بعد مرقب ٠٠ واعتلاها بالكفاح والعرق والأصالة الفنية الغنية عن الاقتباس أو الانتحال ٠

فاز السنباطى الذى لم يترخص يوما •• ولم ينافق يوما •• ولم يتصاغر يوما •• احترم فنه واحترم نفسه فاحترمته الحياة الفنية واحترمه الناس •• وسوف يحترمه التاريخ يوم يكتب التاريخ كتـابة صـادقة صحيحة •

وتمضى الحياة ويولد الناس •• ويرحلون حتى الدول والعروش تذهب وتجىء كأن لم تكن ويبقى بعد الله ، علم العالم وفن الفنان •

مسرحية الشعراء

حين يعشقون •• وحين يرفضون

غريب حقا وسط وابل النفاق الذى استفحل واستشرى فى ربع القرن الأخير ، والذى استحصد فى السبعينات حتى بات أذى يجرح النفوس ، وقذى يرمد العيون وان خمدت أنفاسه فى أوائل الثمانينات حتى يأتيه الجواب من قرون الاستشعار ، فما لبث الا قليلا حتى رفع عقيرته من جديد يردد الكلام نفسه والكليشهات نفسها •

وسط هذا الغثيان يرتفع صوت الانسان الشاعر رافضا الزيوف •

وقبل أن تنطلق رؤيتى من زاوية الفن الأدبى أحيى فنون التمثيل والاخراج والصوت المصرى الجديد فى الغناء ومؤلف مسرحية (الوزير العاشق) شاعر ، ولكنه جعل البطل يرمى أكياس النقود للشعراء على الأرض فينكبون على الأكياس ••• على الأرض ••• ينقضون على المال ••• وهى مهانة ولكن أمثال هؤلاء ليسوا شعراء ••• ليسوا كهنة الكلمة المقدسة وليسوا سدنة المحراب ••• ليسوا أهلا للاحترام •

ان الذى يستحق الاحترام هو الذى يرتفع على الكذب المنمق والتبعية الذلول ـ والذليلة •• هو الذى يربأ بنفسه على البوقية المهينة ••• هو الذى يعرف أمانة القلم الذى أقسم به الله •

انها كما يقول ابن زيدون أى كما يقول الشاعر فاروق جويده ، مأساة الشعوب •••

حكامنا اعتادت على هذا المديح •

وشعوبنا اعتادت على هذا النفاق •

ليست مأساة الشعوب وحدها •

ولكنها ضعف الانسان أيضا حتى فى الفنان الذى يعلو قدره المناصب كلها بلا استثناء ••• ومع هذا يصرح ابن زيدون الشاعر أن حلمه أن يرى طيف الوزارة !! فلما أتته ، ازدهته فطار فرحا بها صبا •

وعبثا تحاول « ولادة » التى كانت « الحقيقة » تنطق من خلالها فى هذا الموقف ، أن تثنيه عن التيه بالزائل أى الوزارة ••• لم ينفذ الى أعماقه ، قولها :

أحبك شاعرا
ولو يوما ، ملكت الأرض
سوف أحب أشعارك
ويتصارع في كيان (البطل) ، الشاعر ٠٠ والوزير ٠
ماذا يجدى صوت الشاعر
لا يجدى وسط الطلقات
ما أثقل أن يصبح سيف ، فوق الكلمات
أقول هنا تهتز القيم ، وتبتز الوصولية ، وتعتل الأحكام ، وتختل المقاييس ٠
فالعدل بخور نحرقه عند الحكام ٠
والحاكم فوق القانون
يقتل نحميه
يسرق نفديه
يسجن فنكون القضبان
يجلد فنكون السجان
والحاكم هدى ونقاء
وشعاع أمان وسلام
يسكرنا المنصب لا ندرى
معنى لنقاء ٠٠ لوفاء
لطهارة القلب ٠٠ لحلال فينا ٠٠ لحرام
المنصب قد يصنع بطلا بين الأقزام
ويضيع المنصب في يوم
وتدوس عليه الأقدام
الشاعر : رادار لا يخطىء ٠٠٠ لقد كتب فاروق جويدة هذه المسرحية في سنة ١٩٧٩ ٠

وتومض حكمة الشيوخ بين أبيات شاعر المسرحية ، الشاب ، فالبطل يسأل حزينا وهو شاعر بدوره :

لو قطعوا رأسي
هل يجدى صوت الكلمات
هل يوما نطق الأموات ؟

وهنا تزداد ولادة شموخا ورسوخا وتطول قامتها حين ترد عليه في وثوق :

حين يموت الناس وقوفا
ذلك يعنى
ان الأرض ستنجب يوما
بعد الحلم .. بعض الأمن .. بعض الناس
حين يموت الناس نياما
ذلك يعنى
أن العمر سقط سهوا بين الحاكم والحراس

وفى المسرحية سخرية قديمة جديدة .

فالحاكم الدجال الغارق فى مناعمه يهتف « تحيا الأمجاد الشعبية »

نفاق من فوق لتحت هذه المرة بعد أن بدأت المسرحية بالنفاق التقليدى من تحت لفوق .

التشدق بالشعب كمن يسمى وهو يذبح ... والبطانة فى كل زمان من وراء ساداتها ، تردد الكلمات ولو كانت كذبا ، الكلمات ولو كانت خبلا ودجلا الكلمات ...

ولكن الحاكم فى عرف الأبواق لا يخطىء واذا أخطأ خطأ لا يجدى معه الرياء ، فانهم يبررونه كما يقول ربيع فى المسرحية أنهم لا يعرفون معنى أن يجهل الحاكم أقدار الناس ...

أن يبنى فى قلبك سجنا
أن تخشى نفسك
أن يصبح ظلك كالحراس

وفى المسرحية صور

صور ملوك الطوائف واقتتالهم على الزعامة ... وكان الأولى أن يقاتلوا فى سبيل الله صفا .. ولكنهم بأسهم بينهم شديد وقلوبهم شتى .. فلقوا حتفا انسحب بكل أسف على « دولة » الاسلام الذى طالما تمسحوا به دون أن يعرفوا قدره أو يدركوا مسئوليته .. ماذا نقول .

فى المسرحية صورة الفتن والحروب الداخلية التى يقاس فيها النصر بعدد القتلى ... والقبيل والقاتل من أرومة واحدة أو قبيلة واحدة على الأقل .

ما وجه البطولة هنا الا أن تكون جرحا للعشيرة ، وذبحا لكرائم الانسان ٠

صورة الحاكم المستريح الى الصمت واهما متوهما أنه صمت العروس وليس هناك راض واحد عنه ٠

يدخل النور (بضم الياء) ٠٠٠ فى الظاهر ليزين كل شيء ٠

وفى الواقع ليرى ويسمع كل شيء ٠٠ حتى لا يخطيء فى عد الأنفاس وهكذا (الملوك) لا يعملون ٠٠ واذا عملوا فعملهم ظاهره الرحمة ، وفى باطنه العذاب ٠

فى المسرحية **سخرية من المال**

سخرية من الغباء ٠٠ غباء الأذكياء ٠٠ وغباء العارفين ٠

سخرية من حيرة الكلمة بين هؤلاء وهؤلاء ٠

سخرية من البطل الذى تعلق بالوزارة فمات الحب ، ومات فى النهاية ٠٠ حين فطن تابعه الى أن الحب فوق المال فالفقر ألا نحب ٠٠ وقد تزوج البسطاء ــ وأنجبوا ٠٠ عاشوا لأنهم صفوا نفوسهم من **الهلع والطمع** ٠

وفى لعلعة الخطابيات ، وقعقعة السيوف ، ترف بين ثنايا الأبيات **رقة رقيقة :**

الريح تخنق أغنيات الورد

تعبث كيفما شاءت بغصن الياسمين ٠

وأنا أخاف من السنين

والحوار فى المسرحية ، محطات يقف عندها المرء ٠٠ محطات للتأمل ٠٠ للفكر ٠٠ وخاصة فى هذا العصر الذى يشبه من وجوه كثيرة ٠٠ عصر ابن زيدون ٠٠ ولأمر ما اختار الشاعر فاروق جويدة ، موضوعه ٠

الناس تخضع للقرار

والسيف فى يده القرار

وهنا ٠٠ يكون الاختيار

منطق القوة ٠ أليس كذلك ؟

ولكن منطقا آخر أشد وأوفر حكمة يقول :

لا يسأل الانسان عن أقداره

يأتى الحياة فلا يشار

ويعيش فيها كالسجين

وتقول فى يدنا القرار

منذ البداية ليس للمرء اختيار

عند النهاية ليس فى يده القرار

بين البداية « والنهاية » ٠

أين كان الاختيار

ويكفر ابن زيدون بالكلمة !! وتزداد ولادة ، بما تمسكا ٠٠ و انى أؤيدها فالكلمة فوق السيف ٠٠ الكلمة فوق الزيف ٠٠ الكلمة فـوق القوة لأنها حق ٠٠ الكلمة فوق الخداع لأنها صدق ٠

ومع جمال الحوار الا أنه **تكرر**٠٠هل هو الحاح المعنى على الشاعر فاروق جويدة من مرارة الواقع أم هو الحاح العاطفة على المرأة فى ولادة التى لا تعدل بالحب شيئا ؟

الأمران واردان ٠

فى المسرحية نسيت أكثر من مرة ، ابن زيدون ، ورأيت شاعرنا فاروق جويدة فى مثل هذه المعانى :

قد يستباح الحق

فى زمن الجهالة والغباء

قد تحتفى بالظلم أطياف الضياء

لكن صوت الحق أكبر من أهازيج الدجل ٠

(ليته قال « تهاريج الدجل ») ٠

لته أتى بأجزاء حقيقية من شعر ابن زيدون لتكتمل الصورة ٠

صورت المسرحية افك وبهتان وزور المخابرات « الخصــوصية » البضائع الجاهزة للتوزيع على الناس ٠٠ والشهود الجاهزة ٠٠ ألوان العذاب والشقاء ٠٠ السم ٠٠ الكلاب ٠٠ الخ ٠

زمن عجيب
زمن تبدلت المواقع فيه
واختلطت موازين الرجال
ويصير فيه القزم عملاقا
ويغدو الخائن الأفاق دهاقا
ولكن الشعب فى المسرحية ــ وفى واقع الزمان ــ هو **الباقى**
الحاكم يقتل بعض الناس
لا يقتل شعبا
قد يسجن فردا
قد يسرق أرضا
قد يسلب عرضا
قد يفعل كل الأشياء
لن يقتل شعبا
فالشعب لهيب يتوارى خلف البركان
قد يهدأ يوما
قد يسجن عمرا فى القضبان
قد يصمت تحت سياط الظلم ويخرسه صوت السجان
الحاكم قد يخطىء يوما
يأتمن عميلا
قد يسجن كل الشرفاء
ويتوج كل العملاء

لكن الشعب سيسحقه وسيسحقهم بالأقدام

ثم لخص الشاعر ، الموقف ·· كل موقف ·
مأساتنا ليست سيوفا **خادعتنا** وانحنت
مأساتنا ليست زمانا بيعت الكلمات فيه
مأساتنا **الانسان** ·

وتنتهى المسرحية بصحوة الانسان ولو مات البطل ·

قد يلبس العملاء أثواب النضال

لكنني أقسمت ألا أنحني

مازال حلمي أن يعود لأرضنا المجد القديم

وتراب (قرطبة) سيبقى في جوانحنا صلاة

فدموع قرطبة بقايا مئذنة

وصلاة فجر أو دعاء

وأقول للشاعر : حنانيك .. لم يضع في الأندلس من العرب الا (الدولة) ولكن بقبت حضارة الاسلام يعيش عليها الى اليوم الأندلس وأسبانيا .

وعلى الشاطىء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، لاذ هنا المد الذى انحسر - هناك وارتفعت للاسلام فى القاهرة أربعون ألف مئذنة لا ألف واحدة كما يتردد ، تجلجل فوق سامقات رءوسها ، كلمة : (الله أكبر) .

وتحمي مصر الأديان .. وتعطى الانسان حتى فى محنها ، لأن العطاء الحضارى هواها وهوايتها منذ القدم .

من أدب الشباب

المشربيـــة :

تمثيلية (مسلسلة) تقول كلمة · ولهذا أراها وأســمعها ·· شحاته العايق الذى يفرض حمايتـــه على درب السنجق وهم يمقتونه ولا يطيقونه ·· ويكرهون معه عصابته ، يفرض عليهــم الاتاوات حتى على (فردوس) الفتاة الكادحة الغارقة فى الشقاء ، وعلى عوضين الخائف المروع · وباسم حمايته للدرب ولم يكلفه أحد بهذه الحماية البغيضة ، بل نصب نفســـه نصبا ·· ثم تطرق من هذا الى نهب تراث الدرب وميراث عباس مستمرئا فهو يبيع منه مالا يملك ويتفق مع الخواجات على أطباق فسقية بيت الحلوانى الثلاثة دون ادراك لقيمتها الفنية والأثرية · المهم أن يحصل على (الفلوس) ليتعايق على جثة درب السنجق وعلى أنقاض بيت (الحلوانى) ·

ومن يدرى هل هذا الحلوانى هو الذى بنى مصر ؟

مجرد ســـؤال ·

سؤال أوحاه الى عبيط الدرب أو ناصحه ، الذى يلذ له الاستعباط ســخرية أو وثوقا فى الله وثقة فى نفســه · لقد منع يوما عبيط الدرب من دخول بيت الحلوانى الذى يغص بالوافدين أشكالا وألوانا فقـــال قولته المؤثرة التى تفيض ألما لحرمانه دون الغربــاء · ولو كان يعرف الشعر لقال كشوقى :

أحـــرام على بلابله الـدو ح حلال للطير من كل جنس

وفى (المشربيـــة) ، أيوب المبتلى خفير بيت الحلوانى وحارســـه الأمين · الى متى يصبر ؟ الى متى يتحمل شحاته العايق ، الكريه المكروه ؟ الى متى ؟ انه يعرف أن شحاته كل همه نهب بيت الحلوانى · لماذا يبقيه وهو قادر عليه ؟

لقد حاول مرة أن يوقفه ·· أن يرفع يده عن أطباق الفسقية الثلاثة بل عن المساس ببيت الحلوانى ·· فاذا بالعالم الذى يعرف حرمة هذا البيت ونفاسته ، يا للأسى ، يســـمح لشحاته العايق بالعمل فى بيت الحلوانى وهو الجاهل الذى لا يفرق بين التراث وبين ما يباع ·

وكانت النتيجة أن شحاته العايق وعصابتـه خرب بيت الحلوانى تخريبا حتى كتب العالم ولوحات الفنان كانوا يطوحون بها على الأرض فى امتهان وتصغير وتحقير !!

وهو جزاء العالم الذى يملى للجاهل ويفتح له بابا •

انه درس لكل عالم فى أى موقع •

ان الجاهل يخشى العلم والفكر ما استعصيا عليه واستعزا بنفسيهما، الى أن يدينا له •• هنا ينفسح ، أمام الطغيان الطريق •

وفى (المشربية) الفنان الذى يقصر فنه على رسم الوجوه : بدريه ثم فردوس •• كل وجه يغنى له بريشته جميـلا أم قبيحـا فترخص الأغانى وتمل بالتكرار • تفقد معناها وتهون لأنها كاذبة • وليست هذه غاية الفنان • الفنان هو الذى يعيش بين الجموع يعكس آلامها ومطامحها •• يعبر عنها ويطب لها ويدافع عن قضيتها •

الفنان لا ينظر من ثقوب مشربية بل تنفذ رؤيته الى دنيا الناس •• الدنيا العريضة التى تموج بالبشر •

ان الفنان كما يقول هربرت ريد فى كتـابه (التربيـة عن طريق الفن) ، أخذ الأشياء الموجودة حولنا فى كل مكان مثـل الهواء والثرى تماما ، ولكن قلما توقف أحد منا لتأمله وذلك لأن الفن ليس مجرد شيء تجده فى المتاحف ومعارض الصـور ، أو فى المدن القديمـة مثـل فلورنسا وروما •

ان الفنان يستوعب رؤى عصره ويعرضها مصفاة منماة لأنه أضاف اليها من ذاته وروحه •

وتنفذ الى هذا كله الفنانة المصرية رشا ، بوراثة بعيدة من ايزيس وهاتور •

الفنانة المصرية التى تصدت وحدها لشحاتة العايق دون أهل الدرب جميعا بموهبة الشخصية القائدة بوراثة بعيدة من تتشرى والدة أحمس •

وبوراثة مصرية استعلت (نبويه) على المحنة ، ولكنها فى النهاية مطحونة أصابها الدوار مما يدور حولهـا ولا تعرف له تعليلا ولا تملك له دفعـا •

ولكنها بأصالة درب السنجق أبت الا أن يأتى الدكتور القادم من الخارج ، الى بيتها ليخطب اليها ابنتها فى دارها هى ٠٠ فى دربها ٠٠ اذا أراد ٠

لن تخذل البسطاء الطيبين من أهلنا ، نخوتهم واعتزازهم بأنفسهم الا أن يغلبهم غالب على أمرهم فطالما أخمد صوت المدفع صـوت الكلمات والمعانى وكرائم الانسان ٠

لقد قتلت القوة الغاشمة أرشميدس بخبطة عصا وكذلك العـالم الفرنسى « لافوازيه » فى لهيب الثورة الفرنسية ٠

وفى (المشربية) أكثر من علامة استفهام ٠ لماذا سلم عباس الحلوانى نفسه ؟ هل هو القاتل وحده ؟ أليس شحاته العايق سفاحا ؟ قتل فى درب السنجق الأمن والحب والكرامة وهو يتحفز لقتـل بيت الحلوانى ونهب مافيه ؟

حتى عباس الحلوانى يغفل عن هذا ؟ الى متى يتهم أصحاب البيت أنفسهم ويتركون الجانى الحقيقى ؟

ولكن المؤلف لم يترك شـحاته العايق بدون عقاب فسقط صريع البغى عندما سقط خوف الضحايا منه ٠

ان ما تضمره حلقات هذه المسلسلة أكثر كثيرا مما تفصح عنه ٠ وكاتبها عنده (فكرة) عرف كيف يعرضها ويعمق خطوطها باقتدار ٠

وصف أوسكار وايلد فى قصته (صـورة دوريين جـراى) أحد شخوص قصته بالبراعة والتمكن فى عرض فكرته فقال « أنه يلعب بها ٠٠ يقذف بها فى الهواء ويلقفها ثانية » ٠

ان حل مشكلة درب السنجق ليس بسيطا فرديا ينتهى بالخروج من الدرب طلبا للغنى ونزوعا الى الهدوء ، ولكن الحل كمـا نفذت اليه (فردوس) يكون جماعيا وعلى أرض الدرب نفسـه والا ظلت المشكلة قائمة وان خرج من الدرب آحاد وعشرات ٠

ان مشكلة درب السنجق ليست الفقر وحده بل الضياع ٠٠ ضياع الانسان وسحقه بتسلط شحاته العايق عليه ٠٠

والحياة بدون (القيمة) لا تطاق ٠

والحضيض حيث تهدر القيمة وتستباح ٠

ملف قضية حب :

بحر من الهموم تسبح فيه الكاتبة سكينة فؤاد أو يسبح فيها قلمها . معاناة كل يوم تغص بها قصصها . القصة عندها كأنها مقاطع الكورنيش بشارع فؤاد عند مدخل كوبرى أبو العلا زحام وخليط من البشر والفوضى والضجيج ، زحام مرهق ولكنه يحدث فهو حقيقى والمعاناة فيه ومنه حقيقة .. وحية نابضة نبضا سريعا ولكنه نبض حقيقى كل شىء فى هذا المكان أحببته أم كرهته ، حقيقى ، ضقت به أو تقبلته ، حقيقى ..

هكذا قصصها .. تلال من الأشياء والسلوك والتصرف والمشاعر والأفكار والأحداث والناس و ... زحام أشفق عليها منه . أحسها من خلال السطور تلهث وقارئها بالطبع يلهث وراءها أو معها .

والمرأة .. المرأة فى قصصها مطحونة تحت الأعباء والأبناء وعقدة تفوق الرجل تلك العقدة التى صنعها المجتمع ثم صدقها وبالطبع صدقها الرجل وتصرف من منطلقها .. والكاتبة بالطبع ترفضها حين تصورها بغيظ مكبوت متمرد .

الكاتبة ترفض هذه العقدة لأنها قوية الشخصية ولأنها تحس بتفوقها هى لا الرجل ولها مبرراتها بلا شك .

انى سعيدة . لقد ولدت كاتبة مصرية .

باركوا المولد فانه عطاء جديد . ان مصر لا ينضب لها معين .

لقد ذكرتنى ببيت شاعر النيل

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن   فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

بارقتان أو نبتتان فى حقلنا الأدبى .. يرف مثلهما فى حقلنا العلمى ثمرات طيبة .

الفن والعلم هما التعويض فى المحن تلجأ اليه مصر بوراثة بعيدة فبها تستعلى على الأحداث بعطاء لا يخيب ، وترتفع على المأساة بخالد لا يبيد من الخلق والابداع فى الفن والعلم بمفهومهما الصادق .

الفن تعبير عن النفس والعلم حوار بين الانسان وبيئته ونفسه . والفن فى تعبيره رؤية رائدة وصورة وحركة وصوت ولون . والفن حوار بين الواقع وبين المثال .

والعلم حوار موفق مع الطبيعة لا بغية الانتصـــار عليها فأسرارها بلا حدود ، ولكن التفاهم معها فى محاولة مصالحة مع الأشـياء لتتطوع وتنطاع ولا أقول تنصاع ٠

والتمحيص فى العلم مشاهدة وملاحظة وتجربة ليصل الى معاومة ، ويصل عن طريق ملاحظة التناسق الى الجمال ٠

وليست الشعارات اسلوبا علميا أو انسانيا ٠ انهـا فوضى وتسلط واعتداءات (مكتوبة) على تفكير الانسان ٠

الاسلوب العلمى احترام للعقـــل وتفاهم مع فطر الناس وطبيعة الأشياء فى تواد وتحاب وتواصل ووصال ٠

حين تصف شخصـا بالغبـاء تقول انه عديم الحيلة ٠ العلم هو الحيلة ٠ والعرب كانوا يسمون علم الكيمياء علم الحيل ٠

العلم بحث عن كيفية الحدوث ٠

العلم تعاطف ذهنى مع المقدمات لنصل الى النتائج ٠ ومع النتائج لنصل الى المقدمات ٠

العلم اســتطلاع دقائق الخلق بتوفيق من الخالق ، وتأليف من المخلوقات ٠

العلم فى ذاته خير وجمال بجانب أنه حق ٠

وهكذا نرى الفن طريقه الابداع ٠٠ والفن من الرقة والدقة بحيث يؤمن بالنسب الشريفة ٠٠ بالنسبة الذهبية ٠٠ ليس المسطرة ولكن نقاء النفس ٠

والعام طريقه التجربة ٠

والفلسفة طريقها الفكر ٠

والدين طريقه الالهام والتفكر ٠

والتفكر سراج القلب ٠

وجوهر الانســـان ، القدرة على الاستشفاف ٠ يشرح الغزالى فى (مشكاة الأنوار) الآية الكريمة (الله نور السموات والأرض) أى به ترى السموات والأرض ٠ وهذا يكشف عن لفتة : ان المدرك العلمي للألفاظ

جانب واحد من استعمال اللغة • ويبقى المدرك الفنى والمدرك النفسى • ولابد لها جمعا من **صفاء النفس** •

لقد كان (فيثاغورس) الذى مكث فى مصر ٢٢ سنة ، يحتم صفاء النفس ليسمع المرء صوت الأفلاك التى يراها فيثـــاغورس ، كرات بلورية لها موسيقى •

لقد ورث فيثاغورس ، الفكر المصرى فى نزوعه الرياضى • وورث اخوان الصفا « فيثاغورس » فى نزوعه النفسى •

ان الفن والعلم والفكر ، تجمعها « المعرفة » أى الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا •

وتعرف مصر هذا بالحس الحضـــارى فلا تفسح فى تاريخها مكانا الا لأهل الفن والعلم والفكر لأنهم ضميرها الأبى وعقلها الذكى ووعيها الحى ، ولسانها المعبر •

انهم صناع الحضارة •

انهم صانعو الحياة •

العملاق الذى لم يرق اليه مسلسل التليفزيون

صعب وسهل أن يكون الانسان عالما •

صعب وسهل أن يكون الانسان مشهورا •

ولكن أصعب الصعب أن يكون الانسان ، **موقفا** •

فالموقف سلوك وأسلوب حياة ، وأسلوب شخصية •

والموقف ارتفاع وامتناع لايطيقه الا الأقلون •

والموقف ثـراء فى داخـــل النفس ، دونه بكثير ثروات المتكثرين بالأموال والعروض •

والموقف قيمة وقمة •• والموقف علامة وبصمة وهمة •

يقول ويليام جيمس فى كتابه أو حديثه الى المعلمين : [ان وعــاء الهمة اذا امتلأ لا تحركه الرياح والعواصف] •

ويقول عبد الكريم الجيلى فى كتابه « الانسان الكامل » : [ان الهمة تأتى من يقين معاش • فانها اذا قصدت شيئا ثم استقامت على ساقها ، نالته حسب وفاقها] •

ومن هنا ريادات العقاد أو مواقفه •

كان العقاد **موقفا** فى ثورته على الشعر العربى وكثير منه مدح بل جائزة الدولة التقديرية فى الآداب فقال أمامه [ان الأمة قرأت فقدرت فقررت •• وان دولة الفكر تسبق دولة الحكم بل هى التى تقودها] • هذا حين كان الحرص يذل أعناق الرجال •

كان العقاد **موقفا** فى ثورته على الشعر العربى وكثير منه مدح بل اغراق فى المديح أى التبعية •• أن يتقاضا انسان بله شاعر ، لآخر ، ...عة وضباع يأباه الكريم على نفسه ، وعلى الناس •

كان العقاد **موقفا** فى حربه للمذاهب الحشدية التى تسحق شخصية الفرد • والشخصية فى فكر العقاد وأدبه ، قمة الوجود الانسانى •

كان العقاد **موقفا** فى تمجيده للديمقراطية الحقيقية التى تكفل حرية الفرد واحترامه •

كان العقاد موقفا يوم لوح القصر بالباشوية لرجال الصحافة من أعضاء مجلس الشيوخ • ولما كان القانون يحرم الانعام برتب أو نياشين على أعضاء المجلس فقد طلب القصر أن يستقيلوا من المجلس ليظفروا بالانعام السامى ثم يعاد تعيينهم من جديد فى المجلس !

وأقبل الأعضاء الموعودون على الاستقالة •

عضو واحد فقط ، رفض الباشوية هو العقاد •

كان العقاد موقفا يوم جاءه المرحوم أحمد حسنين باشا متوددا يقول : ان الملك فاروق يقدر العقاد ويرى أنه كاتب كبير لاينبغى اغفاله ••

وتتعلق عين أحمد حسنين باشا بفم العقاد متشوقا ومستشرفا الى جواب العقاد على هذا التقدير الملكى •• ويأتى الجواب عملاقا كصاحبه بكل احترام الكاتب الأصيل لنفسه ، قال العقاد :

ان قول فاروق ان عباس العقاد كاتب كبير شيء •• أما أن يقول العقاد ان فاورق ملك كبير فشيء آخر وهو ما لم أقله حتى الآن •

ويذكرنى هذا بموقف شبيه مع الثورة وفى أزهى أيامها حين تهافت عليها المداحون فلوح أحد أتباعها للعقاد أنه لم يكتب عن الثورة ورجالها فجاءه رده درسا • قال العقاد :

يكفيهم منى السكوت •• أنا لا أقبل ديكتاتورية ولو كانت ديكتاتورية أنبياء •

ووعت الثورة منه الدرس بل شاءت المصادفات أن سير جنازة العقاد بعد عشر سنوات من هذه الوقفة ، كان مرسوما لها طريق واذا بموكب جمال عبد الناصر ينتظم مروره هذا الشارع فأمر جمال عبد الناصر أن يغير الموكب سيره ليخلو الطريق لجنازة العقاد •

كان العقاد تاريخا من المواقف •• وبمثل هذه المواقف عاش العقاد فى موته ، ومات فى حياتهم أغوات السلطان •

أن يملأ العقاد الحياة الفكرية والسياسية والوطنية ، نصف قرن بالمواقف الكبيرة التى يعز وقوفها ، شموخ جعل منه عملاقا فى تاريخنا يتحتم على الآخرين ، اذا أرادوه موضوعا للدراسة بالقلم أو الصورة ، أن يرقوا الى هذه الذروة بالدرس المتصل ، والاحاطة الشاملة ، والنفاذ

الواعى ، والعمق البعيد ٠٠ ليس من أجل العقاد وحده ، ولكن من أجل أمة يمثل العقاد كبرياءها ، ورأيها ، واصرارها وقيمها وكرائمها ٠

والعقـاد هنا ليس فردا بنفســـه ، ولكنه عصر زاخر بأحداثه ، وأشخاصـــه ، وشخصـيـاته ، ودوره ، وانجازاته مما نفاعل مع العقاد بالأخذ والعطاء ٠

فالعقاد العظيم اذا صادق ، فصديقه قمة تساميه وهكذا كان المازنى، أحد رواد النهضة الأدبية الحديثة ، وأحد ثلاثة كانوا عمداء مدرســة الديوان التى دعت الى التطور والتجديد ٠ وقد تركت هذه المدرسة بصماتها على الحياة الأدبية ، بل امتد أثرها الى « المهجر » حيث تأثر بها شعراؤه وكتابه ٠

كان المازنى ساخرا ولكن ليست سخريته ، كلمة (ياعمنا) التى تسلق عليها المسلسل ، ولكنها ســخرية **الملاحظة المنتخبة الذكية** حتى لقـد ارتفع المازنى بالفكاهة الى مرتبة الأدب وخاصــة فى كتابه (صندوق الدنيا) بما حواه من صور ممتعة باقية ٠

المازنى فى الأدب الحديث ، كالجاحظ فى الأدب القـديم ، كاتب ساخر بما يشيعه فى أدبه من الفكاهة الحـلوة ، والسخرية الناعمـة ، والحزن الدفين ، والابتسام الواعى ، ومعرفة الطبيعة الانسانية بمزاياها وعيوبها والعطف عليها ٠٠ سخرية تنطوى على سماحة كسخرية اناتول فرانس وان كان تأثره الواضــح ، انمـــا كان بالكاتب الأمريكى : « مارك توين » ٠

فأين هذا من هزل وهزال المسلسل فى رســم هذه الشخصـية العملاقة بدورها ؟

كان العقاد فى صدق نفسى وفنى ، يرفع شعاره على المدح الا تحية لصديق ، مدحه حب لا نفاق ، أو رثاء لعزيز عليه ، رثاؤه وفاء وانصاف ٠
رثى العقاد « ميا » وبعض قوله ، فيها :

الحـديث الحـلو واللحن الشجى
والجبين الحـــر والوجــه السنى
أين ولى كوكبـــاه ؟ أين غاب ؟
شـــيم غـــر رضـــيات عذاب
وحجي ينفـذ بالرأى الصــــواب

وذكـاء ألمعـي كالشـهاب
وجمـال قدسي لايعـاب
كل هذا فى التراب ٠٠ آه من هذا التراب

هذه « مى » كما يراها العقاد ٠٠ مى الراسخة عقلا وكيانا وبيانا ، لا التى يراها المسلسل مراهقة فارغة مهتزة ٠

ثم أين آراء العقاد الأدبية ؟ أين ثورته على الشعر العربى ؟ وشعر المديح والنفاق خاصة ؟

أين ثورة العقاد على الديكتاتورية من كل نوع وطبقة الى أن رحل ؟

أين انتصاره للديمقراطية الحقيقية والحقة ؟

أين صدق العقاد الذى لايقبل الكذب ؟ أين جدية العقاد التى تنفر من التهريج الرخيص ؟

أين موسوعية العقاد ؟ الذى كتب فى الأدب ، والعلم ، والفنون ، والفلسفة ، والدين ، والتاريخ ؟

أين عصر العقاد ورجاله من الأدباء والعلماء والسياسيين ؟

أين بيت العقاد الذى أفرد له كتابا ؟

أين ندوة العقاد فى القاهرة وأسوان التى كانت مدرسة وجامعة ؟

أين خلصاؤه ومنهم أعلام مثل « على أدهم » و « الدكتور زكى نجيب محمود » ؟ و « عبد الرحمن صدقى » ؟

أين شعبية العقاد التى لايمنحها الشعب الا للأفذاذ دون غيرهم ؟ أين عالمية العقاد التى ترجمت معها كتب له الى عدة لغات فى الشرق والغرب ؟

كيف غاب هذا كله عن المسلسل ؟ وغاب قبله عن ذهن كاتبه ومخرجه ؟

المسلسل الذى لم يتورع ولم يخجل أن يضرب العقاد وهو مالم يحدث أبدا للعملاق الذى كان قلمه يصفع الحاكم اذا تطاول على هذا الشعب أو تهدد الدستور ٠

العقاد يضرب !! من قال لهم هذا ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا ٠

ولو كان هذا حدث فرضا وهو أشد استحالة من المستحيل ،

هل كان أولى جوانب العملاق بالتقديم ؟ هل غطى المسلسل من أبعـــاد الشخصية ماهو أكرم وأليق ؟

هل فرغ المسلسل من تغطية الزخر الزاخر فى حياة العقاد حتى يستدير الى الاهانات ؟

لاتقربوا العقاد ان لم تملكوا مقومات الكتابة عنه !

-- ان الرغبة المحمومة فى ملء شاشة التليفزيون للامتصاص الى حد الاغراق والاستغراق ، تصلح لها موضوعات أخرى دون العقاد بكثير ..

أساتم الى « ايزيس » والى تراثنا

الأستاذ الكبير توفيق الحكيم والد المسرح المصرى بلا شك حقيقة نوهت بها فى أكثر من كتاب فى اعتزاز المصرى بعطاء وطنه على الساحة العربية كلها ·· وله من المسرحيات ما يرقى الى مصاف أرقى المسرحيات فى الأدب العالمى ولا ينقص من قدره ألا تكتمل الرؤية فى مسرحية أو مسرحيتين فالكمال لله وحده ولكن اللوم يقع على اختيار مسرحية ايزيس من دون مسرحياته جميعا وليست بأقواها ·· حتى أنها لم تترجم كمسرحياته الأخرى الى اللغات الأجنبية وهى لمصريتها الخالصة أحق بالترجمة لو توفر لها أسبابها ·

فرق بين « أهل الكهف » وبين مسرحية ايزيس يسوءنى أن أبديه ويمضنى أن أخفيه لأن ايزيس بالذات جزء من نسيج شخصيتى بوصفى مصرية ·

أقول فى ألم ، مسرحية ايزيس مبتورة فى النص وعلى المسرح ·· مسرحية غاب منها ، وعنها أجمل ما فيها ·· فالتاريخ يقول أن أوزوريس فى المرة الثانية ، قطع اربا الى أربع عشرة قطعة (رمزا الى أقاليم مصر الأربعة عشر فى ذلك الحين) · وأن ايزيس جابت البلاد تجمع أشلاءه حتى عثرت عليها جميعا ·· وأن الشعب بكاه أحر بكاء ولم يتندر ، ولم يتنكر له أو لها كما تقول المسرحيــة ·· لم ينكر الا حاشية السلطان المرتزقة والمنافقون ويبدو أنهم من لوازم ولازمات الحكم فى كل عصر·· وأن دموع ايزيس بدفئها ووفائها وصدقها وغزارتها ، ردت اليه الروح حتى قال المصريون فى عصرها أن النيل فى تلك السنة فاض من الدمع المسكوب ·· ومضوا بعد هذا يقولون بليلة النقطة أى دمعة ايزيس على أوزوريس ولا نزال الى اليوم نقول بليلة النقطة والفلاح المصرى لا يبيع محصوله الا بعد ليلة النقطة وان كان لا تحضره قصتها · وليلة النقطة توافق ١٦ بؤونه أى يونيه ·

والرمز هنا فى التوحيد ·· فعز مصر ممثلا فى أوزوريس الذى يرمز بدوره الى النيل لا يتم الا بالتوحيد :

- توحيد أقاليمها ولملمة شتاتها ·
- وتوحيد الذات فلا انفصام ولا تشقق ·

● وتوحيد الشعب الذى رأى نفسه أمام مصدر واحد للماء الكل يشرب منه هو النيل ، ومائدة واحدة الكل يطعم منها هى : الوادى .

● وتوحيد العقيدة الذى وصلت اليه مصر مبكرا . وفى متحف لندن رأيت حجرا نقش عليه اثنان من رجال العمارة فى عهد امنحتب الثالث :

انك موجد دون أن توجد
مصور دون أن تصور
هادى الملايين الى السبل
سبحانك رب البشرية
سبحانك سبحانك

بهذه السبحات ارتفعت مصر فى حياة التدين ووجدان الدين ، درجات .

لم تنفذ المسرحية الى هذا الهدف من قصة ايزيس فى التاريخ المصرى وهو أهم ما فيها . كيف غاب عن كاتبنا توفيق الحكيم ما لم يخطئه بلوتارك اليونانى وقد تأثر به فى هذه المسرحية الى حد الاقتباس .

ورجعت الى نص الكاتب فلم أجد فيه شيئا عن تقطيع أوزوريس وتجميع أشلائه بعد هذا والمعانى التى يرمز اليها . فالمخرج هنا ، ينطبق عليه القول (فاقد الشيء لا يعطيه) .

ان « ايزيس » لم تولول على طول الخط بل ارتفعت بسرعة على حزنها الكبير ومضت تذرع كل شبر بحثا عن ايزيس .. لم تعرف مصر ممثلة فيها ، حائط المبكى بل مضت تربى ابنها حورس ليأخذ مكان أبيه ومضت تبصر الناس بحقيقة « سيت » الذى استبدل به الأستاذ توفيق الحكيم اسم « طيفون » وفعلته النكراء .. ومضت الى المحكمة فى ايمان بالعدل وليس كما تقول المسرحية محكمة صورية عقدها « طيفون » ليقنن الظلم كقانون العيب الشهير بالأمس .

ومن أجل ايزيس ، رفعت مصر ، المرأة ، درجات فوق درجات فآمنت ببطولة الأم .. وحين اعتنقت مصر المسيحية قال العالم المسيحى بالصليب ، وتعلقت مصر بالعذراء بحس بعيد من ايزيس .

حين سخرت مصر من الدولة الأيوبية ، وكتبت قصة : « على الزيبق » عقدت البطولة فيها للأم بحس بعيد من ايزيس •

وحين أعادت مصر ، صياغة قصة الهلالية فى الأدب الشعبى كتبت عن (الجازية) بحس بعيد عن ايزيس •

ان « ايزيس » عند مصر رمز كبير ومعنى كريم وقيم رفيعة استمد منها تاريخها ، المواقف والبطولات • بل ان ايزيس أثرت فى أوروبا تأثيرا قويا • لقد عبدتها روما فى وقت تبعية مصر للامبراطورية الرومانية •

نأتى الى « حورس » حورس فى عين مصر الحق والعدل حتى أنها سمت عرشها ، عرش حورس فلم يكن حورس (ذى الثمانية عشر ربيعا فى المسرحية الحديثة) مشغولا بالغرام والهيام وبنت ملك ببلوس •• لقد تربى حورس فى مصر وأعد اعدادا خاصا لهدف كبير لا يسمح بشطحات المراهقين حتى لو بلغ سن المراهقة •• فالأفذاذ تختزل مراحل اللهو فى حياتهم ، أحلام طموح لا أحلام اليقظة •

حورس قضية : كيف يتزوج حورس حلم مصر بالمخلص ، أجنبية ؟ وكيف تجلس ايزيس بيدها ، أجنبية على عرش مصر ؟ ايزيس بالذات حتى لو فعلها غيرها فى قديم أو حديث ؟ فمن أين أتى المخرج بهذا ؟ • لقد أتى شيئا ادا ، من فعل هذا •• ان مصر غالية فلا ترخصوها • انها رائدة بطبيعتها لا بافتعال أحداث فى مسرحية •

وأشارت المسرحية الى المعلم فى اوزوريس ، اشارة قاصرة • لقد علم أوزوريس الذى يرمز الى النيل ، مصر ، كل شىء لا الزراعة وحدها •

علمها « الموسيقى » بل كانت الموسيقى وسيلته الراقية والعالية لأنها رسالة صنع الحضارة • حتى استلهمه موزارت فى افتتاحية « الناى السحرى » •

زرعت مصر فتعلمت من الزراعة ، النضج المشغول على مهل من البذر والسقى وانتظار الثمرة •

تعلمت الرسم والتلوين •• تعلمت العزف •• و « الهارب » فى الموسيقى الحديثة ، انما هى آلة مصرية قديمة •

تعلمت العمارة فعندما زرعوا بفضل أوزوريس ، استقروا ، وعندما

شعروا بالاستقرار ، عبروا عنه معماريا فى الأعمدة الضخمة الثابتة فى الأرض الممتدة فى السماء ، كالنخيل حولهم ٠

ان الفن المصرى فيه رؤية نباتية ٠ فالفنان يجعل أعلى العمود حزاما ، وكأنه يحزم ادراك المشاهد فى عملية تركيز للتأمل وكأنه يحزم سعف النخلة لتفسح للرؤية رحابة السماء ٠ أما السقف العريض للعمود فهو يمثل شواشى البوص ٠

زرع أوزوريس وزرعوا فتعلموا فنون التشكيل ٠ الاناء المصرى من باكورة معطيات الزراعة المصرية ٠ زرعوا فتعلموا النسيج ٠

ان الاعجاز فى شخصية أوزوريس الذى هو النيل ٠ ان الاعجاز معجزته جمع النفس حول مركز ٠

أحب المصريون كل شىء حولهم : النيل والمركب والأرض والسماء فعاشوا أى عرفوا كيف الحياة لاكمها وأبدعوا الفن وأعطوا بدورهم الحضارة ٠

وعلم أوروريس مصر مع الزراعة ، الفضيلة فبدون الوفرة يتهدد الجوع ، الأخلاق ٠

لقد ظمىء الانسان منذ بدء الخليقة الى اتنين : الحب ٠٠ والرى ٠٠ (والرى يعنى الماء والطعام معا) ٠

وعلى هذا الظمأ ولد الفن خطوطا فى الكهوف ، وتعاويذ للسحر ٠٠ ونما الفن بنمو الزراعة فتألق فى الاناء ، وتأنق فى الحلى ثم فى وسائل الحياة اليومية مما تشهد به قاعة العصر الحجرى فى المتحف ٠٠ ناهيك بالقاعات الأخرى ٠

لقد أنبتت الزراعة فى النفس المصرية من المعانى أضعاف ما أنبتت من حبوب ٠٠ وطرحها بعد هذا فى الصناعة والعلم والفن والأدب والدين انما هو فيوض من عالم النبات وعطاء ٠٠ وهو موضوع كبير تفرد له الكتب لا المقالات ٠

لقد ألف « الفريد لوكاس » كتابا عن (المواد والصناعات عند قدماء المصريين) فخرجت ترجمته العربية فى ٨٣٦ صفحة كبيرة ٠

كانت زراعة مصر ، صناعة عصرها ٠

وكانت صناعة مصر ، انبثاقة من عالم الزراعة ٠

كان اشاعة هذه المعانى فى المسرحية أولى من المـــط فى بعض المواقف •

ويتبقى بعد هذا أن نسجل كلمة ثناء للفنانة المصرية سهير المرشدى فقد كانت عميقة الاحساس بدورها فى الحدود المرسومة له •

أما المسرح القومى الذى أخذ ، فيه ، « المقاولون » أربعة ملايين من الجنيهات فقد كان بهرجا من الخــارج وقبحــا من الداخل وقشــا من الداخل حتى أن رخة مطر ضعف أمامها السقف فخر ••

أما خشبة المسرح فى واجهتها التى يطالعها المشاهدون فمن خشب أبلكاش تنتشر فيه البقع •• منظــر تنفــر العين منه والمسرح خال من « الكمبوشة » التقليدية •• والموكيت فى الأرض قطع غير متساوية وغير منبنة تنحرف أطرافها ويتعثر الســائر فوقها •• والكراسى قميئة تكاد تتهاوى تحت الجالسين ، والستارة قديمة • وعنــدما أدى الممثلون حركة توفيعيةتصــاعد الغبــار كثيفا مخيفــا انعقدت منه ســحابة من التراب وتساءلنا لو ان الممثلين استنشقوا هذا التراب كل ليــلة مدة عــرض المسرحية فانهم بلا شك سيقعون صرعى مرض صدرى على حسب أعمارهم واستعدادهم (١) •

ولكن هذا موضوع آخر وله حديث آخر •• فالذى يفعل بقبة الامام الحسين ما فعل لا يستغرب منه شىء فى غيره مهما كان فادحا وفاضحا وجسيما •• وبعد هذا يتحدثون عن ديون مصر ويستقطعون من مرتبات الموظفين وهم أشد الفئات بؤسا ، نسبة لســداد ديون مصر ويتركون ناهبى مصر من أصحاب المقاولات وأصهارهم أصحاب المخصصات !!

اتقوا الله فى مصر فانهــــا كنانة الله فى أرضـــه من أرادها بســـوء قصمه الله •

تاريخها كله يقول هذا •• ولكن من يقرأ التاريخ ؟

---

(١) بعد نشر هذا المقال سنة ١٩٨٦ تم اصلاح هذه العيوب •

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٧٠٠١

ISBN — ٩٧٧ — ٠١ — ١٩٣٣ — ٤

هذا الكتاب

أدب .. نقد .. فكر .. فن

أربعة كتب فى كتاب واحد ... فى إيقاع واحد ...

فى أسلوب مميّز دافق وصادق .

فى رؤية لما حولنا مستشفة نافذة .

فى فكر يرى المعاصرة استمداداً من الماضى وامتداداً به إلى الحاضر فى استشرافة نحو المستقبل .

فى اقتراب شفاف رفاف من الفن التشكيلى بروضه ذى الألوان .

هذا الكتاب انتماء حميم لهذا التراب بكل مايعنى من دلالات ومضامين.

وليس انتماء أعمق وأصدق من الغوص فى أعماق تراثه والسفر فى عمر أمته ثم التعبير عنها وكأن الكاتب ينطق بلسانها ويخفق بقلبها فإذا الحروف إيقاع .. وإبداع .. وإمتاع .. وإقناع أيضاً .

رحلة طويلة فى آفاق مصر ، هذا الكتاب .

٦٧٥ قرشاً